الجزء الثانى

مجلة المنهل

وأثرها في النهضة السعودية

الدكتور السيد تقى الدين

دار نهضة مصر للطبع والنشر
الفجالة - القاهرة

الدكتور السيد تقي الدين

مجلة المنهل وأثرها في النهضة السعودية

الجزء الثاني

دار نهضة مصر للطبع والنشر
الفجالة — القاهرة

الفصل السادس
فن القصة

من المقالة إلى القصة ــ ثورة على أدب المقالة والقصيدة ــ تاريخ القصة العربية السعودية ــ فى أصول القصة ــ عناصر العمل القصصى ــ استخدام العامية فى حوار القصة .

اتجاهات القصة القصيرة فى السعودية :

(ا) الاتجاه النفسى والرمزى عند الأفغانى :

١ ــ حصاد الشهوة فى (الثأر) .

٢ ــ سبحات فى عالم الفكر والروح والضمير من خلال (عودة سعيد) .

٣ ــ الرمزية والتحقيق الوهمى للرغبات فى (أحلام) .

٤ ــ الرمز إلى الحرية والمعرفة فى (شهر زاد) .

٥ ــ ما يعجز العقل عن فهمه فى (المصباح السحرى) .

٦ ــ العقل الباطن وأحلام اليقظة فى (الرأس المقطوع)

٧ ــ ما يعجز الشيطان عن منحه فى (المجنون) .

(ب) سيكلوجية التسامى والمراهقة عند عبد السلام هاشم حافظ :

١ ــ التحقيق المقنع للرغبات المكبوتة فى (فاطمة) .

٢ ــ غرام المراهقين فى (لها ماض) .

٣ ــ هل يتنازل إنسان لآخر عن فتاة أحلامه فى (وفاء)

(جـ) الاتجاه الاجتماعى وقصص الأسرة السعودية :

أولا : محمد على مغربى :

١ (المترهبة) ضحية الحب الأعمى ؛

ثانيا : محمد أمين يحيى :

بين زوجة الابن والأم فى (فاطمة) .

ثالثا : محمد مليبارى :

ولمحة رومانسية عن أزمة الوفاء فى (الإحسان الضائع) .

رابعا : محمد حسن سعيد :

والترابط الأسرى الطاهر فى (نبل ووفاء) .

خامسا : محمد سعيد العامودى :

مع الأم والطفل الوحيد أمام مشكلة الفقر فى (مأساة أم) .

من المقالة إلى القصة :

وهكذا تمضى سيرة الفنون الأدبية فى السعودية من الرسالة إلى المقالة ومن المقالة إلى القصة فكل فن يؤدى دوره فى زمن معين وفى مجال معين وإذا كان فن الرسالة قد أوشك أن يختفى فإن المقالة ما تزال تؤدى دورها وكذلك القصة ما تزال تؤدى دورها ، أدت المقالة دورها على نحو ما مر بنا واصطرعت مع أدب الحوار فكان ذلك إرهاصا بميلاد القصة السعودية الحديثة . لقد أدت المقالة وما تزال تؤدى دورها فى المجال الدينى والأدبى والفلسفى والرمزى والسياسى والنقدى وكانت لها جولات داخل المملكة وخارجها وقد خلفت وراءها تراثا ضخماً من العلم والثقافة والأدب والنقد دل على أن وراء الأكمة ما وراءها ، نقول هذا ونحن نستقبل الحديث عن فن القصة السعودية ذلك لأننا شاهدنا هجوماً عنيفا ضد فن المقالة بالرغم من آثارها الخالدة ليس فى الأدب السعودى الحديث وحده وإنما فى الأدب العربى الحديث كله . ولقد قاد هذه الحملة فى السعودية الأستاذ أحمد رضا حوحو فزعم أن الأدب الحى هو أدب القصة وأن أدب المقالة أدب ميت ، إنه يشترك مع الأنصارى فى الحملة على أدب المقالة ، الأنصارى يزعم أن الناس ملوا أدب المقالة ومن ثم فهو يريد أن يأخذ بيدهم إلى أدب الحوار

وحوحو يزعم أن أدب المقالة قليل النفع ومن ثم فهو يدعو لأدب القصة ويزدرى أدب المقالة [١] .

وهذا مالا نقره عليه فكونه يحب أدب القصة أو أدب المسرح وأن جمعاً غفيراً من الناس يشاركونه هذا الحب وهذا التقدير كل هذا لا يقلل من قيمة أدب المقالة فإن جانبا كبيراً من الأدب الحديث قائم على المقالة منذ نشأة الصحافة : أدب الإمام محمد عبده وطه حسين وأحمد حسن الزيات وأحمد أمين وغيرهم كثير ، أدب هؤلاء فى شطر كبير منه قائم على المقالة وله قراؤه والمعجبون به فحديث الأربعاء وحافظ وشوقى وغيرهما لطه حسين « ووحى الرسالة » للزيات و « فيض الخاطر » لأحمد أمين كل هذه الكتب قائمة على المقالة فهى مقالات نشرت فى الصحف والمجلات وتلقاها الناس بشغف وهم يقتنونها معتزين بها حريصين عليها لأنها أدب نفيس فحين يأتى الأستاذ أحمد رضا حوحو ويقول إن أدب المقالة دون أدب القصة فإننا لا نقره على ذلك ونرى أن هذا لون أدبى له عشاقه ومريدوه وذلك لون آخر له عشاقه ومريدوه وللناس فيما يعشقون مذاهب وحين نشأت الصحافة نشأت معها المقالة ثم فسحت صدرها للقصة القصيرة وللمسرحية ذات الفصل الواحد وأينع أدب الأقصوصة كما أينع أدب المقالة فى ظلال الصحافات العربية كلها .

ثورة على أدب المقالة والقصيدة :

وعلى كل حال فينبغى أن ننصت للأستاذ أحمد رضا حوحو وهو يقول :

المقالة تكتب لطبقة محدودة من القراء وتقتصر على النذر اليسير من المثقفين يبتدىء القارىء فى قراءة القصة ويبقى أسيرها لا يستطيع التخلص منها مالم يفرغ من قراءتها .. ويأخذ فى قراءة المقالة مهما كانت سلسلة

---

(١) المنهل عدد ربيع الأول ١٣٦٠ هـ تحت عنوان .(الأدب الحى بين أدب القصة وأدب المقالة) .

ممتعة وهو يحمل نفسه قهراً على إتمامها ، وقد يمرُّ وقت على الإنسان خلع الضرس أهون عنده من إتمام قراءة مقال .

ومهما يكن من أمر فإن أدب القصة أهم من أدب المقالة وأكثر قراءة وأعظم نفعا وأشد تأثيراً وأصدق تصويراً منه .

وليس هذا خاصاً بالمقالة النثرية فحسب بل كذلك المسرحية المنظومة بالنسبة للقصيدة أو المقطوعة الشعرية وياحبذا لو ينتقل شعراؤنا من القصيدة والمقطوعة إلى الرواية الشعرية ويخرجون لنا مسرحيات رائعة تتناول شتى الأغراض والمقاصد الجليلة .

إننا نستطيع أن نعالج أمراضنا الخلقية والاجتماعية بالقصة ، ونستطيع أن نزيد عدداً وافراً من القرّاء بالقصة التي من السهل أن تكون فى متناول كل الأيدى ويستفيد منها حتى البسطاء من القراء مع روعة فنها وحيويتها . ولكن من الغلط أن نعتقد أن عامة القراء تستفيد من مقالتنا وتهتم بقراءتها بل أراهن أن خمسين فى المائة من المثقفين لا يقرؤن من هذه المقالات والقصائد سوى العنوان والأسطر الأولى والتوقيع فقط .

إن الأستاذ أحمد رضا حوحو يريد أن يكون الأدب كله قصة أو مسرحية لعموم نفعهما ونفاستهما فى عالم الأدب بينما المقالة والقصيدة نفعهما محدود وقراؤهما قليلون .

إن القصيدة فن راق فن الإيجاز والتركيز وتحتاج إلى قارىء خاص حقا ولكنها كما قلنا تمثل قمة من قمم الأدب كما أن المقالة الميسرة المقالة الصحفية قراؤها كثيرون ونفعها عميم وخير لأدبنا وأدبائنا أن يعنوا بجميع الفنون الأدبية لتزهو شجرة الأدب كلها بدلا من أن تزهر بعض الأغصان ويذبل البعض الآخر .

وقد يكون لثورة الأستاذ أحمد رضا حوحو ما يبررها فقد لاحظ على بعض المجلات تقصيراً تجاه فن القصة فلم يرض عن هذا التقصير ونحن معه فى

ضرورة العناية بالقصة والمسرحية وتشجيع كتابهما ولكنه يريد أن يعالج الداء بداء مثله فيهاجم المقالة والقصيدة ويرى أن جدواهما محدودة فيختل بذلك شأنهما أو يحرض على عدم الاهتمام بهما فيكون فى ذلك إضعاف لفنين أدبيين لهما وزنهما وقيمتهما . إن التقصير فى شأن القصة لا يدعو إلى التحريض على التقصير فى شأن المقالة والقصيدة وإنما الأوفق أن ندعو إلى العناية بالقصة وتلافى الأخطاء التى تعرضت لها .

نحمد للأستاذ أحمد رضا حوحو غيرته الشديدة على فن القصة ولا نقره على مهاجمة الفنون الأخرى .

تاريخ القصة العربية فى السعودية :

أدب القصة قديم قدم التاريخ والقرآن الكريم وهو دستور المسلمين ملىء بأدب القصة يرويه لنا فى عبرة وحكمة وموعظة وتأس .

وقد عرفت القصة حتى عند الإنسان البدائى إذ كان أول أدب عرفه الإنسان حتى قبل أن يعرف القراءة وقد كانت القصة عند الإنسان البدائى وسيلة لتزجية الفراغ والتسلية وما أكثر فراغ الإنسان فى أول عهده بالحياة . وتطور أدب القصة بتطور الزمن وتقدم الإنسان فى ميادين الحضارة والثقافة والعلم والأدب وبقيت محتفظة بطابعها كفن له قيمته ومكانته بين جميع الشعوب [1] .

وقد بدأ تطور القصة فى الحجاز منذ العهد الجاهلى فقد أخذت شكلاً متحضراً حين كان يجتمع سمار العرب فيتندرون بالحكايات والشعر ثم ارتقت أكثر حين ظهر الإسلام وبدأ ينشر أنواره وبلغ أدب القصة أوج مجده فى عصر الخلفاء والأمويين والعباسيين وإن كان أدباً قديماً إلا أنه يتفق وروح ذلك العصر وطابعه .

وأخذ أدب القصة بعد ذلك فى السمو تارة والهبوط تارة حتى أتيح له

---

(١) المنهل عدد المحرم وصفر ١٣٧٥ هـ من مقال بهذا العنوان للأستاذ محمد أمين يحيى .

فى القرن الثالث عشر الهجرى أن يستعيد مكانته الكبرى فى الغرب والشرق وإن كان فى الغرب أقوى وأوسع وأضخم على أن الشرق لم يتخلف فنهض بأدب القصة نهضة تسللت إلى عقول الكتاب وبلغت هذه النهضة المملكة العربية السعودية فأخذت بنصيبها الوافر وإن كانت مصر قد أخذت مكان الصدارة .

ولقد مرّ عهد على الحجاز جمد فيه فن القصة إلا من قصص تافهة وحكايات عادية وإلا ما كنت تسمعه من (العنترية) وحكايات أبو زيد والزير تقرأ فى المقاهى ويستمع لها طبقة العامة ذلك العهد هو الذى سبق الحكم السعودى وقيّض الله لهذه البلد أن تنهض نهضة شاملة بعد الحكم السعودى فنهض أدب القصة وعاد يأخذ مكانه المرموق .

يقول الأستاذ أحمد رضا حوحو[١] : أخذت القصة عندنا منذ أربع سنوات تتقدم بخطوات محمودة وتطوّرت تطوراً ملموساً وكانت قبل ذلك بذرة مهجورة لا يلتفت إليها أحد اللهم إلا محاولات يسيرة لم يعيروها أدنى انتباه ثم صدرت مجلة (المنهل) وكان من حسناتها العديدة وخدماتها الجليلة التى أسدتها لأدبنا الفنى دعوتها إلى أدب القصة واعتناؤها بتقدمه ومعالجته بشتى الوسائل ، وفعلا أحرزت مجلتنا فى دعوتها بعض النجاح فسرعان ما ثبتت تلك البذرة المهجورة وأخذت تنمو نمواً محسوساً حيث أقبل عدد لا يستهان به من الأدباء على كتابة القصة واعتكفوا على ترقيتها وتغذيتها حتى صارت المنهل تنشر فى كل عدد من أعدادها قصة أو قصتين فى مختلف المبادىء ما بين مسرحيات وغيرها .

وتطوّرت القصة السعودية تطوّرا جيداً وتقدمت تقدماً طيبا ويكفى أنها استطاعت فى سنوات قليلة أن تلفت الأنظار إليها وأن تجعل نفسها محل المناقشة والحديث .

---

(١) المنهل عدد ربيع الأول ١٣٦٠ هـ تحت عنوان (الأدب الحى بين أدب القصة وأدب المقالة) .

وعلى كل حال فإن روّاد الأدب من الناشئة والشباب قد حاولوا منذ نحو من ثلث قرن نسج خيوط (ادب المقالة) و (القصيدة) قبل محاولتهم لرسم الخطوط الأولى (لأدب القصة) ولقد كان ذلك امراً طبيعيا ومعقولا بالنسبة لموقفهم وللأدب نفسه فإن أدب المقالة أسلس قياداً وأقرب جانبا وأخف مؤونة من أدب القصة [١] .

فأدب القصة ما يزال شيئا جديداً لما ينضج ثمره فى العالم العربى كما ينضج فى العالم الغربى ، وأدب القصة فى حاجة إلى ثقافة عالية واتساع أفق وتغلغل فى ألوان الحياة وممارسة لعقده وحلوله وتكوين أبطاله واستنطاقهم وحبك فكرة شاملة عن موضوع حىّ وتقديمها فى ثوب قشيب مقبول لا هو بالغامض ولا الركيك المبتذل .

وقد أسهم بعض الناشئين والشباب فى نعاطى أدب القصة وكانت منهم محاولات فى هذا الشأن استمرت فى بعض وانقطعت فى بعض وكان من أوائل من ساهموا فى هذه المحاولات القصصية الأساتذة : محمد حسن فقى عبد القدوس الأنصارى — عبد العزيز ضياء الدين وغيرهم وقد تتابعت هذه المحاولات فى عهد ما قبل الصحافة السعودية فأنشئت أقاصيص وروايات بعضها ظل طى الكتمان وبعضها طبع مستقلا ومنه رواية (التوأمان) لعبد القدوس الأنصارى فلما أنشئت صحيفة صوت الحجاز وجد المحاولون فيها ميدانا واسعاً لأقلامهم .

ولما صدر (المنهل) بعدها رام النهوض بالقصة إلى أبعد مدى عما كان فظل يوالى نشر القصص فى أعداده تباعاً وواظب على هذا الصنيع .

وحينما عادت صوت الحجاز للصدور بعد الحرب العالمية الثانية باسم (البلاد السعودية) عنيت بالقصة عناية أكثر من ذى قبل .

---

(١) المنهل عدد رجب وشعبان ١٣٧٤ ھ مارس وإبريل ١٩٥٥ من مقال (قصة القصة عندنا) للأستاذ عبد القدوس الأنصارى .

ولما صدرت مجلة (الرياض) أخيراً ساهمت فى هذا السبيل .

وبعض كتاب القصة السعودية اكتفوا بنشر قصصهم فى الصحف مثل محمد سعيد العامودى — أحمد رضا حوحو— محمد عالم الأفغانى — أمين يحيى — حسين سرحان — عبد الله عريف — عبد السلام هاشم حافظ وغيرهم وثمة نفر آخرون لم يكتفوا بنشر اقاصيصهم فى الصحف بل تجاوزوا هذه المرحلة إلى نشر قصصهم مستقلة نذكر من هؤلاء الأساتذة : أحمد سباعى فى قصص (فكرة) و (مطوفون وحجاج) و (أبو زامل) ومحمد على مغربى فى قصته (البعث) وحسين سرحان فى قصته (غرام ولادة) وهى رواية مسرحية شعرية هى الأولى من نوعها كما يقول الأستاذ الأنصارى فى الأدب السعودى وغيرهم وكل هذه المحاولات أدت بلا شك إلى تقدم فن القصة السعودية وإن كان تقدُّماً نسبياً .

والقصة اليوم هى الباب الواسع الذى يدخل منه هواة المطالعة من مختلف الطبقات بما يجلونه من قول مثير لذيذ وموضوعات شيقة وعرض منسجم لا يضنى الدماغ ولا يرهق التفكير كما يقول الأنصارى .

فى أصول القصة :

إن الرواية تصوير دقيق وافر لفترة من الحياة بكل ما فيها من آلام وأحلام وخير وشر وحق وباطل وتعبير عن هذه الفترة تعبيراً صادقا صحيحا جميلا ولا حدود لسعتها فقد تضم من الشخصيات سواء أكانت أصلية أو ثانوية عدداً كبيراً وتتناول الحوادث التى ألمت بها بالتفصيل لا بالإجمال وتتناول الملابسات تناولا واسعاً فيه شرح وإسهاب .

أما القصة فتقوم على شخصية واحدة أو عدد محدود من الشخصيات ولا تتسع لتفصيلات حياة هذه الشخصية ولا لكل الملابسات والحوادث الدقيقة الجزئية التى تتسع لها الرواية فى ثنايا السياق ومن هذه القصة « فكرة » للأستاذ احمد سباعى .

والأقصوصة تصوير لحالة نفسية مفردة أو رسم سريع لشخصية أو فترة من الزمن من خلال حادثة كبيرة أو عديد من الحوادث الصغيرة تلتقى فى الشخصية أو فى الزمن والأقصوصة غير قابلة كالقصة لتعدد الشخصيات ولا تتسع كالرواية لخطوط سير الحوادث ولا تشترط فى الأقصوصة الحادثة ولا أن يكون لها بدء ونهاية فى حدود الزمان لأنها قد تكون مجرّد تصوير لحالة نفسية مفردة [١] .

الزمان والمكان :

كل حادثة تقع لابد أن تقع فى مكان معين وزمان بذاته وهى لذلك ترتبط بظروف وعادات ومبادىء خاصة بالزمان والمكان اللذين وقعت فيهما والارتباط بكل ذلك ضرورى لحيوية القصة ينبغى أن نذكر هذا ونحن نتحدث عن القصة السعودية حتّى نهاية ١٣٨٣ هـ .

وإذا كان للسعودية منزلتها الخاصة لمكان الحرمين الشريفين منها ولأن فجر الإسلام شع منها وهى تقيس أمور دنياها وأخراها بمقياس الإسلام كما أن الفترة الزمنية التى نتحدث عنها شهدت ميلاد الأقصوصة من مرحلة النشأة والتكوين إلى مرحلة الازدهار . والأقصوصة السعودية من خلال الصحافة مرآة للمجتمع السعودى فى تلك المرحلة وما فيها من شخصيات تمثل ذلك المجتمع على ما سيجىء أثناء عرض النماذج الفنية .

على أننا حين نبحث عن مصدر إعجابنا بقصة قرأناها سنجد أن فكرتها كان لها أثر فى هذا الإعجاب ولكن هل نحن نقرأ العمل الفنى لفكرة فحسب ؟ إن القصة صورة للحياة ونحن نعرف الحياة معرفة جيدة وننتظر من القصة دائماً أن تكون صادقة حية مقنعة كالحياة الواقعة ولكن القصة تمتاز عن الحياة بأن لها صورة فنية خاصة فالكاتب يقدّم إلينا قصة معينة ذات فكرة ، وهنا تحدث مفارقات غريبة فقد تكون القصة ناجحة من حيث

---

(١) المنهل عدد ذو القعدة وذو الحجة ١٣٦٧ هـ من مقال للأستاذ أحمد عبد الغفور عطار بعنوان (من أدبنا المعاصر) .

الإطار الفنى ولكنها تنطوى على فكرة لا تروقنا وهنالك أيضا قصص ممتلئة بالحياة ومع ذلك تفقد الشكل الفنى .

فلتكن فكرة الكاتب فى موضوع كموضوع الطمع فى مال الزوجة وجحود الزوج ومكره فإن الزوج هو المسئول عن تدمير زوجته على نحو ما نشاهد ذلك فى « قصة فى قصة » للأستاذ السيد إبراهيم هاشم فلالى (١) وسنحللها فيما بعد فإن الكاتب لكى يحقق هذه الفكرة يبنى قصته على النحو الذى يحققها فإذا نحن أعجبنا بفكرة القصة فإننا نكون فى الوقت ذاته قد أعجبنا بالصورة التى أديت فيها هذه الفكرة وأى خلل فى هذه الصورة سيكون له أثره فى الفكرة .

وقد كان ظهور القصة القصيرة فى الأدب السعودى نتيجة لظهور شعب قارىء وحاجته إلى ما يقرأ من مادة أدبية . كما كان للصحافة دور بارز مهم فى ازدهار القصة القصيرة فهى تحتاج كل يوم وكل أسبوع وكل شهر لمئات القصص والصحافة بحكم الحيز والناحية الاقتصادية تفضل القصة القصيرة .

ومن الصعب ان نجد تحديداً نهائيا لمنهج القصة القصيرة فلكل كاتب منهجه الخاص فمنهم من يعنى بعنصر الحادثة ، ومنهم من يعنى بالمواقف ، ومنهم من يركز على الشخصية ومنهم من يركز على عواطف الشخصية وهكذا .

والدراسة التحليلية للقصة القصيرة من خلال الصحافة فى السعودية وفى ضوء الأصول الفنية التى عرضنا لها من قبل كفيلة بأن تعطينا صورة واضحة عن حقيقة هذا الفن .

---

(١) المنهل : عدد ربيع الثانى ١٣٦٠ هـ .

استخدام العامية فى حوار [1] القصة :

استعمال العامية فى القصة العربية ضرب من الرجعية والتقهقر والنكسة إن العالم كله يسير اليوم على روح من التوحد واللغة العربية الفصحى هى القاسم الأعظم المشترك بين الشعوب العربية فالتزامها إنما معناه التحرر من الجمود والقيود والانطلاق نحو التقدم العربى العام والتوحد العربى العام . على أن اللغة العامية عاجزة عجزاً ملحوظاً عن الإيضاح بكل المرام ولهجة قوم العامية لا يفهمها قوم آخرون من العرب ، ولذلك لا يكون لنشر القصص فيها الفائدة المزدوجة المرتجاة هذا بالإضافة إلى أن استعمالها فى هذا اللون معناه محاولة إيجابية لإنجاح الدور الرهيب الذى طالما دعا إليه الغرب الماكر محاولة منه لو أد هذا اللسان المبين الذى كان أول جامعة عربية طبيعية للعرب قبل جامعتهم السياسية وقد كان ولا يزال أنفذ مفعولا وأقوى سريانا وأفيض جريانا وأشرق لمعانا فى نفوس جميع العرب فى جميع اقطارهم .

الأفغانى فى عالم القصة :

(ا) مذهبه الفنى واتجاهات القصة القصيرة عنده :

١ — حصاد الشهوة فى (الثأر) .

٢ — سبحات فى عالم الفكر والروح والضمير من خلال (عودة سعيد) .

٣ — الرمزية والتحقيق الوهمى للرغبات فى (أحلام) .

٤ — الرمز إلى المعرفة فى (شهر زاد) .

٥ — ما يعجز العقل عن فهمه فى (المصباح السحرى) .

— العقل الباطن وأحلام اليقظة فى (الرأس المقطوع) .

— ما يعجز الشيطان عن منحه فى (المجنون) .

---

(١) المنهل عدد جمادى الأولى ١٣٧٧ هـ من حديث للأستاذ عبد القدوس الأنصارى بعنوان (أدبنا فى معترك الآراء) .

يذكر الأستاذ محمد عالم الأفغانى أن صديقا قال له مرة وهو يحاوره [١] : إن ما تكتبه ليس قصصا لأن الجيد منه نكاد نشم من بين سطورها رائحة الأرض التى تجرى حوادثها عليها ، ولا ينكر الأستاذ الأفغانى على هذا الصديق قوله بل يوافقه على أن كثيراً من القصص الجيدة نتمنى أن نعيش فيها طويلا وأن نقرب من أرضها كثيراً وأن نشاركها وجدانيا حينا .

ثم يذكر الأستاذ الأفغانى مصادر مذهبه الفنى فى القصة واتجاهاته فيها ورأيه فى النفس البشرية فيقول :

المذهب الطبيعى فى الفن يقرر :

أنه ليس من سبيل إلى فهم الشخصيات والحوادث فهما منطقيا ما لم نتبصر فيها أثر الوراثة والبيئة سواء أكان الغرض من ذلك درسها أو إبداعها ويقول فيلسوف الفن والجمال « تين » إنه ينبغى أن ندرس الجنس والبيئة والزمن لشخص ما قبل أن نشرع فى درسه .

ولكن ما كل الكتاب يرتضون هذا المذهب دون غيره فإميل زولا فى « أسرار مرسيليا » عنده نفحات من تلك الرومانتيكية الحالمة الهائمة ولديه صور تنبع من الذات وليست من الموضوعية فى شىء .

أما القصص التى تكتب على صورة اعترافات فهى تخضع للرومانتيكية كلما كان الاهتمام منصرفا إلى بطل واحد وكان المقصود أن تترك فى نفس القارىء حزنا مترقرقا حائراً وتقرب من الواقعية كلما اتجهت النية إلى توزيع الحياة فى أشخاص القصة على حد سواء .

ومن ثم فنحن نجد عند الأستاذ الأفغانى أنماطاً من القصة منها الواقعية كما فى قصة (الثأر) والقصة بين الواقعية والرومانسية كما نجد فى قصة (عودة سعيد) والقصة الرومانسية الرمزية كما فى (أحلام) وكما فى (شهرزاد) .

---

(١) المنهل : عدد جمادى الثانية ١٣٦٦ هـ من مقال : « فى القصة » .

التى نظن أنه تأثر فيها بطه حسين وتوفيق الحكيم . وعلى كل فهو من أمهر كتاب القصة القصيرة فى السعودية وإليك نماذج من أقاصيصه :

١ — حصاد الشهوة فى (الثأر) [1] :

قبل أن يأخذ الأديب فى سرد قصته استطرد إلى عدة قضايا فتساءل عن الانتقام والمنتقمين . لماذا ينتقمون ؟ الفائدة ترجى من ورائه ؟ كلا . لا أدرى وراءه إلا إشباع شهوة لا أكثر ولا أقل آه لو كنا نمعن النظر فيما نحن مقدمون عليه من دمار وخراب إذن لأقلعنا عنه ولكن أين إمعان النظر فى العواقب ؟ .

ثم يتحدث الأديب عن القِصَاص سائلا : أليس هو أنجع دواء للقلوب المظلومة المفجوعة فى فقيدها أو ليس هو أحسن بلسم للعواطف المجروحة .

ويقدم الأديب لمحة خاطفة عن بطلة القصة يحكيها على لسان العمدة فيتحدث عن هذه المرأة التى يشبه وجهها وجه الأموات وأنها كانت مالكة قصر فخم وسهول منبسطة خصبة صارت الآن مجدبة قاحلة .

مامضى من حديث كان بمثابة التهيئة والإعداد الذى يضع القارىء فى موقف المشتاق إلى أن يعرف مجريات الأحداث بعد أن سمع الانتقام والقصاص والتحول من عز إلى ذل ومن سعادة إلى شقاء .

ولقد عرفت الآن من شخصيات القصة العمدة راوى القصة ، وهذه المرأة الحزينة تطيل النظر إلى قصرها الخرب البائد .

قال الراوى : ذهبت يوما إلى القصر فخلت أن خطاباً وصل من أحمد — زوج هذه المرأة — ولما كنت أنا الوحيد الذى يعرف القراءة والكتابة فى القرية فمن المحتم أن أطلب ولكنى ماكدت أفتح باب السور حتى رأيت أحمد يهرع إلى فيستقبلنى ويعانقنى معانقة الأخ للأخ برغم ما كنت أعهد منه من الغطرسة والكبرياء فعجبت لأمره وكيف تحول فى مدى ستة

---

(١) المنهل عدد صفر ١٥٨ هـ .

أشهر فقط هذا التحول وقلت لعل فى الأمر سرّاً ، وكانت ظلمة الليل قد أخذت تبسط أجنحتها على الآفاق وهنا دوىّ فى الفضاء صدى طلقتين ناريتين وعقبتهما صرخة مكبوتة فصحت مذعوراً وأنا أهرول نحو القصر وكان الإلغاز قد تكشف .

وقفت بالقرب من سرير أحمد وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة لأن الطلقتين قد أصابتا قلبه وكتفه فتنزف الدم غزيراً ولم يصل الطبيب إلا بعد أن أصبح العلاج بدون جدوى .

وإلى هنا أمسك الراوى عن الحديث لحظة ليفلسف الأحداث ويتحدث عن علاقته بالقتيل وأنها لم تكن على ما يرام .

أما امرأة القتيل فقد فطرت على مكارم الأخلاق وأما ابنهما فقد كان كقطعة من قلبى لما كنت أشاهده لى من الاحترام منذ نعومة أظفاره حتى بلوغه شرخ الشباب وعنفوانه .

فويل لى إذا لم أفد هذه الأسرة بدمى ومهجتى ، ولكن يكذب الإنسان حين يقول : أفدى بنفسى فلانا فأين هو الفداء ألا إنها لكلمات لا يقولها إلا كل جبان كاذباً أو لا ترانى حيا أعيش وهم تحت أكداس التراب ؟ .

ثم عاد الراوى يذكر حلقة أخرى من حلقات هذه الأقصوصة ويقول كنت أرى الأوفق استبقاء جميل فى القرية لكنها أصرت إصراراً عجيبا على إرساله ليتقلد منصب أبيه فى الجيش ، لا أكتمك إنها كانت حقوداً فكانت ترمى إلى الانتقام من وراء تقلده المنصب فيكون قاتل أبيه بالقرب منه ليستطيع أن يثأر منه .

ثم قطع الراوى حديثه مرة أخرى ليحدثنا عن شخصية حوّاء ممثلة فى المرأة . فيقول : كنت أعجب لقلب هذه المرأة الذى يلين تارة فيدر الشفقة والحنان ثم يقسو أخرى فيقتبس غرائز الوحوش فى حب الافتراس ... إن هذا الجنس اللطيف الناعم الملمس الدقيق البدن الذى لا تعرف الخشونة

سبيلا إلى جسمه البض يحمل قلبا كقلب الوحش إذا ثار إذن فلا ينبغى أن تخدعنا ظواهر الأشياء فلا تحكم على شىء حتى نعرف كنهه .

ثم عاد الراوى إلى إتمام الحلقة السابقة فقال : رحل جميل برغم معارضتى الشديدة فى سفره ، وكنا نتلقى منه كل أسبوع خطاباً أو خطابين ووقفت خطاباته بعد ثلاثة أشهر فجأة فساورنا قلق شديد ثم عرفنا الحقيقة المرة ووصلت إلينا فى القرية ولما أبرحها فقد لقى حتفه مثل أبيه . أى قلب امرأة يتحمل منية الزوج والابن فى أيام معدودة .

ثم انتقل الراوى إلى حلقة أخرى من حلقات هذه الأقصوصة فقال : جاء إلى قريتنا أربعة شبان وسيمو الوجوه حسنو الهندام تبدو عليهم مظاهر الأبهة والغنى فأردت أن أنزلهم فى منزل يليق بهم فلم أر سوى قصر هذه الأسرة البائسة تخدمهم فيه هذه المرأة الشاحبة عساها تجد قوتها من قيامها بلوازمهم فقد هاجمها الفقر من كل صوب ونضبت موازدها جمعاء ، وفى مساء اليوم التالى بينما كنت جالساً أمام بيتى إذ رأيتها مهرولة إلى بيتى فقمت واستقبلتها فأمسكت بيدى وقالت لى اتبعنى فتبعتها ولم أنبس ببنت شفة فأجلستنى على حصير وقالت : بعد أن آوى الشبان إلى فراشهم الوثير استدعانى كبيرهم وقال لى : هل تعرفين عجوزاً شمطاء فى هذه القرية قد مات عنها بعلها وابنها مقتولين منذ أمد بعيد . إننا نروم مساعدتها فقلت له : ولماذا تخصون هذه العجوز بالإحسان دون غيرها ؟ فقال : كان جدى وزوج هذه المرأة ضابطين زميلين فى جيش الملك وقد توثقت بينهما عرى الصداقة ولكن القدر أراد قصر صداقتهما ولا مرد لما أراده القدر فاختصما مدة لشىء تافه وأغوى الشيطان زوج هذه العجوز فأغمد حسامه فى صدر جدى فقضى لحينه ولم تستطع السلطات أن تثبت عليه التهمة فأطلقت سراحه وكأنه قد فطن إلى أن أبى لابد أن يثأر منه فلاذ بالفرار ولم يمهله والدى بل تبعه إلى قريته هذه وترصد له خارج سور داره عند مجرى الماء فلما جاء الرجل يغترف الماء ليتوضأ أطلق عليه أبى رصاصتين اخترقتا قلبه فارتمى جثة هامدة أما أبى فقد أطلق ساقيه للريح ولحسن الحظ نجا .

وكان لهذا الرجل ابن وحيد جميل الطلعة صغير السن تقلد منصب أبيه بعد موته فأوجس أبى منه خيفة فأراد أن يلحقه بأبيه ، وكان فتى طيب القلب سهل القياد تخدعه المظاهر ففاز أبى بصداقته فى مدة وجيزة فدعاه إلى داره فلم يتردد الفتى ولم يخامره أى شك فقبل الدعوة ، ولكنه لم يخط خطوتين داخل الدار حتى قابله أبى بسيف مسلول ففهم ما يعنيه فقابله بالمثل وهنا حمى وطيس المبارزة بينهما فصرع أبى وارتمى هو أيضا بجانبه يخوض فى دماء جراحه . فأسلما الروح ولم يشعر بهما أحد لأننا دفناهما فى حديقة دارنا ، ولهذا نريد أن نمد يد المعونة لهذه المرأة التعسة التى لم يبق من أسرتها أحد وهنا انحدرت من عينيها على وجهها دمعتان لاحظتهما قبل أن تبادر إلى مسحهما فقلت لها :

أعلميهم بنفسك وأخرجى من جميع مامرّ عليك فأجفلت راجعة ولم تجبنى بأية كلمة فظننت أنها وافقت على ما قلت .

انحدرت الشمس نحو الغروب وسرعان ما داهم الظلام بجيوشه الجرارة الأرض فارتميت على سريرى وأسلمت نفسى للكرى لكنه أبى وكلما أردت أن ألقى بنفسى فى أحضان النوم طرحنى الأرق وأبعدنى عما أريد ، فلما يئست قمت إلى النافذة استنشق نسيم الليل النقى وإذا بى أسمع صراخاً وعويلا وأرى لهيب النار يعلو من القصر فيناطح السحاب فأسرعت بالخروج من كوخى وتوجهت نحو القصر وأنا استنجد بالناس ووصلنا إليه بعد أن أكلته النيران بمن فيه وهنا لاحظنا هذه المرأة تدور حول أكوام الرماد وهى تصفق بيديها وترفع عقيرتها فتقول لقد بادوا كما بدتا .

ثم خاطبت الناس بصوت جهورى وقالت : أنا التى أشعلت النار بيدى هاتين فى القصر ، أنا التى أغلقت الباب على الفتيان ، ولما سمعت صرخاتهم خفق قلبى بالفرح ، فؤادى يغمره المرح . الآن انتقمت فاعملوا ما شئتم فإنى رويت شهوتى وأرضيت ضميرى إن هذه ثمرة الانتقام بعد أن تنهار أسرتان عظيمتان .

التحليل والدراسة :

تعالج هذه الأقصوصة مرضا اجتماعيا كان متأصلا فى المجتمع العربى قبل مجىء الإسلام وجاء الإسلام بالعلاج الذى تحدث عنه الأديب فى مقدمة الأقصوصة أما المرض فهو الثأر والانتقام وأما العلاج فهو القصاص وصدق الله العظيم حيث يقول : « ولكم فى القصاص حياة » وسلك الأديب طريق عرض الأحداث مع التعليق عليها أثناء العرض الأمر الذى لا يترك للقارىء فرصة تلقى الأحداث واتخاذ موقف منها ثم إن التعليق يقطع سلسلة الأحداث ، وكان بالإمكان ترك الأحداث تنطلق فى مسارها متشابكة متفاعلة مع بعضها وإعطاء القارىء فرصة المتابعة والحكم .

وقد وفق الأديب فى جعل الأحداث المؤلمة تتم تحت أستار الليل مثل حادث إحراق القصر أو فى مكان غير مطروق مثل محاولة اغتيال « جميل » داخل دار دعى إليها لوليمة .

وقد ركز الأديب على شخصية المنتقمة باعتبارها بطلة الأقصوصة وصوّر من خلالها طبيعة المرأة التى تنتقل من الضد إلى الضد وتركها فى النهاية ثملة بنشوة النصر تعلن فى شجاعة أنها تأرث وانتقمت ففرحت .

وقد تدخل القدر فى تحريك مجريات الأحداث ولا مرد لما أراده القدر وهذه سمة غالبة على القصة العربية .

ومن يقرأ الأقصوصة منذ هبوط الشبان الأربعة إلى القرية يأخذ فكرة مجملة عما حدث فكأن هذا المقطع تلخيص للأقصوصة وعلى كل حال فإن التركيز كان موجها إلى عنصر الفكرة وعرضها فى صورة بشعة منفرة ذهب ضحيتها أسرتان من الأسر المرموقة المتعلمة فى وقت كانت الأمية فيه منتشرة بدرجة كبيرة فثمة قرية بأكملها لم يكن فيها من غير أصحاب القصر إلا العمدة الشخص الوحيد الذى يعرف القراءة والكتابة .

وعلى كل حال فإن هذه الأقصوصة يمكن أن تمثل من الوجهة الفنية مرحلة التكوين الأدبى .

ومن المؤسف أن الأديب جعل الشبان الأربعة أصحاب النوايا الطيبة الذين جاءوا لإصلاح ما أفسده الدهر جعلهم ضحية الثأر وكان من الممكن أن تكون الضحية من جيل الجد والأب ليقف النزيف فإن الشباب أمل الأمة ومعقد رجائها وأحسوا ببشاعة الموقف وجاءوا لمساعدة العجوز ومعنى جعلهم ضحية أن لا يتقدم أحد لإصلاح الخطأ فيستمر الخطأ ويجرف فى تياره من يجرف .

٢ — سبحات فى عالم الفكر والروح والضمير من خلال (عودة سعيد) [١] :

إن الإنسان ليس مجرد جسم يتحرك فى محيط البيئة المادية من ريف أو حضر أو منزل أو ناد أو مكان عمل مما درج بعض القصاص على تسميته الحياة الواقعية ولكن الإنسان أيضا فوق ذلك وأكثر من ذلك عقل يتحرك فى عوالم فكرية وهو روح يسبح فى معان شعرية وهو مبادىء . فلسفية ودينية واجتماعية تصطرع وتتطور فالبناية بحياة هذا الجزء الأعلى من الإنسان هى التى تجعل من القصة أدباً رفيعاً .

والأقصوصة التى يقدمها إلينا الأستاذ محمد عالم الأفغانى فى (منهل القصص) بعنوان : « عودة سعيد» من هذا الطراز فقد جعل بطل أقصوصته (سعيد) يسبح فى عوامل فكرية وروحية سامية وجعله يعانى من صراع المبادىء الدينية والاجتماعية الشىء الكثير الذى جعله يضحى بالحياة من أجل الضمير والشرف إن هذه الأقصوصة مجموعة من المواقف المتماسكة كل موقف منها يصور لنا نفسية البطل « سعيد » من الداخل ومن الخارج فى علاقته بالمجتمع وبأسرته وبربه وبنفسه فهو يعمل فى متجر كبير عند رجل ثرى وبين يديه أموال طائلة وهو يتقاضى أجراً بسيطا وقد نما بين يديه هذا المال ثم كرت به الذاكرة القهقرى إلى حوادث أمس فتذكر كيف أحاط به الدائنون أولا لما رأوا أنه لا طائل وراء إلحاقهم عليه تركوه

---

(١) المنهل عدد المحرم ١٣٦٠ هـ .

ساخطين وبلغ بهم السخط إلى حد أنهم رفعوا شكواهم إلى مدير الشرطة يطلبون استيفاء ديونهم من سعيد فكان ما كان فى دار الشرطة من مماطلته إياهم إلى الغد فإذا لم يف بوعده صباح الغد فسيكون مصيره حتما إلى السجن طافت هذه الخواطر المفزعة بمخيلة سعيد فذرفت عيناه الدموع وتنهد تنهدات حرى وفاض قلبه من خوف الفضيحة لأنه لا يستطيع أن يبوح بسره هذا لمخدومه لأنه لا يستطيع أن يبرر له أخذه للدين فهو بين نارين.

ثم طرقت باله فكرة طارئة سريعة لكنه سرعان ما نبذها ظهريا رأى أن يخون مخدومه المحسن إليه كلا. كلا إن هذا مستحيل أجل أنا أعلم أن مخدومى لا يكاد يتفقد صندوقه إلا غراراً اعتماداً على أمانتى واستقامتى. فكيف لى أن أخون هذا الرجل الكريم؟ ثم رجعت به ذاكرته إلى ما يهيىء له الغد من الفضائح والإهانات والسجن وسوء السمعة. وهو إذا فقد مركزه هذا فسيصبح مقتراً يعانى الفاقة وراء الفاقة ثم هو فوق هذا مسئول عن أمه الضريرة إنه محتار لا يعى ما يقول وما يفعل محتار بين الحياة والضمير.

هكذا حدثته نفسه فأخذته غيبوبة محمومة وامتدت يده إلى الصندوق الحديدى بالخيانة لأول مرة فى عمره.

ثم يعرض الأستاذ الأفغانى الظروف الصعبة التى مر بها سعيد وأسرته وكيف أن مخدومه قد انتشله من وهدة الفقر. فقد كان سعيد فقد أباه ولم يتعد الحادية عشرة وكانت أمه قد تجاوزت الخامسة والثلاثين من عمرها حينما توفى أبواها قبل ولادة سعيد بأشهر معدودات ولم يبق لها من الأقرباء أحد سوى خال لها يعانى الفقر والضنك، ولم يكن اتصالها به وثيقا بعد أن بارحت وطنه فى صحبة زوجها فلما قضى زوجها ألفت نفسها فى غربة فأسقط فى يدها واحتارت من أمرها ولم تدر ما تفعل وما تترك ولكن كان بجانبها ابنها الوحيد الذى اضطر أخيراً أن يهجر المدرسة هجراً غير جميل ليساعد أمه فى معيشتها ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

نظرت هذه الأم البائسة المنكودة حولها ورأت من الأثاث الرث فى الدار

ما لا يقوم بنفقة البيت أسابيع إن هى أرادت بيعه وكان بجانب بيتها دار العم عبد الغنى البزاز الشهير صاحب محلات تجارية عدة فى بيع الأقمشة وكان مشهوراً بإغاثة البائسين التعسين فرأت هذه البائسة أن تلجأ للعم عبد الغنى وترجوه أن يجد عملا لابنها اليتيم فى أحد متاجره .

ثم ينتقل بنا الأستاذ الأفغانى إلى موقف آخر يمثل ذروة المعاناة التى عاشها سعيد بعد أن فعل فعلته وخان الأمانة لقد قضى ليلة ليلاء تنهبه الوساوس والشكوك فيشمل العم عبد الغنى هائجا يريد أن يسحقه بعصاه الغليظة ثم يرى العم عبد الغنى وقد أخذ بخناقه يريد أن يسحبه إلى دار الشرطة وهو يبكى وينشج نشيجا يفتت الأكباد ثم يتلاشى المنظر السابق فيخيل إليه أنه واقف فوق جبل شاهق فى سفحه هاوية فيفاجئه العم عبد الغنى يريد القاءه من ذلك الشاهق فكان فى تلك الحالة من الآلام النفسانية لا يطرق النوم جفنه مهما حاول ذلك وقد أخذته حمى حامية من جرّاء الخوف والفزع فلم يستطع الذهاب فى الصباح الباكر إلى المتجر وهو يهذى هذيانا مستمراً غير مفهوم وكان المطر يتهاطل بغزارة .

وبغتة طرق باب بيته طرقا شديدا متواصلا فصحا سعيد من غمرة حماه فزعاً مذعوراً وطرق سمعه صوت الطارق فإذا هو صوت العم عبد الغنى « افتحوا الباب » .

فغاص قلبه من الخوف وانعقد لسانه فسكت عن الهذيان وأراد القيام فترنح وسقط على سريره مرة أخرى . لابد وأن العم عبد الغنى قد اطلع على كل شىء وجاء يعاقبه لكن مهلا لا يمكن أن يكون العم عبد الغنى علم بفعلته ولم يمر عليها سوى عشرين ساعة فتماسك قليلا وقام إلى الباب يعالج فتحه لكنه ما كاد يفتح الباب على مصراعه حتى شاهد رجلين : أحداهما كان العم عبد الغنى والآخر كان شرطيا .

إن مجىء العم عبد الغنى فى هذه الظروف ومعه الشرطى قد عمق الصراع فى نفس سعيد بل زاده اشتغالا سارق يعانى من وخز الضمير وثقل الحياة

ويتأخر عن الذهاب إلى عمله كعادته ويأتيه صاحب المال المسروق ومعه شرطى فى الصباح الباكر لقد انهار سعيد وصاح صيحة مفزعة وولى أدباره يجرى إلى داخل البيت فدخل فى إثره العم عبد الغنى بصحبة الشرطى ثم اهتدى الاثنان إلى سريره فألفياه غارقا فى الحمى يتقلب على السرير مضطربا كالسمكة على اليابسة ويئن أنينا خافتا فصاح العم عبد الغنى قائلا أجل ستلقى جزاءك حتما أيها الغر الأبله .

إن كل كلمة وكل حركة فى هذا المنظر توحى إلى سعيد أن أمره قد انكشف صاحب المال . الشرطى ستلقى جزاءك ومن قبل اندفعا وراءه إلى غرفة نومه لقد بين الصبح لذى عينين وكاد المريب يقول خذونى ومن ثم تماسك سعيد بنفسه واستوى على سريره مقاطعاً العم عبد الغنى باكيا : عمى أتوب كنت مضطراً فتابع العم عبد الغنى كلامه غير ملتفت إلى بكائه وهنا تأت المفاجأة التى لم تكن فى حسبان سعيد لتغير مجرى حياته بل لتعود به سيرته الأولى .

إن الكاتب لم يشأ أن يدع هذا المسكين يتمزق أكثر من هذا ففتح أمامه طريق الخلاص والعودة إلى الصراط المستقيم بعد أن ضاقت عليه الحياة وبلغ قلبه حنجرته .

إن الكاتب فيما يبدو أراد كل هذا فجعل العم عبد الغنى يقول لسعيد فى هذا الموقف : أجل أنت تستحق هذا . ألم أقل لك أكثر من مرة أن لا ترهق نفسك بالعمل حتى تمرض . والآن أرجو لك الصحة والشفاء ، وهذا جارك الشيخ عبد المعين جاء يعودك أيضا وما إن أتم العم عبد الغنى هذا الكلام حتى تولى هو ورفيقه راجعين .

فماذا فعل سعيد ؟ لقد بهت ووقف عقله عن التفكير بغتة وشل كل عضو فى جسمه لكن لم تطل غيبته هذه إلا لحظات قلائل صاح فى إثرها صيحة الظفر : رباه لازلت أحتفظ بشرفى فالعم عبد الغنى لم يطلع على خطيئتى إذن فى يدى أن أعود إلى حياة الشرف والضمير .

وكما وصل الكاتب بالصراع النفسى إلى مداه حيث جمع حول سعيد بل وفوق رأسه عوامل عدة أشعلته : المال الكثير بين يديه الأجر اليسير الذى يتقاضاه — الدائنون أمه المريضة وماضى الأسرة التعس خيانة من ائتمنه . كما فعل الكاتب هذا أو كما فتح أمام سعيد طريق العودة فإنه جعل ثورته النفسية كفاء هذا الوضع المتأزم الذى أصاب سعيداً بالحمى وشل تفكيره فإذا به يقول : سأعود رغمم أنفي وأنف الدائنين فليفعلوا بى ما يشاؤن ولأكن ضحية ضميرى الحر . ثم تماسك فقام متعثرا كمن فقد وعيه يريد المتجر إلى حيث يسترد شرفه فيرضى ربه ثم ضميره إلى حيث تنتثره الطمأنينة والرضا عن الحياة . وها هو ذا يعيد المبلغ إلى الصندوق الحديدى بيد مرتعشة كما فتحه من قبل بيد مرتعشة وكان ينفض كريشة فى مهب الريح من جرّاء الحمى الشديدة الوطأة وقال : رباه أحمدك لقد عاد سعيد إلى السعادة إلى الشرف » هكذا تكلم سعيد ثم ترنح وكانت هذه آخر كلمة فاه بها .

لا شك أن هذه الأقصوصة من أنجح الأقاصيص فى الأدب السعودى وهى نموذج للقصة النفسية المعنية بالتحليل هى تمثل الصراع بين الضمير ومطالب الحياة وانتصار الضمير أخيراً وكان بوسع الكاتب أن يزيد الصراع عمقا وعنفا ولكن الشخصية السعودية العامة معتدلة فلا تفريط ولا إفراط إنها شخصية تعيش على الأرض المقدسة وتحكمها مثل وقيم وعادات طيبة ومن ثم جاء العم عبد الغنى مستفسراً عن خادمه ومعه جار آخر فعيادة المريض والسؤال عن الجار من آداب الإسلام وبهذا الأسلوب الرقيق تحوّل الصراع وإن شئت فقل هدأ وأعطى البطل فرصة العودة والتوبة وهذا من ثمار الإسلام الذى لا يطحن المخطىء وإنما يعطيه فرصة التوبة ويجعله يضحى بدنياه من أجل دينه لأن ما عند الله خير وأبقى .

٣ – الرمزية والتحقيق الوهمي للرغبات فى (أحلام) [١] :

هذه الأقصوصة لون من الأدب الرمزى ذلك أن الكاتب جعلها رؤى وخيالات فيما يراه النائم ومن ثم فهى أحلام وإن شئت فقل هى طيف خيال إلا أن لها أبعادها النفسية والاجتماعية ويجدر بنا قبل التعرض لهذه الأبعاد وقبل الحكم على الأقصوصة من الوجهة الفنية أن تعرض موجزاً لها فعبد الرحيم واحد من أولئك الجاويين الكثر الذين يؤمون هذه البلاد المقدسة للتفقه فى الديانة الإسلامية وهو شاب قمحى يعتم بشال مطرز أبيض يؤثر العزلة ويهب حياته للكتاب والمحفظة وكان أهله يجرون عليه مرتبا سنويا يكفل له شيئا من بلهنية العيش وفى الحرب العالمية الثانية أمسى فى معزل عنهم .

وأحس عبد الرحيم لأول مرة فى حياته بالعزلة والانفراد ، ورأى أشباح الفقر والعوز ترقص حواليه مهولة مروعة .. فاضطر للحصول على مال أن يبيع بعض أمتعته التى كان يعزها .

وفى يوم من الأيام عاد عبد الرحيم إلى منزله مهيض الجناح فقد نهره ذلك « الفوال » السمين نهراً أثماً لأن آخر ميعاد ضربه لإيفاء ما عليه له من دين قد مر عليه يومان ولكنه كظم غيظه وقال وهو يغمغم : « إن الله مع الصابرين » .

وفجأة نهض من مكانه وضرب بيده إلى سجادة بالية أهدته إياها أمه قبل سنوات سبع وبيد مرتعشة افترشها على أخلاق الحصر واستوى فوقها واستقبل القبلة وقلبه ملىء بالهموم والأشجان القاتلة وعلى غير شعور منه مضى فى سنة نوم عميقة .

إن ما مضى من حديث الكاتب يعد بمثابة مقدمة للأقصوصة هيأت جوّ الأحداث ورسمت صورة لذلك الجاوى القمىء يعتم بشال مطرز أبيض يؤثر العزلة وقد جاء إلى البلاد المقدسة يطلب العلم على نفقة أهله ولكنه انقطع

---

(١) المنهل عدد المحرم ١٣٦٥ هـ .

عنهم بسبب الحرب فانقطعت النفقة وكثر دينه ولحقه الهوان وحار فى أمره ماذا يفعل وبلا شعور منه تأخذه سنة من النوم يرى فيها الحل لعقدته التى عجز عن حلها وهو يقظان فماذا رأى فى منامه ؟ سمع صوتا رقيقا هادئا يقول له : دونك ياعبد الرحيم هذه جنيهات ذهبية خذها ولكن بشرط .

أعطنيها وهات شرطك .

ستمتلىء لك هذه الصفيحة بالجنيهات الذهبية يوماً بعد يوم ولكن بشرط أن تنفق كل مافيها قبل أن تغرب الشمس .

هاتها فقد قبلت الشرط .

وفى قفزة واحدة كان عبد الرحيم عند الصفيحة المهجورة بصدئها النحاسى مطلا بنظراته الحيرى ممسكا برأسه صائحاً :

حقا هذه جنيهات صفر لامعة فهل أنا واهم أم أنا فى حلم من الأحلام ؟ واغترف بيده مقداراً منها يتبينها ويستوثق من أمرها وقد غمرته موجة قوية من الفرح وإن كان يشوبها شىء من القلق وتحدث قائلا :

لا يصح أن تبقى هذه الجنيهات فى هذا المنزل فالقفل ليس جيداً والباب متهافت واهن لا يصمد لمن تحدثه نفسه بالعدوان .

وبدأ يفكر فى حلول كثيرة فأضناه التفكير وأعياه :

هل أحملها إلى شيخنا ولكن من يقنعه بصحة ما أقول ؟ هل أودعها عند ذلك البقال الرقيق الحاشية الذى حال بينى وبين الفوّال وكيف أوصلها إليه والفوال رابض كالنمر المتوثب فى سبيلى ؟ هل أنتظر حتى يجن الليل ؟ ولكن آه . فقد آليت على نفسى ألا استبقيها إلى الليل وأخيراً اعتزم أن يبتاع قبل كل شىء قفلا قويا للباب ثم يفكر بعد ذلك فى طريقة الإنفاق . وتناول جنيها وأقفل الباب بدقة وإحكام وتلفت يمنة ويسرة ووثب إلى السلم يهبط كالمسرور وما إن خرج إلى الهواء الطلق حتى تبين الشمس تستقيم فى كبد السماء فخشى أن يدهمه الظهر ولما يشتر القفل فغذ المسير ومرق من أمام دائنيه ثابت الخطو

والجنان .. ولم يقف إلا عند حانوتى الخردة وانتقى قفلا غالى الثمن فنظر إليه الرجل مستخفاً وقال :

إذا كنت لا تملك ريالين فدع عنك هذا القفل .

وحار عبد الرحيم فى أمره فقد كان حقا لا يملك ريالا أو ريالين وما خطر بباله قط أن يمر على الصيرفى لإبدال الجنيه بالريالات وفى عودته إليه مضيعة للوقت ومضناة للجسم فاختصر الطريق ورمى بالجنيه الذهبى للحانوتى قائلا : خذ هذا ثمنا لقفلك .

وفغر الحانوتى فاه دهشة وقبل أن يفيق بارحه عبد الرحيم مختفيا بين الزحام وسرعان ما آب إلى غرفته بعد أن اختبر الباب والقفل وألقى نظرة على الصفيحة فتبين له أنها كما تركها . وقام للمرة الثانية ليتأكد من إغلاق الباب كما ينبغى ثم جلس القرفصاء على الحصير الخلق وسبح فى عوالم التفكير :

يجب أن أسدد أولا ديونى ، ثم أبرح هذا المنزل القذر إلى دار أتخذ فيها ما أشاء من حشم وخدم وسأبنى على فتاة ذات دين وحسب وجمال . سأشترى سيارة ... ولكن يجب أن يكون إنفاقى على بينة وبترو فينبغى أن أعرف حقيقة ما تحتوى هذه الصفيحة من الجنيهات الذهبية ، وبدأ يحصى ما فى الصفيحة من ذهب واستمر يحصى فى حركة آلية بفعل العادة أما ذهنه فقد كانت تدغدغه آمال وأحلام وطفق يعد والأكوام تزداد وتزداد حتى اختلط بعضها ببعض .

وفجأة سمع وقع أقدام خارج الباب فأنصت فى اهتمام وتوقف مليا عن تعداد الجنيهات وحينما ابتعد صدى الخطوات عاد صاحبنا إلى عمله غير أنه نسى مقدار ما عد وأحصى بعد عوداً على بدء .

وهكذا مرت ساعات لم ينجز فى خلالها غير جزء من الصفيحة الذهبية فداخله الضجر والبرم وتلاحقت أنفاسه فى الغرفة الموصدة فهب إلى النافذة مستروحا ولمست وجهه نسمات الأصيل الندية فأتلع بعنقه مستطلعاً ورأى

دماء من الأشعة الغاربة تودع قنن الجبال الشم فانفتل مأخوذاً مذعوراً وهو يغمغم :

رباه . لقد دهمنا المساء وعلىّ أن أنفق ما فى هذه قبل أن يؤذن المغرب .. وليست أمامى سوى دقائق معدودات فما العمل ؟ وتملكته حيرة قاسية ومرّت بذهنه صور من أسوأ الاحتمالات إن لم يصل إلى حل حاسم سريع .

ورأى أحلامه فى الفن والثراء تكاد تذهب أدراج الرياح السافيات . وتصور نفسه قابعا فوق السرير خيفة أن تأخذه أعين الدائنين فى الغدو والرواح وتمثلت أمامه أشباح الجوع والفاقة والعرى منطبقات غير بعيد .

إنها دقائق ودقائق فحسب فهل يستطيع خلالها إنفاق هذه الصفيحة الذهبية ؟ واضطربت عضلات وجهه فى اختلاط فكرى قاتل وقفز إلى النافذة فرأى الشمس قد تقلصت قليلا عما قبل فألقى عمامته وانحط جالساً على الأرض فى إعياء وقنوط وبغتة أباد السكون الخارجى سعال العجوز البخارى وهو يسعى إلى صلاة المغرب ، وحمل الأثير موجات الأصوات إلى سمع عبد الرحيم فبعث فى رأسه فكرة نهض لها فى وثبة المتحفز وفتح الباب بسرعة واندفع نحو البخارى وهو يصيح : يا عم عبد الرحمن يا عم عبد الرحمن فالتفت الجار خلفه ولحقه عبد الرحيم قائلا له فى ضراعة : أصبر يا عم . أصبر يا عم أحب أن أقدم لك هدية فهل أنت تقبلها ؟ فأجابه البخارى : طيب .

وسرّ عبد الرحيم فطار إلى الصفيحة الذهبية وحملها على رأسه عائداً وحينما شاهده صاحبه البخارى صاح : ما هذا ؟ بصل .

فقال له عبد الرحيم : أصبر ياشيخ إن الله مع الصابرين .

ثم أنزل الصفيحة من فوق رأسه وحجبها بيديه ليفاجىء البخارى العجوز بالهدية الثمينة وطلب منه أن يقترب ومن ثم رفع يديه عن الصفيحة فى سرور وهو يقول :

خذ هذه هدية لك خالصة منى .

وأطل البخارى على الصفيحة وإذا بها تعج بالجنيهات الصفر يكاد بريقها تخطف الأبصار فتراجع متذعراً وولى مدبراً وهو يقول : هذا حرام . هذا حرام . هذا حرام يا شيخ وفى نفس الوقت ارتفع صوت المؤذن الشجى يدعو المسلمين إلى الصلاة .

ونظر عبد الرحيم إلى الصفيحة فإذا بها خاوية كأن لم تكن ملأى قبل ساعة ، وتقابلت فى نفسه موجة من الثورة والجموح بموجة من الاستسلام والرضا فقال مغمغماً :

ألا يوجد فى الدنيا نوال بلاشرط وفتح عبد الرحيم عينيه فوجد أنه قد غفا طويلا على مصلاه وكان أذان المغرب لا يزال يدعوه إلى الصلاة فتوضأ سريعاً وتأبط محفظته وهو يردد إن الله مع الصابرين .

الفكرة العامة فى هذه الأقصوصة هى . لا يوجد فى الدنيا نوال بلا شرط وقد أبرز الكاتب هذه الفكرة من خلال تحليله لنفسية طالب علم فقير وتصويره له من حيث الشكل وأسلوبه فى الحياة ، واتخذ الرؤى والأحلام وسيلة لبث أفكار بطله « عبد الرحيم » وقد بدأ برسم صورة لشكل عبد الرحيم كما قلنا فذكر صفاته من حيث إنه قمىء يعتم بشال مطرز أبيض ثم صور عبد الرحيم فى عزلته وأشباح الفقر والعوز ترقص حواليه .

وصوره وهو يقفز عند الصفيحة المهجورة بصدئها النحاسى مطلا بنظراته الحيرى مطلا برأسه كما صوره وهو يقفل الباب ثم يلتفت يمنة ويسرة ويثب إلى السلم .

كما صور الحانوتى وقد فغرفاه دهشة وانظر إلى عبد الرحيم فى اللحظات الأخيرة من النهار وأمامه الصفيحة الذهبية وعضلاته تضطرب ثم تقفز إلى النافذة .

إن الكاتب قد عرض الفكرة ورسم الشخصية من خلال الأحلام ومن

ثم فأكبر الظن أن الأقصوصة كما قلنا رمزية وأن الصوت الذى سمعه عبد الرحيم يقول : دونك هذه جنيهات ذهبية .. الخ واشترط عليه أن ينفقها قبل الغروب هذا الصوت فى تصورى عنى بالغروب غروب العمر وقد رمز إليه بغروب الشمس فى الحلم فهى تعنى أن يستمتع الإنسان بالمال فى حياته قبل أن يدركه الأجل ولا يكنزه .

وكان حلم عبد الرحيم بالذهب تعبيراً عن رغبته المكبوتة وحاجته إلى المال وقد حلل الكاتب نفسية عبد الرحيم عندما رأى صفيحة الذهب فقد غمرته موجة قوية من الفرح وإن كان يشوبها شىء من القلق فهو إنسان حائر حتى بعد أن صار الذهب بين يديه احتار أين يحفظه أعند شيخه أم عند البقال وكيف يوصلها ؟ وهل ينتظر إلى أن يجن الليل لا إن الموعد المضروب ينتهى عند الغروب كما بدا اضطرابه وحيرته حينما ذهب يشترى قفلا دون أن يبدل الجنيه بريالات الأمر الذى دفعه إلى أن يشترى القفل بالجنيه .

لقد استيقظ عقله الباطن فى الحلم فهو يعد النقود عداً آليا بينما ذهنه تدغدغه أحلام وآمال وإزاء حيرته واضطرابه ضاع منه الوقت .

إن أحلام محمد عالم الأفغانى تحدثنا عن مشكلة طالب علم فقير كثر دينه فهو يحلم بالمال فقد أوى عبد الرحيم إلى فراشه وأسلم نفسه للنعاس فانطلقت روحه تحوم فى عالم المال والذهب تبحث عن الفرج بعد الضيق .

وإذا كان فرويد يقرر أن العقل اللاواعى ينطلق فى المنام من عقاله ويحدث بآمال النفس الحبيسة فتنطلق منه الرغبات المكبوتة وتصيح الهواجس التى عز عليها الظهور فى وضح النهار بين ضجيج المجتمع وتقاليده وأوضاعه القاسية [1] .

وإذا كان عبد الرحيم لم يكد يسمع الصوت يعرض عليه الذهب بشرط حتى صاح : أعطنيها وهات شرطك إذا كان ذلك كذلك فالذى يخيل إلى

---

(١) الأحلام مفتاح الشخصية لعبد المنعم الزيادى ص ٢٣ .

أن القصة رمزية اختار لها الكاتب شخصية مريضة نفسيا عانت آلام الحرمان، وذاقت مرارة العوز والفقر فى بيئة غنية والزمن قد قلب له ظهر المجن فقد كانت أسرته تجرى عليه مرتبا سنويا يكفل له شيئا من بلهنية العيش، وسعة الحياة ثم حالت الحرب بينه وبين أسرته فنضبت موارده وكثر دائنوه وضاقت عليه الأرض بما رحبت فهرب من هذا الواقع المرير إلى النوم حيث برز الحل فى أحلام وإن كان لم يتم .

فالأقصوصة تحقيق وهى للرغبات المكبوتة وتعويض ناشىء عن توقان منهوم لم يجد شبعه فى عالم الحقيقة .

إن الأقصوصة صورة بارعة توضح سيكلوجية التسامى وتصور الصراع النفسى الذى يعانيه طلاب العلم [١] .

ومن ثم فالأقصوصة أيضا نفسية ركزت حول شخصية عبد الرحيم فصورتها وحللتها ووضحت معالمها الجسمية والنفسية والاجتماعية فى الأحلام .

٤ — الرمز إلى المعرفة (شهر زاد) [٢] :

تمهيد : فى عام ١٩٣٦ م أصدر الأديبان الكبيران : طه حسين وتوفيق الحكيم كتاب (القصر المسحور) والكتاب يتحدث عن قضايا الحرية والأدب والفكر وقد اتخذ الأديبان من شهر زاد رمزاً للحرية الخالدة ومن ثم، فالكتاب يعرض مفهوم الحرية والأدب والعلم عند طه حسين والحكيم من من خلال أحاديثهما مع شهر زاد .

قائلا [٣] : إن الذين يعتدون على حرية الرأى من الأحياء والأموات إنما يعتدون عليك أنت لأنك مصدر الرأى والشعور والخيال .

---

(١) النقد الأدبى ومدارسه الحديثة لستانلى هايمن ص ٢٤٨ ترجمة إحسان عباس ومحمد يوسف نجم .

(٢) المنهل عدد شعبان ١٣٦٦ هـ (الحلقة الأولى) ورمضان ١٣٦٦ هـ الحلقة الثانية .

(٣) القصر المسحور ص ٦٩ .

وفى الفصل السادس (ثورة الأشباح) تقول شهر زاد [١] : إنى أعظم من أن أحبس فى عصر واحد ، إنى لكل العصور وحين يدور الحديث حول الملوك والآلهة يكف طه حسين عن الحديث فتقول شهر زاد [٢] إن هناك سلطانا أعلى يخضع له كل كائن حى وكل رئيس وكل مرءوس هو القانون .

وفى مواساة شهر زاد يقول طه حسين [٣] : إن لقوانين الحق والواجب حرمة يجب أن ترعى ونكره لأنفسنا أن تتجاوز حدود هذه القوانين أو أن نخالف عن أمرها .

نحن يا سيدى نحب هذه الدعاية للقانون المشروع ونكره الخروج عليه ونضيق أشد الضيق بجور الجائرين منا وتجاوزهم للحدود ونرى أن نتشبه بكم ما استطعنا وأن نرى للحياة حقها فنفى حين يجب الوفاء ونخلص حين يجب الإخلاص ونعمل حين يجب العمل . لا نؤثر أنفسنا بالراحة ولا باللذة ولا بلقاء الأحباء إلا حين تبيح لنا قوانين الحياة والواجب هذه الراحة وهذه اللذة وهذه النعمة بلقاء الأحباء .

وفى « حكم الزمان » [٤] تقول شهر زاد أنا الحرية كلها والحرية التى تشيع النشاط فى العقول وتذيع الحياة فى القلوب وتبعث الحرارة فى العواطف والمشاعر والأهواء . أنا الحرية الخالصة التى لا تعرف حداً ولا تنتهى إلى غاية ولا أمد ولا ترجو لأحد ولا لشىء وقارا أنا الحرية الطاغية التى يظلم كل من يحاول أن يحد من طغيانها ويبغى كل من يحاول أن يكبح من جماحها لأن نظام الحياة بل نظام الكون يريدها على أن تكون طاغية جامحة لا تذعن لقوة ولا تؤمن لسلطان .

ويعود طه حسين وحده إلى الحديث عن شهر زاد فى كتاب « أحلام

---

(١) نفس المرجع ص ٨٩ .
(٢) نفس المرجع ص ١٢١ .
(٣) القصر المسحور ص ١٤١ .
(٤) نفس المسحور ص ١٩٩ .

شهر زاد » الذى صدر ما بين سنتى ١٩٤٢—١٩٤٣ م إنه فى « القصر المسحور » جعلها رمزاً للحرية وفى « أحلام شهر زاد » نمى هذا المعنى وزاد إليه بعداً جديداً فجعل من أسرار شهر زاد فى أحلامها أنها حاولت إرشاد شهريار إلى الحقائق العليا وإلى عالم المعرفة الذى تطمح إليه نفس الإنسان طموحاً غامضاً وتشتى لأنها لم تبلغ منه ما تريد [١] .

وهكذا نرى أن الملك لم يكتف بما كان يسمع من شهر زاد فى عالم اليقظة بل سعى إلى مضجعها ليسمع أحلامها .

كان الملك يائساً أشد اليأس من شهر زاد قد عجز عن فهمها وكان ضيقاً أشد الضيق بشهر زاد قد كلّ عن احتمال عشرتها فكان عليها ساخطا أشد السخط وكان لها محباً أشد الحب وكان يهم أحيانا بأن يتقاضاها شيئا من الوضوح والجلاء فى سيرتها وفى حديثها ويهم أحيانا أخرى أن يتقدم إليها فى أن تستأنف ذلك القصص الذى لا يستطيع عنه صبراً ولكنه كان واثقا بأنه يستطيع أن يتقاضاها ما شاء فلن يظفر منها إلا بما تشاء هى ولن تشاء هى إلا هذا الغموض الذى أصبح لا يطيق له احتمالا .

لقد كان « شهريار » ضيقاً بشهر زاد أشدّ الضيق ولكنه كان يجد سعادته فى هذا الضيق ولذته فى هذا الألم وراحة نفسه فى تعبها من هذا الغموض ، ومن يدرى لعله لو انجلت له نفس شهر زاد وألغيت بينه وبينها الحجب فرآها واضحة ناصعة كأنها فلق الصبح لامتلأت نفسه حزنا وحسرة فإن العشاق لا يكرهون شيئا كما يكرهون الراحة المطردة ، ولا يضيقون بشىء كما يضيقون بهذا الوضوح الجلى .. هم كطلاب المثل العليا لا يقربون منها إلا لتبعد عنهم ولو قد بلغوها وانتهوا منها إلى ما يرضيهم لكانوا أشقى الناس بذلك ويسمع شهريار فيما يسمع النائمون حين يلم بهم طائف الحلم كأن قائلا يقول له :

إنك لضعيف مغرور تعنى نفسك فى غير عناء . أنت مشوق إلى قصص

(١) أحلام شهر زاد لطه حسين ص ١٣٠ .

شهر زاد لا تستطيع عنه صبراً فهل علمت أنها هى أيضا مشوقة إلى هذا القصص لا تستطيع عنه إعراضاً ؟ أنت ضيق بغموض شهر زاد لا تستطيع له احتمالا فهل علمت أنها هى أيضا ضيقة بوضوحك لا تستطيع له استقبالا ؟ أنت تريد أن تلهو عن غموض شهر زاد بما تقص عليك من حديث وهى أيضا تريد أن تلهو عن وضوحك بما تقص عليك من أخبار .

وليس هناك من شك فى أن الأستاذ الأفغانى قد تأثر بطه حسين وتوفيق الحكيم عندما كتب عن شهر زاد ويتضح هذا التأثر بعد عرض ملخص لشهر زاد الأفغانى .

(١) ابتدأ الأستاذ الأفغانى حديثه برسم صورة للمجلس الذى يضم شهريار وشهر زاد ورسم صورة لكل منهما فى ذلك المجلس فلما كانت الليلة الرابعة بعد الألف جلست شهر زاد على مخدة من حرير وضعت على أريكة ، واتخذ الملك ضجعته على مرتبة محشوة بزغب الطيور الناعم ، وثنى خلف ظهره متكأين من حرير أخضر فاتح . ورفعت شهر زاد عينيها الناعستين إلى ثريا مدلاة من السقف فانزاح خمارها لأبيض الناعم عن شعرها . وأطالت شهر زاد النظر إلى رقصة الثريا على خفقة النسيم العليل . وتنبعث الأضواء من مئات المصابيح .

أما شهر يار فكانت عيناه لا تفارقان أفاعى دخان البخور المائجة التى ما تكاد ترتفع حتى تذهب بدداً فى الهواء وتمج شذاها العطرى فى كل هبة من نسيم .

وفجأة أرخت شهر زاد رأسها وذهبت تقص والملك يستمع وسرى الجو الشعرى والموسيقى الهادئة وقصص شهر زاد خدراً حلواً ناعماً فى جسم شهريار فأسلم عينه لإغفاءة قصيرة ولحظت شهرزاد انصراف زوجها عن القصص ، وأدركت أنها قصت خلال هذه السنوات الطوال نوعاً واحداً منه فقط وهو هذا الرد الذى إن امتاز بالتلوين الصارخ الحار وبالاتصال المستمر فهو خلا من اشتباك العواطف فى صراع نفسى ومن ثم اعتزمت أن تجرعه

منها قويا يرجه رجا ويذيب سأمه فى بحر هدّار من انفعالات النفس الإنسانية .

إن شهر زاد فيما يبدو هنا رمز للثقافة الأدبية المتطوّرة فقد لحظت انصراف زوجها عن قصص الرد فاعتزمت لونا آخر يمثل صراعات النفس وانفعالاتها حتى تنبه زوجها وتذيب سأمه وأكبر الظن أن هذا التحول عند شهر زاد يمثل تحولا فنيا عند الأستاذ الأفغانى على نحو ما ورد فى مقاله « فى القصة » منهل جمادى الثانية ١٣٦٦ ه .

وعلى كل حال فقد اقتربت شهر زاد من زوجها ونادته :

مولاى : ؟

فصحا الملك من غفوته وأجاب مبتسما :

نعم : شهر زاد.

— أود ملك الزمان أن أقص على مسمعيه نوعاً جديداً من القصص يسمونه الواقعى ؟

— لا أدرى ما يكون هذا الواقعى إلا أننى أفوض أمر الاختيار إليك قالت شهر زاد سأقص عليك مولاى قصة « المجانين الثلاثة » .

فقد اجتمع هؤلاء فى دار دعوا إليها وشاء الرحمن أن يخر عليهم البيت وأن ينعزلوا فى مكان لا يستطيعون منه الخروج فرأوا أن يقص كل منهم أمر جنونه دفعاً للسأم وتبديداً للوقت ريثما تصل إليهم معاول المجدين فتقدم أحدهم وقال : كان لى أسرة ليست من غصنين أو ثلاثة وإنما من أغصان مشعبة مفرعة ، وكان جدى رحمة الله عليه مزواجاً خلف ثلاثة بنين وست بنات .

أما البنات فأراحنا الله شرهن حين زوجهن . وأما البنين فكان أكبرهما سنا والدى .

سيقول أحدكما : حسنا وما فى ذلك فكل منا له العم الواحد والاثنان والعمات الكثيرات ..

وسأجيب أنا نعم لا غرابة فى ذلك ماداموا يتزوجون وينفردون فى بيوت شتى . أما وأن يجتمعوا كالنمل فى خلية واحدة فربما كان ذلك ممكنا فى تلك المخلوقات التى أجرى الله فى أعصابها الرتابة والنظام .

أما هذه المخلوقات الآدمية فقد وهبها الله غرائز التأبى والتعاون والتساند. ولنعد إلى قصتنا وتزوج والدى من امرأة هيفاء هى مثال للجمال الهادى الحزين ، ولكن فى دمها الأصفر ثورة وجنون وكثيراً ما كانت تلطم وجهها مولولة حين يفرض عليها أبى إرادته ويظهر أننى ورثت أعصابها فهكذا المجانين يعلمون من أنفسهم ما لا يعلمه العاقلون .

كنت أكبر إخوتى ولى أختان اثنتان وتزوج عماى وأنجبا بنين وبنات فتضخمت الأسرة وتشعبت فروعها وشجونها وضاق بنا البيت وقد كنا نملكه فرأى الآباء أن يوسعوا فيه وأن يبنوا طبقة فوق العلية فانقسم البيت إلى فريقين فريق يؤيد البناء وفريق يرى أن ننفصل وأن نسكن فى بيوت شتى ، وكنت على رأس المعارضة . واستطعت أن أكسب أمى بجانبى وأختى الصغيرة ليلى .

ولكن واأسفاه كان البيت كله يصارعنى ويناصبنى العداء وانهزمنا وانتصروا ومعنى ذلك أننا لبثنا متصلين كما كنا من قبل على دخل وشحناء ولا أرانى إلا عاجزاً عن وصف ذلك النفور الذى كان يقرض قلبى . وذلك الاشمئزاز بدأ معى وأنا لم أزل صغيراً وكبر معى حتى ملك على شعاب قلبى .

وكان أبناء عمى ينسجون حولى شراكا من مكر وخديعة ومن ثم نشأت كثير الريب والشكوك .

كبرت أختاى وأصبح الحديث عن زواجهن دائراً على الألسنة فى البيوت وكان المرشحان لزواجهما ابنى عمى أحمد وعليا وبدهى أن لا يروقنى هذا الزواج وأن أفضل أن تتزوجا من شابين كفئين من خارج الأسرة وقبضت بيدى على علم المعارضة وانضوى تحت لوائى أمى وأختى وعمى أبو

أحمد وكاد النصر يعقد لواءه لى لولا أن والدى فصل الأمر بكلمة باتة حاسمة .

وعندئذ شعرت أن قدمى لا تطيقان حمل جسمى فقد كانت الهزيمة بعد أن أوشك النصر أن يكون لى — شديدة ثقيلة الوطأة على جسمى الضئيل واعتزمت من ذلك اليوم العزلة والانفراد وآثرت الخمول على نشاط ينهيه والدى بكلمة ولحظت أمى فخلت لى يوماً فى الدرج بعد ما أعلن زواج الأختين من ابنى العم وكنت وقتئذ على وشك الخروج فقالت لى :

أدعوك إلى اطراح ما بينك وبين أبيك ثم مدت إلى ذراعها فأمسكت بيسراها كتفى وبدأت تخلل بأصابع يدها اليمنى شعرى الأشعث فاحتوتنى لحظة انعدم فيها الشعور بالزمن وكأن الآلام تبخرت من رأسى وأدركت فى تلك الساعة أن البرزخ الذى يفصل بينى وبين وادى الأفراح والأتراح والسعادة والشقاء واليأس والرجاء وإن شق عبوره على قوة البشر أجمعين فهو لا يشق على يد رقيقة بضة لا تملك من قوة سوى الحب .

ولدت أختى الكبيرة من ابن عمى سالم ولداً ذكراً وكنت آنئذ فى قطيعة مع الأسرة كلها ما عدا أمى وليلى وكان الجميع يعتقدون أن بى لوثة وجنونا تبعدانى عنهم .

لقد كان الطفل زهرة متفتحة ناضرة ممتلئا صحة ونشاطاً وقد ورث من أبيه عينيه السوداوين الجميلتين وأهدابه الوطف الغزار فأخذته بين يدى وقبلته فى فمه الغض الطرى وكانت أختى ليلى واقفة بالقرب منى . ولحظت شيئا عجيبا . إننى لم ألحظ قط على وجهها هذا الشحوب الذابل ولا هذا الغدر الذى ترددت فيه عيناها المجهدتان .

آه — ليلى — لقد تذكرت وأدركت إنها ولا ريب تلك الأقاويل والأراجيف التى كانت تطفر من بعض الألسنة فى الدار ... أنا أعرفك يا أختى لأننى يخيل إلى أننى أعرف نفسى وقد سمعت كثيراً مما يقال عنك وعن زوجك مصطفى وسمعت كثيراً عن الأدوية التى وصفت لكما والتى

أرانى لا أقر منها شيئا وإن كنت أنت تقرينه لأننى ما زلت محتفظا بحيادى فى المسألة . أما أنت أيتها المرأة المرهقة التى ترمى بالعقم فالمسألة بالنسبة إليك مسألة موت أو حياة ، مسألة نوع يستمر أو ينقطع ولذلك فلا شك أن حكمك عليه سيكون غير حكمى .

ليلى — إخال أن الله يريد أن يبلوك وأرانى كأننى أستطيع التكهن فصبراً جميلا أختاه .

يبدو فى هذه القصة انقياد شهريار إلى زوجته شهر زاد ومن ثم وكل إليها أمر اختيار قصة واقعية تقصها عليه وتقص عليه شهر زاد تلك القصة التى تعرض مشكلة تكدس السكان فى منزل واحد وإن كانوا جميعاً أقارب فالأمر هكذا لا يليق بالآدميين .

وتعرض القصة قضية هوان المرأة وخضوعها لإرادة زوجها وإن أدى بها ذلك الخضوع إلى الجنون ونتيجة للتكدس السكانى وتسلط الرجل على المرأة ونمو هذه الأسر كان لابد من البحث فى أزمة السكن وتنقسم هذه الأسر إلى قسمين قسم يرى البناء فوق البيت القائم وقسم يرى التفرق واتخاذ بيوت أخرى .

ثم تنشأ مشكلة رابعة هى مشكلة زواج هذه الأسر المتفرعة عن الأسرة الكبيرة أيتم الزواج من داخل الأسرة أم من خارجها ويكون تأييد ومعارضة .

ويتولى المعارضة ذلك المجنون الذى يقص القصة يعارض ذلك المجنون أباه فتأتى سلطة الأب وتفصل الأمر بكلمة باتتة حاسمة فينهار ذلك المجنون ويميل إلى العزلة والانفراد والشقاء وبلمسة حب حانية من الأم يعبر ذلك الولد برزخ الشقاء إلى برزخ السعادة .

وأخيراً تكون مشكلة الإنجاب والعقم إحدى الأختين تنجب ولداً جميلا والأخرى عقيم وفى الموقف من الصراعات النفسية الكثير والذى يبدو جانب منه فى شحوب وجه ليلى وظهور الغدر فى عينيها ولكن الكاتب يهون عليها ويدعوها إلى الصبر .

تلك شهر زاد رمز المعرفة والخبرة بالنفوس وبالأدب ، وتلك شهر زاد رمز الحرية تريد تحطيم التقاليد البالية التى تؤدى إلى تضخم الأسر وتكدس المساكن وهوان المرأة والأولاد وتسلط الأب تسلطاً يدمر الأم والولد . هذا التسلط لون من الاستعباد وشهر زاد رمز الحرية ترفض العبودية لأنها تفقد الإنسان عقله ورشده وتسلمه إلى الشقاء ومع الحرية الحب والسعادة .

إن هذا اللون من القصص يصوّر الحياة الدنيا كما هى ثم يقترح من خلال السطور ما ينبغى أن يكون وهذا اللون من القصص يدعو إلى القناعة باليسير والتفويض المطلق للقدر كما حدث فى شأن الأخت ليلى العقيم .

وهذا اللون من القصص يبنى نظام البيت وتأثيل المجد على الزوجة والولد .

ثم إن أسوأ ما سجله هذا اللون من القصص هو ظلم الإنسان وجور النظم هو القسوة الجائرة على المرأة الهيفاء الجميلة قسوة أسلمتها إلى الثورة الداخلية والجنون نتيجة فرض إرادة الأب ولم يسلم الابن من هذا التسلط الذى أسلمه إلى العزلة والانفراد والخمول على أن الكاتب كان بارعاً حين أجرى العلاج لهذا الابن بلمسة حنان وحب من أمه .

وواضح أن شهر زاد تريد أن تثأر لبنات جنسها من الرجل إنها تمثل المرأة بينما شهريار يمثل الرجل ومن ثم خرجت به من جو الهدوء والسرد إلى جو الصراع النفسى لتجرعه منها قويا يرجه رجاً عنيفاً .

وقد بدا تذمر المرأة ورغبتها فى التخلص من ثورتها المكبوتة عند الأم الخاضعة لإرادة الزوج وعند ابنتها ليلى التى لم تنجب وقد بدا التذمر فى وجهها وعينيها إنها سجينة بيتها مغلوبة على أمرها وهى مستسلمة آخر الأمر لقضاء الله وقدره .

(ب) فيما مضى من أحاديث أحد المجانين كان ذكر نشأته وما حاطها من

ظروف ومن ثم تحدث عن أسرته وزواج أختيه وإنجاب إحداهما ولكن ليلى لم تنجب وليتها ظلت عقيما فإن حملها وإنجابها هو الذى أصابه بالجنون .

لقد بدأ المتحدث يرسم لنا معالم شخصيته أولا ويحللها تحليلا نفسيا فقال : لقد كنت مجنونا ولا أعلم الآن أعاقل أنا أم مجنون .. وإخالنى كنت أشعر بالأمرين معاً فى بادىء الأمر فكنت حينا أنصت إلى دبيب العقل وهو يدق على الباب دقاً رقيقاً حالماً وكنت حينا آخر أجد الجنون وقد تخطى الحواجز والقيود واقتحمنى اقتحاماً كأنه الفوضى المعربدة السكرى ، وكنت بخير ما دام الشعوران منفصلين فلما تعانقا وتفانيا لم أجد شعوراً واحداً يأخذ بكظمى . كنت أراه العقل كل العقل والناس يرونه الجنون كل الجنون .

وبعد ذلك يتحدث ذلك المجنون عن قصة حمل ليلى وشكه فى ذلك الحمل ورغبته فى التأكد من الأمر ومعرفة الحقيقة وذلك حينما تضع ويفحص ملامح المولود يقول : آه لا أدرى متى قيل لى إن ليلى حبلت وأن مولودها ربما استقبل الحياة بعد شهر أو شهرين ومر على الخبر فى بادىء ذى بدء لم أعره التفاتا ذا بال ، ولكن عندما سحب الليل دثاره على الدنيا النائمة وأردت أن استسلم لأحضان الكرى تمنع على وأبى وغمرتنى وساوس وشكوك ساحقة ماحقة . وفكرت فى آلاف من الاحتمالات ونفيت آلافا منها إلا حادثا لم استطع أن أطرحه من حسابى . لقد جلست فى نافذة العلية أستشف المجهول من وراء الظلمات وإذا بأذنى تتلقط حسيسا لقدم مارة وقمت من مكانى وجريت نحو الباب حافيا وانتظرت لحظة فلما تبينت الدعس الخفيف فتحت الباب وتخطيته وخيل إلى أننى لمحت شبحا مال نحو الدرج وداخلنى الرعب إلى حد ما ولكننى سيطرت على أعصابى وتقدمت إلى الشبح الموارب وصحت خافضا صوتى :

— من أنت ؟

ولم يجب الشبح بل ظل واقفا كالصنم فقبضت على ذراعيه فإذا هى رقية ناعمة وإذا هى ليلى .

— ليلى ماذا تفعلين هنا فى ظلام الليل ؟

لم تجبنى ليلى فتركتها وانقلبت راجعاً إلى غرفتى وأنا أقول : مسكينة ليلى هذه تسهد ليلها لأنها لم تكن والدة بعد كأختها فالله لك ياليلى .

هذا كان تعليلى أولا وكنت أود أن يكون التعليل الوحيد إلى الأبد ولكن أنا النشوان بخمر الشكوك القاتلة لا أقف عند رأى أو تعليل حتى أقلبه على ألف وجه ثم أتمسك بأوهن وجه وأضعفه . أجل لقد أخرت هذا الحادث ونسجت حوله قصوراً من ريب كريهة ممقوتة ثم أضفت الجزء إلى الجزء فإذا الكل نتيجة مهلكة وإذا أنا مجنون مافى جنونى من شك . قد أكون مجنوناً حقا أو قد أكون غيوراً حساساً ثلم شرفه ولطخ بالدنس . لست أدرى لست أدرى . ماذا تعنى هذه الخيانة بالنسبة لى إن صح أنها دبرت بليلى أو فرضت على ليلى فرضا .

لا ريب أنى أشعر إن بنى شعورى على صدقه أن شيئا منى نقص وأن شخصيتى يتهددها الانهيار والدمار وأنى فى غمرة الدفاع عن نفسى ألقى التبعة على غيرى .

ولم تبق إلا قشة واحدة من أمل وذلك أن أنتظر قليلا حتى تضع ليلى وحتى أقرأ على ملامح طفلها ما سطرته الليالى .

لقد انتظرت قليلا أو كثيراً وهاهو النبأ يصلنى وها أنا أسرع والليل من حولى معتكر دامس ودخلت على ليلى كالقذيفة الملفوظة من جوف بركان لم أسأل عنها وما بى عن سؤالها من حاجة أريد أن أتثبت من ملامح ابنها .

إن حديث ذلك المجنون وما به من جنون لتكشف لنا بوضوح عن أهمية المعرفة معرفة الإنسان نفسه أولا ورأى الآخرين فيه وذلك واضح فى بدء حديثه لا أعلم الآن أعاقل أنا أم مجنون .. ثم يطلب إلى المجنونين الآخرين أن يسمعا قضيته ويحكما عليه أو له بعد ذلك إنها الرغبة فى المعرفة إذن ويتضح

ذلك أيضا حينما يمسك المجنون بذراع أخته ليلى فى الظلام على الدرج ويريد أن يعرف الحقيقة أهى الرغبة فى الإنجاب قد سهدت اخته فلم تنم أم هى الخيانة ويأخذ فى التحليل والتعليل وهو نشوان بخمر الشكوك القاتلة لا يقف عند رأى أو تعليل حتى يقلبه على ألف وجه .. هى الرغبة فى المعرفة إذن وهو البحث عن الحقيقة ولكن العجب ان يكون ذلك على لسان مجنون تماماً كما جاء فى رسالة الأستاذ أحمد سباعى « رسالة إلى صاحبى المجنون » والتى يقول فيها :

أتدرى أنك فى جنونك نابغة ولست فى نبوغك بالمجنون ؟ هل استشاط الأديب السعودى غيظا إلى هذا الحد ؟ وهل اتهمه أحد بالجنون ؟

ولقد أرادت شهر زاد باختيارها لهذا اللون من القصص أن تنبه شهريار وترج أعصابه فهل وصلت من ذلك إلى ما تريد ؟

كان شهريار قد بدا ينفعل حين قصت عليه القصة حتى استوى قاعداً على أريكته وما كادت شهر زاد تنتهى إلى هذا الموضوع حتى رقصت الأضواء الملونة على وجهه وصاح . كفى كفى شهر زاد .

أجابت شهر زاد .

مولاى لم تنته القصة بعد .

شهر يار : لا أطيق سماعها اصمتى شهرزادى وعودى إلى ما كنا فيه .

وضمت شهر زاد شفتين حمراوين كبرعمتين من ورد وارتسمت عليهما ابتسامتها الخالدة وسكتت عن الكلام المباح قبل أن يدركها الصباح .

هذا وما تزال صورة المرأة مهزوزة بل إنها هنا فى موقف الاتهام بالخيانة وأين فى منزلها : منزل الزوجية وهو فى نفس الوقت منزل أبيها وأمها وأمام غرفة أبيها وأمها ألا تعد هذه قسوة على المرأة ؟ حقا إن القلق على الإنجاب ولا سيما حين تنجب أخت المرأة يسبب ارتباكاً شديداً للمرأة ويدعها فى دوامة نفسية قاتلة لا سيما والآخرون لا يتركونها وشأنها

بل يزيدون النار اشتعالا بيد أن شهرزا دثأرت لبنات جنسها أليست ممثلة المرأة فى كل العصور ؟ ورمز الحرية والمعرفة فى كل العصور أيضا ؟ لقد أزعجت الاستبداد والاستعباد ممثلا فى شهريار حتى طلب منها أن تكف عن الحديث فذكرت له أن القصة لم تنته بعد . لقد تحدث مجنون واحد فقط وبقى اثنان لقد عرف الناس قدراً ضئيلا ولم يعرفوا الحقيقة كلها مابقى أكثر مما مضى .

بقيت كلمة عن محمد عالم الأفغانى واتجاهه القصصى نحو الواقعية والرمزية وميله إلى التحليل النفسى واتخاذه شخصيات مريضة لتساعده على تحقيق هدفه واتخاذه الشك طريقا إلى اليقين وتقليبه وجوه الرأى بحثا عن الرأى بحثا عن الحرية والمعرفة إنه نغمة قصصية جديدة فى الأدب السعودى وإن سبقه طه حسين والحكيم فهما أستاذان له .

٥ — ما يعجز العقل عن فهمه فى (المصباح السحرى) [١] :

كان ذلك المصباح لسمكرى أرضعته الحياة سعادة لم يشب صفوها كدر ولا قذر . كانت زوجته لينة الأطراف موطأة الأكناف بادنة العود نقية طاهرة .

وكان مأواه فى قلبها وكانت هى فى قلبه . كان الحب هو الذى ضمهما جسداً وروحاً وكانا أغنية الشباب والمرح والهناءة فى فم الزمان ثم شاء الله أن يجعل لحياتهما معنى فوهبهما ولداً . ومضت أيام فإذا الدهر يقلب صفحة أخرى من حياة السمكرى وإذا شجرة هواه تلوى وتذبل وإذا مرض عضال ينشب أظفاره فى الزوجة فيعز البرء والشفاء وإذا هى تموت وعمرها عمر الزهر وتعانقه قبل الوفاة فتنقطع الكلمات على شفتيها ولا تقول إلا كلمة : ولدى .

وتمضى أيام تتلوها أيام وإذا البرعم الصغير الذى خلفته الوردة الكبيرة يأبى إلا اللحاق بأمه . وقبل أن يذوق طعم الحياة بفمه لا بفم سواه .

---

(١) المنهل عدد رجب ١٣٦٧ ه .

وتمضي عشرون سنة ويقف السمكرى أمام الحياة وقفة تأمل وتدبر وتفكر فى الغرض من الحياة إنه يشاهد أولئك الذين تجرعهم الحياة كل صباح ومساء كأس الشقوة والهناء فيتساءل لماذا ينعم الناس بالحياة حينا ويشقون بها آخر ؟

لقد علم ببصيرته النافذة أن التملك والسيطرة هما داء الإنسان العياء منذ أن تحضر وتمدن وتشعبت به دروب الحياة شتى الشعب إذن فلن يملك ولن يسيطر وسيرضى من عيشه بأضيق حال ، وينعم من حياته بأهون جهد ..

وساءل نفسه فى سذاجة الأطفال : أوليس الغرض من الحياة أن أكون هادىء البال قرير النفس مطمئن الخاطر ؟ فلم أذهب نفسى شعاعاً وأجور عليها فى كل درب وشعب وأعكر صفوى واطمئنانى لا شىء سوى البحث عن الصفو والاطمئنان ؟

إنه مع ذلك لم يوصد باب دكانه.لكنه لم يلازمه إلا ساعة فى ليل أو نهار وأمست مصابيحه ومعارفة لا تمتاز عن سواها إلا أن صاحبها يماطل الزبائن ويدافعهم شهراً أو شهرين بدل يوم أو يومين فإذا صنعت كان لزاماً على مشتريها أن يعاود الطلب إثر الطلب لسد خرق فيها أو لرأب صدع بها أما هو فما يهمه شتم شاتم .

وخلت نفسه من هموم الدنيا حتى أمست عدم المبالاة مبسمه وشارته ولكنه لم يكن يوماً بليد الحس والشعور لما يصادف فى نفسه هوى عتيقا أو جديداً .

إن الكاتب قد صور لنا فلسفة السمكرى تجاه الحياة واحتكامه إلى بصيرته الفطرية فى ذلك وتساءل لم أعكر صفوى واطمئنانى لا لشىء سوى البحث عن الصفو والاطمئنان ؟ ومن ثم أصبح شعاره تجاه الحياة المادية عدم المبالاة فهل استطاع أن يعمم موقف عدم المبالاة ؟ بمعنى أن يطبعه على مشاعره وغرائزه المنبعثة من الداخل داخل نفسه كما طبقها على أغراض الحياة من الخارج من حوله وفى تعامله مع الآخرين ؟

لقد كان الكاتب بارعاً حين فصل بين الموقفين موقف السمكرى تجاه الحياة المادية الخارجية حيث كان شعاره إزاءها عدم المبالاة ولكنه أبقى للسمكرى حسه وشعوره لما يصادف فى نفسه هوى عتيقا أو جديداً ذاك عالم الروح والقلب والنفس والغرائز الفطرية ومن ثم فما كاد السمكرى يسمع صوت الطفل وهو يشرق بالدموع حتى ترك جذاذة من صفيح كان يعبث بها يومين ليجعلها فى طرف من مصباح وانحدر من دكانه وهو يخافت سعالا مزمنا وضم قميصه على صدره يتفادى نسمات الأصيل وهو فى قر الشتاء وأقبل على الطفل وحدق فى وجهه تحديقا ثم مال عليه فى حنان ومودة وسأله .

من أنت يابنى ؟

فما فاز منه بغير البكاء المرجع .

فأعاد عليه السؤال :

من أبوك ؟

فلم يسمع من الطفل إلا النشيج المتواصل فحنا عليه كالمرضع وأمسكه من ذراعيه فى رفق ، وأعلاه حتى وضعه على مصطبة الدكان وآنس الطفل من تودده ما جعله يصمت عن صنع الرجل الغريب وكأنه فى داره وفى حضن أمه وأبيه . واستخف الشيخ مرح غامر وكأنما استطاع هذا بيديه الناعمتين أن ينقله من خريف حياته إلى ربيع العمر وزمان الصبا والشباب ، وأسرع إلى أقرب بقال ليبتاع للطفل ما يقدر على قضمه من النقل والحلوى ورآه الناس فتساءلوا :

ترى ما يفعل السمكرى الكهل بهذه الحلوى والنقل ؟

وما كاد يصل دكانه حتى ألفى جمعاً منهم عند دكانه فاستثقل ظلهم وأراد أن يجبهم بقارص القول لينصرفوا ثم تذكر أنه عليه أن يسألهم عن الطفل التائه فما شفوا نفسه بالجواب فقال لنفسه :

سأحتفظ بالطفل أو نجد أباه فأحاط به القوم وسألوه :

لا نراك إلا منصرفاً عن الناس صغارهم وكبارهم فما بالك اليوم معنياً بهذا الطفل ؟

فقال وهو يغالب السعال فى صدره :

لأننى أجد فيه مشابه من ابنى كثيرة .

وكان الظلام قد أقبل فاحتضن الطفل بذراعيه وأغلق دكانه وحين دلف به إلى داره بحث للمرة الأولى عن مصباح غاز كان قد صنعه حين أراد أن يبنى بزوجه فلما أضاءه فزعت الخفافيش فقد أعمى الضوء عيونها المغطشة وهوى بعضها فوق الصفيح المنتثر فرن رنين الصدى فى كهف مهجور ووجل الطفل وجلا شديداً وعمد إلى البكاء والنحيب فحمله السمكرى على عاتقه وما زال يدور به جيئة وذهوبا حتى أغفى الطفل ونام ثم أخذت السمكرى سنة من النوم فعاد به القهقرى خمساً وعشرين سنة إلى الوراء فى الشهر الأول من زواجه فكأنه كان فى حديقة وارفة الظلال مهدلة الأغصان تنبثق منها جلوع النخيل وبها الكروم والرومان والجداول والأزهار ففاح أريجها وتضوع عطرها وكان الطير يلقط الحب من سنابل العشب النامى. وحين دخل الحديقة فرآها جالسة إلى الماء وهي تغرفه بيدها غرفا ثم تنفرج أصابعها الخمرية فينحدر الماء منزلقاً منها إلى الجدول ثانية .. ومشى على رءوس الأصابع كما يفعل القط حين يرصد طيراً فلما أحست نهدت من من الجدول وفرت تستجن بالياسمين وانطلق وراءها حتى أدركها فرامت أن تنفذ من ثغرة فى عريش الياسمين لكنه نالها فى ذراعيه وحملها كما تحمل الأم طفلها فى حنو ومودة ، وشعر أن أصابعه إنما تنال من جسدها البض الريان فخفف القبض عليها وانسدل شعرها الحقال هاذيا فكادت الأرض تقبل أطرافه وارتوى الهواء من ريا عطرها منتشيا .

وصحا السمكرى من نومه على دق بالباب وطرق وجلبة وضوضاء فرأى أن ما رآه كان حلم الماضى وأمل الصبا والشباب ،.. ن صفيحة عن

يمينه وشماله وأن الطفل على ركبته مازال مغفيا ، وعلت الضجة كرة أخرى وفهم السمكرى أن أبا الطفل قد اهتدى إلى مأواه .

واعتزم بادى الأمر أن لا يرد على أبى الطفل إذا طالب بابنه ثم عن له أن يجيب فأعاد الطفل إلى عاتقه ومضى به نحو الباب يفتحه فدخل الرجل مع عمدة الحى وشكراه على حسن صنيعه بالطفل التائه .

أما السمكرى فلم تخرق أذنيه كلمة مما قالاه فقد كان قلبه يتمزق مرارة وأسفا على الهوى الضائع وما كان الرجلان يتهيآن للانصراف حتى قبض على ذراع العمدة — وكانت تقام فى بلاده مباراة سنوية يعرض فيها كل ذى مهنة فنه — وقال :

اسمع ياعمدة سأشترك فى مباراة المصابيح غداً .

— أأنت . تعنى ما تقول ؟

— أجل .

— أأنت الذى اعتزلت الناس عشرين عاماً ؟

— دعنا من هذا فلى شروط أخرى .

— حسنا وما هى ؟

— ستأتينى مساء الغد وستجد الدار مظلمة ما عدا مصباحاً يضىء ستحمله حينئذ بيديك ولن تحاول فتحه ستحمله إلى دارك وستضعه مع مصابيح الناس فى حجرة فى دارك لا نور فيها ولا ضياء فإذا عتم الليل فأدخل عليها من رهطك ممن تحكمون فى المباراة أفهمتنى ؟

— لست أفهم شيئا .

— ستفهم كل شىء فى حينه .

وخرج الرجلان . وبلغ العمدة فى صباح اليوم التالى أن السمكرى قد وجد مقتولا فى داره وقد اكتشف أمره لبان قد اعتاد أن يحمل إليه إفطاره .

وبعد دفن الرجل هز قلب العمدة جلال الموت ورأى أن ينفذ وصية الميت فقدم الدار ليلا ونظر إلى المصباح فألقاه ينفث نوراً . خيل إليه أنه أصغر شعاعاً من الأنوار وأنه ينطوى على سر عميق فاعتزم أن يعود على أعقابه راجعاً ولكنه خشى أن يوسم بالجبن والرعدة وهو الذى ذهب فى الشجاعة وثبات الجأش مثلا .

فاقترب من المصباح وكان كأنه يقطر لهبا ودماً لا شعاعاً ونوراً وأحس حين لمس المصباح أنه إنما يصافح الميت يداً . يداً خضبت بالدم المسفوك وكان الضفيخ تحت قدميه يقعقع ضاحكاً هازئاً ولم تطق أعصاب الرجل هذا الضراع الخفى فانطلق هارباً وهو يضيح :

— ما هذا مصباح — ما هذا مصباح وأرسل من ينوب عنه فى حمل المصباح إلى داره وخصصوا لمصابيح المباراة غرفة أوصدوا نوافذها إيصاداً محكماً ، ولم يبح العمدة لأحد بما سمع ورأى خيفة أن ينسب إليه ما لا يود أن يكون عليه من الشيم والصفات وحين أنبأ العمدة كبار المحكمين بشرائط السمكرى المغتال هزوا رءوسهم قائلين :

ما بال سمكرى معتوه يغير ما ألفناه فى أيامنا الخوالى ؟

فأجابهم العمدة :

إن الرجل قد قضى وما علينا لو حققنا أمنيته .

وبعد أخذ ورد وافق المحكمون أن تكون المباراة وفق ما رغب فيه القتيل .

وأقبل الرجال الأربعة فحمة الليل الحالك على غرفة المباراة . وكانت عيونهم شاخصة وتتلاقى على الباب الموصد نظراتهم : ولما وقفوا قبالته احتاروا من يفتح الباب .

وأخرج العمدة يده ومدها متمهلا ودفع الباب .

ويالالعجب مارأوا .

ورأوا الحجرة مضاءة كالنهار وكأن المصابيح تتدفق نوراً ونوراً وأقبلوا على المصابيح يتفقدونها واحداً واحداً فألفوها مظلمة عمياء ما عدا مصباح السمكرى لقد كان يشع كالقمر . شعاع لا يفطش البصر ولا يعشيه وإنما ينحدر إلى العين سلسلا وعافية وسلاماً وأمنا وهدوءاً وقراراً وعجبوا كيف لم ينفذ زيته منذ أمس وداروا حوله مستطلعين يريدون أن يعثروا له على فتحة أو باب فوجدوه قطعة واحدة لا تتجزأ وازدادت حيرتهم ودهشتهم وخشوا أن يلمسوه بأيديهم فتركوه وشأنه وانصرفوا وقد أوصدوا الباب .

وأصبحت البلدة لا تتحدث إلا بأمر المصباح السحري الذى حير العقول وأذهل الألباب بنور لا ينفد وأعادوا الكرّة فى الليلة التالية فألفوه كعهدهم به . وسمع بأمره القاصى والدانى وحزنوا أشد الحزن على نهاية صاحبه . ليته لم يمت ليرى مجده خافقاً على هام الزمن وبعد أيام أخرج المصباح للناس ليروا أعجوبة تعنو لها الأعناق إنه ينفث نوراً كالعلق احمراراً ورأى عقلاء القوم انصراف العامة عن أعمالهم إلى هذا الحدث الطارىء فأرادوا أن يصرفوهم عن المصباح ولكن ما جدوى السدود عند انحدار النهر الطامى ؟ وأين للعقلاء أو السخفاء أن يصرفوا الناس عن شىء ما زال لهيب شوقه مستقراً فى قلوبهم ؟ .

وقال شيخ حكيم وهو يهز لحيته البيضاء : لن تصرفوا الناس عن هذا المصباح حتى تبددوا سره وسحره وما دام المصباح يشع ولا يعلم منا أحد ما ذلك الشىء الذى فيه يتلألأ فلا يخطرنّ ببالكم أنكم بالغون من الناس أمراً . تقدموا إلى المصباح واجعلوا فيه شعبا أو صدعاً فتتدفق الأنظار إلى داخله وترى ذلك الشىء المضىء .

وفهم العقلاء أن الرجل مصيب فيما يقوله فأقبلوا على المصباح ودعوا السماكرة وطلبوا منهم أن يفتحوه عنوة ففعلوا وما كادوا يفعلون حتى ارتفعت سحب من نور تجيش كالموج الجبلى وأخذ الناس رعب وهول فتأخروا ، ولكن ما غنم أن تبدد اعجاج الضوء وبدا للعيون فى المصباح شىء

كالتفاحة الضامرة يألق ألقا يخطف الأبصار والألباب ووجم الناس لحظات شعروا فيها كأنهم يبتعدون عن دنياهم ويلجون عالماً غريبا ..

وصاح رجل : ما هذا إلا حجر كريم فسئل كل جوهرى عنه فهزوا رءوسهم منكرين .

— ما هو بحجر .

وأصلح رجل منظرته على عينيه وأقبل عليه يتفحصه ويدرسه وقال واثقاً مؤكداً .

إنه مزيج كيميائى غريب لا يفهمه إلا الراسخون فى العلم .

فأجابه الشيخ الحكيم :

لم يكن السمكرى كيماويا .

فقال الرجل نفسه معانداً :

ولكننى واثق مما أقول والعلم لا يخطىء .

فهمس الحكيم قائلا ليحسم الخلاف .

— نعم كل ما فى الدنيا مزيج كيماوى غريب .

وكان رجل يقف بالقرب من المصباح ومعه ابنه يحمله على ظهره فقد تاه منذ أيام ولو لم يعثر عليه السمكرى لأرهق أباه فى البحث عنه ليله ونهاره . .

ونظر الطفل إلى الشىء المعلق وقال : هذا قلب إنه شبيه ذلك الذى شويناه قبل أيام .

ولمعت فى ذهن الرجل فكرة وأسرع إلى العمدة يسأله كيف قتل الرجل وكيف وجده لما دخل عليه فأنبأه أنه ألقاه مطعونا فى صدره وكأن قلبه انتزع انتزاعا . .

تعرض هذه الأقصوصة لفلسفة الحياة وجمعها بين المتناقضات « ما بال الناس ينعمون بالحياة حينا ثم يشقون بها آخر » ويرفض البطل هذا المنطق

ويبعد عن صخب الحياة المتحضرة وما تتطلب من حب للتملك والسيطرة. ويقنع من الحياة بالقليل ويتخذ عدم المبالاة له شعاراً ذلك موقفه من ماديات الحياة ولكنه يحمل بين جنبيه قلبا يفيض بالمشاعر والأحاسيس لم يلبث أن هاجته الذكرى "وفجر عثوره على الطفل عاطفة الأبوة فى نفسه بل أحيا حبه الأول" حيث زاره طيف حبيبته فى المنام أو زار هو ذلك الطيف ويدرك السمكرى أن عزلته لا معنى لها فيقرر الاشتراك فى المباراة السنوية للفنون ، ويسترعى انتباه الناس بمصباحه السحرى بل يشدهم إليه شداً صرف الناس عن أعمالهم ويتدخل العقل وإن شئت فقل تتدخل الحكمة لإعادة الناس إلى أعمالهم وصرفهم عن التعلق بذلك المصباح ولكن الناس لن ينصرفوا إلا إذا عرفوا حقيقة المصباح السحرى فيتدخل العقل والعلم ويفتح السماكرة المصباح فيخرج منه شىء كالتفاحة الضامرة ويختلف العلماء فى أمرها أحجر كريم أم مزيج كيماوى .

ويصر الباحث الشاب على أنه مزيج كيماوى هكذا يقول العلم والعلم لا يخشىء ولكن الحكيم يقول كل ما فى الدنيا مزيج كيماوى غريب مزيج كيماوى من العقل والقلب من الشقاء والسعادة وتتنبه البصيرة الفطرية بصيرة الطفل إلى أن هذا قلب .

وهكذا نرى أن فى العقل تمرداً وغروراً . قد خضعت له طائفة من الأشياء وذلت له بعض صور الطبيعة فظن أن كل شىء يجب أن يخضع له وأن كل صورة من صور الطبيعة يجب أن تذعن لسلطانه ، والحوادث مع ذلك تثبت له من يوم إلى يوم بل من لحظة إلى لحظة أنه لم يعلم من الأمر إلا أقله ولم يستول من صور الطبيعة إلا على أقلها وأيسرها وأهونها شأنا وأن غرور العقل قد زين له أن يجعل للطبيعة قوانين ويفرض عليها قيوداً وأغلالا وأن لا يؤمن بها ولا يرضى عنها إلا إن خضعت لقوانينه ورسفت فى قيوده وأغلاله ولكن قوانينه لم تحط بكل شىء ولكن قيوده وأغلاله لم تبلغ كل شىء ، ومازالت الطبيعة حرة طلقة وما زالت أكبر من العقل وأوسع من

سلطانه وأبعد من مرماه ومازالت أحداث تحدث لا يستطيع العقل إنكارها ولا يستطيع تفسيرها ولا يستطيع إخضاعها لقوانينه ولا لقيوده وأغلاله [١] .

والمصباح السحرى رمز لذلك هى متمرّدة على العقل لأنها أقوى منه وهو متمرّد عليها لأن الغرور قد أفسد عليه أمره وأنساه أنه حديث السن قليل الحول والطول وأن الطبيعة أقدم منه عهداً وأبعد منهم مدى وما دام كل ما فى الدنيا مزيج كيماوى غريب » فإن النفس عاجزة عن أن تحيا بغير عقل يدبر أمورها وبغير إيمان يبعث الأمن فى جوانبها كما أن الجسم عاجز عن أن يحيا بغير الطعام والشراب فالواجب أن يؤمن الإنسان بالعقل إلى حد ويتيح لنفسه الإيمان واليقين .

هذا وقد رأينا أن المحن التى مرت بالسمكرى من فقد زوجته وابنه وإصابته بالسعال قد محصت قلبه وظهرت نفسه وصفت ضميره وأن هذه الآلام الطارئة على غير انتظار والملحة فى غير رفق دفعته إلى عدم المبالاة ولكن لم تفقده شعوره وإحساسه .

العقل الباطن وأحلام اليقظة فى (الرأس المقطوع) [٢] :

حين يقدم الكاتب لأقصوصته هذه يقول : ما أدرى أحكاية هى أم أقصوصة أم شىء سواهما ؟

والذى نراه أنها أقصوصة تعنى بالتحليل النفسى ومن ثم ركزت على شخصية صاحب البستان وتحليل مشاعره إزاء شريط الأحداث الذى يمر أمامه ، والأقصوصة فى نفس الوقت تقدم صورة للبيئة التى تهتم بأحكام الشرع فتنفذ حكم القصاص فيمن يستحقه ، وهى بيئة زراعية تحيط بها الجبال والصحارى ويخف فيها الناس لنجدة المستغيث ألا ترى أنها البيئة السعودية .

(١) على هامش السيرة . لطه حسين حـ ٢ ص ٦٣ — ٦٥ .

(٢) المنهل عدد ذو القعدة وذو الحجة ١٣٦٦ هـ .

وعلى كل حال فإن هذه الحكاية أو هذه الأقصوصة أو هذا الشيء الذى ليس بحكاية ولا أقصوصة كما قال عنه صاحبه هذه الحكاية تبدأ كما قال الكاتب قد هبطت البلدة يوم الجمعة فقد ابتعت ثمار بستان فى « العوالى » وكان البستان لا يضم سواى وأجير يعاوننى وكنا قد استبقينا الأهل بالمدينة فما كان بالبستان إلا كوخ أو عريش تبيت تحته الحمير ويقفل ونبيت على سطحه أنا والأجير .

وفجأة أبصرته يتدحرج .. الرأس المقطوع . وكان هذا الرأس لرجل قتل آخر فحكم عليه قصاصاً بالقتل حسنا . وما علاقتى بهذا الأمر .

إن الكاتب يبدأ من النقطة التى أهاجت مشاعره وجعلت تطارده وتلح عليه حتى هزت كيانه ، ومن ثم قدمها هكذا : الرأس المقطوع يراه فجأة يتدحرج أما أين وكيف حدث ذلك فيأتى تفصيله فيما بعد .

لقد ذهبت فى فضول الذاهبين لأرى كيف يجد الرأس ، وما كاد السيف الصادى يلمس بلسانه دم الرجل حتى أقبل على الرأس متدحرجا ولم تبق لى المفاجأة مجالا للفرار فصمدت فى موضعى . ولما توقف الرأس كانت عيناه فى عينى ولحيته معفرة بالدم والطين .

هذا الرأس المقطوع وما فيه من عينين ولحية معفرة هذا الرأس منبه أو مثير كما يقول علماء النفس فماذا أثار فى نفس البطل وما مدى هذه الإثارة وما وزنها ذلك ما يحدثنا عنه الكاتب حين يقول : لقد قفزت فى موضعى فى خفة الجمل وأرسلتها صيحة مدوية فانتظمت الضحكات فى رتابة الموسيقى وذبت بين بردى خجلا وحياء ويممت سمت الدار لا ألتفت يمنة ولا يسرة .

فهل انتهى الأمر عند هذا الحد ؟ أم أن التأثير كان أعمق بكثير من هذا الظاهر حيث ترك منظر الرأس المقطوع رواسب نفسية ظلت تتفاعل بين جنبات الرجل حتى بدلت شجاعته جبنا وهدوءه فزعاً ذلك ما يفصح عنه الموقف التالى حيث يقص البطل بلسان المتكلم بقية الموقف : قضيت النهار

فى الدار مخفيا عن الأهل حادث الظهر وتناولت معهم العشاء وقبلت ابنتى مودعاً واعتزمت العودة إلى البستان وقد أمسيت ولله الحمد خلى البال قرير النفس ساكن الصدر - هكذا يقول - ونفذت من باب العوالى واحتوتنى الظلمة وكانت وقتئذ معتكرة .

إن البطل يظن أن كل شىء قد انتهى وأنه صار خلى البال قرير النفس ساكن الصدر . لقد انتهى ذلك أمام العقل الواعى أما العقل الباطن فما زال دوره قائماً وقد لاحت بوادره بذكر الظلمة المعتكرة وبمحاولة البطل أن يصمد وأن يبدى التجلد بما يضفى على نفسه من صفات البطولة والشجاعة حين يقول :

وصدقنى إنى لست بالذى ترتعد أوصاله ومفاصله إذا ما جنه الليل وهو فريد فى خلاء .. فقد مررت بهذا الطريق ليلاً عشرات المرات ولم يطرف لى خلالها جفن فيم تعلل هذا ؟

ولا شك أن اسم الإثارة راجع إلى الخوف الذى سيطر عليه نتيجة لأن الموقف موقف الرأس المقطوع مازال قائما فى العقل الباطن يريد أن يؤدى دوره فى لحظات الضعف الإنسانى ومن ثم نرى البطل يقول :

لقد كان شعورى والظلمة حولى كمن نزل البحر منتحما أول مرة فى حياته وعلمه بالسباحة لا يجاوز علمى أو علمك .... لا أدرى لم أسرعت قدماى وتصلبت أطرافى ولا أدرى لم كانت الخرائب تفتح أفواها كالسعالى والغيلان . لم كانت كل قصفة من جـريد النخل طبولا تقرعها عتاة العفاريت . وصعدت دمائى تتدفق إلى دماغى . وكنت قد سمعت أن الجن يفزعها الحديد فسللت الخنجر من غمده وكنت أحمله أبداً معى ، وأطبقت يدى على مقبضه حتى خشيت أن يتهشم فى كفى وتهيأت للقراع والطعان قراع من أيها البطل ؟ وطعان من ؟ إن عقلك الباطن وجد الفرصة مواتية ليرفع الغطاء عن رأسه وينفس عما به من غليان أحدثه الرأس المقطوع أحدثه العينان تبرقان أمام عينيك واللحية المعفرة بالدم والتراب ومن ثم كما تقول أنت

« داخلني هلع وفزع وأقبلت الدماء تمد القدمين فقد آن أوان الهرب والفرار وهممت بهما لولا أنني رأيت على بعد ذراع مني عينين تألقان في حندس الليل الحالك فشلت قدماي لحظات تبينت فيها لحية مخضبة بالدم والطين فعض الرعب قلبي . ويلاه إنه الرأس المقطوع .

ثم يفصح البطل عن دخيلة نفسه وعن حركة العقل الباطن القوية المندفعة كالبركان حين يقول : وهجمت عليه من دون شعوري بخنجري وأهويته بين عينيه المشعتين ولكنني واأسفاه ما طعنت إلا الهواء لأنه أزاح عن هجمتي كالبرق الخاطف وزخت مهويا على رأسي وكأن مارداً جباراً انتزع الخنجر من يدي ومن يمن طالعي أن لم يصب من جسمي مقتلا وما كدت أنهض حتى ملأ الفضاء حولي ضحك كالعويل ، وجن جنوني وأذنت لساقي أن تسابقا الريح سبقا وضحكات السخر ترن في أذني آيبة ذاهبة ووصلت البستان مبهور النفس لاهثا .

إنها أشباح الرأس المقطوع تطارد البطل حيثما حل وأينما ذهب ومن ثم فإنه حين أهوى بخنجره بين عيني الرأس المقطوع الذي لاح له في الخفاء أيقن أنه ما طعن إلا الهواء فقد انزاح الرأس عن هجمته كالبرق الخاطف . إنها أحلام اليقظة صاغها العقل الباطن بأسلوبه العنيف فهو لا يعرف غير العنف لأنه لا يسمح له بالظهور إلا في فترات الضعف ومن ثم يسري عن نفسه كل ما بداخلها . ولكن هل انتهى الأمر عند هذا الحد ؟ لقد وصل البطل إلى البستان مبهور النفس لاهثا يقول البطل :

وناديت الأجير فلم يسمع وبحثت عنه ملهوفاً فلم أجده واستعنت بالله من شرور المردة والشياطين ، ورقيت سطح الحظيرة ــ وقد تطامن قليلا روعي ــ وهدأ وانحدرت إلى القلة أبحث عن ماء يبرد الغلة ويروي العطش ...

وما كدت أهوى بفمي الصادي عليها حتى ألفيت شيئا كالشعر يعلق بالحلق واللسان فقربته إلى عيني وإذا به الرأس المقطوع ودم اللزج يسيل منه على ذراعي ويدي ... زباه ورميته بأقصى ما أملك من قوة وانقلبت أنا

على قفاى ومفاصلى ترتعد وأسنانى تصطلك ، وبحثت عن شىء أخفى تحته جسدى فأطبقت أصابعى على البساط المفروش وسحبته سنحباً فهوت اللحف والمتكآت فى ضجة إلى الأرض وأسبلته علىَّ حتى جعلته لى جُنَّة ولممت نفسى تحته كالقنفذ ، ولا زالت أصوات المرح الساخر تنفذ إلى أعماق ، وتداورت فى نفسى أموراً ، ورأيت فى موضعى المكشوف نهزة للعفاريت فأسرعت بالانحدار إلى الحظيرة وغلقت بابها بيد متصلبة ثم ارتميت عليه خيفة أن يفتح ، ولا أدرى كم ساعة بددتها فى خندق حتى قدم الأجير وهو يبحث عنى ويرفع صوته بالدعاء وأشعل عود الثقاب فلم يجد البساط ولا المساند ولا المتكآت . فحدس أن لصاً سطا على البستان وأن صراعاً بينى وبينه نشب فصاح مستنجداً .

الحرامى ـــ الحرامى . الحقوا الحرامى وسمعت الجيرة وقد نفروا من كل صوب منجدين وفى أيديهم العصى والقسى وهم يغلطون :

أين اللص ؟ أين اللص ؟

فتلقاهم الأجير بالنبأ وخف بعضهم إلى الحظيرة ليطمئنوا على وجود الحمير وقد تصبب العرق بارداً من جبينى لا خوفاً وإنما خجلا وحياء ونهشتنى الحيرة فكيف أعلل وجودى بين البهم والحمير ولكن ما أسرع ما ألهمت حيلة فتصنعت الرعشة والرعدة فلما أضاءوا وجدونى ملفوفاً كالنمر فى مجلاد فقالوا والدهشة فى وجوههم . ما بك ؟

وهكذا نرى أن « الرأس المقطوع » تتحدث عن حلم من أحلام اليقظة اختزنه العقل الباطن إثر مشاهدة صاحبه للرأس المقطوع يتدحرج نحوه بعينين براقتين ولحية مخضبة بالدم والتراب وقد ظن البطل أن الأمر قد انتهى بانتهاء الموقف وعودته إلى بيته ومرور وقت من الظهر إلى العشاء ولكن هيهات .هيهات إنه لم يكد يبدأ رحلته فى الظلام المعتكر حتى طاردته أشباح الرأس المقطوع وأبى الكاتب إلا أن يجعل الرأس المقطوع يطارد البطل حتى حين ظمأ ورفع القلة ليشرب منها فإذا بها الرأس المقطوع فينهار تماماً ويظهر

أثر اضطراب نفسه وهلعه فى تصرفاته حتى إنه ليدثر نفسه بالبساط ويأوى إلى الحظيرة ويغلق بابها من الداخل ويحكم الغلق بالوقوف خلفه حتى لا تلحق به العفاريت .

إنه حلم من أحلام اليقظة كما قلنا وكأن الكاتب لم يكتف بما أصاب البطل من هلع وفزع حينما شاهد الرأس المقطوع لأول مرة فتابع أثر هذا الحادث داخل نفس البطل فإن التأثر الأول أدركه العقل الواعى ومن ثم ظن صاحبه أنه انتهى بانتهاء الموقف ولكن الكاتب أراد أن يبين أن العقل الباطن يختزن الخبرات السارة والمؤلمة التى يصل فيها الفرد إلى مرحلة التوهج والاشتعال فإذا ما سنحت الفرصة أعاد الموقف بأسلوبه هو لا بأسلوب العقل الواعى روح البطل تحوم فى عالم الر أس المقطوع وتبحث عن أسلوب قوى تعبر به عن الرجة التى أصابت النفس إثر الموقف الواقعى . لقد انطلق العقل اللاوعى من عقاله يحدث بآلام النفس الحبيسة والهواجس التى عز عليها الظهور فى وضح النهار بين تقاليد المجتمع وأوضاعه [١] .

وكان الكاتب بارعاً حين أجرى هذه الأحداث فى الظلام المعتكر وفى الفضاء الرحب وأخيراً فى بستان خلوى ، وقد صورت الأقصوصة بطلا مريضا مرضا نفسيا عانى آلاما مبرحة من جراء ما شاهد فالأقصوصة تحقيق وهى لنفور البطل مما رأى وتنفيس عن آلامه المبرحة بعد أن وصل به الصراع إلى الذروة يهرب من الرأس المقطوع فيجده أمامه وهو يحاول إطفاء غلته .

٦ — ما يعجز الشيطان عن منحه فى (المجنون) [٢] :

يركز الكاتب فى هذه الأقصوصة على عنصر الشخصية فيرسم بقلمه لوحة فنية للبطل (صلاح الدين) تكشف عن صفاته الجسمية والاجتماعية والنفسية وإنه ليبدأ معه منذ أن كانت تراوده الأحلام والأمال فى أن يكون

(١) الأحلام مفتاح الشخصية لعبد المنعم الزيادى ص ٢٣ .

(٢) المنهل عدد صفر ١٣٧٠ هـ .

واحداً من أولئك الذين حظوا بالتعلم خارج البلاد بيد أن هذه الأمنية تحطمت على إرادة أبيه التى أبت إلا أن يكون رجلا من رجال الدين ، فصلاح الدين وإن كان قد شمر عن ساعد الجد فدرس وثقف وتعلم إلا أنه لم يصبح فى يوم من الأيام رجلا من رجال الدين أو الدنيا البارزين .

وتوفى والده وترك له ثروة ليست بالصغيرة ولا الكبيرة تعصمه من الفقر ولكنها لا تحقق أحلامه لأنه كان يريد أن يكون مجليا فى كل ميدان .

من هذا المنطلق بدأ الكاتب أقصوصته أقصوصة بطل له أحلام عراض تريد أن ترى النور فتقف فى طريقها عقبتان : إرادة أب متسلط وثروة صغيرة موروثة لا تنهض بأعباء هذه الأمانى وإن وفت بحاجاته ولوازمه الضرورية .

ثم ينتقل الكاتب إلى وصف صلاح الدين بأنه لم يكن بالشخص الذى تنبو عن وجهه الأنظار لدمامته و قلة ماله وضآلة جاهه ، ولم يكن من الجهل وقلة المعرفة بحيث يكون أدنى منزلة من أولئك الذين درسوا فى الكليات والجامعات ولم يكن بالأخرق الذى يدل بما ليس فيه أو بالذى يسلب الناس ما فيهم من خلائق رضية أو ينفس على الناس ما نالوه وما كان مقتصراً فى اجتماعه بالناس على طائفة دون أخرى فقد كان يجد فى كل شخص ناحية من نواحى التقدير وجانبا من جوانب الإعجاب وناحية أخرى من نواحى القوة الإنسانية والضعف الإنسانى . وقد لامه الناس فى مخالطته للناس أجمعين بيد أن هذا لم يزده إلا إيمانا برأيه وتمسكا به ويعود الكاتب إلى المفجر الحقيقى للآلام فى نفس صلاح الدين يعود لمصدر علته وآلامه « إنه ما يزال يدب فى السفح الأدنى من أمانيه المتطاولة وإن لم ينل إلا أقل من القليل ، وكان هذا الضعف ينبوعاً خالداً لعطف الناس عليه وحبهم المتجدد له .

كان صلاح الدين يعنو للجمال فى كل شىء يعجب بجمال الروح من وراء جمال الجسد وبجمال الأخلاق خلف تناسب الأعضاء وتناسقها وكان يود لو يجتمع له البروز فى كل ميدان من الميادين مع جمال الجسد وحسن الطلعة وصفاء النفس وكمال الروح .

ويعرض الكاتب لصفة نفسية لدى البطل جعلته يتمزق من الداخل ويعانى آلاما نفسية مبرحة جعلت داخله كالبركان إنه يتألم وحده ويفرح وحده لأنه لا يبوح للناس بمكنون سره وحقيقة أمانيه لقد تقوقع حول نفسه فما كان بقادر على أن يبوح بحلمه الشهى هذا إلى أحد من أصدقائه ومعارفه فقد كان الرجل شديد الحساسية شديد الفرق من أن ينسب إلى الحماقة والجنون وكان يعلم أن هذا الحلم العذب الذى يراوده ليل نهار لن يتحقق فى يوم من الأيام ، وخشى صلاح الدين أن تكون هذه الرغبة الجامحة نوعاً من أنواع الاختبال والجنون وأراد أن يتغلب عليها صوت العقل والمنطق ولكنها ما فتأت تكتسح أمامها كل عقل ومنطق » إنه إذن الصراع بين الأمل واليأس بين العقل والرغبة الجامحة ، وقد ألقى إلينا الكاتب بضوء خافت هنا حول النهاية المتوقعة إن الرغبة الجامحة قد تغلبت على العقل وعلى هذا الأساس سوف تمضى الأحداث وستنتهى أيضا .

وعلى أى حال فما مضى من الأقصوصة حتى الآن بمثابة تمهيد وإلقاء للضوء حول البطل صلاح الدين .

أما حكاية هذا البطل وآثار أزمته النفسية تلك الأزمة التى تتمثل فى أنه يعيش واقعاً مريراً ويحلم بعالم أفضل ولكنه يعلم أن هذا الحلم العذب الذى يراوده ليل نهار لن يتحقق فى يوم من الأيام أما هذه الحكاية وآثار تلك الأزمة فهى أنه كان يجود صنع الخواتم من فضة وذهب ويكنزها حتى إذا أقبل الحجيج أخرجها إلى السوق فتنفق لجودتها ما كان يمتهن صنع الخواتم إلا إذ جاء لأوقات الفراغ .

وأقبل رمضان ذلك العام بلافح حره وكان صلاح الدين كعادة الناس أجمعين يخرج بعد صلاة التراويح إلى السوق لينتقل من دكان إلى دكان ومن حديث إلى حديث فإذا أوشك الليل أن ينتصف أو كاد ذهب إلى دار الصديق الذى قرر أن يجتمع الصحب والخلان لديه فى تلك الليلة

فقضى معهم بقية ليله فى لهو وسمر إذا حمل النسيم الندى أذان الفجر إلى أذنيه نهض منصرفاً إلى داره فتناول ما استطاب من السحور وقام مصليا ثم اضطجع فأغفى . بيد أنه كان يحتار كيف يملأ ساعات نهاره الطويلة ؟ وفكر أن يجعل سمر نهاره كتاباً خفيفاً هينا فأختار كتاب ألف ليلة وليلة فقد كان يقرأ هذا الكتاب أيام الصبا وكان يفضله على غيره لأن فيه من القصص ما يشوق ومن الأدب السافر ما يروق .

وقد حدد الكاتب زمان الأقصوصة ومكانها فهى أقصوصة حجازية تمت على هذه الأرض المقدسة وفى شهر رمضان المعظم ، ومن ثم ألقت ضوءاً على هذه البيئة وما فيها من صناعات وأن الحجيج الذين يؤمون هذه الديار يتسارعون إلى شراء صناعاتها الجيدة ، وصلاة التراويح وسمر الليل وصلاة الفجر والاستعانة بالقراءة الخفيفة على نهار رمضان الحار المسرف فى الحرارة .

أما ليلة الحلم اللذيذة فقد امتزج فيها الأمل ، الألم والفرح بالحزن ففى ليلة العيد عمد صلاح الدين إلى غرفته التى اتخذها موضعاً لصنع الخواتم فأبعد ما كان من البرادة منشوراً وما كان من الأوساخ مبعثراً احتفاء بيوم العيد وكان فى جانب من الغرفة خزانة ذات أدراج فتح أكثرها إلا درجين مهجورين فى أسفل الخزانة ولم يكن بداخلهما شىء ذو بال ووضع صلاح الدين يده على أولهما بدافع الفضول والاستطلاع فسحبه على مهل فلم يلف بداخله سوى الغبار المتراكم ثم مد يده إلى الدرج الآخر فسحبه أيضا فوجد بين الغبار المتراكم خواتم فضة علاها الصدأ فاسودت وتذكر صلاح الدين أن هذه الخواتم هى أول ما صنع وأنه صنع أكثرها على مقياس يده وداخله سرور مخامر حين قاس عمله المتقن المجوّد هذا بعمله البدائى الفج .

ويأبى الكاتب إلا أن يجعل البطل يقف لحظة يتأمل فيها تاريخ صنعته كيف بدأ وكيف انتهى يقول البطل : كيف يبدأ المرء أول ما يبدأ عملا معوجاً ناقصاً ثم لم يزل يهذبه ويصلح من نقصه حتى يضحى وكأن لم يكن معوجاً بالأمس .

وإذن فالعمل أفضل وسيلة لتحقيق الأمل وتاريخ البطل فى ضنع الخواتم أكبر شاهد على ذلك.

وعلى كل حال فقد أهابت بالبطل نفسه المتهللة أن يجرب خواتمه العتيدة على أصابعه واحدة واحدة ثم ردها إلى الدرج المهجور ، وهم بغلقه ولكنه لمح فى نهايته خاتما ليس كخواتمه التى كان يصنعها فدهش لوجود هذا الخاتم بين خواتمه العتيقة وامتدت إليه يده اليمنى . إنه خاتم أخضر وقد لبسه فى يده اليسرى وما كاد يفعل حتى اختفت غرفته الحقيرة فى لمحة البصر وألقى نفسه فى غرفة واسعة الأرجاء تفترش أرضها البسط الإيرانية الثمينة وتناثرت فوقها أرائك وزرابى ما قط عينه رأت ولا أذنه سمعت بأحسن منها .

ورأى فى صدر المكان منضدة نفيسة يجلس وراءها شخص فى العقد الرابع من عمره حسن الطلعة جميل الصورة وقد ارتفعت من خلفها مئات الرفوف تكتظ بالآلاف من محافظ الأوراق وجال صلاح الدين ببصره فيما أمامه من مناظر المكتب المسحور وهو يفرك عينه بيده وقد ظن أنه يرى ما يراه النائم فى أحلامه أو أنه قد أغمى عليه وهو لا يدرى أو قد يكون تناول مادة مخدرة وهو لا يعلم أو تكون أحلامه فى أن يصبح مثلا أعلى فى شىء قد جرته إلى مهاوى الجنون والاختبال وأراد أن يختبر نفسه أهو لم يزل متمتعاً بعقله أم هو قد ودع العقل ولم يجد أمامه من حل لهذه المعضلة سوى أن يتقدم إلى الرجل المشغول بأكداس أوراقه ويتحقق من وجوده آهو إنسان بعصب ودم ولحم أم هو دمية بعينين أم إنه لا هذا ولا ذاك فهو حلم من الأحلام أو هو كابوس مخدر تجسد أمامه .

وهكذا وصل الكاتب بالصراع الداخلى للبطل إلى الذروة فهذا واقعه قد تغير إلى الأفضل فتحولت غرفته الحقيرة إلى غرفة واسعة جميلة مفروشة بأحسن الفرش وهذه هى الأوراق المالية مكدسة أمامه ولكن كيف حدث هذا ؟ هنا يقع البطل فى حيرة من أمره وتساوره الشكوك والأوهام فيقلب الأمر على وجوهه ويكاد يجن لأمرين :

الأول أن العمل طريق تحقيق الأمل تحسنت صناعة خواتمه بمرور الأيام فصار نتاجه المتأخر أفضل من نتاجه السابق لكنه لم يعمل شيئا حتى يحدث هذا التغير المفاجىء من سىء إلى حسن ومن قبيح إلى جميل ومن فقر إلى غنى على الأقل فى الظاهر .

أما الأمر الثانى : أن البطل كان يعلم أن أمله لن يتحقق فى يوم من الأيام .

ومن ثم نرى الكاتب قد وصل بالصراع النفسى إلى الذروة فقد تعقدت الأمور فما الحل ؟

هاهو البطل يخطو صوب المكتب ووضع يده المرتجفة مختبراً كنه هذا المكتب فوجد أن شعوره باللمس لم يختلف فى كثير أو قليل من لمسه لألواح الزجاج التى تلصق بالمكاتب فى الألواح العادية ، وأحدث اختباره لألواح الزجاج وهو جائش مضطرب ضجة أيقظت الرجل من غفوة أشغاله فأعلا رأسه قليلا وقال مبتسما :

مرحباً أهلا أنت تفضل اتخذ هذا الكرسى لك مقعداً ريثما أفرغ وتحسس صلاح الدين الكرسى بيده فلم يجده إلا كباقى الكراسى فتيقن أن ما يراه الآن حق ويقين وأن عقله ما زال بخير إنما الحيرة التى تضنيه وتشقيه هى أنه : كيف استحالت غرفته الحقيرة بحصيرها البالى وخواتمها الذهبية والفضية إلى هذه الغرفة ؟ وهذا الرجل الذى كأنه يعرفنى منذ دهر مديد .

واستوى صلاح الدين على الكرسى ، وما عتم أن رفع الصديق المجهول رأسه وهو يقول :

إنى لآسف سيدى فقد تغيرت أوضاع هذا العصر وتقاليده فقد كان المفروض سابقاً أن أكون لديك فى التو بدل أن تتكلف أنت الحضور إلى مكتبى بنفسك .

ولكن صلاح الدين لم يستطع أن يفهم من الرجل الذى أمامه فسأله :

من تكون أنت ؟

وكأنما فوجيء الرجل المجهول بهذا السؤال فابتسم وقال :

أنا أنا .. رجل من الجن .

فقال صلاح الدين : وما صلتي أنا برجل من الجن ؟

فقال الرجل : إنها لأوثق صلة .

فقال صلاح الدين : لم أفهم بعد ما تعني .

فقال الرجل : إنما أعنيه سيدى واضح جداً فى خنصر يدك اليسرى، خاتم أخضر وإنى لعبد من يلبس هذا الخاتم وطوع أمره .

وصاح صلاح الدين كأنما أدرك الحقيقة إذن فأنت جنى تابع لهذا الخاتم الأخضر الذى أملكه وهذا يشبه ما كنا نقرأ فى أساطير ألف ليلة وليـــلة .

فأجاب الجنى مبتسما الأمر كما ذكرت سيدي مع بعض الفوارق فالتابع الجنى سابقا كان يحضر حين يطلب قبل أن يرتد إلى صاحبه الطرف أما الآن فكما رأى سيدى الأمر بالعكس والسبب فى ذلك أن الزملاء السابقين كان كل واحد منهم وقفا على شخص واحد فقط أما جنى القرن العشرين فعليه أن يلبى طلبات آلاف من عملائه الكرام وقد يطلبونه فى زمن واحد فهنالك على الأقل آلاف ممن يملكون خاتما أخضر كخاتم سيدى هذا وإن التوفيق بين ما يطلبون ووقتى المحدود بالدقائق والثوانى لأمر عسير حقا فأرجو أن يتكرم سيدى بالبوح عن رغبته سريعاً لأكون عند حسن ظنه » .

وهكذا أراد الكاتب لبطله أن يهدأ بعض الشيء وأن يطمئن إلى أنه ما يزال عقله بخير ولكن اللغز المحير ما يزال يلح عليه كيف حدث له هذا التغير ؟ وما شأن الرجل المجهول إنه جنى وهنا يدرك البطل أن ما يراه الآن شبيه بما قرأ فى أساطير ألف ليلة وليلة .

وفى حوار البطل مع الجنى يظهر مفهوم جديد لدور الجنى فى الأسطورة.

فالتابع الجنى سابقا كان هو الذى يحضر إلى الإنس حين يطلبه ولكن التابع الجنى فى القرن العشرين يبقى فى مكانه لأن أعماله كثيرة وهو ليس تابعاً لإنس واحد بل لأناس كثيرة ولكل منهم مطالبه والوقت محسوب فليحضر الأناسى إلى تابعهم حيث شاء وليطلبوا ما شاؤا بسرعة لأن منطلق العصر هو منطلق السرعة ومن ثم انعكست طبيعة العصر على الأسطورة والتابع ومن ثم فالحل الذى سيقدمه التابع محسوب وموقوت على البطل أن يفكر بسرعة وأن يتصرف بسرعة تمشيا مع روح العصر وإلا ضاعت عليه هذه الفرصة المتاحة .

ودار فكر صلاح الدين دورة سريعة ماذا يطلب الآن ؟ لقد أخبره الجنى بأن الجن لا يستطيعون أن يحققوا لكل عميل أكثر من أمنية واحدة فى حياته الجديدة وأن لدى صلاح الدين ثلاث دقائق فقط لاختيار إحدى الأمانى المشتهاة فماذا يختار المال . الجاه . العلم .

إن آخر ما يفكر فيه العلم وإنه يريد أن يصبح أجمل شخص فى الوجود فقال له الجنى : لك ذلك ثم نهض الجنى من مقعده وقال :

يا صاح أدر ظهرك إلى .

ففعل صلاح الدين ثم أضاف الجنى إلى الأمام سر .

فأطاع صلاح الدين ثم صاح الشيطان بلهجة الآمر : قف فوقف ولم يخطر بباله قط أن يعصى صاحبه وهو يملك الخاتم الأخضر فقد كان جنى القرن العشرين غير جنى الأساطير كان صلاح الدين يشعر أنه مسلوب الإرادة وما كان يرى أية غضاضة فى أن يطيع أوامر الجنى بحذافيرها دون عرضها على العقل أو الوجدان أو الضمير وقد فهم تماماً أنه أصبح تابعه وأسيره وصاح الجنى آمراً : انظر أمامك .

ورفع صلاح الدين نظره فرأى مرآة ضخمة تكاد تملأ الجدار المقابل لمكتب الجنى فرأى شخصا أبيض طويلا أقنى الأنف له لمسة معطرة تداعب

جبينه الحمرى ورأى أكتافاً عزاضاً وجسداً مفتولا يمتع العين ويسبي النظر ولم يدر بخلد صلاح الدين أن المرآة إنما تعكس صورته الحقيقية إلا حينما نظر قامته المتطاولة وأكتافه العراض وبدنه الرياضي فأيقن أنه قد أصبح أجمل رجل فى عصره وصاح الجنى والآن عد إلى بلدك .

لقد كان البطل صلاح الدين يريد أن يكون المجلى فى كل ميدان فى ميدان الثروة والجاه فى ميدان الجمال والكمال . كان لا يتعلق من الأمانى إلا بقممها .

المجلى فى كل ميدان ولا يتعلق من الأمانى إلا بقممها أهذا ممكن ؟ أهذا فى طاقة البشر ؟ إنه أيضا ليس فى طاقة الجن ومن ثم قال التابع للبطل لا نستطيع أن نحقق لكل عميل من عملائنا أكثر من أمنية واحدة فى حياته المديدة . على أن تبديد طاقة الإنسان فى أكثر من ميدان لا يؤدى إلا إلى الفشل فمن طلب كل شيء حرم كل شيء . لقد نال البطل أمنيته فى ميدان الجمال فصار أجمل شخص فى الدنيا فهل سعد بذلك ؟ ومن الذى حقق له هذه الأمنية ؟ إنه الشيطان .

لقد عاد صلاح الدين إلى بلده كما أمره الشيطان وقبل أن يرتد إليه طرفه وجد نفسه فى غرفته الحقيرة جالساً القرفصاء فى ناحية منها وأراح مرفقه على على ركبته ووضع ذقنه على كفه مفكراً . أين كنت ؟ وماذا فعلت ؟ وهكذا ولما لم يجد لأسئلته المتتالية جواباً نهد من موضعه وفتح النافذة الوحيدة فى غرفته الرطيبة فداعبت أنسام السحر الباردة وجهه المحموم ورأى من بعيد الثريات الكهربائية تتألق على منارة المسجد ، وسمع أصوات الصبيان فى الأزقة والحارات وهى تردد بكره عيد بكرة عيد فعلم أنه مازال فى ليلة العيد السعيد وأن عقله مازال بخير وأن مارآه كان من آثار حمى انتابته وهو لا يدرى فشكر الله على أن رد عليه صحته وعافيته .

ما حدث للبطل إذن كان هذيان محموم وضرباً من أحلام اليقظة تحققت

خلاله أمنية واحدة من أمانيه الكثيرة المكبوتة التى عز تحقيقها فى عالم الوعى والشعور فتحققت فى عالم اللاوعى واللاشعور .

وفكر البطل فى أن يذهب إلى أمه وأخته ويزف إليهما تهنئة العيد المبارك. وخرج من غرفته ورقى الدرجات القلائل التى تفصله عن أهله وأقبل على أمه وأخته وهما مشغولتان بكى أغطية الحشيات والمساند وفتيلة السراج المعلق تنثر نورها الهين اللطيف فى أرجاء الغرفة وما كاد صلاح الدين يلج باب الغرفة حتى قال كعادته : السلام عليكم .

وما إن سمع صوت نفسه حتى خيل إليه أن نبرات صوته قد أصبحت أحسن من ذى قبل فعزا ذلك إلى الحمى التى زارته فى تلك الليلة بيد أنه ما كاد يخطو إلى الوصيد خطوات قلائل حتى ارتفعت أنظار الأم والأخت إلى صلاح الدين تستطلعان من القادم فقد آنستا صوتا غريبا غير صوت صلاح الدين ورأتا على ضوء المصباح الشاحب وجها غريبا لم تكن أنظارهما صافحت وجها مثله من قبل فقد ظنتاه فى بادىء الأمر صلاح الدين ولكنهما حينما رأتا شخصا طويلا لا يشبه صلاح الدين فى قليل ولا كثير صعقتا من هول المفاجأة بادىء الأمر ثم رفعتا عقيرتيهما من غير وعى تصيحان : حرامى . حرامى . الحقوا ياناس .

وهنا يقطع الكاتب سلسلة الأحداث ويعطى البطل فرصة للتفكير فى ماضيه ومستقبله وفى الموقف الذى هو فيه وكيف يخرج منه .

لقد فهم صلاح الدين أن حكاية الجنى مازالت تلاحقه وتطارده ، وأنه قد فقد سماته الأصلية التى بها يعرف بين أهله وصحبه ومواطنيه وبنى جلدته وأنه باع واشترى باع حب عشيرته وحدبهم عليه . حنان أمه وأخته الذى لا يعد له حنان ذلك الحنان الودود الصافى الذى رضع منه صغيراً وفطم عنه كبيراً فقد كان يكفى أن يكون عند أمه وأخته قبح أو جمل حقر أو كبر اغتنى أو افتقر ليكون فى قلبيهما ابنا وأخاً . واشترى وبئسما اشترى اشترى

هذه القامة الفارعة والوجه الغرانق والعيون النجل والتى لا تساوى شيئا إن لم يكن لها رصيد من مال وجاه ومنزلة مرموقة وسمعة طيبة حسنة .

ورأى صلاح الدين أنه من المستحيل أن يفهم أهله أنه ابنهم الذى عاشروه دهراً طويلا . ولاح لناظريه مصيره المؤسى فهو فى عرف الناس والعدالة مجرم اقتحم داراً لا تحل لغير أهلها ليسرق أو يسلب أو يفجر وسيلقى جزاءه المحتوم فيزج فى السجن وربما جلد بالسياط على مرأى من الناس ومسمع فماذا يجديه جماله الفتان وقده السحرى لقد حرم من أهله وصحبه وإخوته وحيل بينه وبين أمواله وأملاكه لقد أصبح منبوذاً طريد العدالة والمجتمع وربما اتهم بقتل صلاح الدين المفقود فيقتل جزاء ما قدمت يداه .

لقد باع البطل جمال الروح وجمال الأخلاق وصفاء النفس باع كل تلك القيم الثمينة التى لا تعوض باعها للشيطان والثمن جمال الجسد وتناسب الأعضاء وحسن الطلعة وإنه لثمن بخس على أن هذه الأفكار تذكرنا بقصة فاوست للأديب الألمانى جوته لقد باع البطل فاوست نفسه للشيطان فى مقابل أن يعيد الشيطان للبطل شبابه ويمتعه بكل طيبات الحياة ، ولكن البطل صلاح الدين باع للشيطان قيمه الروحيه مقابل شىء واحد هو جمال الجسد أرأيت الفرق بين شيطان الأمس وشيطان القرن العشرين شيطان القرن العشرين يأخذ أكثر مما يعطى يأخذ الروحانيات ويعطى الماديات .

وعلى أى حال فقد لاح هذا الشبح الرهيب المرعب أمام ناظرى البطل صلاح الدين فاتقدت النيران فى دمه المشبوب وأظلمت الدنيا فى عينيه فثارت فى نفسه الحطمة غرائز أهل الغاب وأمسى فى لحظة من اللحظات ذئبا من الذئاب مكشراً عن أنيابه لا هم له فى الدنيا سوى الدفاع عن نفسه وحياته .

وخيل إليه كأن لسان السراج المعلق فى الجدار لسان ذلك الجنى الساخر المتمرد يهزأ من أطماعه المتطاولة وأحلامه الطائشة ويهزأ بعد ذلك من ضعفه الإنسانى .

ونظر إلى أمه وأخته وهما تصيحان فخيل إليه كأنه يرى حيتين قذرتين تلتويان وتدوران وتريدان القضاء على البقية الباقية من حياته فأهوى عليهما بجسده العملاق وأمسكهما من ناصيتيهما كأنما هما دميتان من طين فى يديه الضاريتين وبدأ يدق رأسيهما بعضهما ببعض حتى اختلط وجهاهما وامتزج دمهما السخين على صدريهما الصاعدين الهابطين وأحس بالدم اللزج يتدفق على رسغيه فترك جثتيهما تهويان وهو يضحك ضحكاً عالياً .

وكان الناس والجيران قد أقبلوا على صراخ المرأتين وبأيديهم العصى والخناجر فاستقبلهم ضاحكاً وهو يقول :

أحسنتم لقد وصلتم فى الوقت المناسب أبعدوا عن وجهى هاتين الحشرتين .

ثم ارتمى على الأرض واستوى جالساً عليهما وأخرج يديه للناس وهو يريهم الدم المطلول عليهما .

انظروا ما أدفأ دم هاتين الحيتين .

وهكذا صورت لنا هذه الأقصوصة جانبا من حياة هذا البطل الذى كان يحلم بالتعلم خارج البلاد لكن رغبة أبيه أبت إلا أن يكون من رجال الدين وانتهى به الأمر إلى أن لا يكون من رجال الدين ولا من رجال الدنيا

لقد تطلع إلى كل شىء فحرم من كل شىء وتقوقع حول نفسه فكبت آماله وأحلامه وعز عليه تحقيقها فى عالم الواقع والحس فحققها فى عالم الخيال وأحلام اليقظة وباع نفسه للشيطان من أجل الجمال ورفض أن يطلب إليه العلم أو الجاه بل إنه كره العلم لقد أعطاه الشيطان الجمال وسلبه الحنان فانتهى به الأمر إلى تدمير علاقاته الروحية حتى مع أمس الناس به اتصالا أمه وأخته . اللتان كانتا ضحية اتفاقه مع الشيطان .

والكاتب مسبوق إلى القضية العامة كما ذكرنا ذلك سابقا فى قصة فاوست بلجوته . وقد تأثر توفيق الحكيم أيضا بفاوست فى مسرحيته (نحو حياة أفضل)

والفرق بين الأديبين السعودى والمصرى أن البطل فى الأقصوصة السعودية اختار الجمال بينما المفكر المصرى رأى أن إصلاح النفوس أفضل من الإصلاح المادى وأننا إذا أردنا تقدماً نحو حياة أفضل فعلينا أن نصلح النفوس أولا عن طريق التربية والتعليم فإن الإنسان المثقف يستطيع أن يحيل الصحراء إلى جنة بينما الجاهل يحيل الجنة إلى صحراء وأن تغيير الحياة المادية مع إهمال الإصلاح النفسى لا يحقق الثمرة المرجوة .

والأديب السعودى ترك بضماته فى أقصوصته فهو معنى بالشخصيات المرضية ،معنى بتحليل نفسيتها كما سبق فى « المجانين الثلاثة » وأثر البيئة واضح فى الحج والعادات الحجازية فى رمضان .

والأديب السعودى جعلنا فى النهاية نأسى على مصير ذلك البطل الذى باع الحنان وأواصر الود بالشكل الخارجى الجميل الذى قاده إلى سفك الدم البرىء والتحول من الآدمية إلى الحيوانية المفترسة .

وربما أخذ على الأديب السعودى استعماله بعض الألفاظ القريبة التى التى يحتاج القارىء معها إلى الاستعانة بالقاموس مما يقطع حبل أفكاره مثل الوصيد — عقيرتيهما — الغرانق — الحطمة — وهى على كل حال كلمات معدودة .

(ب) سيكلوجية التسامى والمراهقة عند عبد السلام هاشم حافظ .

١ — التحقيق المقنع للرغبات المكبوتة فى (فاطمة) [1] :

تحكى هذه الأقصوصة حالة من حالات الحب العفيف نشأت بين فتى وفتاة أحبا فى طهارة وقدسية ولكنهما لم يصلا بحبهما إلى الزواج فتزوجت هى برجل آخر وأنجبت منه وتزوج هو بأخرى وأنجب منها بيد أن أواصر الحب العذرى بين العاشقين ظلت كما هى بل ازدادت تماسكاً وتساميا .

فكيف يلتقى العاشقان المتيمان ؟ فى وضح النهار وعلى مرأى ومسمع من

(١) المنهل عدد ذى الحجة ١٣٧٣ هـ .

الآخرين ؟ المجتمع المسلم ، والأسرة المسلمة زوج تلك الفتاة وطفلها وزوجة ذلك الرجل وأبناؤه ثمة استحالة أن يقبل المجتمع المسلم أو الأسرة المسلمة هذا اللقاء الغرامى وإن كان عفيفا ومن ثم لجأ الكاتب الأستاذ عبد السلام هاشم حافظ إلى عالم الرؤى والأحلام ليكون ذلك العالم وسيلة لإشباع هذه الرغبة المكبوتة .

فإن فرويد يقرر أن العقل اللاوعى ينطلق فى المنام من عقاله ويحدث بآمال النفس الحبيسة فتنطلق منه الرغبات المكبوتة وتصيح الهواجس التى عز عليها الظهور فى وضح النهار وبين ضجيج المجتمع وتقاليده [١] .

وعلى هذا فنستطيع أن نعد هذه الأقصوصة تعبيراً مرضياً كما يقول فرويد أى أنه على وجه الدقة نتاج مرحلة نرجسية من مراحل التطور أى تحقيق وهمى للرغبات أى رضا معوض ناشىء عن توقان منهوم لم يجد شبعه فى عالم الحقيقة . وعليه تكون هذه الأقصوصة صورة بل صور جميلة توضح سيكلوجية التسامى [٢] وأنها تصور الصراع النفسى الذى عاناه منير وفاطمة إنها كالحلم تحقيق مقنع لرغبات مكبوتة وأجمل ما فى الأقصوصة أنك لا نحس بوجود الكاتب لقد اختفى تماماً وترك الأشخاص الفنية فى الأقصوصة تتحدث عن نفسها ليس مجرد حكاية تجرى بينهم وإنما يخلق الكاتب مشاهد ومناظر يدور من خلالها الحديث فقد استبدت بمنير موجة قلق عاصف حينما جاءته البشرى تزف إليه بعد يومين بأن الله الكريم خلص (فاطمة) من الموت الأصفر ووضعت مولودها الأول بعد عذاب وألم قاتلين عانتهما خلال أيام ثلاثة كاملة . ولكن لماذا يقلق منير ؟ حقا لقد كان خلاصها من تلك الحال بشرى عظيمة لمنير ولقد عاد ساعتها من عمله مرهق الأعصاب خاوى البطن يتهيأ لتناول طعام الغداء وهاهو على مائدة الطعام بين أفراد أسرته وهو على عادته صامت لا ينطق ببنت شفة وبعد الفراغ من تناول الطعام خلت الغرفة إلا منه ومن أخيه الذى راح يضم طفله ويهدهده لينام حتى يستطيع هو أن

---

(١) الأحلام مفتاح الشخصية للأستاذ عبد المنعم الزيادى .

(٢) النقد الأدبى ومدارسه الحديثه ستانلى هايمن — ترجمة إحسان عباس ومحمود يوسف نجم .

ينام بعض الوقت ليرتاح جسمه المتعب ، ودغدغ الذبول أجفان منير وشعر بخدر لذيذ يتمشى فى جسده المتعب وهو يطالع مطالعاته الهادئة قصة فنان حائر مثله ، وهم يصلح من وضع رأسه وإذا بلعلعة صوت جارتهم شبه الغجرية ينادى على ابنتها فاطمة . فاطمة يا مقصوفة الرقبة أين معلقة الشاى ؟ وحملق منير بعينه واستعاذ بالله فى نفسه ثم قال بصوت خفيض : ياللشيطان تقصف رقبة ابنتها من أجل معلقة أو غيرها وبعد لحظات سكون كان منير يتكلم مع نفسه :

أوياه يا فاطمة ألا ما أعذب هذا الاسم الحسن . إن صاحبته ملاك ساحرة تستوطن القلب إنها هى الوحيدة التى ملأت علىّ أيام صباى ونحن أشبه ما نكون بالأطفال .

لقد كان حبنا العذرى نادرة الوجود فى مثل هذا الزمن المريب . إنه الحب للحب . إننا سنلتقى اليوم أجل ألا ما أسعد هذا اليوم وأخلده فى تاريخ حياتنا . انتظرى يا فاطمة سآتى لزيارتك لأطمئن على حالك واغفرى لى لأنى قد تأخرت عليك وقد مضى أسبوع كامل على ولادتك . وتناهض يتحامل على نفسه ثم يقفز خفيفا فرحاً يلبى نداء أعماقه ولم يشعر إلا وهو بحضرة حبيبته « فاطمة » وهى مضجعة على فراشها فى مكان له ذكرياته القديمة وقد كان الوقت أصيلا . لقد وجد نفسه يجلس بالقرب من موضع رأسها وهو يقول : الحمد لله على سلامتك ياأختاه إنك بخير بالرغم من هذا الضعف والشحوب . أهذا وليدك ما شاء الله سينشأ سعيداً فى ظلك قال ذلك وهو يشير برأسه مكتفيا بمد بصره حيث كان مرقد الطفل قرب أمه فى الجانب الآخر وأدار منير بنظراته فى الغرفة فلم يلحظ سوى فتاة وطفلين بأحد أركانها وقد انهمكوا فى لعبة لم يتبينها ودنا قليلا من فاطمة التى لم تتحرك من مضجعها إلا لتزيح الغطاء السميك عن نصف جسمها العلوى ثم تقول وهى ترنو إليه بنظرة وادعة كسيرة : إننى لا أعرف كيف أشكرك يا سيد منير ، وفاؤك الدائم . أخوتك الصادقة البريئة حبك الخالد الذى رضعناه معاً ثم انتزع الأشرار كأسه من بين أيدينا . أنت كيف حالك بعدى لقد قالوا إنك

بعد يأسك أصبحت كمجنون بنى عامر المسكين تتيه فى الفلوات وتعاشر الطير والظباء ثم سافرت تطلب السلو فماذا وجدت. هناك وقد عشت كما أنت فى ولهك وشرودك أما أنا فيكفى أن تعرف عنى أننى أعيش بلا قلب وبلا أمل ولئن كان حالك يكربنى ويحزننى فإننى الآن أشعر بالطمأنينة عليك لأننى سمعت أنك سعيد فى زواجك وقد بدأت حياة جديدة ..

وندت عن الاثنين آهتان ملوعتان ثم دموع حاول كلاهما أن يخفيها عن الآخر بحركة تجفيفها السريعة ولما التقت أنظارهما ابتسما وامتدت أذرعهما على الأكتاف وتقارب صدراهما وحدّقت أعينهما فى بعضها بوله شديد ولم يشعرا إلا وهما يتعانقان وتلتقى شفاههما الظمأى فى قبلة بريئة انتعشا بها وتأوها وضغط منير بأنامله على ساعدها ثم أعاد يده إلى حجره وهو يقول بتأثر بالغ :

كفاك يافاطمة ما عانيت .. عيشى فى واقعك فليس حالى أقل من حالك أنت . سافرت نعم ولكن أى شىء لم يستطع أن يغير ما بقلبى لك :

وهنا وقع نظر منير على زوج فاطمة وهو يأخذ مكانه بينهما ولم يفر منير للمفاجأة ولم يستنكر وجوده فى هذا الموضع ولم يزد على أن زحف قليلا إلى الوراء وحيا الزوج بإيماءة من رأسه وابتسامة خفيفة طبيعية ورفع الزوج رأسه متأففا ثم يقوم بكسل يشرف من النافذة على المارة بنظراته البلهاء . وقد كانت فاطمة طيلة الوقت شبه ناعسة ولكنها كانت هى ومنير تسترقان النظر بين حين وحين . وهنا جلجل فى المسامع صوت أذان المغرب فقام منير يودعها بايماءة عن بعد وهو يقول بصوت منخفض سأدرك الصلاة فى المسجد واطمئنى يافاطمة فإن الله لن ينسانا من فضله وإننى لن أتخلى عنك فى الساعة اللازمة وحدج زوجها بنظرة شزراء وهو يغادر المكان وهى تشيعه بنظرات حائرة مبتهلة فيقول فى نفسه (أيها المخلص الأعظم خلصها مما هو أعظم) .

وحين جمعه الليل بزوجته الحسناء فى غرفتهما الشاعرية كان عقرب الساعة يشير إلى أن ساعتين وخمساً وخمسين دقيقة قد مضت على غروب

الشمس وأبصر منير نور القمر ينحدر من الشرفة الشرقية فاتخذ مجلسه عندها وأرسل نظرة مطمئنة طويلة إلى السماء كأنما يناجي بها ذلك القرص الفضي المنطلق فى الفضاء . ودخلت زوجه من باب الغرفة الداخلية وبين يديها طبق الفاكهة التى استخرجتها من وعاء الماء المثلج وهى تقول باسمة الثغر متهللة الوجه : تكلم من أيها الفنان أنت دائماً تتحدث مع نفسك ؟ وجلست إلى جانبه فى ضوء القمر بعد أن وضعت الطبق أمامه بينما هو يناجيها وتحيط يده بجيدها كنت أحدث صاحبنا القمر . تعالى يا ملاكى الجميل . أنت كل الغزل والحب والأناشيد . آه يا (لواحظ) حبيبتى وكل آمالى » قال ذلك وقد امتدت ذراعاه تحيطان جانبيها وتتعانق يداه على صدرها وهى قد أسندت رأسها إلى صدره ويداها تتعلقان بعنقه ووجهها يتضوأ سحراً تحت نور القمر الهادى فطبع على جبينها قبلة ثم على وجنتيها ثم اشتركت شفاههما تنهل من كأس السحر الحلال فى لذة وطمأنينة وعادا إلى جلستهما الطبيعية ملتصقين واستدارا برأسيهما إلى الشرفة حيث التصق خداهما وهما يتأملان القمر وهمست (لواحظ) يا منير : إنك كل شىء لى يا حبيبى يا زوجى الحبيب وهمس منير بالمثل : أجل يا لواحظ .. ألا ليت كل حياة الأزواج مثل حياتنا يا حبيبتى الحب وحده قد كفانا التفكير فى أى شىء حتى قنعنا بعيش البسطاء .

ودقت الساعة النصف بعد الثالثة وأنصتا لخطوات ثقيلة يعرفانها تقترب من باب الغرفة الثانى ونقرات عليه ثم دخول الشيخ والد لواحظ بمهابته ووقار شيبته وأخذ الشيخ مجلسه بينهما ووجه كلامه لابنته فقال : إننى قلق الليلة وأمك قد نامت مبكرة فقال له منير « سنسهر الليلة معك حتى يغلبه النوم على أجفانك » وعندنا فكرة سنحكمك فيها يا عمى ولنسأل لواحظ أولا : إذا رزقنا قريبا بالمولود السعيد فماذا تقترحين أن نسميه فأجابت سأسمى أنا البنت وتسمى أنت الولد فأى اسم ستختاره أنت لابننا العزيز . فأجاب سنسميه جهاد وسآخذ أيضا برأى عمى ماذا ترى فى هذا الاسم : جهاد ؟ فأجاب الشيخ اسم هائل عظيم .

بقيت البنت فقالت لواحظ سأختار لها اسم والدة بابا المرحومة جدتى « فاطمة » فردد منير الاسم بعجب مرتين فاطمة فاطمة وبادرته لواحظ بنفس لهجته : ألا يوافقك هذا الاسم فرد عليها بهدوء :

فاطمة إنه أعظم اسم لأنثى فى الوجود .

وتحرك الشيخ يهم بالقيام غير أن منير سبقه قائماً يقول : لتبق معنا تحدثك لواحظ ريثما أصلى فإننى على وضوء . وقفزت لواحظ تمد له سجادة الصلاة فى أقصى الغرفة ثم تعود إلى مكانها تتحدث مع أبيها ثم سمعا صوت طرق على باب الدار وكانت الساعة تدق أربعاً ورفع الشيخ صدره بينما لواحظ امتدت بجسمها وبجيدها إلى الشرفة تستطلع ولكنها لم تتبين شيئا لشمول الظلام فى أرض الزقاق الضيق وطرق الباب ثانية وانتقلت لواحظ إلى الشرفة الأخرى تطل منها مستفسرة من هنا ؟ من الطارق ؟ وأجابها صوت نسائى حزين « أنا سامية » وأتت إلى أبيها تقول بحيرة (عسى خير يا أبت) أختى سامية تأتى فى مثل هذا الوقت ابق هنا سأنزل لها وحدى وبسملت وهى تخطف (الفانوس) وتهبط السلم فى خفة وتفتح الباب لتدخل إنسانة نحيلة نكرة تلتف فى عباءتها السوداء حاسرة نصف رأسها شاحبة الوجه زائغة النظرات وبادرتها لواحظ (أهلا بالست سامية تفضلى) وأشارت لها إلى السلم ولكن الإنسانة استحيت فى نفسها وجسمها يهتز وقد أوشكت أن تتهاوى على الأرض فاستندت إلى الجدار وأمسكت لواحظ بكتفيها تسألها فى حيرة (ما بلك يا سيدتى) ولم تشعر بها إلا وهى تفلت من بين يديها وتهوى على الأرض وذهلت لواحظ ولم تجد ما تفعله إلا أن تصرخ) .

بابا بابا منير منير كأس ماء وكان منير قد استكمل صلاته وبلغه النداء المزعج فركض وهو يقول للشيخ لا تكلف نفسك يا عمى تريث حتى أرى أنا وأخذ معه كأس الماء وهو يطوى السلم فى سرعة وأبصر لواحظ جالسة عند رأس السيدة وتبين منير وجهها وهى بين يديه فصاح فزعاً : ليست سامية إنها فاطمة فاطمة .

وتمطى منير وفتح عينيه ليجد أخاه الذى ينام غير بعيد عنه مع طفله قد

صحا على صوته وظل يحدجه بنظرة استفسار وكان ساعتها يصل إلى الأسماع صوت أذان العصر (الله أكبر الله أكبر) فابتسم منير متكلفا وقال ونظراته لأخيه كل هذا يكون حلماً .

لقد استيقظ الفنان العاشق الحالم ولم يكن يتصور أن الحلم يتسلسل بهذه الطريقة التى شاهدها .

على أنه ينبغى أن نذكر هنا أنه حين غفا كان يسمع صوت جارته شبه الغجرية وهى تنادى على ابنتها فاطمة وحين استيقظ وجلس يتنفس بعمق إذا به يسمع لهذا الحوار بين الجارة شبه الغجرية وبين ابنتها : البنت : أنا لازم أحضر (الهرجة) الليلة [1] .

الأم حيرتنى يا فاطمة أنا قلت لا تخرجى بمعنى إنك لن تخرجى .

البنت : ما شاء الله يمضى الشهر دون أن أحضر هرجه مع الناس حتى فى بيت عمى خليل .

الأم : اخرسى يا عديمة المنطق هى البنت المبسوطة وعندها تسالى وراديو فى البيت تخرج تعمل إيه بين البنات غداً تتزوجين واخرجى حتى كل يوم واحضرى فى كل مكان .

إن الشخصية المحورية فى هذه الأقصوصة هى شخصية منير فهو الذى تلقى النبأ نبأ وضع فاطمة لمولود أسمته منير وفرح بالنبأ ولكن ساوره القلق ترى مم من أن يكون منير الطفل مثل منير العاشق الكبير فى الشقاء والتعاسة أو لأن فاطمة قد رزقت بمن يشغلها عنه وعلى كل حال فقد بدأ التفكير فى زيارة فاطمة على مائدة الغداء فقد فكر منير ذلك الفنان الحائر الصامت فى زيارة معشوقته ورن فى أذنه قبل النوم اسم فاطمة قادماً من بيت جارته الغجرية فرأى النور وأغفى ليستيقظ الحب فى أعماقه ويرحل به فى عالم الأحلام إلى بيت فاطمة المعشوقة مع الأصيل ويكون مشهد فى غرفة نوم فاطمة فيه

---

(١) اصطلاح عامى تطلقه النساء على اجتماعات ليلية لهن .

العاشقان والطفل المنحي جانبا وفيه ما يكون بين العاشقين ويتوج الموقف بمشهد درامي هو مشهد العاشقين تنهمر منهما الدموع ويتعانقان ويتبادلان القبل التي عزت عليهما في دنيا الناس وفي أضواء المجتمع ويفجأهما الزوج وهما على هذه الحالة وبه من الضيق مابه ولكن منير لا يفزعه ذلك وتلك قضية لا يمكن حدوثها في الواقع ولا سيما في بيئة محافظة كالبيئة السعودية وإذن ففي الأحلام متسع للجميع .

ويمضي الوقت وحان وقت صلاة المغرب فينصرف العاشق المتيم لأداء الصلاة بعد أن أدى ما عليه للعشق والغرام لبي نداء الله بعد أن لبى نداء الحب العفيف .

ويعود إلى منزله ليجلس مع زوجته تحت أضواء القمر ويكون بينهما نظرة وابتسامة وكلام وعناق وقبلات ويقسم لها وتقسم له على الإخلاص والوفاء في الحب وهنا نشعر بأن شخصية منير مزدوجة فمرة يرى فاطمة حبه الأول والأخير ومرة يرى زوجته لواحظ هي حبه الأول والأخير فهل في القلب الإنساني النظيف الطاهر متسع لأكثر من واحدة إحدى المرأتين معشوقة والأخرى زوجة والقلب موزع بينهما لو لم يكن ذلك في عالم الأحلام لقلنا إن ثمة خيانة والعجيب أن منير يقول لزوجته لواحظ : ألا ليت كل حياة الأزواج مثل حياتنا يا حبيبتي .. ما شاء الله يكون لكل زوج معشوقة وزوجة يقسم لهذه ويقسم لتلك على أنه يصفيها الود ويمنحها الحب كله . أهذا ممكن في دنيا الناس وواقع حياتهم كلا . إنها أضغاث أحلام دفعت بمنير إلى أن يعانق زوجته ويقبلها ثم يزعم أنه على وضوء وأنه قائم ليصلي بعد ما كان .

لقد ترك منير فاطمة بجسمه ولكنه ظل متعلقا بها بروحه وقلبه وكذلك هي ومن ثم حين علم بعزم زوجته على أن تسمي مولودتها المنتظرة فاطمة وانجذبت فاطمة إلى من تحب فتحاملت على نفسها المنهوكة تحت أستار الظلام وفي الحارات الضيقة لترى منير ويراها منير . إن هذه الأقصوصة أو هذا الحلم أشبه بفلم تسجيلي عني برسم المشاهد والمناظر أكثر من غيرها وحين أدركت

اليقظة منير أمسك عن الكلام غير المباح فى وضع النهار وأثناء اليقظة فأخذ فيما يمكن أن يحدث أمام أعين الناس أجمعين دون خجل أو خشية ولكننا نرى أن حديثه عن الجارة شبه الغجرية فى ختام الأقصوصة وحوارها مع ابنتها يشكل أقصوصة يمكن أن تستقل عن أقصوصة فاطمة فليس هناك رابط عضوى بين الاثنتين والرابط الوحيد هو سماع اسم فاطمة قبل النوم وبعده ولئن تلذذ منير باسم فاطمة فليست كل فاطمة معشوقة له إن معشوقته الوحيدة فاطمة أم منير الصغير لقد وجد القصاص السعودى الأستاذ عبد السلام هاشم حافظ فى دنيا الأحلام متنفسا لرغباته المكبوتة فهامت روحه على ظمأ تحت أستار الظلام متجهة صوب منزل فاطمة الزوجة المسلمة ذات الولد بيد أنه الفن ودنيا الرؤى والأحلام .

٢ — غرام المراهقين فى (لها ماض) [١] :

افتتح الكاتب هذه الأقصوصة واختتمها بإضفاء صفة الإحسان إلى الفقراء على البطل وقد رمز إليه بالحرف (ق) فلماذا ؟ إن الإجابة على هذا السؤال ينبغى أن تكون بعد دراسة الأقصوصة وتحليلها ، فالبطل ذو نفسية كريمة — كما يقول الكاتب — عرف بها بين لداته فهو ينفرد من بينهم بحب المعوزين حتى إن زملاءه فى المدرسة لقبوه (بصديق الفقراء) .

إن كان ليواسى هؤلاء ويشترى للمستضعفين من الطلبة ما قد يحتاجونه من الكتب ، ويجهد (ق) جهده وهو فى أواخر سنيه الدراسية على وضع نواة للبر والخير فى المدرسة يتعهدها بعناية مدة بقائه حتى تنمو ثم تثمر بعده . حقا إنها لفكرة وجيهة سامية حقيقة بالخلود هى فكرة (صندوق إعانة) للطلبة الفقراء وأنشىء هذا الصندوق فعلا ولكن لم يمض حين قصر على مغادرة (ق) المدرسة حتى انهار صرح الصندوق .

ويقطع الكاتب سلسلة الأحداث ليعلن أسفه على الصندوق المنهار قائلا :

---

(١) المنهل عدد جمادى الأولى ١٣٧٤ هـ — يناير ١٩٥٥ م .

إن فى الإنسانية من لا يزال يسكن فى أنفسهم عامل الشر يهدد نظام الحياة البريئة فلعمرى متى الوعى العام يضىء لأولئك الآفاق .

ثم يعود الكاتب ليزيدنا تعريفا بصديقه (ق) فهو الآن رجل لم يتجاوز العقد الثالث من عمره إلا قليلا ربعة فى القوام بهى الطلعة لين العريكة له اهتمام خاص بالرسم والأدب وقد عالج الكتابة فى بعض الفنون وهو فتى إلا أنه واجه فيها تكلفا وإرهاقا لنفسه فهجرها وأسلم نفسه إلى تيار الحياة العامة واندمج فى مواكب الشعب الصاخبة يعمل لمعيشته فى إخلاص وحسن نية .

ثم يقطع الأستاذ حافظ سلسلة الأحداث للمرة الثانية ليقول لنا ويشوقنا من تاريخ حياته أن نتطلع ونتبين قصة حبه المبكرة . ويحسن بنا أن نقدمها كما أملاها هو فى ٢٥ يناير ١٩٥٠ وأصلح بعض أخطائها بريشته عندما استأذنته فى نشرها لكأن ما مضى من الأقصوصة كان بمثابة تمهيد ومقدمة لهـــا حرص الكاتب أن يضفى على صديقه من خلالها صفات الطيبة وحسن النية وكرم النفس وحب الخير والعطف على الفقراء .

ثم أسلم الأستاذ حافظ لصديقه (ق) زمام الموقف ليروى هو قصة حبه المبكر فيقول : كان إلف الطفولة وعشرتها باعثين قويين لحب عميق مبكر وتوله بابنة عمى « الجميلة » التى خاضت معى دور المراهقة فى شىء كثير من البراءة والتحفظ تمشيا مع البيئة والتقاليد التى كانت تحيطنا بسياج متين لا يسمح لنا بالتحلل أو الزوغان من فروضها القاسية المحببة فى حين لم يكن حبنا إلا وليد التآلف ونتيجة امتزاج كبير فى لهونا ومطالبنا زيادة على تنشئتنا وتربيتنا ونحن طفلان فى منزل واحد . ولقد أصبحنا فى فتوتنا متفاهمين فى كل شىء ولم يكن بيننا ذلك الهوى الجارف الذى يعمى ويصم ويحفز على السيئة والاندفاع لاستخدام الغريزة كما يحدث عند ذوى الغرام العابث الذى يحتم علينا مقاومته والقضاء عليه . لقد كانت صلتنا البريئة أشبه ما تكون بالصداقة منها بالحب .

إن ما مضى من حديث البطل (ق) يدل على أننا مقبلون على حبه

عفيف محاط بكثير من البراءة والتحفظ ... الخ بيد أن مهاجمة البطل لحبيبته أو صديقته (الجميلة) وتشهيره بها يدل على أن ما مضى من حديثه كلام لا يؤيده الواقع وإنما دفعت إليه المراهقة الفكرية والباطنية وإلا فما معنى قوله بعد كل ما مضى (الجميلة) تفتقر كثيراً إلى الجمال بأقل معاينة ذلك السر الساحر المرغوب فى (حوّاء) ولا روعة لها أو وجوداً بدونه ولكننى كنت أرثى لها فى نفسي وأشعرها بأنها بنعمة الجمال كما يتراءى لها وتعتقد فأحنو عليها وأشملها بالكثير من عواطفى رحمة بها ومواساة لحرمانها دون أن تفهم منى هذا إلا أنه طبيعة وهيام منى بها .

أتسمح لى ياصديقى العزيز (ق) أن أقول لك بأنك ألعبان مراوغ وأنك مراهق لم تستقر بعد على حال ولم تنضج عاطفيا وأنك غررت بمن خاضت معك دور المراهقة وأنه إذا كان ثمة براءة وتحفظ فمن جانبها هى لا من جانبك وأنك كنت تلهو وتتسلى وإلا فما مقاييس الجمال عندك ؟ (الجميلة) كانت قبيحة ؟ فما معنى قولك بعد ذلك : غير أن جسمها البض الآخذ فى الامتلاء كان يصرخ بالفتنة واللذة ويدعو إليه الإحساس فى جنون » إنك تريد أن تكون بطلا على ابنة عمك (الجميلة) تثير فيها غريزة الجنس فى ضراوة وعنف ثم تدعها تحترق وتزعم أن مثلك لا يلتفت إلى لذة الحس فأنت ممن ترفع عواطفهم عن الملذات المادية وتسمو بنفوسهم عاطفة الحب الروحى على أية خاطرة أخرى مهما كانت دوافعها ولهذا كنت أبعد ما أكون عن التعمق والتفكير فى هيكلها الناطق بالحلاوة والجاذبية المدامة .

(الجميلة) يا صديقى العزيز (ق) جميلة مكتملة الأنوثة وطبيعية مع نفسها لكنك أنت غير طبعى تحاول أن تسمو وتترفع فى الظاهر وأمام الناس ولكنك فى أعماقك نفس شرهة تواقة إلى الجنس عقلك الباطن يغلى وعقلك الواعى يخفى ذلك الغليان ولكن أيهما ينتصر ؟

كانت نفسك تحدثك بالجنس وتجمح بك إلى عالمه وزعمت أنك كنت تقاوم بل قل إنك كنت تهرب وتتلهى بعيداً عنها كما تقول وكنت تجلها

إكراماً لعمك الضرير وللماضى الذى قضيناه كما تقول فى سعادة الطفولة وهى كأليفة وصديقة لها على من الحقوق ما لا يمكن أن أتهاون بها .

لقد كنت أجهد فى الوفاء وما كنت أفكر أنه سيأتى اليوم الذى أقابل فيه بالنكران والإساءة لم أكن أتوقع أن (الجميلة) تبيت لى نيات الغدر والعبث وتريد بى الشر ، ولكن غريزة هذا الشر المتأصلة فى نفس حواء أخذت تسيطر على تفكيرها وتدفع بها إلى الهوة لقد أضاعت (الجميلة) بجرمها معى قلبا رءوفا رفيقا بها .

إنك لم تسيء إلى (الجميلة) وحدها بل أسأت إلى بنات جنسها كلهن حين زعمت أن غريزة الشر متأصلة فى أعماق نفس حواء وهذا ظلم للجنس اللطيف فأنت لا تستطيع أن تقيم الأدلة على أن الشر متأصل فى حواء وحدها فالرذيلة لا تتم إلا بين رجل وامرأة والمسلك الذى سلكته مع ابنة عمك فيما بعد والذى ستحدثنا عنه بعد قليل هذا المسلك نتيجته المحتومة هو ما أقدمت عليه ابنة عمك فى آخر عهدها بك . إننا سنستمع إليك لتروى لنا كما تقول موجز الخبر : « كان لنا يوم تاريخى فى كل عام أو على الأصح (عيد الحب) فمنذ أصبحنا نفهم هذا الحب على وجهه السليم ومن عهد ما شعرنا بمشاعر العاطفة الوليدة تتمشى فى كياننا منذ ذلك اليوم أخذنا نحتفل بهذه الذكرى الغريزة بعد أن غالبنا كل خجل وكبرياء وتفاهمت نفسانا فأصبحنا نبيح لها فى هذا اليوم فقط أى فى فترة قصيرة من ساعات الليل الأولى الانطلاق من وضعنا المقيد لننهل من كؤوس الحب أعذبها فى عناق ودى برىء وقبلات خاطفة كأنما نعلن بدء عهد جديد لحبنا ...

وتكرر ذلك اليوم السعيد فى خمسة أعوام نجدد فيه آمال الهوى الهادىء .

ما شاء الله يا صديقى العزيز (ق) ألم تعلم بأن أول الغيث قطرة خمس سنوات تنطلق فيها من قيد الفضيلة وتنس تقاليدك ودينك وقرابتك لتنهل من كؤوس الحب أعذبها فى عناق وذي برىء وقبلات خاطفة »

وما أعجب قولك (فى هذا اليوم فقط أى فى فترة قصيرة من ساعات

الليل الأولى إن هذا ليس من تقاليدنا إنه تقليـــد غربى يتم كل عام في الاحتفال برأس الســـنة الميلادية وتنساب الكلاب فيه على البقر فى هذا اليوم فقط أى فى فترة قصيرة . لقد صبرت (الجميلة) خمس سنوات وكلما شربت من كؤوس الحب طلبت المزيد . وهل ما كنت تفعله فى (عيد الحب) من تلذذ فى تعقل كما تقول يتفق مع تقاليدنا السمحة الموروثة ..

إن ما أسميتها (الليلة المشئومة) كانت النتيجة الطبيعية والذروة التى لابد أن تصل إليها العلاقة بينكما مادام فيها عناق وقبلات وحوادثها كانت فى أعماقك ولكنك كنت تخفيها وحين اجترأت (الجميلة) وأقدمت على ما أقدمت عليه فتحت أمامك الباب فلم تتردد ولو لم تحضر الأم لحدث ما لا تحمد عقباه وعلى كل حال فنسمع لك وأنت تحكى لنا قصة (الليلة المشئومة) كانت الجميلة قـــد أضمرت لأمها حديثا اصطنعته مع خادمتها حتى أغرتهـــا على أن تتربص بنا فتتقف عن كثب منا فى تلك الليلة (عيد الحب) لترى من ثقب الباب شدة شغفى بها وإقبالى الشديد وتلهفى عليها وتزينت (الجميلة) بأبدع حليها وأرديتها الإفرنجية القصيرة التى تكشف عن بضاضة جسمها الناضج وفتنته الصارخة وكعادتها دعتنى إلى غرفة جدتها المتوفاة وأقبلت تزف نفسها إلى نصف عارية مصففة الشعـــر بتسريحة جديدة فيبـــدو كعجلات معلقة برأسها ولم أكن بالجماد الذى لا تحركه مثل هذه الفتنة الطاغية فتلقيتها ، بالأحضان الدافئة حتى جلست كطفلة على إحدى ركبتى ولفت على ذراعيها وتعانقنا بكل ما فى مهجتنا من الحب حتى شعرت أنا مثلها بحرارة الجسد الظامى وأنفاسها تستطرد وعيناها المنكسرتان تهتفان بالرغبة والجنس فارتمت عند قدمى بابتهال الآمر الذى أظهر أكثر مما كان واضحاً من فخذيها المشرب لونهما البلورى بخطوط وردية من دمها الثائر وأهاج فى نفسى المنظر اللاهب أحاسيس الدم اليقظ فى شرايين الشباب المحروم من لذته العارضة وكانت تنهداتها تدعونى فى عذوبة الأنثى التى تضرب بآخر مهام فتنتها العابثة فى مثل هذه اللحظة فتشعل أحاسيس حبيبها فإذا هو كتلة من لحم ودم تدعى فتجيب حيث تتعطل كل أسباب اللوم والإرادة وأهويت بجسمى الراعش.

على جسمها الذى يتنزى باللهب والرغبة وكأنما قد هويت به إلى الجحيم إذ ظهرت آنذاك أمها كالبرهان عند الباب صارخة « ويلك يا من انتهكت عفتنا فى عقر دارنا أيها الخبيث وغلت دمائى كالمرجل وأنا أهب واقفا فى حنق وغيظ مريرين وأكاد أصفع المتكلمة الثائرة لولا خشيتى من جدال الحديث فيصل الخبر إلى كل من فى الدار وقد فهمت بديهة ما قد دبر لى فأطلقت ساقى للريح أعدو إلى غرفتى وأغلقتها بالرتاج حتى لا يزعجنى أحد بالدخول على فجأة » .

إن ما حدث فى هذه الليلة قد حدث مثله فى خمس سنوات مضت وكل ما فى الأمر أنه فى هذه الليلة قد جاوز الحد الذى اعتادوا الوقوف عنده فيما مضى بعد أن أنس كل من العاشقين إلى صاحبه وطلب المزيد من الشهوة وأرادت الجميلة أن تضع حداً لهذه المغامرات الغرامية المقنعة تحت ظلال القرابة والبيت الواحد والثقة الجريحة والزعم بأن هذه القبلات وذلك العناق موقوتة ومرة فى السنة ولمدة قصيرة أنست (الجميلة) لفتاها فطلبت المزيد واطمأن صديقى العزيز (ق) لعشيقته التى لم تتعود أن تقول له لا فأطمعته لكنها أرادت فى نفس الوقت أن تضع حداً سعيداً لعيد الحب حتى يتم على مرأى ومسمع من الأهل والأحباب بدلا من أن يتم فى الخفاء إن الغربيين يصنعون ذلك على الملأ بينما صديقى العزيز (ق) يحتفل بعيد الحب فى الخفاء .

لا يا صديقى العزيز (ق) إنك لم تبد أى مقاومة لإغراء الجميلة مما يدل على أنك كنت تتصنع الفضيلة وتعلن البراءة والوفاء فى حين أن بين جبينك نفساً أمارة بالجنس والغريزة ولقد أوشكت الرذيلة تلطخ القرابة والتقاليد والعم الضرير لولا ظهور الأم فى الوقت المناسب وإلا فإنك كنت ستترك (الجميلة) تلعق جراحها هى وأمها وأبوها الضرير وتسلم ساقيك للريح كما فعلت قبل وقوع الجريمة ثم تدخل حجرتك وتحكم غلقها . وحين انكشف الأمر لم تفكر إلا فى تبرئة نفسك فقط وتنكرت للحب وأعياده وظهرت فى صورة الفظ الغليظ الجبان الهارب حتى إنك قررت أنت وأبوك وأسرتكما

ترك المنزل المشترك بين أبيك وعمك والعجيب أنك تقول بعد ذلك :
وتخلصنا من معاشرتها واتهاماتها وما قد تصور لها تخيلاتها الجنونية من ظنون.
وآثام فشعرت أسرتنا بالراحة واطمئنان الضمير إلا أنه لم يمض أكثر من
نصف العام حتى جاءت أم (الجميلة) تعتذر وتحاول أن تتقرب بكل وسيلة.
تظنها تجدى معنا وكأنها تعرض علينا بضاعتها الزائفة ولكنها خابت فى مسعاها ..
وجاءت الجميلة وأبدت مختلف أساليب التحبب والرجاء والاعتذار والإغراء
ولكن صلب إرادتى لن يلين ولم أكن أحفل بشىء مما أظهرت وقلت لها :
إننى أهوى فى المرأة اعتدالها فى عواطفها ونبل مشاعرها أنا لست مجنوناً حتى
أهوى بعاطفتى مع خائنة مجرمة » فانصرفت ذليلة ولم تمض شهور قلائل حتى
راجت إشاعة بأن الجميلة مخطوبة إلى وستتزوج فى الربيع القادم .

واهتبلت فرصة عند وجود أسرتها مدعوة فى حفلة زفاف كبرى وهناك
أعلنت أننى براء منها ولا صحة مطلقا لما أشيع عن خطبتنا .

وهكذا تنكر البطل لحبه وقرابته وطلب النجاة بنفسه تاركاً ضحيته
تلعق جراحها لقد كان هم البطل الأول والأخير أن يتخلص من هذه
العلاقة ويتنكر لها ويهرب منها ويلبس مسوح المحسنين الأبرار ومن ثم ألبسه
الكاتب قناع البر فى مقدمة الأقصوصة وخاتمتها وكأن ما حدث كان أزمة
مراهقة ليس غير إلا أنه يدل على سوء العلاقة بين الرجل والمرأة وحرص
الرجل على أن يضحى بالمرأة وينجو هو كما أن الأقصوصة تدل على خطأ
اجتماعى هو الاشتراك فى المسكن ولو كان كبيراً والاختلاط غير المشروع
إنه يبدأ منذ الصغر حين لا يكون للجنس سلطان ثم يستمر وينمو الفتى وتنمو
الفتاة ويبلغان الحلم وإذا بالغريزة الجنسية فى نضجها واكتمالها تضج فى جسم
الفتى وفى جسم الفتاة فما العمل ؟

إنه لا صلة بين العنوان والأقصوصة وأفضل أن يكون عنوانها (غرام
المراهقين) وأكبر الظن أنها قصة واقعية لأن الكاتب رمز للبطل بالحرف
(ق) فهو يعيش بين الناس ويخشى الفضيحة وقد أرخ الكاتب للقصة ٢٥

يناير ١٩٥٠ م وما دار فيها من مشاعر وعواطف ومواقف يمثل نفسية المراهقين المضطربة القلقة التي لم تستقر وهي مرحلة تمضي ولم يلبث البطل أن عاد الهدوء لأسارير وجهه ونفسيته وهي أقصوصة فريدة في الأدب السعودي .

٣ — هل يتنازل إنسان لآخر عن فتاة أحلامه في (وفاء) [1] :

تسلك بعض الأقاصيص السعودية مسلكاً تاريخياً سرديا فتسير مع البطل منذ نشأته الأولى متدرجة معه منذ نعومة أظفاره إلى أن يصير ذا وزن وإن بدت عليه مخايل النجابة والذكاء في سنيه الأولى ، فتسرد تاريخه وأعماله بأسلوب أدبي جميل كما في هذه الأقصوصة فقد كانت هند تعيش في حي متواضع عيشة أقرب ما تكون إلى حياة البذخ في ظل أبيها وعمها الكهلين وأخيها (حبيب) الذي حمل أعباء الأسرة فتيا غضا تعوزه العضلات القوية والحجا الرشيد بيد أنه قام وسط الزحام والعواصف تناوئه يناضل بجسمه الصغير في سبيل تلك الأسرة . إن هذا الفتى اليافع الذي لم يتجاوز الثانية عشرة إلا قليلا يكافح للقمة العيش وكأنه ابن العشرين ثم هو يقوم أيضا بالنفقة على ابن عمته (نائل) .ذلك الفتى المبطال الكسول الذي أمسى مضرب المثل في البلاهة والغباء زيادة على تمرده وعصبيته .

لقد كان حبيب يؤدي بالمدرسة واجباته على أحسن وجه وهو النبيه الذكي ويشتغل بعد العصر صنائعيا عند صاحب حانوت وفق إليه .

وكانت له جولات موفقة في البطولة الرياضية كما أنه كثيراً ما تزعم زملاءه في المدرسة للمظاهرات الصامتة والمطالبة بحقوق الطلبة والمعوزين منهم . وفي أواخر سنيه الدراسية أقام نادي المدرسة الرياضي احتفالا ضخماً للمتخرجين وأجريت أثناء ٥ مباريات كرة القدم على جوائز ثمينة فاز فيها الفريق الذي يلعب معه ويرأسه (حبيب) فمنح لهذا نصف الجائزة وهو مبلغ

---

(١) منهل ربيع الثاني ١٣٧٤ هـ .

خمسة عشرة جنيهات ذهباً عدا هدايا الثناء والإعجاب من إدارة المدرسة وبعض الزائرين وصفقت له الجماهير بحماس هاتفة بالبطل الصغير الذى لم يكن سنه آنذاك يزيد على الثامنة عشرة لقد كان فوزه فى هذا الحفل فاتحة عهد جديد .

ولكم كان سرور والده عظيما ولم يتردد فى السماح له بالسفر إلى قطر ناء بعيد بعدما أوضح له الأسباب التى توخاها وهو يعرف حبه للاستطلاع وأمانيه الجسام فى هذه الرحلة .

وتأهب حبيب للسفر وأوصى صديقا قريبا له يناظر أباه ليقضى له حاجياته ومطالبه من السوق وقد أودع فى يده المصروف الكافى لمدة الشهر الذى سيغيبه عن الوطن . ثم أبحر على باخرة مصرية فى يوم راق جوه واعتدلت طبيعته فازدادت نفسه انشراحاً وتفاؤلا وتيمن بطالع هذه الرحلة الاستكشافية للجديد والتى يرجو أن يجد خلالها (العميل الأمين) الذى يطمئن إلى الثقة فيه ويبادله الإخلاص والولاء ويستورد بوساطته بعض البضائع الرائجة فى البلاد . وما كادت الباخرة ترسو فى ميناء السويس وينزل ركابها وحبيب يتطلع بعجب ويخطو بضع خطوات على الرصيف المزدحم بالمنتظرين من المستقبلين والعمال حتى بصر بإنسان يتقدم إليه ويحييه ويعرفه بنفسه حين رآه كالمنكر له وعيناه تتساءلان وقال : ألا تذكر اجتماعنا وتعرفى بك فى المخيم المجاور لمخيمنا ونحن (بمنى) قبل سنتين نؤدى فريضة الحج وهنا قال حبيب مؤكداً : صحيح صحيح إنك ذاكر أمين العتب على الذاكرة يا سيدى وتعانقا ببراءة وحمد الله حبيب فى نفسه ثم شكر صنيع هذا الرجل الذى ساقته له الأقدار ليكون دليله ورفيقه بل وأنيسه وصفيه وقد أبى هذا الحاج الفاضل (سعيد) أن يترك الضيف الحجازى بشأنه فأحله داره وكأنه أحد أفراد الأسرة . وصحب سعيد صديقه إلى المتنزهات والمتاجر ودور الصحف والسينما وصالات المحاضرات وإلى جميع مآثر القاهرة والإسكندرية . وقد تعاقد معه حبيب على معاملة مستمرة ليصبح عميله الذى يورد له جميع الحاجيات والبضائع اللازمة فهو وحده المسئول عن كل شيء .

وعاد حبيب إلى وطنه راضيا وكان قد دعا صديقه قبل وداعه إلى زيارة خاصة فى موسم الحج القادم ووعده سعيد بإجابة هذه الدعوة ثم يلبى هذه الدعوة فعلا بعد أن يكون قد أدى فريضة الحج واستقبله حبيب كأخ شقيق له حتى إنه قدّمه لعمته وأوصاها به خيراً فرحبت به وتقدم سعيد إلى والد حبيب يقدم له هدية ثمينة بعد أن هوى على كفيه تقبيلا ولكن الشيخ تنفس الصعداء وهو يمد يده المعروقة ويقول بصوت مرتعش : هدية تهدى لى أنا ؟ وإن رحيلى لدان قريب وعيب أن ترد هدية أمثالك الكرام فلتكن من نصيب صديقك فأنا لا حاجة لى بشىء غير ختام الحياة السعيدة فادع لى كلما صليت وسرّ سعيد بملاطفته وجميل كلامه وهمّ بالكلام لولا أن حبيبا جاء يدعوهما إلى غرفة الطعام وقد دنا من والده ليسنده فى القيام ويجلس ثلاثتهم يتناولون العشاء الذى أعدته الفتاة الفاتنة (هند) وبينما هى تعبر الممشى أمام الغرفة فى خطواتها الهينة اللينة حانت من سعيد لفتة فرآها وبقى نظره متعلقا بالباب إلا أنه كان يحاذر أن يراه جليساه .. فى تلك اللمحة السريعة رأى سعيد هيكلا رائعا للحسن أدهشه لقد أبصر دنيا ما كان يظن أو يحلم أن يعثر عليها فى مثل هذه البيئة العربية المحافظة وراح يستفسر من صديقه وهما يتناولان الشاى منفردين عمن يقطن معه غير أبيه وعمته فانبسطت أسارير (حبيب) وردّ عليه بقوله : لا أحد غير شقيقى الأبله (نائل) وهو ينام الليلة عند خالتنا التى تعطف عليه مثلى وهنا أيضا شقيقتى العزيزة (هند) . وكانت هذه العبارة كافية ليطمئن لها بال (سعيد) غير أنه ظل يفكر كيف يقنع صديقه وهو مطلع على شئون حياته المنزلية حيث زوجه وأولاده لكنه سرعان ما طرق الفكرة التى تجول برأسه وتشغله عندما وجد الفرصة مناسبة وهو مع صديقه فى غرفة النوم . قال سعيد : بودى يا عزيزى لو تصبح صلتنا أقوى مما هى عليه اليوم وتكون أنت من جانبك قد أسديت لى معروفاً يتضاءل دونه كل ما أقدمه لك من جميل وتكريم ، وعاجله حبيب وهو بادى الاهتمام بما سمعه : من ناحيتى أنا فإننى أوافقك على كل شىء فى مقدورى تأديته فأوضح لى قصدك فابتهجت نفس سعيد وهو يقول بارتياح : عرفت أن لك شقيقة

فاضلة ولست أدرى إذا ما عرضت طلبى فى التشرف بمصاهرتكم أأجاب ؟ أم أن هناك ما يحول دون هذا وإذ ذاك اعتدل حبيب فى مجلسه يقول بإخلاصه المعهود : لنا الشرف العظيم يا عزيزى الودود بهذه المصاهرة لو تم ولك أن تطمئن حتى أعرض الموضوع على سيدى الوالد الذى يحبك مثلنا فأرى رأيه بصورة صريحة .

وأغفى حبيب حينما أبى الكرى على أجفان سعيد وهاجت فكره مختلف الخواطر وأخذت تطوف بمخيلته شتى الصور لتلك الفاتنة (هند) التى لم يزره طائف الحب إلا فى هيكلها وهو قد جاوز الثلاثين من عمره وراح يتخيل أحلام الغد السعيد والأمانى التى ستزدهر بها حياته حين تشاركه فيها (هند) ويتبادلان الحب فتتعلق به تعلقه بها وليست كعلاقته الباردة بزوجه التى لم يتزوجها إلا برغبة والديه ولم يكن يجد فيها إلا إنسانة ولوداً قدر لها أن تستظل به وتربى تلك الكتل الثمانية من اللحم البشرى وقد ترهل جسمها وامتلأ امتلاء غير محمود مما جعل (سعيد) منذ أكثر من عامين ينام وحده ويحمد الله على عطائه صابراً ينتظر لحظة الفرج . وهكذا لم تغمض عيناه إلا لماما .

وقد كتم حبيب عن صديقه أن شقيقته مخطوبة منذ عام لابن عمها الضابط الذى سبق تعيينه فى إحدى مقاطعات الحدود لمدة عشرة شهور لم يبق إلا قليلها ويحضر لإعلان زفافه ذلك أن حبيبا كان يود صديقه لحد الإجلال ولا يريد أن يلقى إليه بالنبأ خشية على شعوره وعاطفته أن تجرح .

وفى اليوم التالى وبعد عودة حبيب من عمله ظهراً إذ دخل عليه سعيد وأخذ مكانه بعد أن حيا صديقه وابتدره حبيب بقوله : هذه رسالة من ابن عمنا الضابط يبشرنا فيها بقرب مجيئه ولا أكتمك نبأ ارتباطه مع أبى بعهد أخذه عليه والده قبل وفاته ليتزوج بأختى الوحيدة وإننى لأرجو ألا تستاء من هذا الاتفاق أو تظن بنا ظنا سيئا والذى أستطيع عمله الآن هو أن أتنازل لك عن ابنة خالتى وهى فتاة رائعة جميلة كنت عازماً على البناء بها فى ربيع العام القادم .

وتطامنت نفس سعيد لهذه النتيجة بعد أن كان قد اكفهر وجهه بعض الشيء وأجاب بصوت هادىء وعلى ثغره ابتسامة صافية :

لقد بالغت فى الإحسان إلىّ وغمرتنى بفضلك حتى لا أستطيع الإبداء برأيي إلا بالموافقة بشرط واحد هو أن تقبل الزواج من ابنتى الكبرى إن كانت قد راقتك وحظيت باستحسانك . وهنا قام حبيب يشد على يد صديقه بابتهاج قائلا : يا للسعادة إنها لا ينقصها من صفات الخلق والجمال شيء أنا موافق وهنا قاطعه سعيد قائلا : أصارحك يا حبيب بعجبي من أمر نفسي كيف تحولت عما ليس فيه نصيب وسكن روعها وقد كنت البارحة فى شاغل معها أقلقنى حتى سهرت معظم ساعات الليل وكأنما قد مسّ قلبي جنون الحب . أكاد أنسى ما كنت فيه وأهنيء نفسي على ما توصلت إليه وفازت به على يديك وإننى لسعيد الحظ بتصرفاتك الإنسانية هذه ولا غرابة فى هذا فأنت من بنى هذه الأرض المقدسة هذه الديار الكريمة الحبيبة إلى قلب كل مؤمن وهنا سمعا بصوت الشيخ والد حبيب يتنحنح وبخطواته الثقيلة تقترب وبعصاه تقرع الأرض كأنما تعلن مجيئه وهو يريد تنبيههما إلى الغداء فتقدم الصديقان إلى الشيخ يرحبان به ويلثمان يديه بمحبة وتقدير ثم يستمعان لصوته المتهدج وهو يتقدمهما إلى حيث وضعت مائدة الطعام : لقد سمعت كل ما دار بينكما والحق يقال يا أبنائى إننى لم أعهد طيلة عمرى مثل وفائكما لبعضكما وتوافق أمزجتكما ونظراتكما حسنا فعلتما هذه هى الأخلاق الإنسانية وهكذا يجب أن يتعامل إخواننا البشر . الوفاء الوفاء يا أبنائى عزة فى النفس وكرامة فى الخلق ودعة فى الشعور إنه أثمن هبات الحياة وطوبى للأوفياء .

هذه الأقصوصة تحكى قصة كفاح حبيب ذلك الفتى الذى تحمل عبء أسرة وهو بعد فى مقتبل العمر وقد كان ذا شخصية مكافحة قيادية رياضية وقد توج كفاحه بالنجاح وهذا شيء طيب ولكن الذى نقف أمامه متسائلين هو رغبة سعيد فى مصاهرة حبيب .

ودوافع تلك الرغبة أشبه ما تكون بالمقايضة التجارية فسعيد يقول

حبيب بعد أن أصبح الأول عميلا للثانى : بودى يا عزيزى حبيب لو تصبح صلتنا أقوى مما هو عليه اليوم وتكون أنت من جانبك قد أسديت لى معروفاً يتضاءل دونه كل ما أقدمه لك من جميل وتكريم .. المسألة إذن تبادل منفعة وإن كانت إحدى المنفعتين أثمن من الأخرى .

وكأن هجرة سعيد من القاهرة إلى المدينة كانت من أجل دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها على أن الأقصوصة تثير مشكلة اجتماعية مهمة تقع فى أمكنة كثيرة من العالم وليس فى مصر وحدها مشكلة زواج الابن برغبة والديه واختيارهما وإصرارهما كأنهما اللذان سيعاشران الزوجة وليس ابنهما وليس من شك أن فى هذا سوء استغلال للسلطان الأدبى للأبوين تجاه ابنهما وأن كثيراً من الزيجات التى تتم بهذا الأسلوب تخفق ويكتب لها الفشل إذ لا تلبث العلاقة الزوجية أن تنهار حين يرى الابن فتاة أحلامه على نحو ما حدث لسعيد حين وقع نظره على هند ولكن حيل بينه وبين ما يشتهى وكان من الممكن تعميق الصراع فى هذا الموقف ولكن الأديب السعودى لا يحب الصراع ويميل إلى حل مسائله سلميا ومن ثم جنح الكاتب بسعيد إلى فتاة أخرى بعد أن كاد يجن بجمال الأولى (هند) التى لم ير مثل حسنها ولم يزره قط طائف الحب إلا فى هيكلها والتى احتقر بسببها زوجته وأم أولاده التى زوجوه بها رغم أنفه فلم تكن (إلا إنسانة ولوداً قدّر لها أن تستظل به وتربى تلك الكتل الثمانية من اللحم البشرى وقد ترهل جسمها وامتلأ امتلاء غير محمود) وما ذنب هذه المسكينة فى ترهل جسمها وامتلائه امتلاء غير محمود إلا أنها أنجبت ثمانية أولاد من هنا كان الترهل وكان الامتلاء غير المحمود وسترهل هند أو قريبتها حينما تنجب مثل هذا العدد . والأعجب من هذا أن العربى الغيور (حبيب) يتنازل لسعيد عن ابنة خالته وهى فتاة رائعة جميلة وكان حبيب عازماً على البناء بها (ليس فى طبيعة النفس البشرية شىء من هذا وفى بيئة كانت فى ذلك العهد (١٣٧٤ هـ — ١٩٥٤) حديثة عهد بالبداوة لقد حدث شىء قريب من هذا فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ولكن كانت له دواعيه وظروفه الخاصة فما الداعى إلى هذا فى

قصة سعيد وحبيب وما سرّ التحوّل من هند إلى ابنة خالتها ؟ لأن هنداً مخطوبة ؟ لكنها كانت حب سعيد الأول والتحول بهذا اليسر وبتلك السهولة لا يتم إلا فى الأدب السعودى ومن ثمّ عجب سعيد نفسه لهذا التحول مجرد عجب وذلك حين يقول مخاطبا صديقه حبيب (من لى بإنسان يتنازل عن إنسانة علق عليها آماله وتمناها لنفسه . أصارحك يا حبيب بعجبى من أمر نفسى كيف تحولت عما ليس فيه نصيب وسكن روعها وقد كنت البارحة فى شاغل معها أقلقنى حتى سهرت معظم ساعات الليل وكأنما قد مس قلبى جنون الحب) سعيد يقول هذا ويتركه بدون تفسير ولكننا نحن نفسره بأنه زواج منفعة تستوى فيه هند وابنة خالتها وما حدث البارحة والبارحة فقط كان هيجانا عاطفيا أو انفعالا مؤقتا تبخر مع ظهر اليوم التالى والأعجب من كل هذا أنه لا رأى للفتاة لا لهند ولا لإبنة خالتها فالأمر بيد الرجل والرجل وحده سواء أكان سعيد أم حبيب أم والد هند أم والد حبيب أم الضابط السعودى خطيب هند مع أنه فى شريعة الإسلام لابد من موافقة من ستكون زوجة وقد اشتكت المرأة المسلمة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه من مثل ذلك وأن أباها زوجها وهى غير راضية فقال لها : إن شئت فرقت بينكما » ولكن البنت احترمت أباها ولم تشأ أن تلحق به إهانة . إنه على العكس من هذه الأقصوصة كانت أقصوصة (نبل ووفاء) حيث عفّ فؤاد عن (ياسمين) بعد أن أحبها لأنه تأكد أنها تحب (نزيه) وكان للفتاة (ياسمين) دور إيجابى فيما حدث حيث تحركت وأجرت حديثا صريحاً حول الموضوع مع الغريمين وانتهى الأمر بزواج ياسمين بنزيه على ما سيجىء فيما بعد .

والأقصوصة تصور ذلك الترابط الوثيق بين المصرى والسعودى الترابط الأسرى والترابط التجارى إلا أن عنوانها غير دقيق .

وفى تصورّى أن العنوان المناسب واحد من اثنين (منفعة) وذلك مأخوذ من موقف سعيد حين رغب إلى حبيب فى الزواج بأخته أو (إيثار) وذلك مأخوذ من موقف حبيب حين آثر صديقه بابنة خالته .

وفى ختام القصة دعوة جميلة إلى تحطيم الحواجز ليس بين مصر والسعودية فحسب بل بين بنى الإنسان حيث يقول الشيخ والد حبيب مباركاً صنيع الصديقين (حسنا فعلتما هذه هى الأخلاق الإنسانية وهكذا يجب أن يتعامل إخواننا البشر فلو تحلى بها جميع الناس لتسالموا وعاشوا فى أمان) .

الاتجاه الاجتماعى وقصص الأسرة السعودية :

١ — محمد على مغربى فى (المترهبة [١]) ضحية الحب الأعمى .

من المشاكل الاجتماعية الصعبة مشكلة الزواج . أثارتها الصحافة وعنى بها المفكرون والأدباء . والمؤلم فى هذه المشكلة أن العبء الأكبر فيها يقع على الفتاة وأنها تلقى العنت من أبيها وإخوانها بدافع الحب والرغبة فى إسعادها كمن يستعمل الفأس لإزالة الذبابة من على رأس صاحبه والمملكة العربية السعودية متسعة الأرجاء ممتدة الأطراف وبالرغم من ذلك فإن المشكلة تكاد توازى رقعة الأرض الفسيحة وحين تعلمت الفتاة السعودية كان المأمول أن تنكسر حدة المشكلة إلا أن المشكلة شملت الفتاة المتعلمة وغير المتعلمة وأسهم فى تعقيدها أناس على درجة من التعليم .

والصحافة وهى مرآة المجتمع وقلبه النابض قد أدركت خطورة الأمر وضرورة العمل على حل المشكلة عن طريق تسليط الأضواء عليها وإخراجها من أوكارها لتسقط عليها أشعة الشمس فانبرى الأدباء يعرضون المشكلة فى أسلوب أدبى أخاذ .

وها هو الأستاذ محمد على مغربى يعرض علينا أقصوصة فتاة حجازية نسج الخيال وقائعها وإن كانت الفكرة مستمدة من صميم الحقائق الملموسة والغرض الأول منها التنبيه إلى فكرة تشجيع الزواج وتبسيط وسائله والبعد عن التعقيدات الموروثة عن طريق التقاليد السخيفة الممجوجة ذلك ما تحكيه أقصوصة « المترهبة » .

---

(١) المنهل عدد شوال وذو القعدة ١٣٥٧ ه .

عرض القصة :

نشأت زهرة يانعة محاطة بحب أبيها الشيخ ووالدتها الحنون وإخوانها فقد كانت الفتاة الوحيدة ، وكانت الصغرى فقد وهب الله الشيخ من الذكور ثلاثة أحسن تربيتهم وكانوا مثالا للشباب الطامح والنشاط الوثاب والخلق القويم .

ولكن الشيخ كان يتمنى على الله أن يرزقه بفتاة يرى فى عينها براءة الطفولة وطهرها وجمال الشباب وروعته فيتذكر بها أيام شبابه الأول وعهده النضير .

وتحققت أحلام الشيخ فولدت له سعاد ناضرة زاهرة فكانت له عزاء الشيخوخة وذكرى الشباب وكانت لأمها الحياة الجديدة كانت ترتجيها حينما تكبر لتكون لها أختا تعتمد عليها وتبثها أسرارها وتحدثها بأحداثها ومتاعبها ، وكان فرح أخواتها شديداً بها .

وفى هذا الوسط الذى كله حب ورعاية نشأت سعاد أجمل نشأة وتربت أحسن تربية واكتمل عودها ونضجت فكانت فتاة فتانة حقا ولم يضن عليها أحدهم بشىء مهما كان غاليا فنشأت مدللة مترفة سعيدة لا تعرف الهم والحزن وازداد على مدى الأيام حب الشيخ لفتاته وحرصه على الجلوس إليها واستماع أحاديثها .

وتقدم الكثيرون إلى الشيخ يطلبون يد فتاته ويبذلون له الكثير مما يطلب فلم يكن جوابه لهم إلا الرفض الصارم الأليم .

فالشيخ كان لا يطيق لفتاته بعداً ولا يستطيع أن يتصوّر كيف يمكن أن تخلو حياته منها ساعة أو يوماً وكانت الفتاة سعيدة بادىء ذى بدء مطمئنة إلى أن أباها لابد وأن يحسن لها اختيار الشريك وإن كانت هذه الأفكار ، لا تتعدى ذهنها إلى لسانها فقد كان هذا معناه العار والموت والسقوط الذريع .

أجل ليس للفتاة أن تشير أو تتكلم وليس عليها إلا أن تسمع وتطيع ولكن نوايا الشيخ لم تلبث أن ظهرت لفتاته واضحة جلية وما لبثت أن أسر إليها أترابها من الفتيات ما يتناقله الناس من أن أباها لن ينوى تزويجها ونقلن إليها ما يمكن أن تؤثره هذه الفكرة فى أذهان الناس فتبعثهم على الانصراف عنها وعدم التفكير فى خطبتها وكانت هذه الفكرة صحيحة أعمى الشيخ حبه لفتاته فلم يفكر أنه بهذا الإصرار والعناد يعرض فتاته للخطر الأخلاقى وأنه بهذه الأنانية المفرطة يجعل حياتها سوداء شاحبة كحياة القبور .

كان يرى أنها سعيدة فى داره فما حاجتها إلى الزواج ، وكان من العسير إفهامه ما فى هذا الرأى من خطل وكان أبناء الشيخ يحسون ما فى تعصب أبيهم وأنانيته من خطأ غير أنهم لم يستطيعوا أن يشيروا إلى هذا إشارة ضعيفة فكلمة واحدة كانت تثير أعصاب الشيخ وتقلق هدوءه .

وكانت والدة سعاد تتمنى لابنتها زواجاً سعيداً لتربى أبناءها ولتكون جدة تعتز بأحفادها ولكن الشيخ يأبى وإباؤه عظيم .

لم تلبث سعادة الفتاة أن انقلبت شقاء وذوت كما يذوى الغصن انقطع عنه الماء لأن فيه الحياة كانت سعاد تتمنى أن لو كان لها من الحرية ما يمكنها معه أن تقول بفصيح العبارة إن سعادة الفتاة ليست فيما يقدمونه لها من متاع وزينة ويحيطونها به من حب وتقديس .

كانت ترثى نفسها فقد كانت ترى أنها كالقطة المدللة بل إن للقطة حريتها الجنسية التامة ، أما هى الفتاة الجميلة المترفة فقد كانت محرومة من المتع التى هيأتها لها طبيعتها والتى تقضى بها دوافع الشباب والحياة .

وكانت هذه الأفكار تحز فى قلبها حزناً أليماً فإن من العار أن تحدث إخوانها فى أمر كهذا فتقاليد البيت وشرف الأسرة وعادات المجتمع كل هذه حرب على الفتاة الضعيفة فهى محرومة حتى من العزاء الذى هو أرخص بضاعة لدى المحزونين .

كانت تتصارع فى قلبها فكرتان :

فهى تريد أن تنتقم لشبابها الذاهب وجمالها المضاع ، وهى تريد أن تنتقم من أبيها وحبه الكاذب وهى تريد أن تثأر لجنسها لدمها الحار . لشبابها المتوثب وليس لهذا طريق غير طريق الغواية وإطاعة الهوى .

وكيف يكون هذا الفتاة اسم بيتها رأس مال كبير ، وكيف يكون هذا لفتاة لا تعرف غير العفاف والطهر حارت كثيراً فيما تفعل وكان أبوها وإخوانها يلحظون ما وصلت إليه حالها من سوء غير أن أحداً منهم لم يكن يجرؤ أن يقول إن السبب فى هذا هو الضغط على حريتها وقتل شبابها ودفنها حية فى هذا القبر الذهبى .

وتزوج إخوانها الثلاثة فأشرقت فى سماء البيت نجوم ثلاث وسعد الإخوان الثلاثة بمباهج الزواج فأغدقوا على أختهم الهدايا ولكنها كانت تنظر إلى كل هذا نظرة سوداء كانت تحتقر كل ما يقدم لها لأنها كانت ترى فيه صك عبوديتها وثمن حريتها وطال أمد سجنها فمرضت وانطرحت على على فراشها حزينة شاحبة تعصف بها الحمى .

ولم يدخر أبوها وسعاً فى إنقاذها لكن حالها كانت تسوء يوماً بعد يوم ووجدت فى مرضها راحة فانصرفت إلى التفكير الهادىء فى حالتها ومآلها والمرض من طبيعته أن يكسر من حدة العواطف وأن يحد من نشاط الأعصاب وثورتها فارتأت أخيراً أن للقدر فى حالتها يداً غير منكورة فأسلمت أمرها لله واستكانت إلى قضائه ورضيت بقدره بل انصرفت بكليتها إلى عبادة صامتة وتفكير روحى عميق فيه الاستسلام للقضاء والرضوخ للقدر وهكذا قدر لها أن تقضى شبابها مترهبة .

ومن لنا أن يعرف الآباء ما فى نفوس الفتيات فيجتنبون دفنهن فى الحياة .

التحليل : وقعت أحداث هذه الأقصوصة فى العقد الأول من النصف

الثانى للقرن الرابع عشر للهجرة وفى بيئة الحجاز حيث ظهر الإسلام الذى لا يعترف بهذا الأسلوب فى معاملة البنات بل إنه ليقول :

إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوّجوه إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير .

أما شخصيات الأقصوصة فتتمثل فى الأب المتسلط ، وفى ابنته سعاد ضحية القسوة والتحكم ، وثلاثة إخوان لا حول لهم ولا قوة وأم تلعق جراحها أما الأب الشيخ فكانت أمنيته أن يرزق بفتاة يتذكر بها أيام شبابه الأول وعهده النضير فرزقه الله « سعاد » فأحبها حباً أعمى فهو لا يقدر على فراقها ولو كان فى هذا الفراق سعادة البنت بالزواج ولذا صرف عنها خاطبيها . وفى تصورى أن هذا ليس حباً بل إصرار وعناد وأنانية مفرطة وكفى بهذا الوالد إثما أن ضيع ابنته وأسلمها إلى المرض .

وأما بطلة القصة سعاد فقد نشأت نشأة مدللة مترفة وسعدت بأبيها وظنت أنه سيحسن لها اختيار الشريك المناسب لكن موقفها كان سلبيا فلم تحدث أباها ولا أحداً من إخوانها بل ولا حتى أمها فى هذا الشأن فليس لها أن تناقش هذا الموضوع الذى يقرر مصيرها وإنما عليها أن تسمع وتطيع وبعد أن رفض أبوها تزويجها انقلبت سعادتها شقاء بعد أن حرمت حقها فى الحياة الجنسية وهى الفتاة الجميلة المترفة وثار فى نفسها حب الانتقام لشبابها الضائع والانتقام من أبيها وليس لهذا من طريق غير طريق الغواية وإطاعة الهوى .

ولو أن الكاتب دفع بالفتاة إلى هذا الطريق لكان إنذاراً مروّعاً لأولئك القساة الغلاظ ولكان تنفيسا لهذا البركان الزاخر وقد أشار بعض الأدباء على الكاتب بهذا بأن تكون خاتمة الأقصوصة أثمة تنتهى بطاعة الفتاة لعوامل الهوى ونزغات الشيطان لتكون هذه النهاية القاسية متفقة مع البداية المسرفة فى العنت ولتكون العبرة فى الأقصوصة أتم والعظة فيها أوقع ولكن الكاتب لم ير هذا الرأى لأنه حينما كتب الأقصوصة كتبها عن الفتاة الحجازية التى

يؤثر عنها العفاف. والأدب والخلق الوثيق وهذه أمور تحول بينها وبين الانزلاق فى مهاوى الفسوق .

لقد كان انزلاق الفتاة كفيلا بأن يعمق الصراع ويلهبه ويخدم العمل الفنى خدمة كبرى لكن حرص الكاتب على سمعة الفتاة الحجازية كان على حساب السمعة الفنية فخمدت الجذوة وانطفأ لهيب الثورة وألم المرض بالفتاة فهدها وأمات عواطفها وأسلمها للعبادة وقت الضعف لا وقت القوة فهى مترهبة لا عن قناعة بل كما يقول المثل الشعبى « قصر ديل » إنها حية موءودة وضحية من ضحايا القهر والعبودية .

إما إخوانها فكان موقفهم سلبيا لم يجرؤ واحد منهم أن يخاطب أباه فى مأساة أخته بل تزوجوا ونعموا بالحياة والمسكينة ترى ذلك من حولها فتلعق جراحها فى صمت وتبكى ولكن بغير دموع .

ولم يكن موقف الأم أحسن حالا من موقف أبنائها فهى تتمنى لابنتها الزواج والإنجاب ولكنها لم تعمل شيئاً .

إن أصابع الاتهام تشير إلى الأب وتسلطه وإننا نهيب بالأب أى أب أن يستفتى قلبه ودينه ويرعى أمانته فى بناته فوق هذه الأرض المقدسة .

بين زوجة الابن والأم فاطمة

للأستاذ محمد أمين يحيى [١]

تعالج هذه الأقصوصة العلاقة بين زوجة الابن وأمه وهى علاقة شديدة التعقيد فالزوجة كانت تحلم بأن تكون ربة بيت وبيتها مملكتها وزوجها حبيبها فإذا انضم إلى ذلك إنجاب الأطفال ومراقبة الله من قبل ومن بعد ومن جانب الزوج وجانب الزوجة فقد اكتملت السعادة من أطرافها بيد أن الحماة أم الزوج ترى أنها هى التى تعبت وربت الزوج وجاءت زوجته فاستولت عليه وانتزعته من بين أحضان أمه ومن ثمّ ينشأ الصراع ويحتدم النزاع ولو ردوه إلى الله ورسوله وقبل الجميع الحكم الإلهى لانحسم النزاع وحل الوئام محل الخصام وهكذا يعيش الناس فى حيرة وتردد وقلق حين يبتعدون عن نور الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال .

وعلى كل حال فإن الأستاذ محمد أمين يحيى فى مقدمة أقصوصته يعرض لنا مشكلة موجزة ثم يفصلها بعد ذلك ويترك الأمور تتعقد وتتأزم إلى أن تتدخل المصادفة ويتدخل القدر ليميز الله الخبيث من الطيب .

فالزوجة الصالحة إنسان كريم الزوجة التى تحتمل الآلام لهناء زوجها هى الزوجة المثالية التى تكسب رضا الله وتفوز بالنعيم « أنا أحب حماتى » كلمة تقولها فاطمة كلما خلت إلى زوجها ولكن زوجها (حمزة) ينظر إليها فى شك وتساؤل ذلك أنه لا يصدق أن زوجة فى الدنيا تحب حماتها وإن حدث ذلك فهو أمر عجيب يستحق البحث غير أن (حمزة) لا يلبث أن يربت على كتف زوجته بحنان حين يلمح طابع الصدق فى نظرتها وحركاتها فإذا خلا إلى أمه راح يصف لها حب زوجته العميق لها ولكن الأم تهز رأسها هزات متتالية وتقول له :

إن هذا هو الحال بعينه وإنها هى التى تحب فاطمة ولكن القسمة والنصيب

(١) منهل جمادى الثانية ١٣٧٣ هـ .

تجعل فاطمة تكرهها فى الباطن وتظهر لها الود مجاملة من أجل زوجها (ومن أحب السقا وجب عليه أن يحب قربته).

تلك هى المشكلة زوجة صادقة وفية لزوجها حريصة عليه وعلى بيتها وزوج يبادلها نفس الشعور لكنه ينظر إلى أمه التى وصفت زوجة الابن فاطمة بصفة متأصلة فى الأم فالقسمة تجعل فاطمة تكرهها فى الباطن وتظهر لها الود مجاملة من أجل زوجها ، عملية إسقاط نفسى فالأم أسقطت على فاطمة ما تتصف الأم به.

وعلى كل حال فقد مضت الأيام وفى نفس الابن ثورة تريد أن تتفجر وفاطمة تدعو الله مخلصة أن يجنبها شر المعركة وتسأله أن يحفظ عليها زوجها وطفلها وأن يوفقها ليصدقها فى حبها له وإجلالها لأمه.

وأما الزوج فكان أمينا على وفاء زوجته واثقا بأنها شريكة حياته ترعى حق الشركة وتحفظه فى عرضه وماله وولده وتهيىء له ما يتمنى من سعادة وراحة. على أنه كان فى حيرة عارمة يضطرب بين آراء أمه وأقوالها واتهامها لزوجه وبين خضوع الزوجة الصالحة الراضية.

ولا ينسى الكاتب فى ختام هذا الموقف أن يقف ليعلن أن للصبر حدوداً ينتهى عندها وإذا نفد الصبر ثارت النفس ولا سيما إذا كان هناك عدوان على الكرامة والشرف وعلى كل فمازالت الأم تتربص بزوجة الابن الدوائر وهاهى فرصة تسنح لإشعال الفتيل فقد ظهر على مسرح الأحداث شاب اسمه (عمار) فى الثلاثين من عمره طلق المحيا فكه الحديث غض الإهاب وهو أخ فى الرضاعة لفاطمة ولكنه كان منذ حداثته فى سفر طويل لم يعد منه إلا وشيكا فراح يتساءل عن أهله وأقربائه وذكر أن له أختا من الرضاعة فدل على بيتها وعلم أنها زفت إلى (حمزة) فما هو إلا أن يندفع مهرولا ويسأل حتى يهتدى إلى البيت فيزور أخته التى استقبلته بترحيب وعناق وبالغت فى إكرامه. فأما الحماة فأنكرت أنها تعرف هذا الزائر لكنها أضمرت فى نفسها على شىء فجاملت الرجل وغافلته حتى سرقت منه (منديله)

وانصرف الضيف واعداً بزيارة أخته فى حضور زوجها بعد يسير من الأيام ودبرت الحماة أمرها وأصرت على رأى وعندما عاد ابنها اختلت به وطعنت فى شرف زوجته وقالت له إن رجلا كان عندها وهذا أثره (منديل) وفوجىء الزوج ووقع فى حيرة . أهذه زوجته الطيبة المصون التى يحبها ويعتقد أنها تصونه فى عرضها غائبا كما تصونه حاضراً ؟ لقد تأزم الموقف وبدأ الشك يتسرب إلى قلب حمزة .

وهنا يدعنا الكاتب وقد التهب الموقف ليروى لنا فى إيجاز شديد شيئا عن طفولة فاطمة ونشأتها لأنها فى نظر الكاتب بطلة القصة . إنها ابنة رجل فقير مات عنها لعام واحد من ولادتها وكفلها هى وأمها خالها ذلك الرجل الطيب العطوف وشاء القدر أن يختطف أمها وهى بعد فى الثالثة فقامت على تربيتها زوج خالها واتخذتها ابنة تمحضها الحب وتبرها لأنها كانت عجوزاً عقيما لم تنعم بلذة الذرية .

وبعد أن تزوجت فاطمة لم تكن تزور أهلها إلا لماماً على رغم ما تكنه لهم من حب وتقدير ولم يكن أهلها ليزوروها إلا فى الواجبات أو حين يبلغهم أنها موعوكة أو مريضة وما داموا يسمعون أنها سعيدة راضية فذلك حسبهم .

وبعد هذه الوقفة القصيرة عاد الكاتب بنا إلى حلبة الصراع فقد أشرق صباح يوم جديد ليعلن لحمزة قدوم طفلة جديدة جميلة وضعتها فاطمة غداة اليوم الذى قذفتها فيه حماتها بالقنبلة الفظيعة واحترم الزوج شعور زوجته بيد أنه لم يتمكن من إخفاء انفعالاته وما يعتلج فى نفسه من شك وألم فكان إذا جلس إلى زوجته لزم الصمت تحدثه فلا يجيب إلا باليسير من القول ثم يستمر فى وجومه وتقطيبه . ولاحظت هذا القطوب وكبر عليها هذا الغدر تتلقاه من الرجل الذى وقفت نفسها وحياتها لإسعاده ولكنها لم تجرؤ على سؤاله ولم تجسر على مفاتحته . على أنها كانت تشعر فى أعماقها أن هناك حدثا قد طرأ وإن كان خلف الستور ومكيدة دبرت لهدم العش الهانى والمغنى

الحبيب.. وبجاءتها الحقيقة صريحة حين اختلت بها حماتها وأعلنتها أن زوجها قد اكتشف علاقتها بشاب وأن تلك العلاقة قديمة نشأت قبل زواجها وأنها كانت تدافع عنها أمام ابنها ولكنه مصر على رأى وعازم على أمر . وجن جنون الزوجة وافترستها حمى جمعت بين آلام النفاس وآلام الصدمة القاسية وفرحت الحماة بهذا النصر وهى ترى ضحيتها تلتطم على صخور مكايدها ضعيفة عاجزة لا تجد النصر ولا تلقى المعين .

وهنا يترك الكاتب الأحداث ليقف وقفة تأمل يبكى خلالها على أولئك الذين يتغانون فى الحب ويراهم تعساء أشقياء قد جارت عليهم الحياة دون ما رحمة فهم مستضعفون فى الأرض وهم أكثر بكثير من طائفة العداء ولكنهم على كثرتهم ضعفاء .

ثم عاد الكاتب إلى سير الأحداث فوجد الزوجة ما تزال فى حيرة فريسة الألم ضحية الشك القاتل ، والزوج لا يتصرف لأنه لا يعرف كيف يتصرف وانقضت عشرون يوماً والحماة فى فرح وحياة مذبذبة بين النفاق والمحاملة . وصلت الأحداث إلى الذروة وبلغت العقدة نهايتها فما الحل ؟ إنه فى يد القدر وبمحض الصدفة . فقد شاء القدر أن يحقق البراءة لفاطمة والنصر لشرفها فإذا حمزة يصدم بشاب لا يعرفه صدمة كادت توقعه أرضاً فتماسك ووقف يتبين الصادم فإذا هو إنسان يشد على يديه ويقول اه :

أهلا بزوج أختى . مرحبا بصهرى العزيز وأسقط فى يده وهو يسمع هاتفا يلقى فى أعماقه (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم) وسحب الرجل يده من يده وأخذ يستوضح منه الصهارة فعرفه بكل شيء فأخذه إلى داره وأدخله على أخته التى قامت تحييه وكان بها مرض وحزن . وكشف الزوج لزوجته الحقيقة أمام أخيها واعتذر إليها مكبا على يدها يقبلها بحرارة فمسحت رأسه وقبلته وهى تبكى وتضحك ثم رجته مقسمة عليه أن لا يكدر حياة عمها وأن يحتفظ بالسر لأنها لا تريد أن يكدر حياته وحياتها فوعدها خيراً وانقضت ثلاثون يوماً واشتد المرض بفاطمة رغم ما بذله حمزة من جهد

لتعيش لزوجها وطفلها وضاعت جهود الأطباء عبثا فقد ذهبت فاطمة إلى عالم الخلود نفساً طاهرة وكانت آخر كلماتها لزوجها (يا حمزة أوصيك بأولادنا وأرجو أن تسمى « سميرة » فاطمة لتذكرنى بهـا) وتشهدت والتفتت إلى حماتها وقالت :

أما أنت فالحساب هناك وعندما يتزوّج ابنك بأخرى سترين ولكنى أسامح ولفظت أنفاسها الطاهرة .

وبذلك تكون القصة قد انتهت لأن البطلة قد ماتت بعد أن اتضحت براءتها لكن الكاتب ولد من عباراته الأخيرة التى أنطق بها فاطمة وهى تلفظ أنفاسها ولد من هذه العبارات أقصوصة أخرى . فقد انقضت أعوام وألحت أم حمزة على ابنها أن يتزوّج فإن الدين لا يجيز لشاب مثله لم يبلغ الكهولة أن يظل أرمل ، واستبد به إلحاح أصحابه ولكنه مع ذلك الحال كان مصراً على الترمل . ولما كثر إلحاح أمه وأصحابه استخار الله ووعدهم أنه سيطلب إلى الله رؤيا فاطمة فى المنام فيسألها رأيها فإن أذنت له تزوّج وإلا فعلى الزواج السلام مدى العمر . وحقق الله أمنيته فرأى زوجه فيما يرى النائم تربت على ظهره بحنان وتقول له : تزوّج أطع دينك وأنا واثقة من حبك ولكن لا تنسى أولادك) ثم تختفى .

بنى حمزة بزوجه الثانية (ناهد) وكانت فتاة لم تبلغ السادسة عشرة بعد لعوباً مكسالا تنام الضحى وتسهر الليل إلى جانب المذياع أو الحديث مع الجارات وصبرت أم حمزة فى الشهر الأول والثانى والثالث ثم ضجر بها الصبر فبدأت تبذر الشقاق بل أخذت تنهال بقوارص الكلم على (ناهد) فتحملت الصبية أول الأمر ثم مالبثت أن أصابتها رعونة الشباب فاندفعت تكيل لحماتها الصاع صاعين وثارت الحماة وشكت لابنها ولكن هذا كان دائماً يصم أذنيه ويتعامى حتى ليكاد يسمع الشتائم تنهال على أمه من زوجه فيضحك فى سره . وعلمت الحماة أن الله أراد أن ينتقم منها جزاء ما أسلفت

لفاطمة من سيئات وجاءها مرض الموت وحاق بها نذيره فجمعت إليها ابنها وزوجه وأطفاله وطالبتهم السماح فتباكوا ثم تنهدت بصوت متحشرج رحم الله فاطمة أعترف صادقة أنني كنت قاسية عليها وأنني اتهمتها ظلماً وعدواناً وأنها بريئة وأن الله قد انتقم مني سامحني يا ولدي وأنتم يا أطفالي وأنت يا ابنتي (ناهد) ثم أدارت وجهها وتشنجت ولفظت أنفاسها الأخيرة .

وأول ما نلاحظه أن الكاتب لم يحل المشكلة فقد بقيت على ما هو عليه وأكبر الظن أنه لم يكن يرى لها حلا فحمزة لا يصدق أن زوجة فى الدنيا تحب حماتها وإن حدث ذلك فهو أمر عجيب يستحق البحث .. وفى تصورى أن الحل بيد الزوج إذا أدرك أن لزوجته عليه حقا وأن لوالدته عليه حقا وأدى لكل منهما حقه كما شرعه الله . على أن الاستقلال فى السكن والمعيشة ربما ساعد على حل المشكلة أو على أقل تقدير يخفف من مضاعفاتها .

لمحة رومانسية عن أزمة الوفاء فى (الإحسان الضائع) [١] :

للسيد محمد مليبارى

هذه الأقصوصة تعرض مشاهد موحية وتشارك الطبيعة فى عرض أحداثها فهذا هو بطل الأقصوصة محمود يفر من مستشفى المجانين ويعود إلى مكان كان يفضله ويقول : هذه هى المصطبة التى اعتدت الجلوس عليها كل أمسية وهذه هى الشجرة بذاتها فلأجلس تحتها لأستريح قليلا قبل أن أبحث عن مأوى آوى إليه الليلة ولكن لا أريد أن أعود إلى مستشفى المجانين لأنى لست مجنونا . يجب على أن أختفى فى غير هذا المكان ولكن لا قدرة لى على المشى لأن العدو والركض أنهكا قواى . بهذا حدّث محمود نفسه وقد جلس القرفصاء ودس رأسه بين يديه وأخذ ينصت إلى همسات النسيم التى تهبط إليه متخللة أوراق الشجرة . وهنا يدمج الكاتب الطبيعة فى أقصوصته على أنها أحد أشخاصها فهمسات النسيم الهابطة من بين أوراق الشجرة كأنها تهمس بقصته قائلة :

إنى أذكرك تماماً يا محمود ولو لم يكن معك عائض ذلك الطفل الذى عثرت عليه فى ظلالى على صدر أمه الميتة وشاهدتك حينما أقبلت وانتزعت الرضيع من صدر أمه الميتة ثم غيبته فى دارك وحملت أمه إلى مأواها الأخير .. هذا مشهد من المشاهد التى روتها النسائم عن ذكريات محمود تحت الشجرة وثمت مشهد آخر ترويه النسائم أيضا فهى تقول مخاطبة محمود كنت تروح وتغدو لتجلس فى مجلسك هنا ويأتى رفاقك وصحبك فتحدثهم بذلك الكتاب الذى لا يكاد يفارقك ولا تكاد تفارقه حتى ترتفع الشمس فينفض جمعكم على أن تعودوا بعد العصر وتستأنفوا الحديث إلى أذان المغرب ولما ترعرع « عائض » أرجأت حديث العصر إلى ما بعد المغرب لأنك كنت تلهو ساعة العصر مع غلامك عائض ذلك الغلام الذى لا يفتأ يرمينى

---

(١) منهل جمادى الأولى ١٣٧٤ هـ يناير ١٩٥٥ م .

بالحجارة حتى أرمى إليه ببعض ثمارى . إنى كنت عطوفاً عليه حسوداً لك على هذه النعمة التى أوتيتها بعد أن حرمك الله من الأبناء .

وظلت تختلف معه إلى هنا كل أمسية حتى بلغ مبلغ الرجال فاشترك معك فى الحديث .

أما المشهد الثالث الذى ترويه الشجرة لمحمود فمشهد عقد قران « عائض » تحت ظلال الشجرة فهى تقول : إنى أذكر تلك الليلة البهيجة التى رأيتك فيها وصحبك مبتهجين فرحين وأنيرت هذه البقعة بالثريات الكهربائية وفرشت حولى البسط الثمينة ولم أعلم بسر هذا الابتهاج إلا عندما حضر المأذون وعقد النكاح بين عائض وابنة المعلم درويش أحد صحبك فى الحديث .

ومرت ثلاثة أشهر لم أر خلالها عائضا فقد انقطع عن دارك كما انقطع عن حلقة الدرس وكنت أسمعك كل ليلة تحدث صحبك عن زيارتك له وعن تبرمك من انقطاعه عنك وانصرافه إلى التجارة .

أما المشهد الرابع مشهد الكارثة التى ترويه الشجرة لمحمود والذى حطم حياته وانتهى به إلى مستشفى المجانين فترويه الشجرة قائلة : وحلت بك تلك الكارثة التى لن أنساها واحترقت دارك وزوجك فيها عند صلاة الصبح من ذلك اليوم المشئوم ورأيتك تخرج من المسجد مذهولا تهم باقتحام النار المشتعلة وتصيح وتنوح وتأبى إلا أن تلج النار فاوثق المجتمعون كتافك . وأخذوك إلى حيث لا أدرى وأنت تهذى وتصيح وتشتم وتنوح كالذى به مس من الجن .

ومنذ ذلك اليوم ساد هذا المكان ظلمة وسكون كظلمة القبر وسكونه .

هذا حديث الذكريات وصور الماضى تتوارد على خاطر ذلك الهارب من مستشفى المجانين تحت ظلال الشجرة وفى ظلام الليل وبينما محمود يسمع همسات النسيم تروى إليه هذه الذكريات وتنقلها إليه من الشجرة إذ بمحمود يسمع وقع أقدام مقبلة من الشارع فرفع رأسه وسرح ببصره فى طول الشارع المختنق بظلام حالك وظن محمود أنه حارس المستشفى يتتبع آثار المريض

الهارب من المستشفى فماذا يعمل محمود ؟ أيهرب من المكان أم يختفى خلف الشجرة ؟ لا . لا إن أقل حركة منى تنبه بوجوذى هنا ها هو ذا يقترب .

أوه ما باله بدينا وعهدى به هزيلا إذن ليس هو . آه إنه عائض عائض . عائض . عائض .

ولم يحرك عائض ساكنا بل قال بمنتهى الهدوء : على الله يا شيخ .

على الله ماذا ؟ أو قد نسيتنى ؟ لا إن الظلام يخفى بعض ملامحى فيجب أن أدنو منه ثم دنا قائلا بصوت متحشرج : أنا محمود ياعائض هه محمود .

ثم نظر إليه فى ذهول وعلى وجهه تجهم شديد وأخرج محفظته ومد إليه يده بريال وقال بلهجة مقتضبة : خذ هذا واتركنى فإنى على موعد مع أحد أصدقائى الأثرياء فى حفلة ساهرة . ثم تركه ومشى وقبل أن ترسل ذكاء أشعتها على الكون فى صباح ذلك اليوم كان على باب مستشفى المجاذيب شيخ أوهن الكبر جسمه واشتعل رأسه شيبا يطرق الباب قائلا :

خذونى إلى حيث كنت ما دام لم يكن للإحسان ثمرة فى هذه الحياة .

عنوان هذه الأقصوصة مناسب تماماً فقد عض (عائض) اليد التى امتدت إليه وانتشلته من بين أحضان أمه الميتة وكأنه لا يعرفه وتجاهل العارف فى هذا الموقف مشين ورخيص . واعتماد الكاتب فى عرض أفكار البطل ومشاعره على المشاهد فيه تصوير للحياة الواقعة وتصوير لمثل أعلى فى المجتمع يتعرض لأزمة وفى التصوير لمحة رومانسية فى حديث الشجرة وأسلوب القصة وصورها تأسر القلوب وتنفر من مثل هذا المسلك الذى سلكه عائض مع من أحسن إليه .

ويمكن أن تعد أقصوصة (الإحسان الضائع) أقصوصة تمثيلية هادفة .

الترابط الأسرى الطاهر فى أقصوصة (نبل ووفاء) [١] :

هذه الأقصوصة نموذج طيب لما ينبغى أن تكون عليه العلاقات الاجتماعية بين الشباب فى هذا الوطن المقدس إنها تمثل طهارة الفتى وعفة الفتاة وتمثل الترابط الوثيق بين الأسر إنها تحمل قيمة عربية خالدة هى الوفاء ومن ثم فهى الوجه المشرق للشباب العربى .

فقد كانا تلميذين فى السنة الثانوية الثالثة ربطتهما أواصر الصداقة وكان الطالب الأول واسمه نزيه يكبر صديقه فؤاد بسنة واحدة ورغم ذلك كان فؤاد أكبر جسماً من صديقه وبالرغم من اتصالهما الدائم ببعضهما فقد كانا يفترقان أحيانا لأن نزيها يحب فتاة تسكن الحى الذى يسكنه فؤاد تعيش مع والديها فى بحبوحة من العيش وكان يلمح منها أنها معجبة به فتوطدت العلاقة بينهما وانقلبت مع الزمن إلى حب برىء وكان نزيه يجد متعة فى مصاحبتها إذ كانت ذات روح طيبة وثقافة واسعة فيها سذاجة الطفولة وإن أصبحت فتاة مكتملة الأنوثة .

دارت عجلة الزمن وإذا الفتور قد دبّ بين الصديقين وكان البادىء فؤاد وتعجب نزيه لذلك وذات يوم جلس نزيه على كرسى أمام نافذة تطل على المارة يراقب حركات المارة بسكون وهدوء متخيلا صديقه الذى طال أمد الفراق بينه وبينه وقال : يجب على أن أكتب له كتاباً أساله عن السبب الذى أدى إلى هذا النفور فقام من ساعته وتناول قلماً وقرطاساً وكتب إليه رسالة تعبر عما يجيش فى صدره من لوعة وأسى لفراقه وأنه لا يزال يكن له الإخلاص والوفاء ويأسف على هذا التغير كما يأسف لتأخر فؤاد فى الدراسة .

وقد أرسلت الرسالة بالبريد ولكن فؤاداً أخذها دون أن يلقى لها بالا

---

(١) منهل ربيع الثانى ١٣٧٤ هـ .

ووضعها على « طاولة [١] » أمامه وأخذ يقلب صفحات كتاب غرامى كان يطالعه ثم تناولها بعد ذلك وقرأ عنوان المرسل وإذا به صديقه ففض الرسالة وقرأها ولما أتمها وقف محتاراً وقال سائلا نفسه بأى شىء أصارحه ؟ وكيف أصارحه ؟ وأنا قد ارتكبت جريمة لا تغتفر بحق هذا الصديق وإن تكلمت بالحقيقة سيكون الوقع سيئا . وأخيراً قال على أن أكون وفيا لصديقى وأصارحه بالحقيقة فأكون بذلك قد أنقذت نفسى من البؤرة العميقة التى أتردى فيها وإن وفاء صديقى لى سيجد لى مخرجاً من هذه المحنة التى أقاسيها الآن ولكن كبرياؤه جعلته يعول عن ذلك قائلا يجب أن أرد الجواب له دون أن أبين له سببا فتناول قلمه وكتب إليه رسالة يقول له فيها إن صداقتنا أصبح لا وجود لها ومستقبلى يهمنى أكثر مما يهمك وعلى كل أشكرك لما أبديت نحوى وإنى سأعمل المستحيل لأكون متفوقاً فى مدرستى وسأحاول أن أمحو من مخيلتى السبب الذى جعل صداقتنا تتلاشى دفعة واحدة فاعذرنى الآن لأننى لا أستطيع عمل شىء تجاهنا ودم .

وكان نزيه ينتظر الرد على رسالته بفارغ الصبر فلما وصلت رسالة فؤاد فضها وقرأها بكل دقة واستنتج منها أن شيئا مختمراً فى رأس صديقه فاحتفظ بالرسالة عنده كذكرى لصداقة عزّ عليه ضياعها قائلا لعله يأتى يوم وأقرأها على مسمع من فؤاد وبعد أن أفرغ من الامتحانات سأعمل المستحيل لكشف سره الغامض . وانكب ساهراً على دروسه . وابتدأت الامتحانات وفى النهاية تفوق نزيه وكانت درجته فى صفه الأول وأما فؤاد فقد تأخر فى دراسته . ثم بدأ نزيه العمل على كشف السر وخطرت له فكرة عمد إلى تنفيذها غير مبال بما سيقوله الناس عنى ففى ذات مساء كان جالساً فى بيت (ياسمين) الفتاة التى أحبها فأفضى إليها بما يقلقه من نفور صديقه واقترح عليها أن تحاول الاتصال بفؤاد لأنها كانت صديقة لأخته فلعلها تستطيع بمساعدة أخته أن تكشف الحائل الذى يحول بين الصديقين .

(١) مصطلح شائع فى السعودية وهو مرادف لكلمة منضدة .

وبدأت ياسمين تعد العدة لمجابهة هذه المشكلة القاسية فجعلت تتقرب من فؤاد شيئا فشيئا مما جعل التفاهم بينها وبينه سريعاً وبدأ فؤاد يذكر لها ما يعانيه من شقاء ويبث لها همومه وذات يوم صرح لها بأنه يحبها وأن الفراق الذى حدث بينه وبين صديقه كان بسببها فقد كان يعرف أنها تميل إلى صديقه ولم يطق أن يرى صديقه منافساً له فيمن يحب فآثر الابتعاد عن طريقها وانتابته الوساوس والأفكار فلم يلتفت إلى دروسه .. حزَّ ذلك فى قلب ياسمين وأحزنها أنها كانت السبب فى الفرقة بين الصديقين وصممت على أن تعيد الصداقة إلى مجراها من أجل حبها لنزيه فكتبت إليه رسالة تخبره بما حدثها به فؤاد قائلة له :

ولذلك صممت على أن أبتعد عن طريقكما وأن أضحى بحبى فى سبيل سعادتكما .. ووصلت الرسالة إلى نزيه فقرأها وتعجب من هذه الفتاة وقال : إن هذه الفتاة أنبل من عرفت وهذه تضحية لا مثيل لها من جانبها .

وهنا أخذ يرسم خطة جديدة ، فقام من فوره وذهب إلى بيت صديقه وقرع الباب فوجد والد صديقه فدخلا معاً إلى غرفة ولده وجلسا وأخذ والد فؤاد يسأل نزيها عن تأخر ولده فى المدرسة ونزيه يدافع عنه وأخيراً قال نزيه سترى ولدك فى المقدمة إن شاء الله وساد الصمت برهة بينهما وأخيراً ستأذن والد فؤاد وخرج فألقى نزيه نظرة على طاولة صديقه فوقع بصره على وريقة فتناولها وجعل يطالعها وعرف أنها رسالة من ياسمين قالت فيها : عزيزى فؤاد .

لقد نفذت إلى أعماقك وعرفت عنك كل شىء .... وقد كتبت له رسالة وضحت فيها كل شىء واعلم أن نزيها أشرف وأنبل من عرفت وإنه ليسرنى أن أراكما وقد عاد الود والإخلاص إلى مجراه بينكما ويسرنى أيضا أن أضحى بحبى مختارة راضية فى سبيل سعادتكما ..

وإذا بصديقه يدخل فجأة فوضع الرسالة فى جيبه فدهش فؤاد عندما رآه جالساً على منضدته ثم مالبث أن عاد إلى هدوئه مرحبا به وتجاذبا الحديث

معاً وأخيراً أخرج نزيه الرسالتين وناولهما إلى صديقه وقال له : إقرأهما الآن على مسمع من والدك قبل أن يستقر به الجلوس فقرأهما فؤاد والعرق يتصبب من جبينه خجلاً وعرف والد فؤاد نبل نزيه ونبل الفتاة التي أحبها أما فؤاد فقد أكبر من صديقه هذا الوفاء وقرر أن يرد له الجميل مضاعفاً .

وكذلك أكبر في ياسمين تضحيتها وعرف أنها من النبل بمكان وعاد مجرى الصداقة إلى سابق عهده بين الصديقين بل زاد قوة . وكتم نزيه تجرح قلبه في سبيل الوفاء لصديقه .

وعاد فؤاد إلى سابق نشاطه واجتهاده ومرت الأيام وتقدم الصديقان لأداء امتحان (البكالوريا) وكانت النتيجة مشرفة لكليهما فقد كانا من الأوائل وبعد أفراح النجاح بيوم ذهب فؤاد مع والده لخطبة ياسمين من والدها ووافق والدها مسروراً وقال إنه لشرف عظيم لهم أن يكون صهرهم شاب أديب كنزيه . كل ذلك ونزيه لا يدري . وبعد مرور أيام قلائل دخل فؤاد على نزيه مصافحاً إياه بحرارة ومهنئاً له ولوالده وأهله جميعاً وهو يقول : لا زالت الأفراح في داركم فتعجبوا جميعاً وسألوه عن السبب فأجاب ضاحكاً ألا يحق لي أن أفرح في خطبة صديقي نزيه لقد كلفت والدي بخطبتها من والدها لصديقي فوافق على ذلك وقبلت نيابة عن صديقي ولم يقدر نزيه أن يكتم فرحته وأعلنت الخطبة وخطب فؤاد أخت نزيه وهكذا ازدادت الروابط بينهما تحيي صداقتهما الخالدة .

ثمت ملاحظات يجب أن تكون في الحسبان أولها مسلك الفتاة العربية وحرصها على أن تلم شمل الصديقين وحين تضحى الفتاة بحب طاهر عفيف فإنها تكون قد ضحت بأغلى ما تملك . والملاحظة الثانية هي حرص الكاتب السعودي على عدم تصعيد المواقف وزيادة الصراع توتراً فمعرفة نزيه أن فؤاداً غريمه وقد عرف ذلك في وقت انقطعت فيه الصلة بين الصديقين لقد كان ذلك كافيا لتزيد النار اشتعالا .

ولكن الأديب السعودي يرغب عن مثل هذا المسلك ولذا جاء دور

الفتاة ليصب المـاء على النار ولم تخل الأقصوصة من صراع غير مدمر كذلك الصراع النفسى لدى فؤاد بعد قراءته لرسالة نزيه فقد وقف محتاراً سائلا نفسه : بأى شىء أصارحه وكيف أصارحه وحاول إنقاذ نفسه من محنته ولم يتركها تعانى وتتمزق . والطابع الرومانسى يغلف الأقصوصة لا سيما وأن أبطالها كانوا فى سن المراهقة ومع ذلك تحكموا فى عواطفهم وكان معهم مسكة من عقل فارتبطوا بالواقع ولم يهيموا فى دنيا الخيال وأكبر الظن أن فؤاد أدرك إخلاص ياسمين فى حبها لنزيه فلم يشأ أن يتعلق بحب من جانبه هو فيخسر صديقه ولا يحقق أمنيته من حب ياسمين .. والأقصوصة بعد ذلك درس للتلاميذ ألا يضحوا بالعلم من أجل نزوات طائشة لم يحن وقتها بعد وأن العلم أولا والزواج ثانياً لمن كان له عقل أو بصيرة بقى أن نعرف أن أمثال هذه الأقصوصة كثيرة الوقوع بين طلاب المدارس فى مثل هذه السن وأن غرام المراهقين عنيف مدمر إذا لم يضبطه عقل أو نزعة قيم وهل ثمة بعد الوفاء والنبل من عاصم ؟

الأم والطفل الوحيد أمام مشكلة الفقر فى أقصوصة واقعية :

ونعنى بالواقعية أنها حدثت بالفعل أو يمكن أن تحدث نعنى واقعية الموقف أيضا لا واقعية الأداء .

وأقصوصة « مأساة أم [١] » للأستاذ محمد سعيد العامودى من هذا القبيل وقد عرض شعراء مصر والعراق لمضمون هذه الأقصوصة كحافظ إبراهيم ومحمد عبد المطلب ومعروف الرصافى وجميل صدقى الزهاوى والعودة إلى دواوين هؤلاء الشعراء تثبت صحة ما ذهبنا إليه فهل الأستاذ محمد سعيد العامودى نثر بعض هذه القصائد أم أن له رؤية خاصة ؟ وأنه طبع الأقصوصة بطابعه الشخصى بل بطابع الشخصية السعودية العامة ؟ إن ذلك أمر يتضح بعد أن تعرض موجزاً لهذه الأقصوصة .

ها هو العيد . أجل يا أماه ها هو العيد قد أصبح قريبا منا ، وها هم « الأولاد » يتحدثون كل يوم عن العيد السعيد ، وها هو محمود زميلى فى المدرسة قد أرانى ما أحضره له أبوه من فاخر الثياب ... وكنا نلعب وكان معنا إبراهيم ابن أحد الجيران وكان يقول إن حذاءه الجديد قد فرغ منه الصانع بالأمس وقيمته خمسة وعشرون ريالا أرسله بها أبوه إلى الصانع وأنا يا أماه قالها ذلك الابن فى حرارة وحيرة وأمل وأصغت إليها الأم التى أعياها النطق ، وحبس لسانها الألم المكبوت ... ورأت نفسها أمام سيل من الذكريات : ها هو الماضى يمر أمامها كأنه حلم . كان زوجها بالأمس يحمل عنها أعباء الحياة وكان يؤدى فى مثل هذه الأيام البهيجة من شهر رمضان الكريم مهمته المحببة إليه ... إنه فيلم وياله من فيلم رائع ، كان بالأمس صورة للسعادة فأصبح اليوم صورة للشقاء ...

كانت كمثيلاتها من الزوجات الفارغات لا تحمل أى تفكير يمس العيش من قريب أو بعيد . وعلام تفكر ؟ وقد أصارت لها المقادير من زوجها

---

(١) المنهل : عدد رمضان ١٣٦٥ هـ .

« حسان » زوجاً مثالياً . ولكن مات زوجها تاركاً لها هذا الابن فى التاسعة من سنيه وتاركاً لها قليلا من المال ما لبث أن ذهب هو الآخر أيضا صرفته فى الشهور الأولى التى أعقبت الوفاة .

وقد شاء القدر أن يرحمها ويترفق بها فاستطاعت أن تحمل عبءها الجديد ولكن فى شىء من الضيق كانت تحترف لونا من ألوان التطريز هديت إليه من أيام الصبا فهاهى اليوم تعود إليه .

هو ذا مورد متواضع يكفل الغذاء ولكنه يعجز عن الكساء . وغلب التجلد الحزن وعاد للأم تفكيرها الطبيعى واتزانها العاطفى وعزمها الصميم واستجابت لإحساس الطفل فى وله وتأميل . راحت تحدثه أطيب الحديث . . أحمد . أحمد « ثوب من الحرير » « إحرام مطرز » و « حذاء » كل هذا سيأتى مع العيد . كل هذا سيحضر إليك تماماً تماماً كمحمود وإبراهيم .

كلمات مغسولة أرسلتها إرسالا ووعود لا أقل ولا أكثر وكأنما ألهم الطفل ما فى هذه الكلمات من إبهام وغموض فألقى بنفسه فى أحضان أمه الحيرى يسألها فى إلحاح ممعن : أصحيح يا أماه . أخشى يا أماه أن يأتى العيد قبل أن نتحصل على المطلوب وحاولت الأم أن تلهى وليدها وهى فيما يشبه اليقين بأنه عما قريب سينسى .

لكن الطفل — وللطفولة فى كثير من الأحيان نوع من الفهم يتحدى المنطق ويتخطى الكلمات — لم يستطع أن يلهو كما أرادت له أمه . وكيف ينسى وغداً — بكل تأكيد — سيأتى إليه كل من رفيقيه فى تيه ما بعده تيه يزهوان أمامه بملابسهما العيدية الجديدة وهى وحدها فى نظر الأطفال رمز العيد السعيد .

ولم تجد الأم الشقية بدأً من الإفصاح .... أحمد أحمد أنت تريد لباساً جديداً ولكننا يابنى لا نستطيع هذا الآن لأن الفلوس التى معنا يا أحمد ، أوشكت أن تنفذ ومورد نا الجديد ضئيل لا يكفى إلا للطعام والشراب فاصبر

أيها الحبيب . كن مطمئنا لا تنظر إلى إبراهيم أو إلى محمود . هذان لهما أبواهما ، وأما نحن وأما أنت فقد أراد الله لنا وإرادته لا ترد أن نفقد أباك في وقت نحن أحوج الناس فيه إليه ... فكن واثقا كل الثقة مؤمنا كل الإيمان بأن حالنا هذه لن تدوم ... وسوف يحلو العيش ويطيب ، وأخيراً سوف تنعم بأفخر اللباس عند كل عيد جديد .

سمعت كلامك يا أماه . ولكن آه اسمعي منى هؤلاء الأولاد سوف يسخرون منى . هم من الآن يتهامسون وأحياناً يقولون لى : أنت يا أحمد ليس عندك فلوس تبتاع بها الثياب ... وهاهو خالى « عياد » ألا يمكن أن تستديني منه ما تبتاعين به هذه الثياب . أرجوك يا أماه وإذا لم يوافق خالى أو لم توافقى أنت فأنا سأشتغل . سأشتغل لإحضار الفلوس ، سأشتغل لنبتاع ثياب العيد فقالت له أمه : دعك من هذا الكلام يابنى .

هؤلاء الأولاد لا يسخرون إنهم فقط يضحكون . إنهم فقط يلعبون الصغار لا يعرفون السخرية .

وأما خالك عياد فهو لا يستطيع ما تريد وإن هو استطاع فأكبر الظن أنه سيرفض منا هذا الطلب شأنه فى هذا شأن سواه من الناس فى هذا الزمن الذى نعيش فيه .

لا بأس يا أماه . ما رأيك فى أن اشتغل لإحضار الفلوس ؟ إنى خال من الدروس ومن اليوم إلى أن يأتى العيد وإلى أن تفتح المدرسة يمكننى أن اشتغل فى أى عمل كان ويمكننى تدبير ما يكفينا لشراء الملبوسات أليس كذلك يا أماه .

لا . لا يا أحمد . اصرف عنك هذه الأفكار . الشغل يحتاج إلى سبق تمرين وأنت مازلت تلميذاً فى الابتدائية وما برحت طفلا صغيراً لا تقوى على أى عمل فدعك من كل هذا واصبر فإن الله مع الصابرين .

إنى صابر يا أماه ولكن الشغل الذى أستطيعه موجود وهو لا يفتقر إلى تمرين ولا يحتاج إلى مجهود كبير .

. فاسمحى لولدك الصغير أن يشتغل من أجل الفلوس ومن أجل الملبوس
قال الابن هذا وقبل أن يتلقى من أمه أى جواب انفلت من أمامها فى خفة وحماس ، وما هو إلا أن خرج من باب الدار يعدو كما يعدو الغزال هناك حيث إحدى العمارات قد أوشكت على التمام والعمال منهمكون فى إكمال دورها الأخير هناك وجد أحمد مكاناً له بين صغار العمال وبدأ بالعمل الذى أسند إليه .

ولم تكن الأم راضية كل الرضا عن هذا الصنيع فقد غمر نفسها إحساس غامض مريع لم تستطع له تأويلا وجلست وقد أحاطت بها الكآبة من كل جانب لا تعرف ماذا تقول . هاهو ولدها الوحيد وكله اندفاع يغامر فى الحياة وهو فى هذا إنما يعبر عن إرادة التفوق الكامنة فيه وفى أمثاله من الصغار .

وراح القدر يعمل عمله الرهيب فى ضبط وإحكام وتلاحق وإسراع .

كان هذا أول أيام العمل بل أول أيام الوجود بالنسبة إلى هذا الصغير ، وكان هذا أول أيام الحيرة وأول أيام الشكوك بالنسبة إلى الأم الرءوم . كان هذا أول أيام العمل فهل هو آخرها يا ترى ؟

نعم كان هذا هو اليوم الأول وكان هذا هو اليوم الأخير .

وكانت المأساة .... إنه قد مات .

قد يكون العامودى متفقا مع بعض الشعراء فى المضمون الاجتماعى ولكن المعالجة قد اختلفت بما دخل الأقصوصة من عنصر الحوار بين أحمد وأمه ومن تعقد الموقف واقتراح أحمد للحل ثم القيام بتنفيذه . وكنت أفضل أن تقف الأقصوصة عند هذا الحد ليكون فى العمل حل لمشكلة الفقر .

ولكن الكاتب حين استمر فى القصة إلى أن مات أحمد فاسودت الدنيا فى وجه الأم وهو يريد ذلك حتى تكون مأساة ولكن ما القيمة الفنية أو الاجتماعية التى نحصل عليها من وراء ذلك .

ثم إن الكاتب لم يوضح كيف مات أحمد وكيف استقبلت الأم نبأ وفاته. وهذا كان من شأنه أن يعمق الصراع لولا أن الأديب السعودى بطبعه. لا يحب الصراع المتلاطم .

وفى الأقصوصة بعض السمات الاجتماعية فالزوجات فارغات لا يحملن. أى تفكير يمس العيش من قريب أو بعيد وكأنى بالكاتب غير راض عن ذلك. (فالمسئولية أنأى الأشياء وصولا إلى الرأس الذى تحمله هذه المرأة) ومعلوم. أن تحمل المسئولية أول سمات النضج فالذى لا يتحمل مسئولية أو لا يعد. لتحملها عرضة للكوارث ومعظم السعوديات على هذه الوتيرة .

وقد تعمق الأستاذ العامودى نفسية الطفل بل نظر إلى الطفولة كلها من. خلاله (وللطفولة فى كثير من الأحيان نوع من الفهم يتحدى المنطق ويتخطى الكلمات ومن ثم لم تستطع الأم أن تلهى وليدها وإن حاولت . .

وهذه الأم الشقية لم تكن يائسة من رحمة الله (فكن واثقا كل الثقة مؤمنا كل الإيمان بأن حالنا هذه لن تدوم) وما دام الأمر كذلك والأم على. يقين من ضرورة انفراج الأزمة فإننى كنت أفضل كما قلت أن تنتهى القصة بعمل أحمد .

الفصل السابع
فن الشعر

اللغة الشعرية — نوعية الشعر — ثقافة الشاعر العربي الحديث — تطور الشعر السعودي — الشعر والتطور الحديث — بين التفتح والنضوج — الشعر الجيد — من شعر المناسبات :

١ — (من سماء الشعر) لصالح الحامد العلوى .

٢ — (أو خيال مجسم فى ابن خمس) لأحمد إبراهيم الغزاوى .

٣ — (الشاعر الطموح المتنبى) — ا — هـ — رشيد البسيد محمد هاشم رشيد

الاتجاه الدينى :

١ — (قبس من الهجرة) لحسن عبد الله القرشى .

٢ — (الذكرى المشرفة) لأحمد إبراهيم الغزاوى .

الاتجاه الاجتماعى :

١ — (إلى الشباب) لإبراهيم فطانى .

الاتجاه السياسى :

١ — (القصيدة الأسكوبية) لإبراهيم الأسكوبى .

٢ — (فلسطين الشهيدة) لمحمد أحمد باشميل .

٣ — (فلسطين) لمحمد على مغربى .

٤ — (رواية الحرب) لعبد القدوس الأنصارى .

٥ — (دنيا الغد) أو ترنيمة السلام لمحمود عارف .

الطبيعة والمرأة :

تمهيـــد :

١ — (وحي العقيق في يوم انهماره) لعبد القدوس الأنصاري .

٢ — (جازان) لمحمد أحمد عيسى .

٣ — (يا ليتني قمري) لحسين سرحان .

٤ — (عيلم) لحسين عرب .

٥ — (أنا والقمر) لحسين قاضي .

٦ — (اذكريني) للسيد محمد هاشم رشيد .

٧ — (يا ليـــل) لعبد الوهاب آشي .

٨ — (التالودية) لعبد القدوس الأنصاري .

٩ — (أحلام الربيع) لطاهر الزمخشري .

١٠ — (يا حب من أنت) لمحمد عبد القادر فقيه .

الشعر الفلسفي والتأملي :

١ — (دمعة) لإبراهيم هاشم فلالي .

٢ — (محاورة نفس) و (فراق) لمحمد حسن فقي .

٣ — (من الأعماق) لمحمود عارف .

٤ — (شاعر يهبط إلى وادي الحياة) لعبد القدوس الأنصاري .

ما أروع الشعر ينبع من عاطفة شاعر متمكن في اللغة جامع لأعنة الأسلوب العربي الرائع مع سعة أفق وذهن وإخلاص مبدأ وصدق عاطفة وصحة بيان .

والشعر قبل كل شيء موهبة تولد مع الشاعر دون أن يكون له في وجودها فضل اللهم إلا فضل الإجادة فيما بعد فضل التفوق والامتياز عن طريق الدرس وعن طريق التأمل وعن طريق المران .

ولا بد من حرص الشاعر دائماً على أن يكون صادقا فيما يقوله للناس دون أن يتكلف أو يحاول التضليل [١] .

فالشعر موهبة وثقافة فكيف يجود الشاعر موهبته وثقافته .

ثقافة الشاعر العربي الحديث [٢] :

يرى الأستاذ حسن عبد الله قرشي أنه حتم على الشاعر العربي الحديث أن يتضلع من أفانين اللغة العربية ما أمكنه الجهد والوقت تاريخا وأدباً وعروضاً ونحواً وصرفاً وبلاغة فمهمة الشاعر الجديد ليست من الضحولة والسهولة بالقدر الذي يتصوره . إنها مهمة ضخمة ثقيلة تفرض عليه أن ينسج الستار السميك بين عصر وعصر وأن يصاقب هذا الحشد العالمي الزاخر من المعاني والأخيلة الدقيقة العصرية التي تنثال انثيالا .

ولن تستطيع تقييد خواطرك وأفكارك الحديثة وتطويعها لقلمك مالم تكن ذاخراً له من القوة والعتاد الكثير الكثير ، ولذلك فإنا نرى الشاعر الجديد اليوم أكثر الناس استهدافاً وتعريضاً لسهام الناقدين فإن لم يتعمق في تجويد فنه وأدواته فضحه النقد وشهر به ، والنقد في زماننا جاحم متقد لا يفقه الرحمة ولا المحاباة والاعتماد على السليقة الشعرية في هذا العصر وزر تتبعه أوزار وقد خلت أيامه فمن الغبن لشاعر يحترم فنه ويخلص له أن ينصاع إليه في تركيز شخصية هذا الفن وتدعيمها . ونحن لا ننكر بهذا المزايا التي تنتجها مطالعة الشعر العبقري الصحيح بغية الاستفادة والتثقيف من هذه المطالعة وحدها فلهذا أثره البالغ الشائق غير المثرى فيه وقد يستغني الشاعر والأديب عموماً عن دراسة عناصر اللغة العربية ولكنه إذا تمكن من ذلك وانقاد له عنان البيان رد عن نفسه بهذه المرانة الفنية ليس غير صولة النقد وأمن شر أقلام الناقدين وأذهانهم اليقظة ، وهل إذا انعقد على رأسه غبار

---

(١) المنهل عدد المحرم ١٣٨١ هـ يونيه ١٩٦١ من مقال للأستاذ محمد سعيد العامودي بعنوان (مع القلائد) .

(٢) المنهل عدد رجب ١٣٦٦ هـ .

معركة انتقادية شفع له في غشيانها مرونة محفوظة إن لم يكن ملماً الإلمام الكافي بكل أدوات اللغة العربية وافر المحصول من مقوماتها وثمة فريق من شعراء العصر ما تكاد تقرأ له قصيدة أو مقطوعة حتى تثب إلى بصرك من بين سطورها لفظة أعجمية الصوغ والمعنى ومثل هذا يعتبر حكما من الشاعر العربي على لغته بالعقم والقصور وهو ما يتجنب الانزلاق إليه شاعر تحتل لغته الصميمة من نفسه مكانها الطبيعي وهذا لا يعني بحال أننا نستكره أن يتلقح الشعر العربي الحديث بالسري الأنيق من المعاني الغربية فهذا كسب له وليس غرماً عليه ، والثقافة أيا ما كان منبعها لا يجوز أن تجنى على الفن الشعري طالما كان الباعث عليها هو تربية هذا الفن الأصيل وتنميته وإدخال عناصر قوية حية عليه ، ولكننا نود أن يستخلص الشاعر معانيه في ألفاظ عربية عريقة كي تنال لغته القاهرة حظا من عنايته .

إن العربية وهي لغة أجدادنا ولغة قرآننا غنية كل الغنى بوفرة ألفاظها المؤتلقةوتعابيرهاالمصورة ولا تعوزها الأسماء الأجنبية ولا المسميات إذا تصدى لها الاشتقاق والتعريب والاصطلاح فكفايتها واضحة .

هذه نظرة الشاعر السعودي إلى فنه وإن شئت فقل هذه نظرية الشعر في السعودية في شطر كبير منها وهي نظرية لها جذورها في الأدب العربي ابتداء من زهير بن أبي سلمى إلى أبي تمام الموهبة وحدها لا تكفي ولابد من تدعيمها بالثقافة ومن ثم لابد من تجويد الشعر وتنقيحه ويقابل هذا الاتجاه اتجاه آخر يرى أن الشعر موهبة وكفى فالشعر يغني عن صدقه كذبه كما يقول البحتري ولهذا الاتجاه أنصار سعوديون أيضا .

تطور الشعر السعودي [١] :

تبدأ قصة الشعر في هذه البلاد منذ عهد الجاهلية فمن هذه الربى وهذه الوهاد نبتت أول شجيرة للشعر ، وفي هذه الوهاد والأنجاد نمت الشجيرة

---

(١) المنهل عدد رجب ١٣٧٥ هـ - مارس ١٩٥٦ من مقال لعبد القدوس الأنصاري بعنوان (قصة الشعر) .

نمواً رائعاً فسرعان ما عظم جذعها وامتدت جذورها إلى الأعماق وانتشرت غصونها النضرة إلى الآفاق ، وعمت ثمارها اليانعة وأزهارها العاطرة الأقطار والتخوم وحينما جاء الإسلام وحمل مشعله الوضاء إلى الآفاق التي يطبق عليها ظلام دامس أولئك الفاتحون الميامين من صحابة الرسول عليه السلام وتابعيهم الأكارم حملوا معهم بذور الدوحة العظيمة التي زهت وأينعت ثمارها من بلادهم إلى بلاد الدنيا فغرسوا هذه البذور الصالحة في كل بلد حل به ركبهم الميمون غرسوها في الشام وفي العراق وفي مصر وفي المغرب الأقصى والأدنى وفي الأندلس والهند وفارس وبخارى وفي كل البلاد التي سعدت بهم وما زال أحفادهم يوالون سقيها ورعايتها وتنميتها ونشر عرفها الطيب حتى تكونت منها حدائق غن وارفة الظلال زاكية الثمار تضفي على العالم جمالا وبهاء ومتعة وتسديدا .

وإذن فهذه البلاد هي بلا ريب مهد طائر الشعر ومجثمه الذي منه هب ودرج وحلق إلى الآفاق فلا بدع أن تكون للشعر في هذه البلاد قصة حافلة على أنه يجب أن نلاحظ أن هذا الذي ذكره عبد القدوس الأنصاري إنما هو تلخيص وصياغة جديدة لما جاء في كتاب طه حسين (حافظ وشوقي). فقد تحدث عن شجرة الشعر التي نبتت في نجد وتابع نموها وامتداد أغصانها وتنقلها عبر الأجيال إلى أن وصل بها إلى البارودي وشوقي وحافظ .

ومهما يكن من شيء فقد كان من نتائج انتقال الفاتحين المسلمين من هذه الربوع إلى أقطار العالم لنشر الهداية أن نقلوا معهم بذور دوحة الشعر إلى تلك الأقطار فصوح منها موطنها الأصلي فيما بعد وكان ذلك كما يقول الأستاذ الأنصاري في القرن الرابع الهجري وقد خلت البلاد بسبب انتقال أولئك الفاتحين من بلادهم إلى بلاد أخرى من كل نشاط ديني أو اجتماعي أو سياسي أو عمراني أو اقتصادي أو أدبي ثم مضت البلاد في متاهة من الفوضى واختلال الأمن وشلل المقدرات حتى كادت تفقد كيانها وذاتيتها في غمرة الأحداث والحوادث وهكذا صار في المؤخرة من كان في الطليعة وهكذا انعكست أوضاع العالم الإسلامي .

ثم بدأ عصر البعث العربي فى أعقاب حرب الدولة العثمانية مع إيطاليا فكانت بلاد العرب تموج بحركات الاستنكار لالتواءات الرجل المريض كما تموج بحركات اليقظة والشعور بالذاتية ونفخ شعراؤها فى أبواق التبشير بتفتح الوعى العربى وبانطلاقه من القيود والسدود واسترجاع مجده السليب فنال رشاش من هذا البعث العام هذه البلاد ولم تتمكن من مسايرته ولا من تتبع خطواته بما يغير دفة اتجاهها من الوراء إلى الأمام لاستحكام القيود والسدود التى تحيط بها من دولة الأتراك إذ ذاك . وكان من آثار انتقال عدوى الشعور بالذاتية والوجود أن رأينا العالم الشاعر إبراهيم الأسكوبى ينظم قصائده السياسية من المدينة المنورة يزجى بها نصحاً وتوجيها للدولة العثمانية التى تشاءمت من انبثاق هذا الوعى المتفتح الذى سبق أوانه فزجت بالشاعر الممتلىء إخلاصاً واعتدالا فى السجن فى بلاد الغربة وما رحمت كبر سنه ولا قدسية موطنه ولا علمه ولا أدبه . .

وهذا كله أمر ذو بال بالنسبة لتطور الشعر فى السعودية إبان الإغفاءة المديدة فلم يسبق لشاعر من شعراء ذلك الجيل ولا ما قبله أن سلك فى شعره هذا السبيل الشائك الذى كان يعتبر فضولا ونزقا وشططا وحمقا ورعونة .

وخلفه على هذه الأمانة الشيخ محمد العمرى المدنى الجزائرى الأصل فقد كان شاعراً أسلس له الشعر الجزل عنانه ومع أنه كان ينظم قصائد المديح لولاة الأمر فى العهدين التركى والهاشمى فإنه قد كان مع ذلك يجول جولات موفقة أحيانا فى عالم الشعر الاجتماعى وأخيراً السياسى فى نفس قوى طويل وأسلوب رائع متين وأسلوبه وإن كان كلاسيكيا فهو ينبض بالحيوية والإشراق وقد ساءت العلاقة بينه وبين الحكومة التى خلفت الدولة العثمانية على الحجاز فى مبدأ تملكها لزمام السلطة واستمر ذلك إلى أواخر عهدها . إذ كان قد نظم فى أواخر العهد التركى قصائد يوجه فيها التقريع إلى رجال حكومة الثورة العربية الهاشمية وهذه القصائد فى بلاغتها وقوتها كنز ثمين وإن كانت معلومة البواعث والأهداف إذ ذاك . نظم فى بنى حرب الذين كانوا يغيرون على أطراف المدينة قصيدة رائعة بمطلعها :

رويــداً بنى حرب تفاديكم الحرب
ويجتاح ما خولتم الطعــنُ والضرب

فانتم قدحتم بالزنــاد شرارهــا
فاضحت سعيراً لا يبوخ ولا يخبو

. كان ذلك قبل الحرب العالمية الأولى ثم نشات ناشئة ما بعد تلك الحرب تلك الناشئة التى فتحت أعينها على الثورة العربية ضد الدولة التركية وقدم إلى البلاد وفود من شتى الأقطار العربية تهنى وتوجه وكان من هؤلاء الشاعر المحلق والعالم المدقق والسياسى المحنك والقائد الحصيف . وكان فى مقدمة شعراء تلك الوفود شاعر العروبة الشيخ فؤاد الخطيب ، وفيه روح عربية متحررة وقد عاد وعاد معه شعره الآسر إلى مهده الحبيب . وفى المهد بذور ضئيلة واهبة من مبادىء الوعى والشعور المختبئة ذلك الوعى الذى كان يحلم بالذاتية والرغبة فى الاقتباس من أفنان النهضة الشعرية الحديثة المنتشرة فى أقطار العروبة دون هذا البلد وقد أضرم الشاعر جذوة الحماسة الشعرية فى ناشئة البلاد الذى حظوا بالاتصال به من كثب فتاثرت الناشئة الجديدة بما يراد بهم ولهم وحاول بعضهم فرض الشعر بتفكير وأسلوب جديدين وكان فى طليعة هؤلاء الشاعر محمد عمر عرب وأحمد إبراهيم الغزاوى .

وساعد على تنمية طاقة الشاعرية الحديثة الأسلوب والمرامى لدى الناشئة السعودية إذ ذاك هذا الفيض الجارف الوازد من طاقات الشعر العربى الحى الحديث الذى يحمل مشاعل الثورة وأقباس النهضة إلى كل عربى فى كل صقع وبقع وهو من نتاج شعراء معاصرين كانوا أحياء يشاهدون ويسمعون ويشعرون فيصوغون ثمار شعورهم ومشاهداتهم وأحلامهم فى ذوب مشرق من الشعر المؤثر الجديد وفى طليعة هؤلاء : سامى البارودى وإسماعيل صبرى وحافظ إبراهيم وأحمد شوقى من مصر والزهاوى والرصافى من العراق . والزكلى والغلايينى والأخطل الصغير وبدوى الجبل من بلاد الشام وجبران خليل جبران وإيليا أبو ماضى من شعراء المهجر وغيرهم كثير .

ولا ريب أن كل هذا كان بمثابة روافد لتكوين مبادىء شخصية الشاعر السعودى الحديث والعزوف تدريجيا عن أسلوب الشعر القديم ذى الشاطير والمشجرات والمخمسات والمديح الأجوف والهجاء السام والفكر القاصر والجناح المهيض المقصوص .

بداية التجديد :

كان تجديد الشاعر السعودى فى بداية أمره محاولات وتقليداً للمجددين من أعلام الشعر العربى الحديث فى مصر والشام والعراق والمهجر ومن ذلك قصيدة الشاعر أحمد إبراهيم الغزاوى التى خرج بها عن نطاق المحلية إلى ميدان الشمولية فى سعة أفق الموضوع .

وقد كان نظمها فى عام ١٣٥٣ هـ بمناسبة توقيع الصلح بين المملكة واليمن قال :

حمدنا السرى غب امتشاق البواتــر
وكدنا العــدا بالصلح رغم العواثر
وأصبــح ما بــين العروبة مسفراً
من الحب والقربى ونــور البصائر

إن الشاعر يتحدث هنا من مكة بآمال العروبة التى بدأت تتحقق والتى سطع نجم تحققها فى هذا اليوم :

تماسك منهـــا كل جـــزء بأصله
فاعظم بهـــا مرهـــوبة فى المغافر
وأحـــر بيوم تم فيـــه ائتلافهـــا
ثناء الليـــالى والعصور الغـــوابر
فما الحرب إذ ذاقت مرارة كأسها
بأشفى غليلا من سلام مـــؤازر

والشاعر فى البيت الأخير يشير إلى ما توصلت إليه البشرية عقب انتهاء

الحرب العالمية الثانية ونادى به الشعراء والكتاب والمفكرون ورجال القانون وأقطاب السياسة العالمية وهو : أن الحرب خسارة فادحة للغالب والمغلوب معاً والسلم كسب لهما معاً .

ومن شعراء هذه المرحلة أيضا خالد الفرج ومحمد بن بليهد وعمر كردى، ومن سار على دربهم فى محاولة الخروج من أغلال ماضى الشعر الثقيلة الكاربة بمسايرة التطور الحديث ومعالجة الموضوعات الوطنية والسياسية والاجتماعية بدلا من الانحصار بين أسوار المديح والوصف الفج والغزل التقليدى الأجوف . ولكن قافلة التجديد الشعرى تمضى وئيدة فى محاولات للتخلص من الركاكة والضعف وبطبيعة الحال لا يمكن أن يتم ذلك بين يوم وليلة فجيل الغزاوى خطا خطوة ثم تلاه جيل محمد سرور الصبان ومحمد عمر عرب ومحمد سعيد العامودى فخطا خطوة أكثر من ذى قبل ثم جاء جيل ثالث دفعت محاولات التجديد دفعة أخرى ذلك هو جيل محمد السنوسى وحسن القرشى ومحمد العامر الرميح وهاشم زشيد ومن إليهم .

وبالجملة فإن هذه الأجيال الثلاثة تمثل عصر البعث وكان كل جيل منها يدفع حركة التطور بما يستطيع من قوة ونشاط .

الشعر والتطور الحديث :

الذى لا شك فيه أن الشعر السعودى الحديث قد تأثر بالمدنية الحاضرة وهو شعر نابض بالحيوية يتغلغل أحياناً فى أعماق النفس والمجتمع ومن ثم فهو مصدر من مصادر البعث والإلهام للفرد والمجتمع .

وبالرغم من العوامل المختلفة التى أثرت فى هذا الشعر فإن له طابعاً مميزاً لم تستطع هذه العوامل أن تذيبه فهو مرتبط بهذه البيئة المقدسة وبنفسية الإنسان السعودى وعاداته وتقاليده الضاربة فى أعماق التاريخ وهو متعدد الأشكال والألوان والاتجاهات وإن كانت هناك بعض الدواوين جيدة الطباعة والإخراج رديئة المضمون والشكل الفنى ، وهذا من شأنه أن

يزعزع مكانة الشعر فى النفوس والشعراء أنفسهم هم المسئولون عن ذلك. وعليهم تقع مسئوليات النهوض بالشعر السعودى لأن للشعر مكانة سامية. ينبغى العناية بها والحرص على رفعتها ليكون الشعر إشعاعات وومضات نيرة. تنير للناس الآفاق وتترك القاتم وضاء .

على أنه ينبغى أن نلاحظ أن للشعر العربى خاصة فنية لازمته عبر العصور وبدت واضحة فى الشعر السعودى الحديث ذلك أن خيال العرب فى الغالب لا يتجاوز مناطق الحقيقة التى يصفونها إذا وقعت أو يتخيلون وقوعها وفى إمكانهم تحقيق ما يتخيلون هذا بينما يتخيل غيرهم من الشعوب ما لا يستطيعون تحقيقه ولهذا يشط بهم الخيال إلى تصوُّر ما يستحيل تحقيقه [1] .

فالمدنية الفاضلة التى تخيلها أفلاطون للعالم العربى لم تتحقق مطلقا بينما أقام العرب المدنية الفاضلة فعلا فى يثرب وفى كل مدنية تولوا أمرها من مدن الدنيا .

ولما فتحت بلاد الدنيا للعرب كان تراث الأدب اليونانى أمامهم فلم يلتفتوا إليه حتى فى عصر الترجمة عصر المأمون وإنما أقبل العرب على ترجمة العلوم النافعة . إن شعار العرب : إن القول يصحب الفعل أو يدل عليه أو يمهد لحدوثه وهذا هو طابع الصدق الذى يميزهم عن غيرهم من الشعوب .

وها هى تباشير الفجر الجديد تلوح بيقظة العرب وتجمعهم واتحادهم لاسترداد مكانهم من العالم وكان اجتماع شمل العرب فى الجزيرة حول قادتهم بداية إشراق الفجر . ولما كان الشعر تصويراً صادقا لحالة العرب فى تطوُّرهم فإننا نرى فى شعر أبناء الجزيرة ما يؤيد هذه اليقظة ويدل عليها .

والعرب من أسرع شعوب الأرض استجابة إلى دعوة الداعى وأشدهم حماسة لها وقد صدق شاعرهم حين وصفهم بقوله :

---

(١) المنهل عدد رجب ١٣٧٥ من مقال للأستاذ حسن عبد المقصود بعنوان (الشعر ديوان العرب) .

إذا مادعـوا لم يسألوا من دعاهم
لأيـة حرب أم بـأى مـكان
لا يسألون أخـاهم حين ينـدبهم
للنائبـات على ما قـال برهـانا

وشعرهم تصوير للواقع ولهذا ما كادت الجزيرة تنتفض انتفاضة الإفاقة والتنبه حول دعوة التوحيد ووراء الأئمة من آل سعود حتى نطق أبناء الجزيرة مسجلين هذه اليقظة فى شعرهم الذى بدأ معها يقوى ويفصح بعد أن خمل وقت الخمول الذى عم الجزيرة فى الفترة الماضية .

بين التفتح والنضوج [١] :

شعراء عهد النضج قد نسجوا خيوط شعرهم الفنية من أحاسيسهم الوثابة وتجاربهم المتعددة ، وقد أقبل شعراء هذا العهد على صنع الملاحم الشعرية . وهذا النوع من الشعر لم يكن معروفاً فى شعر عهد التفتح فى حين أنه يعد فى مرحلة النضج وبالنسبة لشعراء هذه المرحلة أول المراحل الفنية فى الدفاع عن الحرية الفكرية والثورة على أحلاس الجمود كما كان من الأسس التى دعمت النهضة الأدبية فى السعودية وفى العالم العربى إنه شعر التفكير والأداء الفنى . ولإقبال شعراء السعودية على هذا النوع أسباب نذكر منها :

بعض أصحـاب هذه الملاحم كانت لهم نزوات ظاهرها الاعتداد وباطنها التنافس على خصوصيات كانت موضع صراع بين طرفين . الأمر الذى أدى إلى امتداد لهيب الحرب بحيث امتشق كل منهما سلاحه ليثبت ذاتيته كشاعر وفى مدى وقت قصير خاض الطرفان معركة كلامية هائلة وقد انضوى تحت لوائهما أنصار يؤيدون تارة ويكافحون أحيانا والتأييد والمكافحة هما صورتان للدفاع المشترك عن مذهبي الطرفين المتحاربين وكان من نتيجة

(١) المنهل عدد رجب ١٣٧٥ هـ من مقال للأستاذ محمود عارف بعنوان (رأيي فى حاضر شعرنا ومستقبله) .

هذا الصراع أن ظهرت نتائج هذه المعركة فى صور ملاحم كبرى . وهذه الملاحم أشرطة حية تزدحم بالأشباح المعروفة والمعالم الواضحة وكل شبح من هذه الأشباح هو معرض لرأى أو مرآة لسانحة أو خلجة .

ومدار هـــذه الآراء عند أخذ الطرفين هو مصادرة ما يدين به الجانب الآخر من آراء وسوانح وخلجات غير قائمة على أساس من العلم الصحيح أو المنطق السليم أو التكفير المنظم .

ويتلخص ا ٓ اه أصحاب المذهبين المتنافسين فى أن اتجاه أحدهما له زئير الأسد الذى خرج من العرين تاركاً وراءه الغابات والسراديب ليواجه الحياة بمشاكلها ومتاعبها وآلامها .

كما أن نظرة الجانب الآخر إلى الحياة هى نظرة المستغرق فى التفكير .

ومن هذا يتضح بأن الأول ينظر إلى الدنيا نظرة الشاعر الذى يحس فيعتبر فى حين أن الثانى ينظر إلى الكون نظرة الفيلسوف الذى يفكر ويتدبر وفى دنيا الإحساس يحلق التفاؤل بأجنحته الوادعة كما أنه فى عالم التفكير يتعثر التشاؤم فى خطواته المتخاذلة .

ومن هنا يتضح بأن بعض هذه الملاحم يميل إلى الإيجاب والبعض الآخر يسير فى طريق السلب ومن المقرر بأن الإيجاب سبيل البناء والتدعيم كما أن السلب وسيلة الهدم والتعرية والتجريد .

الشعر الجيـــد :

يسخر بعض الناس من شعر المناسبات لأنه شعر مناسبات وحسب ولكن الأستاذ محمد سعيد العامودى يرفض هذا الاتجاه[١] ويرى أن لجودة الشعر صفات متى توفرت كان الشعر جيداً سواء كان فى المناسبات أو الوصف أو الاجتماع ومتى فقدت كان الشعر رديئا وإن صاغه الناظم فى أحدث الفنون الشعرية .

---

(١) المنهل : عدد صفر ١٣٦٦ هـ (لكمات فى الشعر) .

فشعر المناسبات ليس كله جميلا وليس كله رائعاً يقول الأستاذ العامودى :

إنى أطرب لشعر المناسبات كما أطرب لغيره من أنواع الشعر مادام الشاعر يصدر فى شعره عن (شاعرية ملهمة) وعن عاطفة جياشة وعن فن أصيل وكان لكلامه من الموسيقى — التى هى الشرط الجوهرى لكل شعر — ما يهز النفس حقا ويؤثر فيها ويوحى إليها .

وليس أدل على ذلك من الشعر العربى قديماً وحديثا فهؤلاء الشعراء : زهير بن أبى سلمى ونابغة ذبيان وحسان والأخطل والفرزدق وجرير والمتنبى والبحترى وأبو تمام .

وأخيراً شوقى أمير الشعراء وزميلاه الكبيران حافظ وصبرى .

هؤلاء الشعراء الكبار هم بالإجماع أنبغ شعراء العربية فى مختلف عصورها التاريخية ، ومعظم شعرهم الخالد إنما هو شعر مناسبات .

وهذا الشعر مازلنا نقرؤه إلى اليوم فنطرب له كل الطرب ونتذوقه كل التذوق ونميل إليه كل الميل .

إنما علامة الشعر الجميل أنه شعر يهز النفوس تجد فيه هذه « الفتنة الشعرية » التى تملك عليك شعورك وتستولى عليك كل الاستيلاء ، وأنت تقرأ الشعر الذى يصح أن يسمى رائعاً هذه الفتنة الشعرية إنما مثارها أن هذا الشعر صادر عن طبيعة شعرية وعن قوة فى العاطفة وعن صدق فى الإحساس ثم تأتى الموسيقى ويأتى حسن اختيار الألفاظ وحسن اختيار الأوزان . ولا فرق بعد هذا سواء أكان من شعر المناسبات أم من شعر الوصف أم من شعر الاجتماع وهذه السمات الشعرية متكاملة هى سر الجمال الشعرى إنها وحدها مصدر ما نشعر به من متعة حينما نقرأ القصيدة أو المقطوعة للشاعر المطبوع .

ووجود هذه السمات هو ما يجعلنا نتعشق شاعراً من الشعراء وننجذب إلى شعره كل الانجذاب ونقدم إليه إعجابنا لأنه هو نفسه يفرض علينا هذا الإعجاب .

والشعر الجيد يحمل إلينا معانى الحق والخير والجمال .

وثمة سمة أخرى للشعر الرائع الجميل هى الصدق . الصدق فى كل شىء : الصدق فى العاطفة والصدق فى الإحساس والصدق فى التعبير ثم الجودة الفنية .

لعله من الأوفق أن تكون لنا وقفات مع أنماط من شعر المناسبات فى مواقف متعددة نتبين فيها الأصالة من الزيف كما نتبين فيها الفرق بين النظم والشعر من شعر المناسبات :

أولا : من سمــاء الشعر [1] :

هذه القصيدة العصماء ألقاها الشاعر السيد صالح الحامد العلوى فى الحفلة التى أقامها النادى الأدبى العربى بسنغافورة تكريماً للشاعر وتقديراً لشعره البليغ وشاعريته الخصبة .

والقصيدة تتكون من مقدمة وأربع أفكار مترابطة .

أما المقدمة فتتحدث عن الشعر وأنه منية الفؤاد ولذا فالشاعر يحلق فى سماء الشعر وفى جو الأمانى ويطل على الناس من برج الفن .

وأما الأفكار فالفكرة الأولى تذكر حفل الوداع وأنه أبهى من روضة غنـــاء .

وأما الفكرة الثانية فترى أن تكريم الشاعر ثناء على العلم والأدب .

وأما الفكرة الثالثة فتذكر شعر الوفاء والإخاء الذى دبجته يراعة الشاعر رداً على الحفل الكريم .

حسبى لصحبى أن أؤدى شاكـــراً
لهمـــو شعور صداقتى وإخـــائى

---

(١) المنهل عدد رجب ١٣٥٨ هـ .

ثم تأتى الفكرة الرابعة والأخيرة فتتحدث عن ذكريات سنغافورة وطبيعتها الساحرة التى جلت خاطر الشاعر وغذت خياله :

بلد به جلت الطبيعة خاطرى
وغذت خيال الشعر خير غذاء

ومن ثم ولكل العوامل الماضية فإن الشاعر وإن رحل عن سنغافورة وأحبابه بها فإن روحه ستظل مشدودة إليها وإلى رفاقه :

ولئن نأى شخصى فروحى بينكم
طوافة فأنا القريب النائى

إن هذه القصيدة تمثل اتجاها جديداً فى الشعر ظهر فى المقدمة والأفكار .

أما المقدمة فإن الشاعر لم يجعلها طللية أو غزلية بل ولم يطرق الموضوع مباشرة بدون مقدمة وإنما اتخذ مقدمة وجعلها فى الشعر وسمائه وبرجه العاجى لأن الحفل كان تقديراً لشعره البليغ وشاعريته الخصبة وكأنما أراد بهذه المقدمة بل هو أراد بالفعل أن يعلن عن مذهبه الشعرى فالشعر عنده داء ودواء ولا مفر منه فهو منية فؤاده فهو يعشقه ويحبه ولكن الشعر هجره كما تهجر العاشقة عاشقها وهو يرجو منها زيارة عاجلة وإذا لم تهبط إليه ربة الشعر فإنه سيصعد هو إليها ويعيش محلقا فى سماء الخيال يرفرف كالفراش ويتجول فى الفضاء مغرداً يبتسم للفجر والبرق يترقب قطر الندى والنور ويغنى لكل ربيع ، ولا يعبأ بالكاشحين بل يطير فى جو الأمانى ويحط فى برجه الفنى فلا يبلغ إليه الحساد ويظل فى منطاد فكره سابحاً بين الكواكب والضياء ، يرنو إلى الدنيا بمقلة شاعر ويعيش يحلم بالجمال ، ويفضل دنيا الخيال وعالم الشعراء .

دائى لأنت فهل لديك دوائى
أين المفر وأنت فى سودائى ؟

يا منية شام الفؤاد بروقها
ما بين يأس دونها ورجاء

أحييت مـوات الشعر فى خلدى ومـا
برحت تشب الحب مـلء دمـائى

طـال الجفاء فهـل تراك وشيكة
أن ترحمى سهرى وطـول عنائى

ماذا صنعت وهـل جنيت خطيئـة
حتى يكـون الهجـر بعض جـزائى

زورى على عجـل تلاقى مهجـة
ذابت مـع الأشواق غـير ذمـاء

وارثى لمسن لـولا طلابك ما صبـا
بالفجـر والشفق الجميـل النـائى

أو فاتركينى والخيـال بمعـزل
أقضى الحيـاة محلقـا بسمائى

وأعيش فى دنيـا الفراش مرفرفا
أهفـو على الأمـواه والأضـواء

متجـولا غـردا ولست بواقـع
إلا على الأزهـار والأنـداء

مترنحـا لا الريـح تزعجـنى ولا
صوت الزعـازع مخفت لحدائى

متبسما للفجـر فى آفاقـه
متهللا للـبرق فى الأنـواء

هيمـان دأبى هـائمـا مترشفا
قطر النـدى والنـور فى الأجـواء

وإذا الربيـع مضى حلمت بقابـل
مـزريـه فى رقـة ورواء

وإذا رمـانى كاشح لم أجـزه
عـن ذاك إلا بسمـة استهزاء

وأطير فى جو الأمانى ساحباً
تيهاً على الواشين فضل ردائى

متحصناً فى برج فنى فى حمى
نـاءٍ عن الحساد أى تنائى

أفبعد هذا البعد يصبح ممكناً
أن يبلغ الحساد أس بنائى

وأظل فى منطاد فكرى سابحاً
فى جنة وكواكب وضياء

أرنو إلى الدنيا بمقلة شاعر
يكسو الجمال بنوره الوضاء

وأعيش أحلم بالجمال مقبلا
دنيا الخيال وعالم الشعراء

إن هذا الشاعر معتز بفنه فخور به ولذلك فهو لا يعبأ بالكاشحين ويجازيهم على ذلك ببسمة استهزاء ، ويجر فضل ردائه تيها على الواشين . وإن كان ذلك يدل على معاناته منهم .

وللطبيعة من فجر وشفق وسماء وفراش وأمواه وأضواء وأزهار وأنداء وبرق وربيع لكل ذلك تأثيره القوى فى نفس الشاعر حتى إنه احتفى بها واستمد منها صوره .

والشاعر متفتح لمباهج الحياة يرنو إلى الدنيا بمقلة شاعر ويعيش يحلم بالجمال ومهما يكن من شىء فإن هذه المقدمة الشعرية توحى بأننا أمام شاعر رومانسى يغنى للحياة من برجه الفنى وحين ينتقل الشاعر إلى الغرض الأصلى للقصيدة لا نحس بفجوة بين المقدمة وأفكار القصيدة فهم قد احتفوا به تقديراً لشعره فليحدثهم عن ذلك الشعر حيث الأصفياء مع بعضهم فهو يشعر أنه فى أهله وبين خلصائه وهو يغنى للطبيعة دائماً غنى لها فى المقدمة وغنى لها فى الفكرة الأولى من أفكار القصيدة فليست الروضة الغناء .

بأجـــل أو أبهـى سنى من محفــل
أنس الأديب ومـــلء عـين الرائى

ولقد رسمت له شاعريته روضة غناء عاودها الحيا فغدت موشية الأرجاء وبدا محياها الصباح وزادها حسنا على حسن وكأنه صورة مرسومة بيد الربيع ذلك الفنان الرائع الذى أعطاها منظراً عجبا من الألوان والأضواء .

وفى الروضة ربوة فينانة بدت فى حلة خضراء من السندس ، وبجوار هذه الربوة « كشك » لطيف وصخر ونبع ماء ينساب صوب بحيرة رقراقة والطير تصدح والغصون تصغى لألحانها ونسائم الأسحار هبت على الأزهار تقبلها حباً وشوقا وعند وداعها بكت عليها .

إن هذه اللوحة الفنية ذات اللون الذى يبدو فى الأزهار والأشجار وذات الحركة التى تبدو فى النبع يتسلل وينساب صوب بحيرة رقراقة وذات الصوت عند الطير الصادح هذه اللوحة الفنية التى أبدع الشاعر رسمها بل التى أبدع الربيع رسمها ليست بأجل من حفل الوداع لأنه حفل الأدب والعلم ففيه أنس الأديب وفيه الجلال وبشائر السراء فيه حلية الرياض وليس للرياض مازان الحفل من هيبة وبهاء ، وقد جال فيه فحول البيان وغرد فيه بلابل الفصحاء ولا عجب فذلك النادى تألف عقده بالنابهين وقد لبيت دعوته وجئت إليه تقديراً لفضله وأنساً بأهله وجئت ألهج بالوفاء للعاملين بالنادى الذين لم يكتفوا بمجد الآباء بل كسبوا لأنفسهم مجداً بالكفاح . ولقد أخجل المادحون تواضع الشاعر ببارعات مدائحهم فكسوه من حلل الفضل ثيابا وضمخوه بالعبير .

لا نـــكر إن أبديت مـــا بى إنمــا
أصبحت فى أهـــلى وفى خلصائى

أصفيهم شعرى وإن لم يكفـــــهم
أصفيهم دمـــعى ومحض دمـــائى

ما روضة غناء عاودها الحيا
فغدت به موشية الأرجاء
وبدا فحياها الصباح فزادها
حسنا على حسن شعاع ذكاء
جليت فكانت صورة مرسومة
بيد الربيع بديعة الإنشاء
غنى الربيع بها فجاءت منظراً
عجباً من الألوان والأضواء
ربضت عليها ربوة فينانة
فى حلة من سندس خضراء
قامت فقام السر فى جنباتها
حرساً يقيها طارق الأرزاء
بجوارها (كشك) تكامل لطفه
وبجنبها صخر ومنبع ماء
متسلسل ينساب صوب بحيرة
رقراقة كوذيلة الحسناء
فالطير تصدح والغصون مصيخة
للحن وهى ترف بالأنداء
فنسائم الأسحار زارت زهرها
فى غفلة عن أعين الرقباء
باتت تقبله وعند وداعه
نثرت عليه مدامع الخنساء
بأجل أو أبهى سنى من محفل
أنس الأديب وملء عين الرائى
طافت به روح الجلال ورفرفت
فى جانبيه بشائر السراء

حال بزينات الرياض ومالها
مازانه من هيبة وبهاء
جالت به بزل البيان وغرّدت
بالسحر فيه بلابل الفصحاء
ناهيك من ناد تألف عقده
بالنابهين الصيد والنبلاء
لما دعانى جئت أقدر فضله
ورميت أعباء الهموم ورائى
وأتيت ألهج بالوفاء مجسما
والفضل فى أعضائه الكرماء
الكاسبين المجد جهد كفاحهم
لم يكتفوا بمفاخر الآباء
والمخجلين تواضعى بشوارد
من بارعات المدح والإطراء
فاهت به أنفاسهم فكأنما
فاحت علىّ بعنبر وكباء

لقد جمع الشاعر فى هذه الفكرة بين الطبيعة وبين الحفل الذى أقيم لتكريمه وهذا الحفل نوع من المدح والثناء.

والشاعر البحترى قد سبق الشاعر السعودى فى الجمع بين المدح والطبيعة فى القصيدة التى مطلعها :

أكان الصبا إلا خيالا سلما
أقام كرجع الطرف ثم تصرما
أرى أقصر الأيام أحمد فى الصبا
وأطولها ما كان فيه مذمما

إلى أن يقول تلك الأبيات المشهورة :

أتاك الربيـــع الطلق يختـــال ضاحكاً
من الحسن حتى كاد أن يتكلمـــا

فالشاعر السعودى مسبوق بالجمع بين الطبيعة والمدح وإيجاد صلة بينهما ولكن الشاعر السعودى تفنن فى الفكرة من روحه ورسم لها صورة بديعة ذات ألوان وظلال وأبعاد مختلفة على نحو ما أوضحنا ذلك سابقا مما يجعله مبدعاً مبتكراً فى هذا المجال .

وأمتد الحديث من الفكرة الأولى إلى الثانية فإذ الثناء الذى أهدى إلى الشاعر من النادى الأدبى إنما هو ثناء على العلم والأدب .

فلقد أثقل المحتفون عنق الشاعر بكل ثناء ورفعوه فوق كل سماء حتى أخذته نشوة هزّت كيانه وكاد وهو الرجل الوقور يرقص من السرور لقد أغرقوه فى بحر من العواطف ولكنه وذلك تواضع منه يعرف قدر نفسه فلا يزهه مدح المحب ولا يغض من قدره قدح العدو ، وهو لا ينكر آلاء الله عليه فليس وراء ما هو فيه فضل ولكنه يرى أن هذا الثناء وذاك المدح إنما هما للعلم والآداب لا له .

أثقلتمو عنـــق بـــكل ثنـــــاء
ورفعتمونى فـــوق كـــل سمـــاء
فلكدت أذهب فى الغرور لنشـــوة
هـــزّت كيـــانى هـــزّة الصهبـــاء
ولكدت أرقص بالسرور معـــربداً
فى الحفـــل رغم رزانتى وحيـــائى
مهـــلا رويداً إننى أنا عـــارف
نفسى بمـــا يخفى على الخلطـــاء
لا تثقـــلوا بثنـــائكم وبيـــانكم
شخصـــا ينـــوء بهـــذه الأعبـــاء

أغرقتمـــــونى فى عـــواطفكم فمـــا
يجـــدى على شخصى جميل وفـــائى
ومتى درت نفسى حقيقتها سمت
عن خادعات النقـــد والإطـــراء
لم يزهنى مـــدح المحب ولم يكـــن
قـــدح العـــدو يغض من خيـــلائى
لا أزدهى كذباً ولست بمنـــــكر
مـــا للإلـــه عـــلىَّ مـــن آلاء
فلقـــد عرفت حقيقتى ودخـــائـــلى
أيكـــون فضـــل فـــوق ما أنا راء
العـــلم والآداب لا لى كلمـــــا
أبـــداه ذانـــكم الجميـــــل إزائى

وتأتى الفكرة الثالثة امتداداً أيضا للفكرة الثانية لقد كان لزاماً على الشاعر وهو يسمع آيات المدح تهدى إليه أن يتجاوب مع هؤلاء الشعراء وأن يرد على مادحيه ويبادلهم وفاء بوفاء وشعراً بشعر فلينزل على حكم الوفاء وليحمل قيثارته مترنماً وقد حملها ودعا شعر الوفاء فلباه متدفقا ولكنه بالرغم من ذلك يرى أنه لم يوف المحتفين به حقهم فحسبه أن يؤدى شاكرا لهم شعور الصداقة والإخاء :

معنى نزلت به لحـــكم وفائـــكم
وأتيت رغم تواضـــعى وإبـــائى
وخطرت أعثر فى السرور معـــانقـــا
قيثارتى مـــــترنمـــا بغنـــــائى
ودعـــــوت شعرى الوفـــاء فجـــاءنى
كالمـــــاء منحدراً عـــــلى الصفـــواء
متـــدفقـــا فكأنمـــــا سالت بـــــه
أخلاقـــكم مـــن رقـــــة وصفاء

لو قمت أنشد بالقوافى مدحكم
وكسوتها جهدى شعور ولائى

فنسقت دراً يكلل عقده
ما فى النجوم الزهر من لألاء

وأتت تشيد بكم وتجلى مالكم
من أشرف الألقاب والأسماء

لم توفكم حقا ولو طارت بكم
فوق السماك كأنفس الشهداء

حسبى لصحبى أن أؤدى شاكراً
لسمو شعور صداقى وإخائى

وأخيراً يكتمل عقد المقدمة والأفكار الثلاث بالفكرة الرابعة بذكرياته فى سنغافورة وهى المفجر الحقيقى لينابيع العاطفة والأفكار والصور والعبارات فى هذه القصيدة وكأن هذه الفكرة وقد ختم بها الشاعر قصيدته تأتى لتلخص كل مامضى فذكرى سنغافورة ونادبها لن تفارق الشاعر فى حله أو ترحاله وخيالها سيظل ملء خواطره وسيظل يرافقه فلسنغافورة ذكريات جمة وأصداء بعيدة المدى فى قلب الشاعر بها الطبيعة الساحرة التى جلت خاطر الشاعر وغذت خياله .

ومن ثم فكلمة الفراق والوداع تؤرقانه فليرفق به المحتفون ولا يذكروا هاتين الكلمتين كثيراً وإنه وإن قضى الله الوداع فإنه وداع مؤذن بلقاء ؛ وإن نأى شخصه عن سنغافورة وناديها فروحه طواقة بهما فهو القريب النائى :

ولعهدكم ذكرى لدى تحفى
ماعشت عند ترحلى وثوائى

وخيالكم مازال ملء خواطرى
ومرافقى فى بكرتى ومسائى

ولسنغفوزا ذكريات لا تسل
عما لها في القلب من أصداء
بلد به جلت الطبيعة خاطرى
وغذت خيال الشعر خير غذاء
لا تكثروا ذكر الفراق فإنه
لفظ يهيج بلابلى وبكائى
رفقا بقلب ذاب في صبواته
فكفاه ما لاقاه من برحاء
ومتى قضى الله الوداع فلم يكن
إلا وداعاً مؤذناً بلقاء
ولئن نأى شخصى فروحى بينكم
طوافة فأنا القريب النائى

هذه القصيدة إذن من وحى سنغافورة من وحى ذكريات الشاعر بها من وحى طبيعتها من وحى ناديها .

وقد التقى الشاعر بالطبيعة والنادى وجها لوجه فكانت تجربة عملية نقلها إلينا في تجربة شعرية جيدة ارتفع فيها الشاعر إلى سماء الشعر وكانت رؤيته واضحة مزج فيها مذهبه الشعرى بالطبيعة بالوداع ونقل هذه التجربة إلينا عبر صور جميلة نابضة بالحياة واستعمل قاموساً شعرياً بهيجاً فيه الفجر والشفق والفراش والأزهار والطير والجمال والخيال والشعر والربيع والجدول والربوة والثناء والمدح والوداع واللقاء وإن جاءت بعض عباراته نثرية مبتذلة لاكتها الألسن مثل : أثقلتمو عنقى — لا تكثروا ذكر الفراق — ولئن نأى شخصى فروحى بينكم .

وعلى كل حال فهى عبارات محدودة لا تقلل من روعة القصيدة وجمالها

ثانيا : أو خيال مجسم في ابن خمس :

الأستاذ أحمد إبراهيم الغزاوى شاعر جلالة الملك عبد العزيز وعضو

مجلس الشورى شاعر فحل ينسج على منوال القدماء ويتسامى إلى القمم العالية من جزالة البيان وقوة التصوير وبلاغة التعبير ، وقد نفح مجلة المنهل بقصيدة عصماء بمناسبة عيدها الخامس وجعل عنوانها (أو خيال مجسم فى ابن خمس) (١) .

وتبدأالقصيدة بأسلوب إنشائى مصوّر يعرض فيه الشاعر تصوّره لهذه المجلة أهى موكب البعث أم أشعة الشمس أم أمان تحققت أهى الربيع فى وروده وريا حينه أم حبيبة تمنعت ثم جادت بالوصال كل هذه الأخيلة مجسمة قد تجمعت فى المنهل ابن السنوات الخمس ذلك الوليد ذو الأصول العريقة الذى أنجز فى هذه الفترة الوجيزة أعمالا كباراً فتلاقت فيها العصور والحضارات وحفلت بالبيان الساحر المؤثر وأسلوبها متنوع فهو رقيق جميل كأكف الملاح رقيقة الملمس وهو قوى جزل كدوى الرياح .

موكب البعث أم مفـــاخر أمس
ما أرى اليـــوم أم أشعة شمس
أم طيـــوف من الأمانى استجابت
حلمــاً باسمــاً كومضـــة قبس
أم ربيـــع كرفرف الخـــلد طيبا
قـــد تغشاك بـــين ورد وورس
أم وصـــال بلغتـــه بعـــد صد
أم حبيب لقيتـــه بعـــد رمس
لست أدرى وقـــد علمت بـأنى
بـــين قلبين مـــن رجـــاء ويأس
كـــل هـــذا وكـــل ذاك شعور
أو خيـــال مجسم فى ابن خمس

---

(١) المنهل عدد ربيع الأول ١٣٦٠ هـ .

فى « وليـــد » أراه منـذ تناغى
خزرجى الأصـــول أو فرع أوس
كلمـــا اجتـــاز فى الطفولة شهـــراً
نازع المهـد رابتنى عرش درس
ثم لم يبلـغ (الفطــام) فأضحى
عبقريا يجـــول فى كل طرس
تتـــلاقى العصـــور فيـــه تباعاً
والحضـــارات من ضحى كل جنس
فى أفانـــين مـــن بيـــان وسحر
وتصـــاريف مـــن سعود ونحس
كأكف المـــلاح رقـــة لمس
ودوىٍّ الريـــاح شدة بـــأس

هذا وما زال الشاعر سابحاً مع خياله يتصوّر المنهل تقود موكب البعث الثقافى والعلمى والأدبى فى هذه البلاد دون أن يصرح باسمها إنه يذكر صفاتها وحسب وهو حين يذكر هذه الصفات إنما يعرضها مصوّرة وعلى هيئة أسلوب إنشائى كما قلنا ثم يتابع دور المنهل الطليعى فى هذه المجالات المتعددة فيذكر معالجتها للأدواء الاجتماعية وأنها رائدة فى هذا المجال وأنها حققت تقدما ملموساً وهى ما تزال فى دور العلاج فكيف بها إذا تجاوزت هذه المرحلة وأنها استعانت بكتاب مسلمين اهتدوا بنور الله فهم خيرة الناس وجيرة الحرم وجيرة الرسول تحركهم عقيدة التوحيد الواضحة وهم ينشرون نور الإسلام فى كل أفق كما كان سلفهم الصالح يفعل ذلك فالغزاوى يرى أن مفتاح الحركة الثقافية والأدبية التى تقودها المنهل إنما هو فى تمسكها بتعاليم الإسلام وذلك لم يصدها عن الحضارات المختلفة .

عالـــج الداء فى حشى كـــل مود
كان من قبـــل لم يجد من يؤسى

فمشى البرء فى السقام رويداً
وهو من بعد آخذ بالجس

وعقاقيره الهدى فى أناس
أبعد الله عنهم كل رجس

خيرة الله فى البرية طراً
وهم القوم فى مهابط قدس

جيرة البيت والرسول ومهوى
كل قلب وكل عين ورأس

لبسوا الوشى فى الخلود وظلوا
مأزر الدين دون شك ولبس

يوم كانوا كواكبا كل أفق
فيه آثارهم تهم بنبس

بسلف صالح وشعب كريم
يصبح المجد فى رباه ويمسى

كل هذا ومازال الشاعر يحتفظ بالسر فلم يصرح بموضوع حديثه لم يذكر اسم المنهل وإنما ذكر صفاته وذكر دوره فى خدمة الثقافة والعلم والأدب كما ذكر الرجال الذين أعانوا على تحريره وذلك لون من ألوان التشويق جعل الناس يتساءلون أو هكذا أراد لهم الشاعر أن يسألوا عن حقيقة الأمر ويطلبوا من الشاعر أن يعلن لهم عن اسم ذلك الموصوف ويدع الرمز والهمس فهم يسألون عن الرضيع الذى صار كالغلام وعن الغلام الذى كساه ثوب عرس ، ولكن الشاعر يتهيب الإفصاح فيقع الناس فى ريب من حقيقة الأمر فيعاود الحديث عن طريق الرمز فيذكر أنه يبدو فى مطلع الهلال كالبدر إلا أنه فى صحائف ملس وهو مثل الهلال يشرق فى كل غلس .

وكأنى بسائل قال بهراً
حسبك الآن فاشف روحى ونفسى

سمّه جهرة وقيل لى مـاذا
أنت تعنيـه فى رمـوز وهمس

من رضيـع وصفتـه كغلام
وغـلام كسوته ثـوب عرس

ذاك عكس الحيـاة إذ هى طرد
واصطلاح القـريض طرد لعكس

فتهيبت أن أبـوح بسرى
فى هـوى فاقنى وأهـرقت كأسى

وتوقفت فـاستربـوا فـأوحى
لهـم الرجـم أنـه وهـم وهجس

قلت فى مطلـع الهـلال ستبدو
وهـو كالبـدر فى صحائف ملس

مشرق ضـاحـك الثنـايا أغـر
مستنير يضىء فى كـل غلس

لقد نوّع الشاعر بين أسلوب الخبر والإنشاء وعرض صوراً متتابعة جسمها له خياله أو جسم فيها كما يقول ابن خمس ولكنه حين أدخل هذه الفكرة فكرة السؤال عن حقيقة الأمر وفك الرمز أدخل لوناً من الحوار الداخلى أضفى على النص جوًّا قصصياً وكأن فى الأمر عقدة تتطلب الحل وإذا بالشاعر فى الأبيات التالية والأخيرة يكشف النقاب عن وجه الحقيقة ويصرح بأنه يعنى بكل أوصافه وصوره السابقة وتساؤلاته المتعددة يعنى بكل هذه التركيبة مجلة المنهل فبينما هو يحاور سائله إذ بالمنهل العذب يخطو كالطواويس حينا وكالعارض فى السماء حينا آخر بين سمطين من النثر والنظم يمزج قديم الفن بجديده فرحب به الناس وحيوه أجمل تحية :

فإذا هـوا والمنهـل العذب يخطو
كالطواويس فى اختيـال وجرس

مــرّ حينــا كعارض فى سمــــاء
يعرض الأرض فى مـــــلاء دمقس
بــــين سمطين مـــن نثـار ونظم
وسماطين مـــن ثمـار وغرس
تتغنى بـــلابل الأيــك فيهــا
بأناشيـــد أشجلت كـــل حس
تمـــزج الفـــن طارفاً بتليـــد
فى أباريـــق كالمراشف لعس
لـــبرات كأنهــا زفـــرات
هاجهـا الحب بـــين ليـلى وقيس
كل لحـــن كأن (معبــد) فيــه
مصدر الصــوت أو لهـــات طويس
فأفاضـــوا إليـــه غـــير بعيــد
وأباحــــوه كـــل شوق وأنس
ثم حيّــــوه معجبين وقـــالـــوا
حبّـــذا أنت ياشـــذا الفـــردوس

نلاحظ أن الشاعر حافظ على وحدة الوزن ووحدة القافية وأنه بعث الحياة فى قصيدته لأنه كان معجبا بالمنهل وبسلوكها نهجاً وسطاً بين القديم والجديد ، وأن المادة الشعرية لديه كانت وفيرة غزيرة إلا أنه تناول المادة الخام لموضوعه تناولا موضوعياً أي من حيث هى قائمة خارج شخصيته ومستقلة عنها فحتى إعجابه بالمجلة لم يأت على لسانه وإنما جاء على لسان من سألوه عن فحوى حديثه . والإعجاب عاطفة عامة ينقصها التحديد والتلوين ومهما يكن الأمر فى شعر أحمد إبراهيم الغزاوى أقديم هو أم جديد أم أنه بين بين فهذه قضية نقدية تختلف من شخص لآخر إلا أن الذى لا يختلف عليه أثنان فيما أرى هو عدم إهمال التراث الشعرى والأدبى واللغوى لهذا الشاعر الفحل والباحث اللغوى الرقيق فينبغى أن نعرف أقدار أدبائنا وعلمائنا وأن نحافظ على نتاجهم وإن اختلفنا فى تقويم هذا النتاج .

الشاعر الطموح المتنبي [١] :

هذه قصيدة من نظم الشاعر السعودى ا — هـ — رشيد من المدينة المنورة. يعبر فيها عن إعجابه بالمتنبي .

وقد قسم الشاعر القصيدة إلى قسمين كبيرين :

القسم الأول : آمال المتنبي :

لا تلوموه إن طغى	وشكى الدهر والغير
وتسامى بنفسه	وتعالى عن البشر
ورأى الناس كالسهى	وهو كالشمس والقمر
ذاك دنيا من المنى	كونها بيد القدر
فى إهاب من القوى	وبيان من الشرر
وحياة تقلبت	فى غريب من الصور
ملؤها الحزم والجوى	ملؤها الهم والفكر
ملؤها الحقد للورى	مفزعا رائع الخطر
ملؤها عبقرية	غلبت كل مقتدر
وتبدت لمن يرى	تفتن القلب والبصر

هذه الأبيات تذكر تعالى المتنبي عن البشر ثم تذكر السبب فى ذلك. وهو أن أحلام المتنبي كانت كثيرة وأنه كان شجاعا قويا ذا بيان نارى. وحياة متقلبة متلونة بين الحزم والجوى والهم والفكر وهل كان المتنبي حكمة أم هذراً ؟ إنه كان شاعراً طموحاً لم ينل منزلة إلا تطلع إلى ما فوقها وهو فى حرب مع الدهر الذى لم يحقق أحلامه وهو فى النهاية يشكو حظه العثر .

إن هذا اللون من الشعر يمكن أن نسميه شعر الفكرة فهو بالرغم من موسيقاه الراقصة وصوره البيانية إلا أن عنايته بالفكرة وتوضيحها والتعليل.

---

(١) المنهل عدد شوال ١٣٦٦ هـ .

لها ووصف المتنبي وشعره غلبت على وجدانه والشعر وجدان قبل أن يكون فكرة .

كان حاقداً على الناس لأنهم لا يقدرون عبقريته حق قدرها أو لا يقدرها إلا القليل منهم .

وبالرغم من أن الأبيات ذات موسيقى راقصة واعتمدت على بعض الصور البيانية كالتشبيه فى قوله :

ورأى النـــاس كالسهى — وهـــو كالشمس والقمر
ودنيـــا مـــن المنى — وبيـــان مـــن الشرر

والاستعارة فى ملؤها الحزم ، ملؤها الحقد ، ملؤها عبقرية بالرغم من كل ذلك فإن عنصر الفكرة غالب على الشاعر فهو يأتى بالفكرة ويعلل لها : لا تلوموه إن طغى تلك فكرة يعلل لها بقوله :

ذاك دنيـــا مـــن المـنى

والصور التى ذكرها صور توضيحية لا تحمل إشعاعات نفس ولا نبضات قلب ومن ثم فهى صور جميلة من حيث الشكل لا من حيث إنها وليدة العاطفة .

ثم ينتقل الشاعر المدنى إلى الحديث عن شاعرية المتنبي وشخصيته وهذا بمثابة التفصيل لكون المتنبي دنيا من المنى وعبقرية فذة وذلك حيث يقول :

أيهـــا الشاعـــر الـــذى — شغل النـــاس والعصـــر
وانقضى الدهـــر وهو فى — ذروة المجـــد مستقر
شعره جـــوهـــر البيـــا — ن وألفـــاظه الـــدرر
والذى عاش ساخطـــا — يشتكى العيش والعمـــر
ثائراً ينظـــر الحيـــا — ة بعـــين من الضجـــر
حانقـــاً يرقب الدمـــا — ء كمـــا يرقب الزهـــر
ليت شعـــرى أحكمـــة — ذلك السخط أم هـــذر

أم طموح إلى العـــــلا دائب الوثب مستمـــر
لم ينـــل قط منزلا يرتضيـــه فيقتصـــر
ورأى الدهـــر أنـــه ليس يـلوى ويزدجـــر
ورأى العمـــر لا يـنى بالأمـــانى ولا العصـــر
فتلقـــاه بالحسـا م وأرداه فى الحفـــر
وتـــولى بروحـــه تشتكى حظـــه العثر

فالمتنبي شاعر شغل الناس بشعره وقد تسنم ذروة المجد فى عالم الشعر فشعره جوهر البيان وألفاظه الدرر هذا عن شعر المتنبي وهو كلام عام يصدق على المتنبي حقا ولكنه يمكن أن يصدق على غيره كأبى تمام مثلا . أما شخصية المتنبي فقد وصفها الشاعر بأن صاحبها ساخط ثائر ضجر حاقد .. ثم وقف الشاعر متسائلا أكان سخط المتنبي حكمة أم هذر ؟ .

الاتجاه الدينى : (قبس من الهجرة) :

الشيء من معدنه لا يستغرب فأغانى الشاعر السعودى الدينية تجيء من الدعاة إلى الله وتتحدث عن قيم ظهرت على هذه الأرض المقدسة وذكريات شهدت لها الجبال والوديان والليل والنهار كانت السعودية مسرحها فالشاعر العظيم حسن عبد الله القرشي حين يتحدث عن « قبس من الهجرة[1] » إنما يستلهم قلبه المؤمن أولا وبيئته المقدسة ثانيا ومن ثم يمسك قيثارته بعد أن صفق الوجد فى فؤاده وصار حنينه إلى ذكريات الهجرة ذكريات البطولة والمكارم صار فى الحنين لحنا داخليا يغنيه فؤاده قبل أن يغنيه لسانه لقد أضاءت له صور الذكريات بشكل بديع فبعثت الماضى المجيد أمام عينيه صوراً يشع منها النور والحسن يفوح العطر وتسمو الأنغام فتغمر الكون بالجمال وبالبشر وبالحق ذاك عالم يموج بالقيم والمثل خلدته الأجيال .

صفق الوجـــد فى الفـــؤاد وغنى
وتجلى الحنـــين فى النفس لحنـــا ،

(١) المنهل عدد صفر ١٣٦٧ هـ .

إيه يا ذكريات من أين ضبابات
صور منك تترك الروح مضنى
تبعث الماضى المجيد لعينى
أى ماض يشع نوراً وحسنا
هو ماض من البطولات قد صيـ
ـغ وشيدت به المكارم حصنا
هو ماض يفوح عطراً ويسمو
نغماً أطرب المسامع فنا
عمر الكون بالجمال وبالبشر
وبالحب مشمخراً مرنا
بالدنيا تموج فيه ومعنى
خلدته الأجيال قرنا فقرنا

فهل تقوى قيثارة الشاعر على نقل هذه العواطف الجياشة إنها أيضا أحست بالموقف وبالألحان الخالدة التى ستردِدها ومن ثم ذابت من الهوى لأن الدرب بعيد وجلال الموقف يجل عن الوصف فلتستمد القيثارة الولهى من جلال الموقف معانيه ولتتخذ من طيبات الذكريات حصنا لها ومجنًا :

أنا أخشى عليك قيثارتى الولهى
تذوبين من هوى بك حسناً
أنا أخشى عليك فالدرب نـاء
كيف تفنين والخوافق وسنى
فاستمدى من الجلال معانيه
وصوغى من الطيوب مجنا

وبعد هذه المقدمة عن ذكريات البطولات والمكارم وعن القيثارة الولهى يصل الشاعر إلى بيت القصيد وإن شئت فقل إلى الكوكب المهاجر يصل إلى رسول الله ﷺ ذلك السارى وملء جنبيه سر من روح الله فهو

يمشى بنور الله وبقلب ذاكر إنه درع الأمان والسلم للكون . إنه حامل الوحى المنزل بالحكمة والخير فيه هدى الدنيا وسنى الآخرة إنه آيات وشرع هدى أعرض عنه المضلون وأرادوا به كيداً فى بلده مكة البلد الأمين فخفت يثرب لحمايته وترحل رسول الله بالمؤمنين إليها حاملا عقيدة التوحيد فكان كالكوكب ملأ الفيافى أمنا :

أى سار ومـــلء جنبيه سر
هو روح مـــن الإله تـــدنى
سكبت نـــوره السماء لقـــلب
ذاكر كم يفيض وداً ويمنـــــا
هو درع الأمـــان والسلم للكـــو
ن تسامى نبعا ومـــأوى وشأنـــاً
هو وحى منزل رف بالحكمـــة
والخير باهـــراً مطمئنـــا
فيه هدى الدنا وفيه سنى الأخـــرى
ومنـــه الضـــلال ينـــدك ركنـــا
هـــو آى ينساب فى مسرب الصدو
ح وشرع أهـــدى العظيم فأغنى
إن يكـــن أعرض المضـــلون عنـــه
وتعـــاووا عليـــه عميـــا وسجنا
فحمى يـــثرب ترامى عليـــه
من عـــل فجـــره فآمـــن حسنى
فترحـــل بالمؤمنين إلى يـــث
رب وانزح مهاجـــراً جـــد معنى
يا عقيـــد التوحيـــد ما أنت إلا
كوكب يمـــلأ الفيـــافى أمنـــا

قــد تــبرأت من دخــول ومن حقــ
ــد وأشربت حب ربك فاهنــــا

هذه أنشودة تحمل فيضا من المشاعر والعواطف بجوار رءوس أفكار حول المهاجر العظيم وما لاقاه من قومه فى مكة وكيف رحب به أهل المدينة والصياغة الفنية جيدة والموسيقى تناسب ألحان البطولات فالقصيدة من بحر الخفيف : فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن بيد أن بعض عبارات الشاعر وألفاظه لا تألفه الأذن الحديثة مثل « مشمخراً » فى البيت السادس وكلمة « يرن » فى نفس البيت مبتذلة .

ثم انبرى الشاعر يفصل أحداث الهجرة فيذكر سوء معاملة القرشيين لرسول الله ﷺ حيث جرعوه الآلام ولم يراعوا فيه قرابته ولم يعرفوا قدره رسولا مع أنهم من قبل كانوا يلقبونه الأمين فما بالهم يكذبون نجى الرحمن ونبع الحياة وإكسير السعادة .

أنت صبح أطــــل من تلعة الكــو
ن وهيهات أن يرى الصبح دجنــا
عاد وقت النضــال بعــد نضــال
لم تقــم فيــه للمكاره وزنــا
جرعــوك الآلام لم يستديمــوا
فيك قربى أو يفقهــوا لك شأنــا
لقبوك (الأمــين) لم تعرف المــيد
ن فكيف ارتضوا لصدقــك غبنــا
يا نجىّ الرحمن فاصــدع بذكــر
هــو للنــاس رحمــية تتفنى
هــو نبــع الحيــاة أو هو إكسيــ
ــر السعادات أو هو الروض يجنى

وتحت أستار الليل وبرفقة الصديق يخرج المهاجر العظيم ﷺ ويتخذ الصديقان طريقهما إلى الغار ليتخذاه كنا وإنه لشرف عظيم لذلك الغار فقد ضم المغانم والخير ولمس الطهر صخره وثراه .

اتخـذ من جوانب الليـل سترا
ومن الوامق المصـدق خـدنا
ها همـا ذان فى المغـارة إلفيـ
ـن أباحتهمـا المقـادير كنـا
أى مغنى ضـم المغـانم والخيـ
ـر سميـا واستجمع الفخـر سكنى
لمس الطهـر صخره وثـراه
فهـو تبر يـروع حسا ومعـنى

وتثور ثائرة المشركين بعد أن علموا بخروج النبي ﷺ من مكة مهاجراً وخرجوا فى إثر الصاحبين يملؤهم الطغيان والرغبة فى الشر يريدون حماية كبريائهم المنهار بالبطش والغدر ولكن هيهات إنهما الآن فى حماية الله فليتضاءل ركب الشرك فما للقيا الصاحبين من سبيل إنهما فى كنف الخالق ونجوم السماء أقرب من الوصول إليهما وبعد أن يئس المشركون من العثور على الصاحبين وكادت صدورهم تنشق خزيا وحزنا وهم فوق الغار ويقول قائلهم إن محمداً ومن معه فى الغار فلنقتحم الغار عليهم ولنوسعهم ضرباً وطعنا ، ويفزع الصديق من سورة البغى خوفا على رسول الله ﷺ لا على نفسه إنها لحظة يشيب لها الولدان ذعراً وخوفاً إنها لحظة حاسمة فى تاريخ البشرية ويشفق رسول الله صلى الله عليه وسلم على صاحبه بعد أن رأى ما به من الحزن واللوعة ولكن الهدوء لم يفارق رسول الله ﷺ وإنه ليطمئن أبا بكر ويفرخ من روعه حين يقول له : لا تحزن إن الله معنا ، وفى هذه اللحظات لا ينسى الرسول صلاته فلم تصرفه عنها عصبية البغى ولا هول الموقف إن موكب الشرك الطاغى لأهون على الله من جناح بعوضة ومن ثم

رد كيدهم فى نحورهم وحمى رسوله وصاحبه بأوهن الجنود نسج العنكبوت وبيض الحمام هناك على فم الغار .

« ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » .

ولله جنود السموات والأرض وغار ثور فى حماية الله وكفى وعاد المشركون الطغاة يجرون أذيال الخزى والعار وكأنهم كانوا حلماً بغيضاً انزاح لقد كان محمد وصاحبه فى أمان الله فليحمد الله وهو خير الحامدين. وسيدهم فقد انجلى الظلام وولى البغاة :

هاجت الشرك هجـــرة المـــرسل الهـــا
دى وآدتـــه فاستشاط وجنـــــا

وطغى من سلالة الكفر رهـــط
رام أن يستطيل كـــبراً ومنـــا

نهـــبد الركب للرفيقـــين يبغى
بهما البطش مــــلؤه الغــدر ضنـــا .

إيـــه ركب الشرك البغيض تضـــاءل
ما للقيـــا هـــا سبيلك يـــدنى

إنمـــا الصاحبـــان فى كنف الحـــا
لـــق هيهـــات دونك النجم أدنى

وهفـــا المشركون يعـــروهم اليـــأ
س وكل ينشق خزيا وحـــزنا

صاح منهـــم قسل هنـــا القوم فى الغا
ر فشدوا عليهـــم الآن مشـــنى

ها هنا الهاربون فاستقبـــلوهـــم
بالجزاء المبـــين ضرباً وطعنـــاً

وتأذى الصـــديق مــــن سورة البغـــ
ـــى وقـــد شفه الأسى فتظنى

ورنـــا للرسول والطـــرف دام
مشفقا أن ينــال بالسوء مضنى

يالهــا لحظــة تشيب لهــا الولـ
ـدان ذعراً وتسقط الشهب حزنا

يالهــا لحظــة أفاضت على التا
ريـخ ذكـراً فى الخافقين أغنـا

ورآه الرســول يستشعـر البـ
ـث وفى النفس لوعــة ليس تفنى

قال يا صـاح لا تحـاذر ولا تحـ
ـزن فربى بنــا أضن وأحنى

وهفــا للصــلاة يا لمصــل
لم يروع بعصبــة البغى ذهنـا

نسج العنكبـوت فـوق فم الغـا
ر وباضت حمــائم فاطمأنـا

وتهـادت جنــود ربك ترعى
موئل الوحى وهـو يفترسنـا

وتــولى الطغــاة كالحــلم الجـ
ـهم خفاقاً يطــوون سهـلا وحزنا

هــو أمــن الإله فليخسأ الشر
ك حمى الله دينــه المرجحنـا

فاحمد الله فى ابتهــال فقــد ولـ
ـى بغــاة عن موكن آض حصنـا

وسرى الصاحبـان بالأمــل البسا
م تحــدوهمــا المفــاخر مجنى

لقد كانت الهجرة إجراء لتوجيه الدعوة إلى طريق جديد مفتوح بعد أن وصلت فى مكة إلى طريق مسدود تآمرت كل عوامل العناد والكفر على سحق هذه الدعوة المباركة فأذن الله لنبيه بالهجرة رغم الصعاب التى اكتنفتها ولكنها فعلا شقت طريقا جديداً للدعوة فما الدرس الذى يستفيده المسلمون من قبس الهجرة ؟ إنهم الآن فى حالة يرثى لها يسيرون فى طريق مسدود تكتنفه العقبات وهم بحاجة إلى أن يغيروا طريقهم ويسلكوا نهجاً قويما يخرج بهم من الدائرة المغلقة التى حبسوا أنفسهم فيها إلى العالم الرحب الفسيح فكيف يتم ذلك ؟ إن المسلمين بين أمرين : حياة أو موت أما حياتهم فى وحدتهم وأما مماتهم ففى تفرقهم فالوحدة هى الحياة والتفرق هو الموت وإن حال الشرق لا تسر فأمم تعيش حياة الجبن تفزع من الطبل الأجوف وتعانى من آلام القيد والاستعمار جراحها كثرت وأبناؤها غافلون والتضامن طريق الخلاص وطريق إعادة المجد الضائع والبطولات الفريدة فى التاريخ إنه الطريق إلى توطيد الحضارة وإحياء الماضى المجيد ، وإن عقيدة التوحيد خير ما نجتمع عليه وخير ما يوحد بيننا فهى أثبت من الرواسخ وأسطع من الشمس :

أيهـا المسلمون قـد بسق الشـ ـر وعـاد الصـواب للبطـل قنـا

أيهـا المسلمون مـاذا تروميـو ن أنجيا بوحـدة أم سنفنا ؟

خذل البغى أمـة الشرق حتى آثرت بعـد خافض العيش جبنـا

هى تحيـا كالطفـل يحرسه الطبـ ـل وكالطـير فى القيـود معنى

هى تحيـا للمس وأبنـاؤها النو م عن جارهـا يصمون أذنـا

فتعالوا نوشج العزم طبراً
ونعد ماضى البطولات أسنى
ونوطد حضارة تبعث الغا
بر حيا وتغمر الكون فنا
وحدتنا عقيدة هى كالشمـ
ـس سطوعاً وكالرواسخ متنا

وحين يأتى الشاعر إلى ختام القصيدة تراه من حيث الفكرة يجمل قصيدته فى كلمات معدودات فقد عرض فيما مضى صوراً من المجد والبطولات هاجت شاعريته وحركت وجدانه فغنى على قيثارته بأعذب الألحان فكم أثارت هذه الصور بقلبه من خطرات تلتقى كلها فى معنى هجرة الرسول وهل كانت الهجرة إلا صوت الحق فلتبعث القياثر صداها فى نفس الشاعر كى يستمد منها القوة والغناء :

صور المجد كم أثرت بقلبى
خطرات يهجن لى ما يهجنا
إن فى هجرة الرسول لمعنى
جل أن يستسر أو يستكنا
فابعثى يا قياثر الخلد فى نفسـ
ـى صداها كى أستمد وأغنى

هذه القصيدة أو هذه المعلقة إن شئت قد أربت أبياتها على الخمسين ومع ذلك فهى متماسكة رسم لها الشاعر خطة بدأت بالأبيات من ١ — ٢١ والتى تعد بمثابة مقدمة للقصيدة لاتنفصل عنها بل تتلاحم معها فهى تهيئة وإعداد من نوع غير معهود فى القصيدة العربية القديمة التى كانت تجعل مقدمتها غزلية أو طللية إنها فى قصيدة الشاعر السعودى حسن عبد الله القرشى تعرض الخطوط الكبرى للقصيدة تقدم ملامحها الفكرية العامة ممزوجة بعواطف الشاعر حتى إذا وصل القارىء إلى البيت الحادي والعشرين ظن أن القصيدة

قد انتهت لأن الشاعر جمع عناصر القصيدة الفكرية فى هذه المقدمة حيث تحدث عن ذكريات البطولات والمكارم والقيثارة الوطنى وعن الكوكب المهاجر يملأ الفيافى أمنا .

ولكن الشاعر يبدأ منذ البيت الثانى والعشرين إلى أن يقول :

وسرى الصاحبـــان بالأمـــل البسا
م تحدوهمـــا المفاخـــر مجـــنى

يبدأ فى تفصيل أفكاره وعرض صور من البطولات والمكارم وصراع الحق الأعزل مع الباطل المسلح مواقف مطاردة المشركين لرسول الله وغار حراء عشش فوقه العنكبوت وباض الحمام وقوف المشركين على فم الغار . حديث أحدهم باحتمال وجود محمد وصاحبه فى الغار . خوف أبى بكر على حياة الرسول . هدوء الرسول وصلاته إن ليلة الهجرة كانت ليلة الحق المنتصر والباطل المنهزم ثم انطلاق الركب المهاجر إلى يثرب . ولقد وقف الشاعر بالحديث عند هذا الحد عند غار ثور ولم يتابع الركب المهاجر إلى المدينة واكتفى بقوله : وسرى الصاحبان بالأمل . ووقف ليلقى على المسلمين درس الهجرة ويدعوهم إلى الوحدة وجاءت خاتمة القصيدة تلخيصا لها إن صح التعبير فقد عرض الشاعر فى « قبس من الهجرة » صور المجد واستلهمها فى قصيدته واستمد منها القوة والغناء وما أجمل حديث الشاعر إلى قيثارته فى مقدمة القصيدة وختامها إنها تدل على أنه يغنى ويقص فى آن واحد فلم يتغلب التاريخ على الفن إن قلبه فياض بعشق البطولة والحق والكوكب المهاجر وقد صور عاطفته ولم يقررها فقط بل جعل الصورة توحى بها فقد صفق الوجد فى الفؤاد وغنى — وصور الذكريات ضاعت وماضى البطولات يفوح عطراً والقيثارة الوطنى — والرسول درع الأمان والسلم والآى ينساب فى ضرب الروح ، وما الرسول إلا كوكب يملأ الفيافى أمنا وصبح أهل من تلعة الكون وهكذا إلى آخر القصيدة .

لقد نظم الشاعر هذه القصيدة بطاقة شعورية جياشة ونفس طويل ركز

على صور من الهجرة واستخلص منها العبر وحينما نوازن بينه وبين شوقى فى هذا المجال نجده قد تفوق على شوقى فشوقى لم يذكر الهجرة إلا فى أبيات معدودات من قصيدته « نهج البردة » فهو حين يذكر جهل المشركين بالرسول ودعوته رغم أنه كان يلقب عندهم بالأمين والصادق يقول :

يا جاهلين عـــلى الهـادى ودعـوته
هل تجهلـون مـكان الصادق العـلم ؟
لقبتمـوه أمـين القـوم فى صغر
وما الأمـين على قـول بمتهـم

إنه يلقبهم بالجاهلين ولا يذكر اسم الرسول بل يذكر صفة من صفاته هى « الهادى » فمع المشركين الجهل ومع الرسول الهداية وهو ينكر عليهم هذا الموقف المتضارب إذ يلقبون الرسول بالصادق ثم يرفضون ما يدعوهم إليه إن هذا الاستفهام يحمل التوبيخ والإنكار لما ذهبوا إليه ثم جاء البيت الثانى مكملا معنى البيت الأول فهم لقبوه بالأمين والأمين لا يتهم على ما يقول وإلا فلم وصف بالأمين وقد نوع شوقى بين الخبر والإنشاء فى بيتيه فالإنشاء « هل تجهلون مكان الصادق العلم » ؟ وبقية البيتين أساليب خبرية ولا شك أن هذا أكسب بيتيه حيوية وقوة .

وقد عرض القرشى لنفس المعنى حين قال :

لقبـوك الأمـين لم تعرف الميـ
ـن فكيف ارتضوا لصدقك غبنـا

لقد أدى القرشى المعنى فى بيت واحد بينما أداه شوقى فى بيتين . والقرشى يعجب كيف ارتضى القرشيون الغبن لصدق الرسول ؟ وشوقى لا يعجب بل يوبخ وينكر ويصفهم بالجهل فالقرشى كان أرفق بالمشركين من شوقى فى هذا الموقف .

ويتحدث شوقى عن موقف واحد من مواقف الهجرة هو موقف المشركين حول الغار فيقول :

هل عصبة الشرك حول الغار سائمة

لولا مطاردة المختار لم تحم

هل أبصروا الأثر الوضاء أم سمعوا

همس التسابيح والقرآن من أمم

وهل تمثل نسج العنكبوت لهم

كالغاب والحائمات الزغب كالرخم

فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم

كباطل من جلال الحق منهزم

لولا يد الله بالجارين ما سلما

وعينه حول ركن الدين لم يقم

تواريا بجناح الله واستترا

ومن يضم جناح الله لا يضم

فشوقى أيضا كان قاسيا على المشركين فجعلهم كالسائمة ترعى فى الصحراء والذى حولهم إلى حياة السوائم هو مطاردة المختار ﷺ . إنهم كانوا يتتبعون الأثر فأعينهم مشدودة إلى الأرض تماماً كما تفعل السائمة حين ترعى . السائمة تبحث عن الكلأ فى الأرض وهم يبحثون آثاراً قدام الرسول فهل أبصروا الأثر الوضاء وما أجمل وصف شوقى لأثر النبى بالوضاء فمواقع أقدامه الشريفة نور وهداية فهل اهتدوا إلى الغار بذلك أم سمعوا همس التسابيح والقرآن .. وكلمة سمعوا همس التسابيح تدل على أنهم كانوا يرهفون آذانهم إلى درجة كبرى وانظر إلى السائمة التى تسمعت همس التسابيح ووصلت إلى حيث تريد ولكنها ارتاعت من أى شىء من نسج العنكبوت والحائمات الزغب ما أجبن هؤلاء حين ملأ الخوف قلوبهم وتمثل لهم الضعف قوة فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم وقد كانوا يقرءون فى صفحات الصحراء آثار أقدام النبى . وهكذا تكفل الله بحماية رسوله وهيهات لبشر أن يجترأ على حرم الله الحصين .

والقرشي حين عرض لهذا الموقف ذكر انطلاق المشركين في إثر النبي يملؤهم الحنق والغيظ .

هاجت الشرك هجزة المرسل المنادى
إيه ركب الشرك البغيض

تضاءل ... ويلتقي القرشي مع شوقي في حماية الله للرسول في الغار :
يقول القرشي :

إنما الصاحبان في كنف الحق
هيهات دونك النجم أدنى

فالوصول إليهما مستحيل استحالة الوصول إلى نجوم السماء فنجوم السماء أقرب إلى المشركين من الوصول إلى رسول الله في الغار أما شوقي فعبر عن المعنى في بيتين حين قال :

لولا يد الله بالجارين ما سلما
وعينه حول ركن الدين لم يقم
تواريا بجناح الله واستترا
ومن يضم جناح الله لا يضم

شوقي ركز على حماية الله وقوته في صور متلاحقة يد الله وعينه ركن الدين — جناح الله لولا هذه القوة ما سلم الرسول وصاحبه من أذى قريش ولكن القرشي ركز على تحليل مشاعر القوم في هذا الموقف ووصف نفسياتهم منذ خرجوا إلى أن وقفوا على فم الغار هم في هياج وطغيان يريدون البطش بالصاحبين وفجأة يئسوا وكادوا ينشقون خزيا وحزنا . هذا فضلا عن أن القرشي تحدث عن الصاحبين داخل الغار وعن الشرف الذى حظى به الغار في هذا الحدث التاريخي العظيم وتحليل نفسية الصاحبين داخل الغار حين قال أبو بكر للرسول صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا .

وحين يقول شوقى :

فأدبروا ووجـــوه الأرض تلعنهـــم
كباطـــبـل من جـــلال الحق منهـــزم

فقد أدبروا مشيعين بلعنات الأرض وعودتهم هزيمة للباطل ونصرة للحق . حين يقول شوقى ذلك ترى القرشى يقول :

وتـــولى الطغاة كالحـــلم الجهـ
ــم خفافاً يطـــوون سهـــلا وحزنا

فالمشركون على فم الغار كانوا كالحلم البغيض مبعث رعب وفزع فانقشع الرعب بعودتهم خائبين . ولا شك أن إحاطة القرشى بالموقف أشمل وهو إن أوجز فكرة فقد أسهب فى التحليل النفسى ولا شك أنه يتفوق على شوقى هنا بأفكاره الكثيرة وتحليله ومشاعره الفياضة على أن شوقى عرض للحديث عن الهجرة فى أرجوزته عن « السيرة النبوية الشريفة [١] » فذكر أفكاراً ومواقف لم يذكرها القرشى وذلك حيث يقول :

فحقت الهجـــرة وهـــى مـــسرة
ما وصفت إلا لنفس حـــرة

سبيل موسى فى الزمـــان الأول
ومذهب الروح ولمـــا يحـــول

ومركب الأفـــراد والأعـــلام
وخصماء الظـــلم والظـــلام

ما أجمـــل الهجـــرة بالأحـــرار
إن ضنت الأوطـــان بالقـــرار

تأمـــل الرسل الكـــرام واعتبر
إن العظـــيم للعظـــيم يصطـــبر

(١) دول العرب وعظماء الإسلام ص ٢٣ وما بعدها مطبعة مصر ١٩٣٣ م .

ما أصعب الدعــــوة فى البـــداية
حتى عـــلى الرسل أولى الهداية
وأثقـــل الحـــق عـــلى الجماعـة
إن وجــدت أذن لــــه سماعـــه
والنـــاس فى عــــداوة الجـديد
وقبضـــة الأوهـــام من حديـــد

نظرات شوقى هنا فلسفية يناقش قضية الهجرة فى ذاتها ويذكر لها أمثلة من التاريخ فالهجرة مرة لا تقوى عليها إلا نفوس الأحرار من أمثال محمد وموسى وعيسى وخصماء الظلم جميعاً .

وهى تجمل بالأحرار أصحاب الرسالات إن لم يتمكنوا من أداء رسالاتهم فى أوطانهم فأرض الله واسعة ومن ثم مارسها الرسل الكرام لأنهم يحملون رسالات عظيمة والعظائم كفؤها العظماء .

ويناقش شوقى طرفاً من الصراع بين القديم والجديد فالدعوة إلى شىء جديد تلاقى صعوبات فى بداية الأمر حتى لو أن القائمين بها رسل الله المختارون فهم إن وجدوا آذانا مصغية فإن ضبط النفس وإلزامها المحجة البيضاء ليس بالأمر اليسير على أن ثمة عاملين أو عقبتين فى سبيل الجديد هما : أن الناس يعادون كل جديد لأنهم لم يهضموه بعد هذا من جانب ومن جانب آخر هم فى أوهامهم سجناء تشدهم العادات والتقاليد .

ثم يذكر شوقى ليلة الهجرة ومؤامرة قريش على حياة الرسول وإعدادهم العدة للفتك به ولكن الله حماه فخرج الرسول من بيته فى حماية الله لم يره المتربصون به .

هاجـــز من أم القـــرى مأذونـــا
وما درى أو سمــــع المـــأذونـــا
فى ليـــلة للختـــل كانت موعـــدا
قـــد نصبتها شركا أيـــدى العـدا

ائتمرت فى الندوة الأعيان
وانتدبت للفتكة الفتيان
وقعدوا ناحيبة كمينا
ليغدروا فى داره الأمينا
فخرج الله من البيت به
لم يره الجمع ولم ينتبه
وسار فى ركابه الصديق
وفى البلاء يعرف الصديق

وهاهى قريش تخرج فى طلب الرسول وصاحبه ولكن هيهات إنهما فى رعاية الله ومن ينصره الله فلا غالب له . لقد انتشروا فى كل مكان ووصلوا إلى الغار الذى يأوى إليه الرسول وصاحبه ولكن الله صرفهم عنه ولما هدأت العيون انطلق الرسول وصاحبه إلى المدينة وكان له فيها شيعة بايعوه سرآ من قبل بمكة على النصرة والحماية . لقد استقبل أهل المدينة رسول الله ﷺ أكرم استقبال استقبلوه على الرحب والسعة وباليمن والبشر .

فانتشرت خيل قريش تطلبه
من ينصر الرحمن من ذا يغلبه ؟
مروا على الغار مضللينا
وأخذوا السبل مسائلينا
حتى بدت سيدة الأمصار
وبلدة الأخيار والأنصار
وكان فيها للرسول شيعة
وعصبة سامعة مطيعة
قد عرضوا بمكة المبايعة
وبذلوا فى الموسم المتابعة
وكان إيمانهموا فى السر
خوف قريش واتقاء الشر

فكان للقـــادم منهـــم أهـــل
ومـــنزل رحب الفنـــاء سهـــل
باليمـــن ألقى رحـــله فى الخزرج
كأنـــه مـــن أرضـــه لم يخـــرج

وهكذا نجد شوقى قد تناول هنا أفكاراً لم يتناولها القرشى مثل نظرية الهجرة وفلسفتها ونماذج لها ومؤامرة الندوة وليلة الغدر ثم الوصول إلى المدينة. بيد أن أرجوزة شوقى يغلب عليها الطابع التاريخى فهى نظم لوقائع ومواقف من الهجرة. أما قصيدة القرشى فهى وإن استمدت أفكارها وأحداثها من التاريخ إلا أنها صبغت ذلك بالطابع الفنى فجاءت شعراً رصينا يحوى أفكاراً وتجارب نفسية . الأمر الذى يدعونا إلى أن نعده ضمن شعراء المدرسة العقلية فى الشعر السعودى .

الذكرى المشرفة

ليس بغريب أن يتغنى الشاعر السعودى بنبى الرحمة وبأنوار الرسالة بل الغريب أن لا يتغنى بذلك وهو فى مهبط الوحى .

لقد تغنى شعراء السعودية بالإسلام وبالرسالة الخالدة ولكن أولهم تختلف عن آخرهم من حيث الصياغة وجودة الأداء وحلاوة النغم والقدرة على نقل الشعور الجياش .

فالجيل الذى نشأ فى مرحلة التكوين الأدبى أرق من الجيل الذى نشأ فى البداية جيل الثلاثينيات الهجرية والجيل الذى نمى وترعرع ونضج بعد مرحلة التكوين كان خيراً من أولئك الذين نشأوا فى مرحلة التكوين نقول هذا بين يدى حديثنا عن إحدى قصائد الشاعر أحمد إبراهيم الغزاوى بمناسبة (الذكرى المشرفة) والتى نعتتها (المنهل [١]) بالدرية الغزاوية الجديدة التى أنشأها بمناسبة الذكرى المشرفة لمولد الرسول الكريم محمد ﷺ وقد أذيعت من محطة الإذاعة السعودية .

والشاعر فى هذه القصيدة يهيم فى كل واد فيذكر فرح الأرض والسماء وفرح أم القرى على وجه الخصوص بمولد النبى ﷺ ولكنه يفاحئنا فى البيت الثانى مباشرة بحرمان المشركين والملحدين من الطواف حول الكعبة مع أن ذلك نزل به القرآن فيما بعد فى العام التاسع من الهجرة فما وجوده فى مفتتح قصيدة فى الذكرى المشرفة ذكرى المولد النبوى والأبيات بعده تتابع الحديث عن فرح الدنيا بالميلاد السعيد وهزيمة الأوثان وحيرة المشركين فى أمرهم :

الأرض تطرب والسماء تغـــــرّد
وعــــلى الــورى أم القرى تتسوّد

---

(١) المنهل عدد ربيع الأول ١٣٧٠ هـ .

أذن الإلـــه فمـا تطـــوّف مشرك
حـــول الحطيم ولا تطـــرق ملحـــد
وتهللت دنيـــا الوجـــود بمـــولد
كسف الشموس وشع فيـــه أحمـــد
دكت بـــه الأصنام فهى رواغـــم
وانجابت الآفـــاق وهـــى تربـــد
وانقضت الشهب الشـواقب مـــن عـــل
تصلى طـــواغيت الضـــلال وتهمـــد
وقريش مـــكة فى بطـــون شعابها
ما بـــين مـــرتاب وآخـــر يحسد
متحـــيرين كأنمـــا اضطربت بهـــم
نـــذر القيـــامة والجحافـــل تحصـــد

ولست أدرى لم أفسد الغزاوى طرب الأرض وتغريد السماء وتهلل الوجود بالمولد الذى شع فيه نور أحمد بذكر دك الأصنام وانقضاض الشهب وحيرة المشركين .

ونحن لا ننكر أن ذلك قد حدث ولكننا ننكر على الشاعر إقحامه فى أفراح المولد وكنا نفضل لو تأخر ذكره قليلا حتى ننعم أولا بالميلاد السعيد .

لقد عرض شوقى فى أكثر من قصيدة لذكرى المولد فأبدى الجوانب المشرقة جوانب الفرحة بالميلاد على حدة ثم عرض لهزيمة الوثنية والشرك بعد ذلك ونذكر أبيات شوقى فى ذكرى المولد حيث يقول :

تجـــلى مـــولد الهـــادى وعمّت
بشائره البـــوادى والقصـــابا
وأهـــدت للـــبرية بنت وهـــب
يـــداً بيضـــاء طوّقت الرقابـــا

لقــــد وضعتــه وهاجـــاً منــيراً
كمـا تــلد السموات الشهــابا
فقـــام على سمــاء البيت نـــوراً
يضيء جبــال مكــة والنقابا (١)

انظر إلى هذه الصيغ التي تملأ النفس بشراً وحبوراً : عمت بشائره — يداً بيضاء طوقت الرقاب — وضعته وهاجاً منيراً كما تلد السماوات الشهابا — قام على سماء البيت نوراً نحن هنا أم مشهد الفرح بالميلاد لم تعكر صفوه لعنات السماء تصب على الوثنيين والمشركين نحن ننكر على الغزاوى الجمع بين الفرح بالمولد وزلزلت الوثنية فى قرن واحد .

وقصيدة الغزاوى بعد قصيدة شوقى بربع قرن على الأقل فقد أذيعت عام ١٩٥٠ ومعروف أن شوقى توفى عام ١٩٣٢ م وهى ليست بآخر نتاجه الشعرى .

وانتقل الغزاوى بعد ذلك للحديث عن العالم فى عصر الميلاد فذكر ضجة الخلائق مما تسام وما تضام وتضطهد ذكر الروم والفرس والعرب فالجور مطبق والبلاء شديد وشمل الشعوب مبدد يسومها الحكام سوء العذاب وتئن من بؤس العذاب وتتطلع إلى الخلاص ، والروم تفترس التخوم وفارس تفتن فى الترف والنعيم والناس ضائعون بين هاتين الدولتين كأنهم نبات شائع يحصد بالمناصل والمناجل لا أمن ولا استقرار فالقوى يفتك بالضعيف ، وهم ينكرون البعث وقد فسدت شرائعهم . أما العرب فهم نائمون فى صحرائهم يحيط بهم الجهل ويئدون البنات ويحتربون فيما بينهم ويعبدون أصناماً من الحجارة كاللات والعزى وهبل أو من العجوة . والغزاوى هنا رجل دعوة قبل أن يكون شاعراً ومن ثم نجد ظلال الدين أقوى من ظلال الشعر ففى البيت الأول نجد القافية ثقيلة بكلمة (تضطهد) وبعض الصيغ غير شعرية مثل كلمة (يبول) فى قوله :

---

(١) الشوقيات حـ ٢ ص ٦٢ وما بعدها .

(فيها يبول الثعلبان ويرقد) .

يقول الغزاوى :

ولـــد البشير وللخــلائق ضجـة
ممـا تسام وما تضـام وتضهــد
يتقحمــون النــار فى نزواتهـم
والجــور يطبـق والبـلاء يشدد
حيث الشعــوب يسومهـا سرواتها
سوء العــذاب وشملهــا يتبـدد
وتئن مــن بؤس الحيــاة وضنكهـا
هلكى تطلــع للخــلاص وتجهــد
يحكى الشواظ شهيقهـا وزفــيرها
ورقابهـــا قبــل اليدين تصفــد
مرتاعــة منيت بــكل مسلــط
مستكــبراً فى بغيــه يتــلدد
يعــاو وتهبط دونــه من حالــق
وقـلوبهـا بجنـوبهـا تستنجــد
الروم تفــترس التخــوم وفارس
تفــتن فى تــرف النعـيم وترغــد
والنــاس بينهمـــا نبــات شائع
وبــه المناصل والمنــاجــل تحصد
لا يأمــن الغــادى الرواح مخافة
مــن راصديه ولا الذى هو يرصــد
يعــدو القوى على الضعيف ببطشه
والبعث ينــكر والشرائــع تفسد
والعرب نائيــة بهــم صحراؤهم
والجهـــل يوغل والوليــدة تــوأد

والبأس فيما بينهم مستحكم
تغرى به الأوشاج وهى توحد
واللات والعزى مناط رجائهم
وهما من الأوثان صخر جلمد
عبدوهما وكلاهما أضحوكة
فيها يبول الثعلبان ويرقد
أو كالتى هى تمرة منصوبة
طوراً تلاك وتارة هى تعبد
هبلتهم البطحاء كيف يتمموا
« هبلا » ورب البيت فيهم يجحد

والظلال الدينية فى شعر الغزاوى ترفع من قدره بلا شك ولكن الصياغة الشعرية لها أصولها وخصائصها وحبذا لو التقى الظلالان على أن تعبير الغزاوى عن أزمة الشعوب الماضية وتطلعها للخلاص يعد من الأفكار الجديدة فالتاريخ يعيد نفسه وإذا كانت الشعوب الغابرة قد ذاقت الأمرين من حكامها وتطلعت إلى الخلاص فما أشبه الليلة بالبارحة فالشعوب الآن فى شرق البلاد وغربها تعانى من وطأة الحكام وقسوتهم وتنتظر المخلص وأكبر الظن أن الشاعر كان يقصد إلى ذلك فقد تحدث فيما بعد عن « هتلر » وجبروته وللشاعر صوره الموحية مثل : (يحكى الشواظ شهيقها وزفيرها — وقلوبها بجنوبها تستنجد — والناس نبات شائع يحصد بالمناصل والمناجل) .

وقد عرض شوقى أيضا لهذه الفكرة فى قصيدة (نهج البردة) فقال :

سرت بشائر بالهادى ومولده
فى الشرق والغرب مسرى النور فى الظلم
تخطفت مهج الطاغين من عرب
وطيرت أنفس الباغين من عجم
ريعت لها شرف الإيوان فانصدعت
من صدمة الحق لا من صدمة القُدُم

أتيت والناس فوضى لا تمر بهم
إلا على صنم قد هام فى صنم

والأرض مملوءة جوراً مسخرة
لكل طاغية فى الخلق محتكم

مسيطر الفرس يبغى فى رعيته
وقيصر الروم من كبر أصم عم

يعذبان عباد الله فى شبه
ويذبحان كما ضحيت بالغنم

والخلق يفتك أقواهم بأضعفهم
كالليث بالبهم أو كالحوت بالبلم

فالفكرة العامة عند شوقى والغزاوى واحدة بل والأفكار الجزئية كذلك ولكن طريقة العرض مختلفة فالغزاوى يميل إلى التفصيل وتسيطر عليه الروح الدينية أكثر من شوقى بينما شوقى يميل إلى الإيجاز ويمزج روح الدين بروح الشعر فبشائر المولد تخطفت مهج الطاغين من عرب وعجم ريعت لها شرف الإيوان فاتصدعت من صدمة الحق والناس فى فوضى والوثنية منتشرة والأرض مملوءة جوراً فمسيطر الفرس يبغى وقيصر الروم يتكبر وإنهما ليعذبان عباد الله والناس بأسهم بينهم شديد القوى يفتك بالضعيف تناول شوقى هذه الأفكار فى ثمانية أبيات وتناولها الغزاوى فى سبعة عشر بيتا على أننا نلاحظ فروقا بين النصين فالغزاوى ذكر البعث وإنكار الناس له وذكر وأد البنات وانتشار الجهل بين العرب وليس عند شوقى شيء من ذلك والغزاوى ذكر بأس العرب فيما بينهم وذكر وثنيتهم فخص العرب بالحديث ولكن شوقى رأى أن الأمر كان شائعاً فى أمم الأرض وليس مقصوراً على العرب :

أتيت والناس فوضى ....

فليس العرب وحدهم أصحاب الوثنية .

والخلق يفتك أقواهـم بأضعفهم....

وليس العـرب وحـدهم ....

واكتفى شوقى بالإشارة إلى أن الناس كانوا فى فوضى لا تمر بهم إلا على صنم قد هام فى صنم » بينما ذكر الغزاوى أصنام العرب (اللات والعزى وهبل ...) وما أجمل صور شوقى :

سرت ... مسرى النور فى الظلم — تخطفت مهن الطاغين — طيرت أنفس الباغين — لا تمر بهم إلا على صنم قد هام فى صنم — وقيصر الروم من كبر أصم عم ونلاحظ أن الغزاوى وصف الروم بالعدوان على الحدود (الروم تفترس التخوم) بينما وصف شوقى قيصر الروم بالكبر والغفلة (وقيصر الروم من كبر أصم عم).

والغزاوى أعطى الفرس الترف والنعيم (فارس تفنن فى ترف النعيم وترغد) أما شوقى فوصفهم بالسيطرة والبغى (مسيطر الفرس يبغى فى رعيته) .

وفى لمحة خاطفة يوازن الغزاوى بين موقف المشركين من النبى ﷺ حين دعاهم إلى الحق فقد خذلوه وتآمروا عليه أن يقتلوه وهو الحفى بهم يوازن الغزاوى بين موقف قريش هذا وموقف النبى ﷺ من هؤلاء القوم عام الفتح ومعه الجيش وكيف عفا عنهم فيقول :

خذلـوا النبى المجتبى وتآمـروا
أن يقتـلوه وأجلبوا وتهـددوا
وهـو الحفى بهم عشية أحـدقت
بالمشركين الخيـل إذهى موعـد
كل إليـه يمتٌ فى أسبابـه
والجيش يزحف والأناشـد تطـرد
آوى جمـوع اللائـذين بظـله
والسيف يرعف والدمـاء تجمـد

وقضى بوحى الله فى الرهط الأُلى
ماكان همهم سوى أن يفسدوا

لقد أوجز الغزاوى هنا إيجازاً شديداً فالموازنة بين الهجرة وفتح مكة موضوع كبير وعظيم يبرز الفرق بين الإيمان والكفر بين غلظة المشرك وسماحة الرسول إن الموازنة كانت بحاجة إلى الإطناب لإبراز ما فى الموقفين من أفكار وأحاسيس وقيم ومُثل ولكن الشاعر لم يستطع أن يحلق بجناحيه فوق بيت النبي ليلة الهجرة ولا فوق غار ثور ولا فوق هذا الركب المهاجر بل ولا فوق الجيش الإسلامى الزاحف على مكة لا يريد حرباً وإنما يريد سلاماً يريد حماية البلد الأمين من الشرك والوثنية وانطلق الشاعر يذكر الرسالة والقرآن وأسراره العجيبة فى ثلاثة أبيات فقال :

تلك الرسالة فى الحقيقة منة
لله وهى على الخليقة تشهد
سور من الفرقان فى إعجازها
نهض الدليل وأذعن المتمرّد
طويت سجلات القرون ولم تزل
تجلى به أسراره وتجدد

الرسالة الخالدة والقرآن الحكيم فى أبيات ثلاثة فقط هذا أيضا إيجاز فى غير محله ، وأرى أن كلمة (فى الحقيقة) غير شعرية ، وكلمة (أذعن) غير دقيقة لأن المتمرّد لم يذعن وإلا فانه بعد إذعانه لا يسمى متمرداً وكان الأدق أن يقول (وأفحم المتمرد) .

ثم عاد الشاعر إلى الميلاد مرة ثانية وهذا يدل على عدم ترتيب أفكاره واختلال الوحدة الفنية فى القصيدة .

فقد ذكر الميلاد فى موضوعين سابقين ثم عاد ليقول :

أعظم بميلاد النبى محمد
وبكل ما يدعو إليه محمد

هـو رحـمـة للعـالمين ونعمـة
للمتقين وعصمـة وتـزوّد
أحيـا بـه الله العبـاد بشرعه
وسبيـله للسالكـين ممهّـد
لا خـير فيما دونـه ولـو أنه
فى الأرض عيش بالنعـيم مخـلد
بوركت من يوم بـه الدنيـا ازدهت
وجـلاله فى الكائنـات مؤبّـد
أقبلت بالفتـح المبـين وبالهـدى
والعـدل والإحسان أنى ينشـد
بهـواتف النجـوى شعاعك ملهم
وبموقف الذكرى أديمـك مسجـد
آمنت أنك يا محمـد عبـده
ورسولـه والطيب المتـودد
أنشأت بالتوحيـد أفضـل دولـة
لله فيهـا الحـق لا يتعـدد
ووصفت بالخـلق العظيم كرامـة
ممـن لـه تعنو الجبـاة وتسجد
لمكارم الأخـلاق جئت متممـا
ورفعت منهـا السمك فهـو مشيّد
حتى إذا افترقت بنـا أهواؤنـا
دون اليقـين ولم يزعنـا المـرشد
ضاع التراث وعزّنا استبقـاؤه
وعـلا النشيج وأعـوز المتفقـد

لقد حرص الشاعر على أن يسرد أفكاره ومعلوماته الدينية سرداً خطابياً وأن يقرر لا أن يصوّر. وأن يذكر الأفكار عارية من وشائج المشاعر

والعواطف واستعمل عبارات غير شعرية مثل (آمنت أنك يا محمد عبده). فكل مسلم يقول هذا بل لا يصح إسلام بدونه فما الذى أتى به الشاعر .

وانتقل الشاعر بعد ذلك إلى الحديث عن حضارة العصر المادية المتبرجة بالشهوات والإباحة وما يصحب هذه المادية من بطش وإذلال للشعوب وكل ذلك يشيح عنه المؤمنون ، وذكر مثالا على صراعات العصر الدامية هتلر الألمانى وكيف أرعب الناس بدكتاتوريته ولكن الله كان له بالمرصاد .

زعموا الحضارة شيّدت تلقاءنا
صرحاً بأسباب الفنون ممرّد
تتبرّج الشهوات فيه إباحة
ويشيح عنه القانت المتعبد
ويحيط بالأرضين دكاً والورى
حمماً ويمحق من يصد ويعند
تالله ما يغنى الحديد محارباً
لله أو بجديه ما هو ينفد
بالأمس هتلر كيف كان مصيره
وبزحفة الأطواد ظلت ترعد
مادت به من تحته أقدامه
من حيث لا يخشى ولا يتردد
ومضت به الأمثال تضرب إنه
بعد العتو الفاشل المتشرّد
أودى به جبروته وغروره
أن كان مفتوناً به يتوعّد
والله بالمرصاد جلّ جلاله
والمرء خير فعاله ما يحمد

لو أن الشاعر لم ينظم هذه القصيدة وعرض أفكارها فى خطبة دينية

فلربما حالفه التوفيق لأن الصوت الخطابى الدينى هو المسيطر على هذه القصيدة فالأداء الشعرى يختلف عن الأداء النثرى .

ثم يختم الشاعر قصيدته بالدعوة إلى السلام وإصلاح العقيدة الإسلامية عند المؤمنين فهم كثير ولكن عقائدهم مريضة وصلاحهم فى استعصامهم بكتاب الله وترك الخلف فيما بينهم ومن الله التوفيق لهدى الرسول ﷺ وجزاه عنا الخير .

هيهـات تأبى العـلم فى مشكاتـه
سبـل السلام وإنـه للسؤدد
والمؤمنـون اليـوم أمثـال الحصى
عـدداً ولـكن العقـائد ترمـد
وصلاحهم مـا استعصموا بكتـابهم
والخلف فيـه هـو المقيم المقعـد
إن لم يهبنـا الله من توفيقـه
هـدى الرسول فلا مشاحـة تخمـد
(صلى عليك الله يا عـلم الهـدى)
وجزاك عنـا الخـير إذ هو سرمـد

وعلى كل فمنهج القصيدة قديم والبيت فيها هو الوحدة الفنية فقد لاحظنا عدم ترتيب الأفكار فى القصيدة واضطرابها . لقد أثارت الذكرى المشرفة فى نفس الشاعر معانى وأفكار فسردها ولم يصفها صياغة شعرية وإن كانت القصيدة موزونة ومقفاة لكن ما تثيره فى نفوسنا لا يرجع إلى الصياغة الشعرية وإنما يرجع إلى أنها قصيدة قيلت فى مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولشوقى روائع فى كل ما عرض له الغزاوى وقد ذكرنا بعضها منها ولم نذكرها كلها خشية الإطالة ومن يرجع إلى (الهمزية النبوية) وإلى (نهج البردة) وإلى ذكرى المولد (يدرك حقيقة ما نذكر وشوقى سابق ويعرفه الشاعر جيداً .

ومهما يكن من شيء فقد غلب الدين على الفن فى قصيدة الغزاوى ولو أن الدين والفن سارا معاً لسمعنا شعراً لا نظماً بيد أن هذه القصيدة بين قصائد السعوديين فى ظل الملك عبد العزيز تعد جيدة فقد كان الشعر السعودى يخطو خطواته فى طريق التكوين .

الاتجاه الاجتماعي إلى الشباب :

هذا اللون من الشعر نتيجة للوعي واليقظة وإدراك الشاعر لدوره فى البنية الاجتماعية فى نواحيها المختلفة فالشاعر إبراهيم فطانى فى قصيدته « إلى الشباب (١) » وقد غير الدهر عارضيه ورأسه وتعرض لخطوبه ومكايده إلا أنه ما زال شابا وإن كان فى إهاب الشيوخ وهو وطنى يضحى براحته وأنسه من أجل بلاده ومن ثم فهو يفخر بكونه معلماً تخرج على يديه كثير من الأدباء ، والمربين ويرى ذلك نعمة يحسن التحدث عنها .

غيّـر الدهـر عارضى ورأسى
وتحدى لمـا تحدتـه نفسى

فـرمـاهـا بكل خطب وكيـد
واتقتـه بصبرها والتـأسى

لم ينـل من شبابها رغم أنى
فى إهـاب الشيوخ أغدو وأمسى

أنـا لولا محبتى لبـلادى
لم أطـوّح براحتى وبأنسى

بعت للنشء والشبـاب شبـابى
واشتريت الفخـار لابيـع بخس

وكفـانى كم شاعـر وأديب
ومـرب قـد كان بالأمس غرسى

---

(١) المنهل عدد ربيع الأول والثانى ١٣٦٩ هـ .

نعمبــــة يحسن التحـــــدث غنهـــا
باللسانــــين فى نــــدى وطــرس

هذا معلم قد عركته الحياة وعركها وضحى بشبابه من أجل تعليم النشء ويرى ذلك مفخرة يحسن التحدث بها فماذا يريد أن يقول للشباب ؟ وبم ينصحهم ؟ إنه يطلب إليهم أن يكونوا طموحين وأن لا يقنعوا من العلم بدرجة الليسانس بل يطلبون ما فوقها فبالعلوم تهذيب النفس وصون الروح فالطموح الطموح وإياكم وصغار النفوس والجنوح إلى الطراوة والميوعة. وإنما شقوا طريقكم إلى المعالى وابتنوا المجد وليكن منكم الأديب والزراعى والطبيب والمربى العبقرى والطيارون المقاتلون والمحامون عن الدمار فى ميادين القتال . إنه يطلب إلى الشباب أن يسدوا النقص فى جميع مرافق الحياة الحديثة :

يا شبــاب البــــلاد لستم شبــــابا
إن رضيتم من الحيـــــاة بوكس
أو قنعتم بمــــا وصلتم إليــــــه
إن عزم الشبـــاب فـــوق « اللسنس »
هذبــــوا النفس بالعــــلوم وصونوا
جوهــــر الروح عن أذى كل رجس
والبسوا للطمـــــوح ثـــوباً وخـــلوا
لصغـــار النفـــوس ثـــوب الدمقس
ثم شقـــوا طريقـــكم للمعـــــالى
وابنـــوا المجـــد فـــوق أثبت أس
وليـــكن منـــكم الأديب المجـــلى
والـــزراعى والطبيب المـــؤسى
والمـــربى المختص منـــكم ومنـــكم
عبقرى مجـــول فى كل درس

وليكن منكم النسور الدواهى
يمطرون العدا بوابل نحس
والمحامى عن الذمار إذا ما
لجت الحرب كان « عنتر عبس »
سددوا النقص فى جميع النواحى
ليس يرضاه خلته غير نكس

هذا شاعر مرب يعقد الأمل على الشباب السعودى ويرجيه لبناء مجد البلاد فى شتى ألوانه وأشكاله لأن الأوطان لها حقوق كبرى لم يؤدها الشباب بعد بل إن هذا المربى الفاضل بالرغم من أنه أفنى عمره فى تعليم النشء نراه يتهم نفسه بالتقصير فى حقوق البلاد . إن رفعة البلاد وعلو شأنها لا يتحققان إلا بسواعد الشباب الفتية . .

الشباب العزيز الكريم ذو الأنفة والضمير الحى والعزم الصادق والوعد الوثيق والأمل البسام فليس فى قلب هذا الشباب مكان ليأس فعوده صلب وهو لا يبالى بالمصاعب :

فلأوطانكم عليكم حقوق
لم تفوها « وما أبرىء نفسى »
إنما يرفع البلاد شباب
يأنف الذل ذو ضمير محس
مرهف العزم صادق الوعد شهم
ليس فى قلبه مكان ليأس
لا يبالى بالخطب يتلوه خطب
عوده الصلب لا يلين لجس

ثم يلتفت الشاعر إلى ألوان من أنشطة الشباب السعودى فى نواديهم فيذكر لجنة النشاط الاجتماعى وخدماتها المتعددة للمواطنين تواسى هؤلاء وتعطف على أولئك يحنو القريب على القريب ، ثم يذكر لجنة المسامر تلك

اللجنة الأدبية التي أعادت إلى الأذهان ذكر عكاظ والمربد ، إنه لميدان الشباب العربي فهم فرسان البلاغة وأساطين الفصاحة فليعيدوا إلى الأذهان وإلى الأوطان حياة الأدب العربي الخالد ليكن منهم حسان وقس ليسمعوا الكون لحن العروبة الخالدة .

إيه يا « لجنة النشاط » فإنا
قد لمسنا نشاطهم أي لمس
في فروع تعددت كان منها
للمواساة خير فرع لقبس
وشهدنا تعاطفا وحنوا
من قريب على القريب الأمس
إيه يا « لجنة السامر » هجتم
بفؤادي ذكرى جلال وقدس
أعكاظ في حفلكم تتهادى
أم هو المربد الذي كان أمس
إن هذا ميدانكم فأروني
مثل حسان شاعراً أو كقس
أسمعوا الكون لحنكم رب لحن
سر قلب الشجي من بعد بؤس

وإذا كان الحديث بالحديث يذكر والمعاني المتقاربة تتداعى فإن الشاعر حين ذكر لجنة السامر وهي لجنة أدبية يصدح في جنباتها الشعراء وقد صدح هو بأعذب ألحانه فما الذي يمنعه من الحديث عن الشعر وروعته فالشعر فن رائع يبدو في بيان نبيل وموسيقى حلوة وينبع عن عاطفة سامية وذوق رفيع يغني أفراح الناس وأحزانهم .

إنما الشعر روعة الفن تبدو
في نبيل من البيان وجرس

وشعـــور يشـــير أسمى شعـــور
وانسجـــام فى حسن ذوق وحس

إن تغنى فالـــكون يصغى ابتهاجـــا
أو تباكى أبـــكى أسى كل نفس

ثم يعود الشاعر إلى الشباب ينصحهم بالتضحية والجد لأن العصر الذى تعيشون فيه عصر سرعة ومضاء إنه عصر الذرة فينبغى أن يكون الشباب على مستوى العصر الذى يعيشون فيه ولا يعيشون فى العصر الحديث بعقلية القرون الأولى فمن العجز أن نسير الهوينى وغيرنا يسرع فيتقدم ونتخلف لقد فاتنا ركب الحضارة وينبغى اللحاق به بل لنحاول سبقه فالسبق أولى بحمس أما أن نظل نتغنى بأمجادنا الماضية دون أن نعمل شيئا فهذا عبث ، لا شك أن أجدادنا كانوا سادة الدنيا وكانت لهم حضارة زاهرة متقدمة حين لم يكن للأمريكان أو الروس أو الفرنسيين من ذلك نصيب فقد كنا نحن القادة للنصارى والفرس ولكن الوضع قد انقلب فصاروا هم السادة بل وزاحمونا فى أوطاننا واستبدوا بنا وفرقوا شملنا وكانت الكارثة بمساعدتهم لليهود على إقامة وطن لهم فى أرض العروبة والإسلام . فيأيها الشباب إن الأمل معقود عليكم لتحرير فلسطين فإلى القتال وإلى السلاح وراء الملك العظيم سدد الله خطاكم فى ظلال المليك فخر العرب :

فتيـــة المعهدين مـــا الفـــوز إلا
للمضحى المجـــد من كل ندس

عصركم عصر سرعـــة ومضـــاء
عصر ذر لا عصر سيف وترس

فمن العجـــز أن نسير المـــوينى
وسوانا يمضى كسهـــم لقـــوس

فاتنـــا الركب فلنحـــاول لحاقـــا
أو فسبقا والسبق أولـــى بحمس

ودعـونا من التغنى بمجـد
قـد أضعنـاه بـين عجـز ويأس

بيـد أنى أقـول والنفس حسرى
وفـؤادى على قـوادم عنس

أين كان الأمريك أيـام كنـا
بل وأين الروسى أين الفـرنسى

قـد قهـرنا جموعهم وقهـرنا
قادة الشرق من نصـارى وفرس

أصبحـوا اليـوم سادة وغـدونا
بـين أوطاننـا كأنا بحبس

زاحمونا ديـارنـا واستبـدوا
فـرّقـوا بيننـا بخبث ولس

واليهـود الطغـام عاثوا فساداً
فى حمانا ما بـين « لد وقـدس »

غـرّهم حلمنـا ومـا كنان منـا
من خـلاف قـد جـرّ أسوأ تعس

فإلى الجيش والدفـاع إسراعـاً
فى ركاب المنصـور تحت الدرفس

قائـد الجيش والأمـير المفدى
والعصـامى ، والقـويمى المجس

سدد الله للشبـاب خطـاه
ووقـاه من كل كيـد ودس

فى ظـلال المليـك فخـير معـد
ومعيـد البنـاء من بعـد درس

إن الأستاذ إبراهيم فطانى معلم محنك وإنه ليعتز بأنه مرب تخرجت على يديه أجيال وإنه لينصح للشباب بالمزيد من العلم ويدعوهم إلى الطموح

ويذكرهم بحقوق البلاد عليهم ، ويمجد نشاطهم الاجتماعى والأدبى ويدعوهم إلى المزيد وعدم الاكتفاء باللحاق بركب الحضارة بل إنه ليدعوهم إلى السبق لاسترداد مكان القيادة للعالم فقد تبدل الوضع كنا سادة قادة فصرنا تابعين مستعمرين حتى طمع فينا اليهود فاحتلوا فلسطين ومن ثم فإنه يجب تصحيح الوضع وإعادة الأمور إلى مجاريها إعادة العرب إلى مكان السيادة والقيادة تحت راية التوحيد وفى ظل عبد العزيز .

تصحيح المسار التاريخى وبناء المجد والحضارة معقود بنواصى الشباب والأسلوب التقريرى يغلب على القصيدة وإن تخللتها بعض الصور مثل غبر الدهر عارضى » — بعث للنشء شبابى — والحامى عنتر عبس وهكذا والأسلوب منوع بين الخبر والإنشاء مثل يا شباب البلاد — هذبوا النفس— صونوا جوهر الروح — للأوطان عليكم حقوق — إنما يرفع البلاد شباب لا يبالى بالخطب يتلوه خطب .

وهكذا ولكن بعض العبارات غير شاعرية مثل : سددوا النقص فى جميع النواحى — فاتنا الركب .

والشاعر فيما نظن يترسم فى موسيقاه بل وبعض ألفاظه البحترى فى سينيته المشهورة والتى مطلعها .

صنت نفسى عمـــا يدنس نفسى
وترفعت عـــن جـــدا كل جبس

فقوافى الفطانى معظمها وردت عند البحترى : « نفس وأمس والدقرس وعنس » وعبس « وهكذا والشاعران قد نظما قصيدتيهما من بحر الخفيف « فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن » .

إلا أن طبيعة المعلم واضحة فى شعر الفطانى فهو معتز بمهنته ناصح أمين للشباب محب للبلاد والملك وأحلام السعودية المعلقة على الشباب فى ميادين التربية والتعليم والزراعة والطب والدفاع واضحة فى القصيدة والبيئة العربية

فى القديم والحديث واضحة أيضاً فهو يذكر عكاظ وحسان وقس ويذكر اهتمام السعودية بفلسطين وقضيتها ويذكر نشاط الشباب فى هذه البلاد حديثاً « لجنة الشباب » و « لجنة المسامر » ومن ثم نرى أن الشاعر تأثر ولم يقلد. إلا أننا إذا وزنا بينه وبين شوقى فى هذا المجال نحس بالفرق الكبير فشوقى ذكر الشباب فى مواطن كثيرة فأثناء وزارة سعد زغلول باشا ١٩٢٤ م. أطلق سجناء كانت المحاكم العسكرية الانجليزية قد أدانتهم فى مؤامرة شاع يومئذ أنها مبالغ فيها وقد احتفل شباب البلاد بنجاة إخوانهم ورجوا شوقى أن يشاركهم فى هذا الاحتفال فنظم قصيدة بعنوان « تكريم [١] » جاء فيها هذه الأبيات :

قالوا : أتنظم للشباب تحية
تبقى على جيد الزمان قصيداً

قلت الشباب أتم عقد مآثر
من أن أزيدهم الثناء عقودا

قبلت جهودهم البلاد وقبلت
تاجا على هاماتهم معقودا

خرجوا فما مدوا حناجرهم ولا
منوا على أوطانهم مجهودا

خفى الأساس عن العيون تواضعا
من بعد ما رفع البناء مشيدا

ما كان أفطنهم لكل خديعة
ولكل شر بالبلاد أريدا

لما بنى الله القضية منهم
قامت على الحق المبين عمودا

---

(١) الشوقيات جـ ١ ص ١١٥ ط دار الكتب المصرية .

جادوا بأيـام الشباب وأوشكـوا
يتجـاوزون إلى الحيـاة الجـودا

طلبـوا الجـلاء على الجهـاد مثوبة
لم يطلبـوا أجـر الجهـاد زهيـدا

والله مـا دون الجـلاء ويومـه
يـوم تسميه الكنانة عيـدا

وجـد السجين يـداً تحطم قيـده
من ذا يحطم للبـلاد قيـودا

* * *

يافتيـة النيـل السعيد خذوا المدى
واستأنفوا نفس الجهـاد مديدا

وتنكبـوا العـدوان واجتنبوا الأذى
وقفـوا بمصر المـوقف المحمـودا

الأرض أليـق منزلا بجمـاعـة
يبغـون أسباب السماء قعـودا

أنتم غـداً أهـل الأمور وإنمـا
كنـا عليكم فى الأمـور وفـودا

فابنـوا على أسس الزمـان وروحـه
ركن الحضـارة باذخاً ومشيـدا

الهـدم أجمل من بناية مصلـح
يبنى على الأسس العتـاق جديدا

إن شوقى يكرّم الشباب على عمل وطنى قاموا به فى خدمة القضية المصرية ومن ثم رأى مآثر الشباب متعددة قبلتها البلاد شاكرة ومقدرة وهل وجدوا أثمن من أيام الشباب يجودون بها لخدمة وطنهم بل إنهم أوشكوا يجودون بالحياة .

ومع ذلك فشوقى يطلب منهم المزيد يطلب إليهم أن يقوموا بجولة أخرى وأن يتجنبوا العدوان ويجتنبوا الأذى ويحفزهم إلى البناء والعمل يحفزهم إلى المجد فهم رجال الغد وقادة المستقبل إنه يطلب إليهم أن يبنوا ركن الحضارة باذخا ومشيدا وأن يكون البناء متمشيا مع روح العصر . إن الموقف السياسى منح قصيدة شوقى روحاً حماسياً نفتقده فى قصيدة فطانى فالعاطفة المشبوبة عند شوقى عاطفة الوطنية والحماس للشباب والتغنى بمآثره كان لها تأثير فى عذوبة قصيدة شوقى ورقتها وانسيابها حتى صلحت للغناء وحين يدعو شوقى الشباب إلى العمل يذكرهم بالنيل وبجهودهم السابقة وبأن الأرض مكان الحاملين وأن المطلوب ليس مجرد البناء الحضارى بل البناء المتمشى مع روح العصر (فابنوا على أسس الزمان وروحه (لقد اكتفى بالتلميح إلى طبيعة العصر وروحه ولم يفصل هذه الطبيعة ولم يبين الأسس التى تقوم عليها حضارة العصر . أما الشاعر السعودى إبراهيم فطانى فجنح إلى التفصيل والتقرير حيث ذكر هذه الحقيقة حقيقة الدعوة إلى العمل والبناء على أسس حديثة متمشية مع روح العصر الحديث ذكر هذه الحقيقة فى أربعة أبيات حيث قال :

عصركم عصر سرعـــــة وفضـــــاء
عصر ذر لا عصر سيف وتـــرس

فمــــن العجــــر أن نسير الهـــوينى
وسوانا يمضى كسهـــم لقــــوس

فاتنــــا الركب فلنحـــاول لحـــاقا
أو فسبقا والسبق أولـــى بحمس

ودعــــونا مــــن التغنى بمجــــد
قــــد أضعناه بــين عجــز ويأس

وقصيدة شوقى سبقت قصيدة الشاعر السعودى بربع قرن فالشوقية فى عام ١٩٢٤ والفطانية فى عام ١٩٤٩م ولشوقى قصيدة أخرى سابقة للقصيدتين حيث نظمها عام ١٩١٤ عند قدوم (فدرين) و (بونيه) طائرين من باريس.

إلى مصر وأسماها (آية العصر فى سماء مصر (١)) تحدث فيها عن الشباب حديثا يكاد يحاكيه ويسير فى دربه حديث الشاعر السعودى يقول شوقى :

يا شبـاب الغـد وابنـاى الفـدا
لكم أكـرم وأعزز بالفـداء
هـل يمـد الله لى العيش عسى
أن أراكم فى الفريق السعداء
وأرى تاجكم فـوق السهـا
وأرى عرشكم فـوق ذكـاء
من رآكم قـال مصر استرجعت
عزهـا فى عهد «خوفو» و«منساء»
أمـة للخـلد مـا تبنى إذا
مـا بنى النـاس جميعـا للعفـاء
تعصم الأجسام مـن عادى البـلا
وتقى الآثـار مـن عادى الفنـاء
إن أسأنا لـكم أو لـم نسىء
نحـن هلكى فلكم طـول البقـاء
إنمـا مصر إليـكم وبكـم
وحقوق البـر أولى بالقضـاء
عصـركم حـر ومستقبلـكم
فى يمين الله خيـر الأمنـاء
لا تقـولوا حطنـا الدهـر فما
هـو إلا من خيـال الشعـراء
هـل علمتم أمـة فى جهلهـا
ظهـرت فى المجـد حسناء الرداء

(١) الشوقيات حـ ٢ ص ١ .

باطـــن الأمـــة مـــن ظاهـــرها
إنمـا السائـل من لـون الإنـــاء
فخـــذوا العـــلم عـــلى أعلامـــه
واطلبـوا الحكمـــة عنـــد الحكماء
واقرؤا آثاريخـكم واحفظـــوا
بفصيــــح جاءكم مـــن فصحـــاء
أنـــزل الله عـــلى ألسنهم
وحيــــه فى أعصر الوحى الوضـــاء
واحكمـــوا الدنيـــا بسلطان فما
خلقت نضرتهــــا للضعفـــاء
واطلبـوا المجـــد على الأرض فإن
هى ضاقت فاطلبـــوه فى السماء

فشوقى معتز بشباب الغد يفديهم بابنيه وما أعز الفداء وأكرمه ، وإنه يرجو أن يطيل الله فى عمره ليرى شباب مصر سعيداً وتاج البلاد وعرشها فى السماء ، وهو يشيد بمآثر الشباب أيضا ويذكر أمجادهم الحاضرة التى تذكر بأمجاد آبائهم السابقين فمصر منذ الأزل تبنى للخلود لقد حنطت أجسام الموتى وحفظت آثار الحضارة : وإن جيل الشيوخ ليتضاءل إلى جانب جيل الشباب وسواء صح هذا أو لم يصح فالمستقبل للشباب ومصر بشبابها وخيرها يعود إلى ذلك الشباب وبعد هذه المقدمة التى جذب بها شوقى الشباب إلى صفه حتى يسمعوا نصحه ويلبوا نداءه بعث فى قلوبهم الأمل فى الحاضر والمستقبل فالعصر عصر حرية وما أجملها والمستقبل بيد الله وما أضمنه وإذن فلا داعى للتشاؤم والإحساس العميق بالنقص لأن ذلك يدمر الشباب فالشباب ليس منحطا كما يصوره الشعراء وإنما عليه أن يأخذ بأسباب النهوض وهى طلب العلم على أعلامه وطلب الحكمة ودراسة التاريخ والمحافظة على اللغة العربية وعلى القرآن الكريم والاحتكام إلى القوة وطلب المجد بكل سبيل على.

الأرض أو فى السماء والفطانى يلتقى مع شوقى فى دعوة الشباب إلى المزيد من العلم :

هذّبـــوا النفس بالعـــلوم وصونوا
جـــوهـــر الروح مـــن أذى كل رجس

وشوقى يقول (واطلبوا المجد على الأرض ....) بينما القطانى يقول :
(والبسوا للطموح ثوبا ....)

وبينما يرجو الفطانى أن يرى بين الشباب السعودى الأديب والمربى والزراعى والطبيب والمحامى عن اللمار نجد شوقى معجباً بما حقق شباب مصر فى الحاضر من أمجاد تذكر بالمجد الماضى (من رآكم قال مصر استرجعت عزّها ...) .

وبينما يفيض الفطانى فى الحديث عن حقوق البلاد على الشباب فى أربعة أبيات (فلأوطانكم عليكم حقوق ....) نرى شوقى يذكر ذلك فى بيت واحد .

إنمـــا مصر إليـــكم وبـــكم
وحقـــوق الـــبر أولى بالقضـــاء

ويذكر الفطانى أعمال لجنة النشاط ولجنة المسامر وليس لشوقى حديث مفصل عن نشاط الشباب ، وان حثه على ضرورة الاحتفاظ باللسان العربى الفصيح (واحتفظوا بفصيح جاءكم من فصحاء) .

وحين يتحسر الفطانى على ضياع المجد العربى ويدعو الشباب إلى استرداده والعودة إلى مكان القيادة والسيادة ويذكر فلسطين واحتلال اليهود لها حين يذكر كل ذلك يرى أن طريق العودة إلى القيادة والسيادة وإلى فلسطين إنما هو الطريق المسلح ومن ثم يدعو الشباب إلى الجيش ويعرض ذلك فيما يزيد على عشرة أبيات بينما يفعل الفطانى ذلك يوجز شوقى فيذكر كل ذلك فى بيت واحد :

واحكمـــوا الدنيـــا بسلطان فمـــا
خلقت نضرتهـــا ! للضعفـــاء

وهكذا نرى الشاعر السعودى يميل إلى التفصيل والإطناب ويرجو الشباب السعودى أن يسدوا النقص فى جميع النواحى وإذا بشوقى يميل إلى الإيجاز والإيحاء ويمجد أعمال الشباب المصرى ويذكر مآثرهم وإن طلب المزيد وقدم النصح .

ومن الجائز أن يكون الشاعر السعودى قد اطلع على الشوقيات وقرأ هاتين القصيدتين لشوقى على وجه الخصوص ولكنه من الوضوح بمكان أن للشاعر السعودى استقلاله بالأفكار النابعة من بيئته وظروف بلاده وله أسلوبه الذى يميل إلى التفصيل وله عاطفة المربى المعتز برسالة العلم والفن والفخور بشباب بلاده وأكبر الظن أن لسينية البحترى فى جانبها الموسيقى أثرث فى الشاعر السعودى .

ومهما يكن من شىء فهذا الاتجاه فى الشعر السعودى دليل على اليقظة ونمو الوعى والتطلع إلى مستقبل أفضل وغد مشرق عزيز .

الاتجــاه السياسي

القصيدة الأسكوبية (١)

للشيخ إبراهيم الأسكوبي المدني
١٢٦٤ — ١٣٣١ هـ

هي أول قصيدة سياسية في الشعر الحجازي الحديث نظمت في آخر العهد العثماني وقبيل الحرب العالمية الأولى بقليل ووجهها الأسكوبي إلى الدولة العثمانية صيحة إرشاد وتنبيه . وهي قصيدة فريدة في شعر الحجاز المعاصر منذ بدأ الشعر ينهض في هذه البلاد والعصر الذي عاش فيه الأسكوبي كان عصراً متخلفاً وبالأخص في ناحيتي الفكر والبيان فكيف ظهر الأسكوبي ؟ وكيف جاء بهذا الشعر الواعي ؟ وكيف أتيح له أن يخرج عن القوقعة كيف استطاع أن ينظم في موضوع كهذا الموضوع الحساس وفي وقت لم يكن فيه ما يشغل شعراء الحجاز في الجيل الماضي سوى الغزل البارد السقيم أو الهجاء ولا شيء غير ذلك" .

كان العصر الذي عاش فيه الأسكوبي عصر الانهيار بالنسبة للدولة العثمانية أو الرجل المريض كما كانوا يقولون وما أكثر ما كان شعراء مصر والشام والعراق ينددون بالرجل المريض اشفاقا عليه ولكن دون جدوى . وما أكثر ما كان الدعاة المخلصون يناشدونه أن يتدارك نفسه غير أنه لسوء حظه وحظ العرب والمسلمين لم يكن يسمع ولم يكن يعي .

وكان الأسكوبي شاعر المدينة المنورة واحداً من أولئك الدعاة المخلصين . وكانت قصيدته المدوية التي يبدو أنه نظمها أثناء هجوم إيطاليا على طرابلس الغرب قبل الحرب العالمية الأولى إحدى الصيحات ولكن للأسف كانت في واد والدولة العثمانية في واد .

---

(١) المنهل عدد رجب ١٣٧٥ هـ من مقال للأستاذ محمد سعيد العامودي بعنوان (إبراهيم الأسكوبي) .

ويشاء الله أن تمنى الدولة العثمانية بالهزيمة فى تلك الحرب الاستعمارية الغاشمة وهو أمر محتوم بطبيعة الحال فى حالات الانهيار . ومن المحزن أنها هزيمة شنعاء كانت لها آثار بعيدة المدى .

وقد مات الأسكوبى منفيا عن بلاده بسبب هذه القصيدة مع أنه لم يضمنها سوى النصح والتوجيه من شاعر مسلم يثبت كل بيت فى قصيدته أنه مخلص كل الإخلاص لدولته العثمانية فلم يكن الأسكوبى من أصحاب فكرة الانفصال عن الترك كما كان كثيرون من رجالات العرب يؤمنون بهذه الفكرة فى ذلك الحين .

وإذن فهو عندما يخاطب الدولة فى هذه القصيدة إنما يخاطبها كما يخاطبها أى عثمانى وهو يبدأ قصيدته قائلا :

يا آل عثمان فالمغرور من غرا
بأهل أو ربة أو عهدهم طرا

أتأمنون لموتوريين دينهم
أن لا يروا منكم فوق الثرى حرا

تماثلوا فخذوا حذراً فإنهم
يرون إبقاءكم بين الورى ضرا

فهذه دولة الطليان حين رأت
أسطولكم ليس يغنى فاجأت غدرا

وشقت البحر بالأسطول معجبة
تختال تيهابه مغرورة سكرى

وبعد أن يشير إلى ما قامت به إيطاليا عند مفاجأتها بتلك الغزوة من إنزال جنودها فى مدينة طرابلس وما كان من موقف الدول الأوربية جمعاء من عدم قيامها بصد هذا العدوان استمع إليه يقول :

دون الدنية إيثار المنية فى
قوم من البغض ودوا محوكم مبكرا

لا تحسبوا أنهم ناسون ما فعلت
أسلافكم بهم فى سالف مـــرا
أيقظتموهم بضرب الهام فانتبهوا
من نومهم ورقدتم أنتم الدهرا
فليتكم ما خطوتم نحوهم قدماً
وما أغرتم على أملاكهم شبرا

والشاعر هنا يشير إلى ما كان من ولوع سلاطين آل عثمان الأقدمين بالحروب يشنونها باستمرار على من يجاورهم من الدول الأوربية وهو ما كان من أهم أسباب تكتل هذه الدول فيما بعد وقيامها الواحدة تلو الأخرى بمحاولة القضاء على هذا التحدى كما يرى ذلك معظم المؤرخين .

لقد كان هم أولئك السلاطين أن يهاجموا تلك الدول فى كل وقت دون تقدير للظروف أو نظر للمصلحة فكان أن تنبهت تلك الدول فشدت عزمها وجاسوا البر والبحر وظلوا كلما واتتهم الفرص يأخذون هذه القطعة أو تلك من ديار الإسلام وعلى هذه الوتيرة يستمر شاعرنا الأسكوبى فى الإيماء إلى أحداث التاريخ مستخرجاً من كل ذلك العبرة محللا أسباب ما حل بالدولة من وهن إلى أن يقول مخاطبا القوم :

ظننتم أن دين الله أخرزكم
عنهم وهم جحدوا كفراً به المسرى
لا تظلموا رحمة للعالمين أتت
هدت إلى حكم عظمى جرت نهرا
فلو عملتم بها ما فاتكم أحد
سبقا ولا أحد يوماً لكم أزرى
تذكروا كم خطيئات لكم سلفت
بها تأخرتم عنهم أبت حصرا

إنه تقويم شديد ولا أظن الشاعر يقصد بتقريعه هذا الموجع سوى

جماعة الاتحاد والترقي وهم الذين دبروا الانقلاب المشهور ضد عبد الحميد وأوجدوا ما أسموه الدستور وأوهموا العالم العربي والإسلامي في بادىء الأمر أنهم إنما قاموا من أجل الدستور ثم كان من أمرهم ما كان وأخيراً تمت على أيديهم نهاية الرجل المريض .

فالذين كانوا يقولون إن الدين هو سبب التأخر إنما هم أولئك ، الاتحاديون .

ولكن هل نفع التقريع ؟ وهل نفع التذكير ؟ هاهو الأسكوبي من أعماق فؤاده يتأوه ويصرخ قائلا :

تالله تالله إن لم تسمعوا الذكــــرى
مالوا عليــكم فــلم يبقوا لكم ذكرا
نعم الشفاء بقــرآن الإلــه إذا
قبلتمــوه وإلا فاســـكنوا القــــبرا
إن تنصروا الله ينصركم فــكم فئــة
قليـــلة غلبت أضعافهـــا كثرا

فلسطين في الشعر السعودي (١) :

اهتم شعراء السعودية بقضية فلسطين اهتماماً كبيراً ونظروا إليها من الزاوية الإسلامية وهذا هو الشاعر محمد أحمد باشميل ينظم قصيدة بعنوان (فلسطين الشهيدة) وقد بلغت أبيات القصيدة أربعة وتسعين بيتا .

وقد استهل الشاعر قصيدته وإن شئت فقل معلقته بمقدمة غزلية في أسلوب حواري ساذج أجراه الشاعر بينه وبين من أسماها سليمى فهو يعجب من كثرة الصعائب تترى على الأمة الإسلامية وهو يجلس مهموماً ساهراً فتسأله سلمى :

---

(١) المنهل عدد ذو القعدة ١٣٧٢ هـ .

مالطرفك ساهراً ؟ هل أنت مهموم بحب تجاذبه ؟ أنابك عشق ؟ فيجيبها : مالى وللعشق والهوى ؟ إنى مذ عقلت مجانب لذلك فلم يشتغل يوماً فؤادى بكاعب ثم تناول الشاعر وصف الفتاة التى عرضت له فأعرض عنها إنها هيفاء ووجهها كالبدر ونهدها مكتنز وشعرها أسود فاحم وهى فتاة لعوب يكاد الرجل الصالح يفتن بها عند نهوضها ولقد نصبت شباكها حول الشاعر لتصطاد قلبه فتثنت ودارت واستدارت وأقبلت إلى الشاعر كغصن والنسيم يلاعبه تحاول إغراءه ولكنه فتى عرك الدهر وصانته مواهبه عن مكر النساء وكثيراً ما حاولت فتح فؤاده لعشقها ولكنه سخر بها حتى استبد بها الهوى فقالت له : أصخر أنت ؟ فقال لها : انصرفى عنى ولا تطمعى فى هواى فسالت على خدها دمعة وقالت له :

ألا ترحم الصب المتيم ؟

فقال لها : لا فلا خير فى وصل جسام عواقبه .

فقالت : بالله إننى معذبة القلب الذى أنت غاصبه .

فقال لها : لكن قلبى مغلق لم يدر ما هذا الغرام .

فقالت : يالك من فظ عنيد .

فودعتها إلى غير رجعة :

عجبت وهـذا الدهر تترى عجائبه
أفلا غرو أن زادت علينا صعائبه

تقول سليمى مالطرفك ساهـراً
فهل أنت مهموم بحب تجاذبه

أنا لك عشق فابتليت بنيله
وجرحك ما زالت تعج متاعبه

فقلت لها : مالى وللعشق والهوى
فـذا الباب إنى مذ عقلت مجانبه

فلم يشتغل يوماً فؤادى بكاعب
فذا الدهر لم تقدر على كواعبه
ألا رب هيفا قد تبدت ووجهها
كبدر تسوارت من سناه كواكبه
فتاة لها نهد لفرط اكتنازه
تكاد جهاراً أن تثنى جوانبه
شكا الصدر منه واستغاثت ضلوعها
من الزر واحتجت عليها ترائبه
وشعر كليل أسود اللونَ فاحم
أحاطت حمى البدر المضىء غياهبه
لعوب يكاد السِّرُّ عند نهوضها
يضل ولم تعرف لديه مذاهبه
تصدت وبثت فى سبيلى شباكها
لتصطاد قلبى كى تذل مناقبه
تثنت ودارت واستدارت وأقبلت
إلىّ كغصن والنسيم يلاعبه
لتغرى فتى قد عارك الدهر نفسه
وصانته عن مكر النساء مواهبه
وكم حاولت فتح الفؤاد لعشقها
وحامت على الحصن الحصين تجاربه
سخرت بها حتى استبد بها الهوى
فقالت : أصخر أنت يا من أحاربه
فقلت لها عنى إليك وحاذرى
ولا تطمعى فيمن هواه مناضبه
فقالت وقد سالت على الخد دمعة
وصوت البكاء أن يبين تغالبه

ألا ترحم الصب المتيم قلت لا
فلا خير فى وصل جسام عواقبه
فقالت لك الأيمان أ بالله إننى
معذبة القلب الذى أنت غاضبه
فقلت لها لكن قلبي مغلق
أفلم يبدو ما هذا الغرام وصاحبه
فصاحت وقد زلت بمزقها الجوى
فلا بد هذا الفظ يوماً أحصاسبه
إفيالك من فظ تحجر قلبه
فلم أر فى دهرى عنيداً يقاربه
فودعتها حالا إلى غير رجعة
وذا القلب لم يشعر بشىء يعاتبه

صوّر الشاعر فى هذه الأبيات فتاة لعوباً تحاول إغراءه بأساليب شتى إبيد أنها لم تفلح فقد اعتصم الشاعر بدينه . والنموذج الجمالى الذى رسمه الشاعر ألفتاته لم يخرج عن النموذج القديم عند الشاعر الجاهلى ففتاته كاعب ناهد هيفاء وجهها كالبدر وشعرها أسود فاحم إلا أن وصفه لنهدها المكتنز يتعارض مع كونها هيفاء فالرشاقة والسمنة المفرطة لا يجتمعان ولولا أن الشاعر جعل فتاته لعوباً لقلنا إنه أساء فى غزله وخالف المعهود فى الغزل العربى فالشاعر هو الذى يسعى إلى المرأة ويحاول إغراءها واستمالتها وسعى المرأة إلى الرجل ومحاولتها إغراءه دخيل على أسلوب الغزل عند العرب ظهر حين اشتد امتزاج العرب بغيرهم فى عصر بنى العباس وخير من يمثله بشار بن برد .

ولقد أحست الأنثى بالمهانة من إعراض الرجل عنها فسخطت عليه ووصفته بأنه فظ عنيد تحجر قلبه وأثبت لها هو أنه كذلك حين ودعها إلى غير رجعة دون أن تحرك فيه شعرة .

ولعل الحوار هو مبعث الحيوية المتدفقة فى الأبيات وقد أذكاه ذلك العنف المتبادل بين المتحاورين .

وطرف الشاعر الساهر وفكره الشارد لم يكونا إذن عن عشق وهيام فما الذى دهاه ؟

الذى دهاه هو زيادة الخطوب على العرب والإسلام فهذا الذى قد غال جسمه وملأ فؤاده بالهموم فهل بعد اليوم يعشق نابه ؟ وهل بعد اليوم يرتاح مسلم وهذى فلسطين الشهيدة قد هوت بلطمة وغد وهذا شعبها العزيز قد تخاذلت حماته وجزعه كأس المنايا أقاربه ففزع بعد أمن وانهد ركنه وما زال فى كف الرزايا تغالبه لقد بدل بالعليا صغاراً وبالعز ذلة وتوالت عليه النوائب ففى كل يوم تحتويه مصيبة وهاهو ذا قد أصبح شعبا مشرداً لاجئا تفتك به المسغبة فى الصحراء تقطعت به الأسباب فأضحى طريداً والرزايا تطالبه فهذا شيخ مفجوع طريد لا يدرى أين يذهب وهذه حرة تصدى لها علج خبيث فلاب عفافها قسراً وهذا هوان لم ير العرب والمسلمون مثـله :

فقالت إذن سلمى فديتك ما الذى
دهاك فأنت شارد الفكر ذاهبـه
فقلت لهـا والقلب يطفح بالأسى
ودمعى على الخدين بانت مساحبـه
سليمى دعينى لا أبالك واعـلمى
بأنى امـرؤ زادت عليـه متاعبـه
وليس الذى قـد هـالنى هجر كاعب
كمـا قـد ظننت أو زمانا أحـاربه
ولـكن هـذا الدهـر زادت خطوبه
على العـرب والإسلام حلت مصائبـه

فهــذا الذى قــد غال جسمي وقد غدا
فؤادى همــوم النائبــات تشاغبــه

فهــل بعد هــذا اليوم يعشق نابــه
ويرضى بأن تمسى الغــوانى تداعبــه

وهــل بعــد هذا اليوم يملأ جفنــه
من النوم حــرٌّ قد تسامت مراتبــه

وهــل بعــد هذا اليوم يرتاح مسلم
يرى العــار عاراً أو تلذ مشاربــه

وهــذى فلسطين الشهيدة قــد هوت
بلطمة وغــد قــد تناهت مثالبــه

لك الله من شعب عــزيز تخاذلت
حماة لــه حتى استبيحت مناهبــه

وأودى بــه فى الذل خذلان أمة
وجــرّعه كأس المنــايا أقاربــه

تفجــع بعــد الأمــن وانهد ركنــه
ومازال فى كف الرزايا تغالبــه

وأبدل بالعليــا صغاراً وذلــة
لك الله من شعب توالت نــوائبــه

ففى كل يــوم تجتويــه مصيبــة
وقــد رمسته فى الصحارى مساغبــه

تعــلق بالأسبــاب حتى تقطعت
وأضحى طريــداً والرزايــا تطالبــه

ألا ربّ شيخ قــد تفجع فى القرى
طريداً وقــد ضاعت عليه مهــاربــه

وحــرة أقــوام تسامت مصونة
تصــدى لهــا علج خباث مطالبــه

فمنهـا العفاف ذاب قسراً وأصبحت
مروّعـة تبـكى وكـرها تصاحبـه

فهـذا هـوان لم يـر العرب مثـله
وعـار على الإسلام قلت ضرائبـه

انتقل الشاعر من موضوع الغزل الذى افتتح به القصيدة إلى موضوع القصيدة الأساسى انتقالا نفسيا فهو ساهر الطرف مهموم فما سرّ هذا السهر وما سبب تلك الهموم ؟ أحب عارم أم كارثة مروّعة ؟ أما الحب فقد انصرف عنه ولم يشتغل فؤاده يوماً بكاعب . بقيت الثانية وهى الكارثة المروّعة وهل ثمة كارثة أفدح من كارثة فلسطين . شخصية الشاعر المعذبة هى جسر العبور من مقدمة القصيدة الغزلية إلى الغرض الأساسى وهو « فلسطين الشهيدة » وهو انتقال ليس بجديد على الشعر العربى فهو يذكرنا بقصيدة الكميت بن زيد فى مدح بنى هاشم والتى يقول فى مطلعها :

طربت وما شوقا إلى البيض أطـرب
ولا لعبـا منى وذو الشيب يلعـب

ولـم يلهنى دار ولا رسم مـنزل
ولـم يتطربنى بنـان مخضب

ولا السانحات البـارحـات عشيـة
أمـرّ سليم القـرن أم مـرّ أغضب

ولـكن إلى أهـل الفضائل والنهى
وخـير بنى حـواء والخـير يطلب

بنى هاشم رهط النبى فإننـى
بهم ولهـم أرضى مراراً وأغضب

فطرب الكميت لا يعود إلى حب الغوانى ولا إلى تفاؤل أو تشاؤم وإنما يعود إلى حب بنى هاشم ومن ثمّ عبر نفسيا من المقدمة الغزلية إلى مدح بنى هاشم كما عبر شاعرنا السعودى من المقدمة الغزلية إلى فلسطين الشهيدة .

على أن بعض عبارات الشاعر نثرية مبتذلة مثل . زادت عليه متاعبه وزادت خطوبه .

وأيا ما كان الأمر فإن الشاعر لم يكد ينتقل إلى غرضه حتى وضع يده أول ما وضع على جبين ذلك الشعب الذى اكتوى بنار الكارثة فشرد شيوخه وأذاب عفاف حرائره وهذا هوان لم ير العرب مثله وعار جلل شعبنا تتابعت بعده رزايا وأحداث جسام ومن هذا المنطلق وهو أن الكارثة هوان وعار تبعتها أحداث جسام انفجرت عاطفة الشاعر الغاضبة الثائرة تصب جام غضبها آنا على العرب الذين تخاذلوا وآنا على الإسرائيليين والذين عاونوها ولا سيما مجلس الأمن الذى أوصى أن تخرج الجيوش العربية من فلسطين (وترفع عن هام اليهود قواضبه) :

لعمرك إن العار جلل شعبنا
وقد حلّ منه حيث كانت ذوائبه

رزايا وأحداث جسام تتابعت
ودهر عجيب لا تكن غرائبه

ولو أننا متنا بطعنة فارس
له فى الحروب الطاحنات مناقبه

لقلنا سجالا كانت الحرب بيننا
وهذا حسام لم تخنه مضاربه

ولكنّ هذا الغرب طهر نفسه
من الرجس فانهالت علينا رواسبه

رمانا بعبّاد العجول فيالها
خزايا بها الإسلام ناءت مناكبه

تجمع شمل السامرى وشتت
جموع الحماة المسلمين حرائبه

لقد صاح جيش العرب فى الخصم صيحة
ففضت حشود السامرى مواكبه
فضاقت بإسرائيل من بعد رحبها
وعزريل قد شدت عليها مخالبه
فصاحت وناحت واستغاثت بأمها
نيويورك فيها الغدر بانت ملاعبه
ففى مجلس للأمن صاحت ذئابه
وداست حقوق المسلمين ثعالبه
فأوصى بأن يرتد ذا الجيش صاغراً
وترفع عن هام اليهود قواضبه

لكأنى بالشاعر فى هذه الأبيات يذكر أولئك الذين أسهموا فى كارثة فلسطين اليهود وأمريكا ومجلس الأمن بل والجيوش العربية التى أسلمت فلسطين ولا يقف الشاعر طويلا عند إسرائيل وأمريكا ومجلس الأمن ولكنه يقف عند الجيوش العربية فيذكر كيف تحركت أول الأمر صادقة تحمى تراث الفاتحين فكانت تلك الجيوش كالطوفان فى بدء زحفها ولكنها ارتدت حائرة كسيرة قد ضاقت عليها المغازات وتمزق شملها فهوت فلسطين :

فديتك من جيش تحرك صادقا
لتحمى تراث الفاتحين عصائبه
فقد كان كالطوفان فى بدء زحفه
فخاض الردى كيما تجاب مطالبه
غزاك يعيد المجد فارتد حائراً
كسيراً وقد ضاقت عليه سياسبه
فأكسوه عاراً لم ير العرب مثله
وأخذت جميع المسلمين مقالبه
لك الله من جيش تمزق شمله
وباعته بالنقدين جهراً مرازبه

هويت فلسطين وخلفك قد هوى
أعلا الضاد فارتاعت وضجت نوادبه

لقد كان الجرح عميقا فى قلب الشاعر وكان تألمه من موقف العرب وجيوشهم وقادتهم مبرحاً وقد دفعه حزنه وتألمه إلى أن يعد وجود هؤلاء كالعدم فلم يحموا بل أضاعوا وخانوا إنهم خلف كجلد الأجرب أما الذين يعاش فى أكنافهم وكان يرجى الخير على أيديهم فقد طوتهم يد الردى وطاحت بهم ريح النوى والنوائب ومن ثمّ وحيث ضاع المجد الطريف فإن الشاعر يذكر المجد التليد وضياعه يذكره بالحسرة والأسى يذكر ضياع التاريخ وحماة الإسلام والمسلمين يذكر عمر بن الخطاب ويذكر خالد ابن الوليد وعمرو بن العاص .

ترى لو يرى الفاروق ماحل بالألى
أتصبر عن خوض المنايا كتائبه

فلو كان سيف الله يقظان (خالد)
لأفنت جموع الغاصبين مقانبه

ولو كان عمرو الرأى والسيف والقنا
يرى الظلم هذا ماستقرت شوازبه

على أن الشاعر هنا قد اكتفى بذكر هؤلاء الأعلام الثلاثة ثم عرج ينحى باللائمة على الأمة الإسلامية فذكر تفككها وضعفها واستخذاءها .

فيا أمة بعد الوئام تفككت
وأضحت كحصن قد تداعت خرائبه

روت قول بشار بن برد فحرفت
وسارت إلى وزمان ضعفا تخاطبه

(إذا الغاصب المحتال صعر خده
مشينا إليه بالمداد نعاتبه)

وأكبر الظن أن الشاعر حين نظم هذه القصيدة وضع نصب عينيه قصيدة بشار التى يقول فيها :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا
وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

إذا الملك الجبار صعر خده
مشينا إليه بالسيوف نعاتبه

وهذا البيت الثانى هو الذى حرفه الشاعر فجعل (الغاصب المحتال) مكان (الملك الجبار) وجعل (بالمداد) مكان بالسيوف .

ولم ينس الشاعر أنه يتحدث عن فلسطين الشهيدة التى عز حماتها حديثا .

أما فى القديم فكان هناك الحماة الأشاوس وقد ذكر منهم عمر وخالداً وعمراً ثم عاد فذكر هؤلاء الثلاثة وأتبعهم بآخرين كان يزجى أن يتم نصر الله على أيديهم فهو يعدد أسماء القواد العرب الذين كتبوا أروع الصفحات فى سجل البطولات العسكرية الإسلامية .

فلسطين لا حام يحامى عن الحمى
ولا فيلق تحنو عليك كباكبه

فلا الفاتح الفاروق تهفو بنوده
ولا طارق فى البحر تدنو قواربه

ولا خالد يزجى الكتائب فى الفضا
فتسبح كى تحمى حماك سلاهبه

ولا سعد ليث القادسية حاضر
فيمشى إلى من قد دهاك يحاسبه

ولا قاهر السواس عمرو بحاضر
فتهدم ما تبنى الدهاة مواهبه

وليس المثنى قاهر الفرس بيننا
فتزأر فى وجه العدو قراضبه

ولا مصعب الفحـل ابن أسمـاء شاهد
فتبرق من فـوق السروج ضواربـه
ولا الفاتك المنصـور ترقص خيله
لتظهر فى هـذا الزمان عجائبـه
ولا هاشم المرقال يرقـل فى الوغى
فتهـوى على هـام اليهـود قواضبـه
ولا الداخـل الصقر المغامر عنـدنا
فتـبرز فى الحروب الضروس غرائبـه
أولئـك لوكانوا على ظهرها لمـا
توالت علينـا من يهـود مصاعبـه
عليهم سلام الله وقفـا فبعـدهـم
تهـاوت من المجـد الأثيـل مناصبـه
أسود توارت فى الثرى عـن عرينهـا
فهـان العـرين بعـدما غـاب صاحبه

وفى ختام القصيدة ينحى الشاعر باللائمة على الأمة الإسلامية المفككة الكثيرة العدد القليلة الفعائل والتى أصبحت ذليلة لشعب خسيس وهذا هوان ما بعده هوان والأمة مع ذلك غافلة تغط فى سبات عميق بينما العدو ساهر يدوس تراث الفاتحين ونحن نكتفى بالكلام وطريق الخلاص هو القوة العسكرية فلا بد للحق من قوة تحرسه وتحميه وكأس الموت أفضل شربة من العار وحياة الفتى فى الذل موت وموته فى العز حياة :

فلسطين قـد أصبحت لقمـة جائـع
وفيك ابن غريـون تقضى مآربـه
فيا أمـة الإسلام أضحت جموعكم
كرجـل الجراد حـين تبدو مواكبه
ولكنكم عنـد الفعـائل قـلة
فوا فرحـة الخصم الذى قـد نحاربه

كفانا احتقاراً أن نكون أذلة
لشعب خسيس لا تعد معائبه
زمان الزمان بالحثالات ويحكم
فبعد الأفاعي. أنهكتنا عقاربه
بني الضاد ما هذا الهوان إلى متى
وذا العار لا تنفك عنا لوازبه
تدوس تراث الفاتحين كلابه
وتفسد في غاب الليوث أرانبه
سئمنا الكلام وهو أقوى سلاحنا
فلا خير في قول فعال تجانبه
بني الضاد إن السيف أصدق ناطق
به الخصم يدرى ما عناه مطالبه
إليكم خذوها يابني الضاد جهرة
مقالة من قد علمته تجاربه
أرى الحق لا يعطى ومن رام أخذه
عليه بحد المشرفي يصاحبه
ألا إن كأس الموت أفضل شربة
من العار هذا ليس يغبن شاربه
حياة الفتى في الذل موت وموته
عزيزاً حياة وهو في الخلد صاحبه

وحين نلقي نظرة عامة على هذه القصيدة نرى أنها سلكت منهج القصيدة العربية القديمة فبدأت بمقدمة غزلية لعلها خير ما في القصيدة ثم انتقلت إلى موضوع القصيدة .

وقد أصدر الشاعر عن عاطفة غاضبة ثائرة آلمها ما حل بفلسطين وأهلها وساءه تفكك الأمة وتخاذلها فامتلأ قلبه بالغضب الثائر وجعل يكيل الضربات تلو الضربات لأولئك الذين أضاعوا تراث الفاتحين .

وقد استمد كثيراً من أفكاره من لدن شعراء العربية الأقدمين والمحدثين فذكر بشاراً على نحو ما مرّ بنا وذكر المتنبي فى ختام قصيدته :

حياة الفتى فى الذل مـوت . . . .

فهو يذكر بقول المتنبي :

عش عزيزاً أو مت وأنت كـريم
بين طعـن القنـا وخفق البنـود
واطلب العيش فى لظى ودع الـ
ـذل ولو كان فى جنـان الخلود

وذكر حافظ إبراهيم حين أشار إلى بيت بشار الذى حرفه فحافظ يذكر نفس البيت فى حديثه عن السلطان عبد الحميد وغضبه الأمة ضده وذلك حين يقول :

روت قول بشار فثارت وأقسمت
وقامت إلى عبـد الحميـد تحـاسبه
إذا الملك الجبـار صعر خـده
مشينا إليـه بالسيوف نعـاتبـه

وهو يذكرنا بشوقى فى ختام القصيدة فحين يقول باشميل :

أرى الحـق لا يعطى . . . .

يذكرنا بشوقى فى أكثر من قصيدة فشوقى يقول من قصيدته فى مدح مصطفى كمال :

لا تلتمس غلبـاً للحـق فى أمم
الحـق عندهم معنى مـن الغلب
لا خـير فى منـبر حتى يـكون له
عـود من السمر أو عود من القضب

وهكذا ...

وصور الشاعر وتشبيهاته بقديمة وإن كانت وراءها عاطفة وحشية بلوية . وقد لجأ الشاعر إلى أسلوب السرد والتقرير حين ذكر أعلام المسلمين الخالدين من أمثال الفاروق عمر وخالد وعمرو والمثنى وغيرهم وقد تفجع على فلسطين الشهيدة فى أكثر من عبارة (فهذى فلسطين الشهيدة قد هوت ...) (هويت فلسطين وخلفك قد هوى علا الضاد) (فلسطين لا حام يحامى عن الحمى) (فلسطين قد أصبحت لقمة جائع) .

ويبقى للشاعر بعد ذلك صدق عاطفته وصدق تعبيره فالقصيدة ترجمان لعواطف الذين أخلصوا للقضية وتعرية للذين خانوا ولكن الصوت الجهير والنزعة الخطابية تسيطران على القصيدة حتى إن القصيدة لتشبه خطبة منبرية تجنح إلى التقريع والتأنيب والأسف وتترحم على السابقين الذين حموا الذمار وتلعن أولئك الذين ضيعوه .

(فلسطين) لمحمد على مغربى :

إن مأساة فلسطين يعرفها كل عربى ويحزن لما أصاب مدينة السلام ولكن أتعالج القضية بالبكاء أم بقرع طبول الحرب وامتشاق الحسام ؟ .

ذلك ما يحدثنا عنه الشاعر السعودى الأستاذ محمد على مغربى فى قصيدته « فلسطين [١] » حيث يرى أن الدموع شيمة النساء وأنها لا تغنى فتيلا فالتضحية بالنفس والمال هى وسيلة النصر وقد نذر العرب أنفسهم وأموالهم لتحرير فلسطين ، وهاهى سيوفهم قد سلت من أغمادها وهاهم أبطالهم يملؤن الوادى ضيغما إثر ضيغم .

كفكفى الدمع وجودى بالدم
إنما الدمع سلاح الأيم

يا فلسطين ويا أرض العلا
نحن جند الموت فاحيى واسلمى

---

(١) المنهل عدد صفر ١٣٦٧ هـ .

قد نذرنا للفدا أرواحنا
وبذلنا المال من بعد الدم
سلت الأسياف من أغمادها
وصليل السيف حلو النغم
حفل الوادى بأبطال الحمى
ضيغم يمشى وراء الضيغم

ولكن لمن هذه الجموع التى سال بها الوادى ؟ وهل الأمر من الخطورة إلى هذا الحد الذى تسل فيه السيوف من أغمادها وتقرع طبول الحرب ؟ نعم إنه الدفاع عن الوطن الغالى عن أرض العلا وليس أغلى فى الدنا من الوطن إنه الحرم الذى يأمن فيه المواطن فما بال شذاذ الآفاق من الصهاينة يريدون أن يتخذوا من فلسطين موطنا لهم لقد كذبوا ولن يقر لهم قرار على هذه الأرض الطاهرة ولن يجنوا من أعمالهم الوحشية سوى الندم والضياع والخسران . إن الله ضرب عليهم الذلة والمسكنة وفرض عليهم التشتيت فحين ينطلق المناضل العربى لتحرير فلسطين من الرجس الصهيونى إنما يحقق هدفين : تطهير الأرض من الغاصب وتحقيق وعد الله فى اليهود فاضربوا أيها الأبطال عنق الباطل :

ياليوث العرب من كل فتى
يطلب الموت فداء العلم
ليس أغلى فى الدنا من وطن
ليس أهدى للورى من حرم
يطلب الشذاذ فيه موطنا
كذبوا ليسوا سوى للندم
نزل التنزيل فى محكمه
بشتات القوم بين الأمم
فادفعوا عن دينكم حتى يرى
أنه الحق عزيز الكلم

ضرب الذل عليهـم فـاضربـوا
عنـق البـاطـل ضرب الحـلم

ولكن الخطة كانت مدبرة بين اليهود وساسة العالم الكبار بمنح اليهود وطنا قوميا لهم من فلسطين أعطاه من لا يملك لمن لا يستحق ووصل اليهود إلى ذلك بالقوة والعنف تؤازرهم الدول الغربية التى توقد الحرب بدعوى السلام إنهم وحوش فى صور آدمية إلههم المال وقد عموا عن الحق والهدى وجعلوا الباطل لهم شرعة ومن ثم تكالب الغرب واليهود وسعوا لإصدار قرار بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود ثم طرد العرب منها نهائيا بعد ذلك والكلمة الآن وقبل الآن للبطولة والتضحية للبذل والفداء :

ليس أغبى فى الـورى مـن مجمع
يوقـد الحرب بدعـوى السلم
أمم الغـرب وحوش صـورت
كالأنـاسى بقـلب مظـلم
ليس غـير المـال مـا تبصره
وهى عـن ضوء الهدى مثل العمى
شرعـة الباطـل تمضى مثلمـا
يمحـق النـور سواد الظـلم
ليس تقسيم فلسطـين كمـا
ظنـه «المجمـع» ظـن الواهـم
دونـه المـوت وأنتم جنـده
فاجعلـوا المـوت لـكم كالقسم

وقضية فلسطين إذن ذات شقين شق الدنيا وهو تحرير الوطن وعودته لأصحابه الشرعيين وشق الدين وهو تلبية داعى الجهاد لحماية أرض إسلامية عليها مقدسات إسلامية ولتحقيق وعد الله فى تشريد اليهود وضرب الذلة والمسكنة عليهم ومن ثم جاءت خاتمة القصيدة وكأنها تلخيص لما يريد.

الشاعر أن يبثه من خلال أنشودته أمام المناضلين حتى يمتلئوا حماساً واستبسالا من أجل الحق والوطن :

يا شباب العـــرب ياجنـــد العـلا
مـــن كميٍّ سائـر إثـــر كمى
سابقـــوا للديـــن والدنيـــا فـدى
عـــزة الديـــن وعـــز الأمم
إنـــه الإيمـــان فاعـــتزوا بـــه
قـــوة الديـــن ستار المسـلم
إنهـــا حـــرية كونـــوا لهـــا
خـــير جنـــد يفتـــديها بالدم

إن كلمات هذه القصيدة وموسيقاها من الرقة والعذوبة بمكان حتى إنه يمكن تلحينها وغناؤها وكأن الشاعر وضعها نشيداً للحرب يترنم به الجنود وهم سائرون إلى أرض المعركة وصليل السيف حلو النغم . وصور الشاعر وعباراته جميلة توحي بالموقف مثل : الدمع سلاح الأيم — ضيغم يمشي وراء الضيغم — ليوث العرب — عنق الباطل — أمم الغرب وحوش إلى غير ذلك إلا أن بعض عباراته غير دقيقة مثل « ليسوا سوى للندم » فهو يريد أن يقول لن يجنوا سوى الندم » والندم وحده ليس غير ولكن عبارة ليسوا سوى للندم » غامضة وركيكة ومبتذلة .

والقصيدة من بحر الرمل وأجزاؤه :

فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن

إلا أن التفعيلة الأخيرة صارت « فاعلا » فى الضرب والعروض .

رواية الحرب :

فى حومة الشعر على أودية السياسة قدّم « الشاعر المجهول » رواية الحرب فقد اعتاد هذا الشاعر أن يتحف قراء « المنهل » فى كل عام بحولية عن مجرى السياسة العالمية كما تقول « المنهل [1] » و « رواية الحرب » .

تبدأ بالحديث عن غريزة العدوان فى النفس البشرية وأنها أقوى دوافع الحرب ، وأن سطو القوى على الضعيف شيمة الإنسان منذ القدم ومن ثم فالضعيف عبد والقوى سيد :

إن داء الشعـــــوب داء عـــصى
هـــــو داء العـــداء داء الحقـــــود
فـــتن النـــاس من قديم بـــــأن يســـ
ــطوا على الآمنـــين سطو الفهـــــود
فالضعيف المهـــــــوان عبـــد لمـــولى
والقـــــوى المغـــــوار مـــولى العبيـــد .

فالدافع إلى الحرب دافع غريزى ومادامت فى الإنسان هذه الغريزة فالحروب دائمة ومتجددة كلما قيل ولت أقبلت ، وهى فى الشرق ريح عاصف وفى الغرب مرجل يغلى تحزن المرأة الشرقية العقيم لأنها عاجزة عن أن تقدم للحرب أبطالا أما المرأة الغربية الولود فإن الحرب تتركها كالعقيم لأنها تحرق كل أبنائها هذه الحرب كلما قيل ولت .

هـــــــذه الحرب كلما قيـــل ولت
أقبلت فى جحافـــــل وبنـــــــود
هى فى الشرق زعـــــــزع مستطير
وهى فى الغـــــرب مرجـــــل التهـــديد
وهى فى الشرق غمـــــــة لعقـــــيم
وهى فى الغـــــرب عقـــم كل ولـــود

(١) المنهل : عدد رجب ١٣٥٨ هـ.

وما دامت المعارك مستمرة بين البشر فإن آثارها وخيمة فهى بلاء يحشر الناس فى الجحيم المبيد وهى وباء يسلب الناس نعمة البناء والتعمير ويترك الأرض خرابا فهى الهلاك بعينه .

هذه الحرب إن تثر فبلاء
يحشر الناس فى جحيم مبين
هذه الحرب إن تثر فوباء
يسلب الناس نعمة التشييد
هذه الحرب إن تثر فهى ويل
ممطر بالخراب والتسهيد

هذه هى الآثار العامة للحرب والعجب كل العجب أن الغرب يدرك ذلك جيداً ومع ذلك يسرف فى التسليح فهل تهاوت شمس الغرب فى مهاوى الفناء فعمى أو تعامى عن الحقيقة الواضحة إنه مفزع من الحرب وويلاتها وتصعقه ذكرى الحروب وتراه مع ذلك يسرف فى التسليح إنها الكبرياء إذن وحب السيطرة والرغبة فى استعمار الشعوب ومن ثم فحضارة الغرب برغم ازدهارها لم تكتمل لأن يداً تبنى وأخرى تهدم « كلما تم أمر نقضته أنامل التبديد » .

أترى الغرب قد توارت ذكاه
فى مهاو من الفناء المودى
قلبه جازع وتصعقه ذكـ
ـرى نضال يشيب فود الوليد
وتراه مع ذاك وهو مكب
مسرف التسليح والتحشيد
أشر الغرب واستطالت علاه
وتمطى فى قنة التمجيد

وسمـــا فى استعماره فـــوق سام
فعــراه الـــدوار فى التصعيـــــد
سنــــة الله . كلما تم أمـــــر
نقضتــــه أنامـــــل التبــــديد

ذاك شأن الغرب يصطلى نار الحرب ومع ذلك يسرف فى التسليح وحشد الجيوش حباً فى السيطرة ورغبة فى الاستعلاء فما حال الشرق ؟ أيدرك ما يدور حوله أم أنه مكبل بالقيود لا حول له ولا طول وهل يشترك فى حرب مبيدة كهذه أم أن التعقل والتبصر فى عواقب الأمور كفيل بصد الشرق عن هذه الحرب .

فهـــل الشرق مـــدرك كل هـــذا
وهـــل الشرق صـــادع للقيـــود
وهـــل الشرق مستعيد ثـــواه
فى نضـــال يـــودى بـــكل عنيـــد
وهـــل الشرق مستفيـــد إرشاداً
إن فى الهـــول فرصـــة لرشيـــد

تلك هى دوافع الحرب الطبيعية وآثارها وموقف الغرب منها ، مع أمنية أن لا يشترك الشرق فى الحرب القادمة فإن الشاعر نظم القصيدة وطبول الحرب العالمية الثانية تدق وجمرها يشع من تحت الرماد ويوشك أن يكون لها لهيب يقضى على كل جهود السلام فهل من فتى رشيد يطفىء الجمر قبل أن يصير ضراما إن المنايا ترقص فى كل واد والبشر فى حالة ذهول ينتظرون حتفهم وبذلك يسقط السلام ويضيع الأمن إذا ما قيل يوم الصراع غير بعيد . .

ذاك جمـــر الهيجـــاء ذو شعـــاع
منـــه تحت الرمـــاد فى صيهود

واستطال اللهيب منـــه وأبـــدى
شرراً مـــوديا لفيض الجهـــــود
مـــن فتى باسل عظـــيم أبي
يطفىء الجمـــر قبـــل برح الوقود
المنـــايا يرقصن فى كـــل واد
عـــازفـــات فى رقصهـــا بنشيد
والـــبرايا مشدوهـــة فى انتظـــار
لالتهـــام النـــيران بيت القصيـــد
فسلام عـــلى السلام إذا مـــا
قيـــل يـــوم الصراع غـــير بعيـــد

عاطفة الشاعر فى هذه القصيدة هى حب السلام وكراهية الحرب ومن ثم نظر إلى غريزة العدوان الدافعة إلى الحرب على أنها داء يجب علاجه ونظر إلى المعتدين على أنهم فهود تسطو على الآمنين ، وصوّر الحرب على أنها فى الشرق « زعزع مستطير » وفى الغرب « مرجل التهديد » وهى بلاء ووباء وويل ممطر بالخراب وهى جمر يحرق السلام وجهود العاملين له ، والناس يعيشون فى فزع ورعب وهم يرون المنايا ترقص ، وقد وقفوا مشدوهين فى انتظار الكارثة فإن يوم الصراع هو يوم سقوط السلام إن صور الشاعر وليدة عاطفته وهذا ما يكسبها حيوية وقوة والتنسيق الفنى للعبارة يؤدى دوره أيضا فى تجسيم المعنى حين يستعمل الشاعر اسم الإثارة ويكرر هذا الاستعمال وكأن الحرب ماثلة أمام عينيه فهو يلفت إليها الأنظار ويستحضر صورتها بالإشارة المكررة إليها فى أكثر من بيت وهو يعبر عن استمرارية الحرب بهذه الكلمات ، « كلما قيل ولت أقبلت » فما يكاد الناس يفيقون من هولها حتى تفجأهم من جديد فهم منها فى رعب مستمر دل عليه « كلما » كما دل عليه الطباق بين أقبلت وولت .

تلك هى « رواية الحرب » ذات الوحدة الفنية المتكاملة فموضوعها واحد

وأفكارها واحدة والجو النفسي الذى يغلف الرواية واحد من بدايتها إلى نهايتها .

والشاعر نظم القصيدة كما قلنا والدنيا تستعد لاستقبال الحرب العالمية الثانية التى خلفت آثاراً بشعة ماتزال الإنسانية تئن منها حتى اليوم فالشاعر استقى تجربته من الحياة ومن أعماق النفس البشرية وأطماعها وغرورها المدمر وذرف دمعة حزن على السلام فى يوم الصراع .

وأكبر الظن أن الحرب العدوانية بنت الأطماع والأهواء مرفوضة لدى شعراء السعودية بل لدى الشعب السعودى كله والحرب التى يؤيدونها هى ما عبر عنها شوقى بقوله مخاطبا الرسول صلى الله عليه وسلم :

الحرب فى حـــق لديك شريعـــة
ومـــن السموم النافعـــات دواء

فالسلام والأمن والرخاء والبناء والتشييد أنشودة الشاعر السعودى ومن ثم صوّر الحرب فى صورة منفرة مؤلمة فاتجاه الشاعر نحو السلام لا نحو الحرب .

دنيا السلام — للأستاذ محمود عارف [1] :

هذه ترنيمة السلام وأنشودة الفرح بانتهاء الحرب وأهوالها وإن خلفت الحاضر مثقلا بالمجازر فقد اكتوى الناس بنار الحرب على يد كل غادر أثيم لقد خلفت وراءها الفقر والجوع والبؤس وعمّرت المقابر .

هذه حقبة البلوى مضت بأثقالها وأوزارها وفى إثرها بدا نعيم المصير فى غد جد ناضر :

مضى الأمس مطويا فهـــل بعد حاضر
يجىء لنـــا الآتى بصفـــو مبـــادر

(١) المنهل عدد المحرم ١٣٦٥ هـ .

فلا عاد هول الأمس والحاضر الذى
تلاه وشيكا مثقلا بالمجازر
ملاحم حرى فى لظى نارها اكتوت
عوالم شتى ذاك من صنع غادر
تنزى على حر الوطيس شواظها
ودارت بشقواها على رأس خاسر
فكم مدقع ذاق الطوى بين أهله
وكم بائس مثواه بين المقابر
مضت حقبة البلوى وفى إثرها بدا
نعيم مصير فى غد جد ناضر

إن رجاء الشاعر معقود بناصية الغد الذى يجىء ومعه الصفو والنعيم فهل بعد حاضر يجىء لنا الآتى بصفو مبادر » فالاستفهام خرج عن معناه الحقيقى وأفاد معنى الرجاء فى غد ناضر أحست به الدنيا وبما يحمل من رحمة فإذا كان الماضى والحاضر هما حقبة البلوى حرب ونار وفقر وجوع ضاقت الدنيا بالإنسان فلم يجد له مثوى إلا بين المقابر . إذا كان هذا شأن حقبة البلوى التى مضت فإن حقبة الغد جد ناضرة شملت الحياة والأحياء فالطير يغنى على الدوح وبين الطير والدوح همس كهمس الأزاهر كلاهما ناعم بالأمن وهما فى نجوى كأنها شجو القيثار كلاهما يعيش فرحة المنى فالغصن يميل ميل المعاقر والطير تشدو الجدول الرقراق فى نشوة ونسمات الفجر ساحرة ، وفى خلوات الليل قامت أفراح النجوم .

أحست به الدنيا بوادر رحمة
بواطنها تومى إلى كل ظاهر
كأنى وهذا الدوح للطير مرغن
وبينهما همس كهمس الأزاهر
كلا اثنيهما فى ساحة الأمن ناعم
ونجواهما بالهمس شجو القياثر

وفى الغصن ما فى الطـير من فرحة المنى
تميـل بـه نشوان ميـل المعـاقر
وفى الجدول الرقراق أنباض نشـوة
تفيض كسيال المـنى فى السرائـر
وفى نسمات الفجـر نجوى صبابـة
ترف كسحر الوحى فى نفس شاعـر
وفى خلـوات الليـل أفراح أنجـم
تلـج بأشواق الظـلام المسامـر

إذا كان الشاعر قد رسم بريشته صورة الدمار فى حقبة البلوى فقد رسم هنا فى حقبة النعيم صورة لفرح الطبيعة وبعث الحياة والحركة فى صورته. فالدوح أرغن للطير واستمع إلى أحلى همس همس الأزاهر وهذا الغصن يميل نشوان ، وما أبلغ هذا التشبيه للجدول الرقراق بسيال المنى فلم يقل سيال المنى كالجدول الرقراق وإلا لكان فى سيولة الجدول ما يفوق سيال المنى والشاعر يهدف إلى أن المنى كثيرة فهى ليست كالجدول ولكن الجدول هو الذى يشبهها ومعلوم أن وجه الشبه فى المشبه به أقوى منه فى المشبه .

وفى خلوات الليـل أفراح أنجم ....

كنت أفضل وضع هذا البيت قبل سابقه : وفى نسمات الفجر نجوى صبابة لأن الفجر فى ترتيب الزمن يأتى بعد الليل لقد رسم الشاعر لوحة عناصرها الدوح والطير والأزاهر والجدول والليل والفجر والنجم ، وقد أحاط الشاعر هذه اللوحة الفنية بأنغام موسيقية عذبة بأنغام الأرغن والقيثار وسلط عليها ضوءاً ساحراً جذاباً هو ضوء النجم والفجر ، وجعل لوحته تنطق فى خفوت هو همس الأزاهر ونجوى الدوح والطير .

وهذه الطبيعة الجذلانة أسعدت الكون فخفق قلب العالم بالسرور بتحقيق المنى فقد انتصر السلام على الحرب ومن ثمّ فالغد مشرق ينظر من عل فى كبرياء وزهو يبسم للمجد ود ويواسى المسلوب ويزيل عن المأزوم

شقوة همه ويمحو الظلم عن المظلوم ، وينشر السماحة فى الوجود ويقوى أواصر الترابط بين الأمم والشعوب فيعيشون فى أمن وحرية هناك فى فردوس السلام تحوطه الأنوار ويسعد المنصور وتردد الدنيا نشيد السلام ، وتصبح أحداث الزمان أحاديث ملهاة :

وفى رحبات الكون يخفق عـــالم
سروراً بتحقيق المنى خفــق طــائر

كأنى وهــذا الدهر ينظــر من عــل
يطــل على الدنيــا ببسمة ظـــافــر

ويبسم للمجــــدود إذ عــاد غانمــا
ويضنى على المسلوب عــزمة صـــابر

وينضـــو عـــن المأزوم شقوة همـــه
ويمحـــــو عن المظلوم نقمــة جائر

ويبعث فى روح الوجـــود سماحــــة
تطوف على الدنيــا لربط الأواصـــر

هنــالك حيث الأمـــن حرية الورى
تنــال على دستور نهــج التـــآزر

يرى النـــاس فردوس السلام مجـــللا
بنـــور التصافى لا بختـــل المصائـــر

فيسعد منصـــور بنعمـــاء نصـــره
ويرجـــع مدحـــور بأعبـــاء داحـــر

وتنفجـــر الدنيـــا نشيداً مخـــلداً
تـــردده الأيـــام ترديـــد ذاكـــر

وتصبح أحداث الزمان التى مضـــت
أحاديث ملهـــاة العصور الأواخـــر

وهذه لوحة ثالثة للكون الضاحك الذى يخفق كالطائر وللزمن الذى يطل

من علٍ مبتسما للمجدود ومواسيا للمسلوب ثم يدخل مع الناس فردوس السلام المضاء بأنوار الصفاء ويسمعون نشيد السلام تردده الأيام .

وكل ذلك أسكر الشاعر وبعث فيه النشوة فطرب وترنح وطلب المزيد من كؤوس الصفو والمنى فقد طاب الزمان وعاود عطاياه وعسى ذلك يشفى الأسى وما خلفته المخاطر فيعود الناس إلى ينابيع الثقافة والحرية والحضارة والحب والعدل فهذه ذخائر السعادة إنه فأل تبتغيه الدنيا ليهنأ جميع الناس في فردوس السلام :

فيا أيها الساقى أدلنى تفضلا
كؤوسك من صفو النعيم المجاور

أدلنى وقد طاب الزمان معاوداً
عطاياه من فيض المنى المتوافر

لعلك تشفى بعض مابى من الأسى
وما خلفته موبقات المخاطر

هنا اليوم ينبوع الثقافة مترع
بأكرم ما يحيى طماح المشاعر

هنا ملتقى حرية وحضارة
مجلى وئام حافل بالمخائر

ذخائر إسعاد تفيض عدالة
على عالم مستيقظ غير سادر

لعمرك فال تبتغيه مداين
لدنيا أضاءت بالأمانى النواضر

ليهنأ جميع العالمين قريبهم
وأبعدهم داراً بدنيا البشائر

هذا شاعر امتلأ قلبه بحب الطبيعة والكون والناس ففرح حين زال الكابوس الذى كان يخيِّم على الكل فرح حين أشرق وجه الحياة وعاد السلام .

وحل الوئام محل الخصام فرح بالأمن والعدل ليتجه الناس نحو البناء بناء الحضارة والثقافة والتعاون ويعيشوا على الأماني النواضر وفى دنيا البشائر .

وهذه العاطفة الجياشة فى قلب الشاعر قد رسمها بريشته لوحات ناطقة معبرة كل لوحة فيها فرحة وغناء وطرب . وقد اختار للوحته ألوانا بهجة وظلالا ناعمة ونسق بين عناصر لوحاته فجاءت معبّرة عن مكنون فؤاده ومستور عواطفه .

الطبيعة والمرأة :

ما موقف الشاعر السعودى من الطبيعة ؟

هل صور عاطفته وحنينه إلى الطبيعة ؟

وهل جمع بين المرأة والطبيعة فى شعره ؟

أم قدم ألوانا وأشكالا من الطبيعة فى صور تحمل طابع الإبداع والتجديد ذاك أمر يدعونا إلى أن نستعرض نماذج من شعر الطبيعة عنيت بها (المنهل) .

وهذه قصيدة « وحى العقيق [1] فى يوم انهماره » ذيلت بتوقيع الشاعر المجهول فقد انطلق الشاعر إلى وادى العقيق يوم انهماره (١٣٥٨/٢/١٢ هـ) وانتحى عن رفاقه جانبا وجلس وحيداً على ضفاف الوادى الذهبي الجميل يناجى فيه عبر التاريخ وروعة الحاضر ويستلهم جماله الناضر وحى الشعر وكان الوقت أصيلا جنحت فيه الشمس للغروب ، وعكست أشعتها الذهبية على صفحات الوادى المنهمر فكان منظر بهيج فاتن وقد جاءت هذه القصيدة فيض (وحى العيقيق) ونتاج منظره الباسم فى ذلك المساء البهيج .

هذا مشهد من مشاهد الطبيعة إذن مشهد المطر المنهمر على وادى العقيق وما ينجم عنه من حياة الأرض والجبال فى هذه البقعة حتى إن الناس

---

(١) المنهل : عدد ربيع الثانى ١٣٥٨ هـ .

ليتخلون منها متنزها فلا عجب أن يختم الشاعر قصيدته بالدعوة إلى العناية بالعقيق مادام بهجة النفس وقرة العين استهل الشاعر قصيدته بوصف وادى العقيق لحظة الانهمار وكان ذلك قبيل الغروب فالعقيق لم يعد مكانا عاديا بل أصبح إنسانا طلق المحيا يشدو مسروراً وهو متلألىء متدفق ينساب بين السهول والوعور مياهه وهذه الأمواج تتكسر فوق صخوره ، والنسمات تهب عطراً منعشاً من جنباته ، وهو مزدان بأشجاره ونوارها الفاتن ، وحجارته السوداء أشرق وجهها بهطول المطر فقامت تعانقه وتبثه شجوها ولقد أصبح لونها كلون الذهب لمعانا وصفاء فاق لون الشمس وجمالها وقت الأصيل حتى إنها تغضى طرفها مفتونة بجماله وتحاول أسره فلما استيأست من ذلك غربت فتطلع له بدر السما مشتاقا يود تقبيله أما النجوم فقد رقصت فوقه معجبة بجماله .

لوحة فنية عناصرها : العقيق — المطر منهمراً فوقه — الأمواج فوق صخوره — الشجرات المزدانة بالنوّار — صخور الوادى الجميلة — الشمس عند الأصيل — القمر العاشق — النجوم الراقصة يقول الشاعر :

هذا العقيق وقد بدا متبسماً
طلق المحيا شاديا بسروره
وتراه فى لألائه متدفقا
ينساب بين سهوله ووعوره
تتكسر الأمواج فوق صخوره
فتئن من تأثيره وعبوره
وتهب من جنباته نسماته
فتفوح عطراً منعشاً بعبيره
وتحفه شجراته مزدانة
بنواره المغتر من تأثيره
حرّاته السوداء أشرق وجهها
وتهللت أبقدومه ومسروره

خفت تعانقه وتشكو بؤسها
وشحوبها من هجره وحروره
اللون يحكى التبر فى لمعانه
وصفاء وجنته ونقش سطوره
والشمس تغضى طرفها مفتونة
بجماله المكنون فى تصويره
حتى إذا ما استيأست من أسره
سقطت معاناة وراء بروده
فرنا له بدر السما متطلعا
وأطل مشتاقا للثم ثغوره
وإذا النجوم الحور ترقص فوقه
مشدوهة بشبابه ونضيره

ولم ينس الشاعر أن يعرج على التاريخ فيذكر أن للعقيق تاريخا يطوى حكما ممزوجة بالحزن والسرور ، والعقيق يوحى بالكثير من مطويه للخبير إن هذه الإشراقة المتلألئة فى جيد العقيق توحى بالجمال ينبعث من بين صخوره إن المحزون يأوى إليه فتنفرج أحزانه وهذا المريض يأوى إليه فيمنحه النشاط والسعادة والصحة :

هذا العقيق يبين فى مطويه
حكما تمازج حزنها بحبوره
هذا العقيق يدق فى إيحائه
ويعبر ذاك الوحى سمع خبيره
انظره فى إشراقة متقلداً
درر الجمال تضىء فوق صخوره
وانظره يوحى للشجى مباهجاً
ويزيح عنه شجونه نحريره

ويعيد للجسم العيي نشاطه
ويزيل عن عطفيه عبء فتوره

إن دأب العقيق منذ القدم أن يترنم ويشدو عند نزول الأمطار وانهمارها إن سكانه وقصوره لفي فرح عظيم وإن هذا الأريج يفوح من أزهاره وأشجاره ليجذب إليه الزوار مستبشرين بفيضه وصدوره فتراهم على حافاته زرافات ووحدانا وكأنهم جاءوا ليسمعوا نشيد المطر وأهازيجه إنه يوقع لحن الحياة وإن ذلك اللحن يجلو للزوار معنى السعادة والهدوء ويعيد لهم سير الماضين ويجيش بالإلهام على فقدهم إنه يرثي للماضي الجميل وإنه لوفي مخلص يأسى على من مضى من قاطنيه :

هذا العقيق وقد همر مترنماً
يشدو لنا بقطينه وقصوره
هذا العقيق وقد هي متأرجاً
يشدو لنا بحياته وشعوره
يتوارد الزوار يوم وروده
مستبشرين بفيضه وصدوره
وتراهمو زمراً على حافاته
يهمس لهم بنظيمه ونثيره
هزجاً يغنيهم على أوتاره
وحي الحياة على عروض بحوره
يجلو لهم في وحيه وغنائه
معنى السعادة هادئاً بهديره
ويعيد في ألحانه سيراً لمن
أخنت عليهم سانحات دهوره
ويجيش بالآلام كامنة به
فيصوغها عقداً على مهجوره

يرثى لماضيه الجميل بشعره
ويسجل المأساة فى تكريره
اسمعه فى زفراته متلشما
وانظره فى نزواته وعثوره
تجد الأسى مستجمعا فى قلبه
ويكاد ينفثه على معموره

أمثل هذا المكان التاريخى الجميل يهجر ؟ ولا يجد من العناية والرعاية ماهو أهل له ؟ هذه هى مأساة العقيق وهذا سرّ تجهمه وتألمه إنه يهفو لمن يهبه الحياة لمن يشيد مكسوراً هوى من دوره لمن يتحدث عن أفضاله لمن يصغى إليه . ويستكشف المخبوء من مغموره . لمن يوليه عطفا ورعاية لمن يكسو رباه بالسندس الأخضر لمن يعنى بزارعته وإخصابه لمن يعنى بتلك الأرض الذهبية فما ينبغى أن تهمل لتظل مصدر سرور ووحى سعادة :

هذا العقيق وقد همى متجهما
يحكى لنا مأساته بزفيره
هذا العقيق وقد همى متألماً
يفشى لنا أسراره بزئيره
يهفو لمن يهب الحياة سكونه
فيشيد مكسوراً هوى من دوره
يهفو لمن يزهى بفضل صفاته
فيتمم المنقوص من مقصوره
يهفو لمن يرنو لما فى سرحه
يستكشف المخبوء من مغموره
يهفو لمن يوليه عطفا مبهجا
يسمو به المنظور عن مطموره
يهفو لمن يكسو رباه بسندس
يزهو به المخبوء مد مأثوره

يهفـو لمـن يعنى بخصب جـوائه
حتى يفـوح بـه نـدى زهوره
يهفـو لمـن يعنى بتـبر ثـراه فى
أرجائـه ليـدوم وحى سروره

إن منظر العقيق الباسم فى ذلك المساء البهيج قد أوحى إلى الشاعر بهذه القصيدة العصماء فالشاعر والعقيق والمطر والطبيعة والتاريخ والسرور تلك مكونات القصيدة والوحدة العضوية تتمثل فى وحدة الموضوع فكل شيء فى القصيدة من (وحى العقيق فى يوم انهماره) وأفكار القصيدة واحدة تنبعث من منظر العقيق فى ذلك المساء إذ يصف انهمار المطر وأثره فى العقيق ثم يذكر أن العقيق هكذا منذ الزمن البعيد يأتيه الزوار يوم انهماره للنزهة والراحة ومثل هذا المكان تنبغى العناية به فالأفكار متلاحمة تنبع من بؤرة واحدة وتنطلق فى مسارات يكمل بعضها بعضا .

والجو النفسى فى القصيدة واحد فالشاعر مسرور بما يرى ويود لو يظل العقيق وحى سرور .

وقد مارس الشاعر تجربته عمليا حيث عايش المكان وما حوى وما أوحى إليه ولكن الذى ألاحظه أن الشاعر برغم سروره بالطبيعة وبعثه الحياة فيها لم يندمج فيها ولم يشعر أنه فرد من أفرادها فهو قد انتحى عن رفاقه جانبا وجلس وحيداً على ضفاف الوادى الذهبى الجميل وكان بوسعه وقد شخص الوادى والطبيعة أن يتحرك بحركتها وأن يكون منها وإليها فيصل أحاسيسه بأحاسيسها ولكنه اكتفى بأن يكون مصوراً من الخارج إن صح التعبير وهذه سمة ملحوظة فى شعر الطبيعة عند العرب .

يقول الأستاذ سيد قطب [1] « نلاحظ أن الطبيعة فى الشعر العربى لم تكن إلا قليلا متصلة بإحساس الشعراء العرب اتصال الصداقة والألفة ، وكان الإحساس بالطبيعة عند ألفتها عبارة عن منظر يوصف أو يلتذ لا

(١) كتب وشخصيات ص ٦٢ .

شخوص تحيا وحياة تدب فالطبيعة مناظر جامدة للوصف الحسي والتشبيه بالمحسوسات وقد تحيا الطبيعة وتدب ويحس الشاعر بما يضطرم فيها من حياة ويلحظ خلجاتها ويحصى نبضاتها ولكنه هو لا يندمج فى هذه الطبيعة ولا يحس أنه شخص من شخوصها وفرد من أبنائها وأن حركته من حركتها ونبضه من نبضاتها وأنه منها وإليها وأحاسيسه موصولة بأحاسيسها » .

أما قصيدة « جازان (١) » للشاعر محمد أحمد عيسى فقد تحدث فيها الشاعر عن نفسه أكثر من حديثه عن حبيبته « جازان » فهو بلبل جازان الشادى وهو صاحب القلب النابض الملهم وهو يتعشق الفجر ويرتوى بشعاع النور وهو ذو بيان فياض وعواطف سامية انجبته (جازان) فسرى نسيما عاطراً بالشعر مترسماً سنن الفضيلة ، يلمع قلمه كالبرق فى متلاطم الأحلاك ليضيء مشاعل النهضة لطلائع الأجيال وإن أوتار شعره لترن بمسمع الدنيا إنه شاعر سامى الخيال مدله بهوى (جازان) هذا شاعر يفخر بنفسه وفنه بين يدى موضوعه وسيختم قصيدته ببكاء حظه العاثر وعدم تقديره فى بلده جازان رغم تفوقه فلماذا هام بحبها وجعلها معشوقته فقال :

جازان إنى مـــن هــــواك الشاك
أفتنصتــين لبلبـــل غنّـــاك
أصغى إلى همسات قـلب نـابض
متـوثب الإلهـــام والإدراك
يتعشق الفجــــر الوضيء ويرتـوى
بشعاع نــور كواكب الأفـــلاك
نشوان مـــن خمـــر البيـــان يعب من
نبـــع تدفق بالرحيـق الذاكـــي
نخضلت بـــه دنيـــا الجمال فأخضبت
سامى العـــواطف والشعـــور الزاكى

(١) المنهل عدد صفر ١٣٧٠ هـ .

أنا من علمت ولا أقول مباهيا
قد صاغ من در البيان حلاك
أنجبته فسرى نسيا عاطرآ
بالشعر يعبق فى رياض علاك
مترسماً سنن الفضيلة ضاربا
مثلا من الخلق النبيل مداك
قلم هززت به يمينى فانبرى
كالبرق فى متلاطم الأحلاك
لمع تضىء على مشاعل نهضة
لطلائع الأجيال فوق ثراك
وتبرين بمسمع الدنيا وفى
رناته همس الفؤاد الباكى

ويبدو أن الشاعر كان يعانى من أزمة نفسية فهو وفىّ لجازان وهى لم ترع قدره ولم تعرف منزلته الأدبية ومن ثم جعل يتحدث عن نفسه ومكانته الأدبية وفى البيت الثالث ضعف فنى نشأ من تتابع الإضافات فى شطره الثانى (بشعاع نور كواكب الأفلاك) وعلى كل فقد بدأ يصف طبيعة جازان فى البيت الثالث عشر فذكر شواطئها الجميلة وغرد بجمالها وبالمساء على البحر حيث ترقص الأمواج تحت الأضواء من الشفق المذهب ونور الأشعة الفضى وقد انساب على الصخور فكست « قوز الشويعر » و « العشياء » جمالا وبهجة فالرؤى على الشاطىء فتنة للناظرين كأنها صورة مجسمة للجمال فزهت رمال الشاطىء الندية برشاش الموج وهفا النسيم على التلال ليقبل رداء (جازان) أما الأمواج فهى قبل تطبع على ثغر جازان ، وما أعجب الجذوع الموائل وهى تبدو فى صف واحد كأنه سطر خطته يد جازان . مفاتن خلاّبة يعجز الخيال عن تصويرها أو الإحاطة بها فهى ملهمة البيان وقصيدته :

ولقد نظرت إليك نظرة شاعر
سامى الخيال مدلّه بهواك

يرعى شواطئك الجميلة هاتفاً
ومغرداً بجمالها وصباك

يجلو المساء على بحارك فتنة
رقصت لها الأمواج تحت ضياك

وهجاً من الشفق المذهب قد جرى
تبراً يشع على سماء فضاك

وتلألأت نور الأشعة فضة
ذابت على جمر الصخور هناك

فبدا بها « قوز الشويعر » باقة
بيضاء قد رفت على يمناك

وتبرجت فيه « العشيا » غادة
نضت غلائلها هوى شطاكي

فتنت بمسحور الرؤى في شاطيء
كإطار رسم للجمال حواك

فزهت رمال الشط وهي ندية
برشاش رغو الموج فوق رباك

وهفا النسيم على تلالك دانيا
متعثراً يدنو للثم رداك

وكأنما الأمواج حين تدافقت
قبل طبعن على أغر لماك

وتروقني تلك الجلوع مواثلا
صفاً كسطر خططته يداك

فجلت مفاتن لا الخيال بقادر
تصويرها أو أن يحيط بسناك

فلأنت ملهمة البيان بفنه
وقصيدة عنه « الوجود » رواك

إن الشاعر يقف أمام الطبيعة فى جازان وقفة المصوِّر المعجب لكنه وبرغم حبه لجازان . لم يندمج فى هذه الطبيعة ويبثها آلامه وأحزانه بل على العكس رأى الشواطىء الجميلة والمساء الفاتن والأضواء الملونة والرمال الندية ... رآها كذلك فخيل إلينا أنه سعيد مبتهج لكنه فاجأنا فى آخر القصيدة بما يدل على أساه لعدم تقدير جازان له ولأمثاله من النابهين :

إن لم أقـــدر فيـــك رغم تفوق
ويـــكون حظ النـــابهين جفــــاك
فلقـــد مضى أن النباهـــة فى الورى
حفت كمثـــل الورد بالأشــــواك .

على أن بعض عبارات الشاعر وقوافيه قلقة فقد كسر الكاف من (هناك) فى البيت الخامس وحقها أن تفتح والصياغة غير دقيقة فى البيت الثالث عشر إذ كان ينبغى أن يقول : لا الخيال بقادر على تصويرها ولا بقادر على أن يحيط بذاك » فتكرار لا هنا لازم لوقوع اسمها معرفة وبطلان عملها ولكن الوزن دفعه إلى أن يقول كلاماً كيفما اتفق .

(يا ليتنى قمرى) لحسين سرحان :

الشاعر ذو العاطفة الرقيقة والإحساس المرهف يرى أن سعادة الإنسان ليست فى شبعه وتعاسته ليست فى جوعه وإنما السعادة كل السعادة فى العلم والحرية وصفاء الروح وإشراقها فإذا حرم الإنسان من هذه المتع الروحية شقى وتعس سواء كان جوعان أو شبعان .

والإنسان العادى لا يدرك ذلك وإنما يدركه الفنان فيشقى بحرمانه من هذه المتع ويحسد المتمتعين بها وحين يرى المجتمع الإنسانى خواء من ذلك يرمى نفسه بين أحضان الطبيعة والشاعر السعودى حسين سرحان من ذوى الحس المرهف والشعور الرقيق إنه شاعر رومانسى ضاق بالحياة وقيودها وظلامها فتمنى أن لو كان قمريا يزقزق بين الرياض حين ينبثق نور الفجر إنها أمنية دعت إليها قسوة الحياة من حوله ودعا إليها تعاسة الإنسان بل

تعاسته هو أليس إنسانا يطلب السعادة لنفسه وللآخرين فالشاعر إذن يتخذ من الطبيعة وسيلة للتعبير عن رؤية خاصة فى الحياة حين يقول « ياليتنى قمرى [1] » .

فالدجى وسنان يحلم بالفجر ، والكواكب بعضها يسرى والبعض الآخر لا يسرى ، والشاعر حين يجعل الدجى إنساناً نائماً يصوِّر مدى التعاسة التى يعانى منها ذلك الإنسان المظلم الذى يحلم بنور الفجر والكواكب أمامه بعضها يسرى وبعضها لا يسرى فهوفى حيرة من أمره يريد أن يتبع النور ولا يسعفه إلا جناحا قمرى يطير بهما فى الموكب الفضى ويغازل فى هذا الجو القمراء يبسط جناحيه تارة ويقبضها أخرى يطير معجباً مع المعجبين فى نشوة المزرى ويتنقل من غصن إلى غصن ومن روض إلى آخر :

أمسى الدجى وسنان يحلم بالفجر
والكوكب الفتان يسرى ولا يسرى
ياليتنى قمرى

أغازل القمراء فى الموكب الفضى
وأنهب الأجواء بالبسط والقبض
فى أفقها الخمرى

من قال لى واها قلت له إيها
ما ضرّ من باهى أن ينثنى تيها
فى نشوة المزرى

فى كل غصن مال لى صدحة سكرى
وكل روض سال من مقلة شكرى
تسفح بالزهر

ولكن الليل يفقد إحساسه فلا يشعر بالشاعر الذى يشبه اللألاء والذى يعد نفسه من أنجم الليل وإنه ليتطلع إلى الفجر ينتظر أن تغنى بطلوعه الظلمة

(١) المنهل عدد ربيع الأول والثانى ١٣٦٩ هـ .

وتزول الغمة إنه يشبه نفسه بمن صام نهار رمضان وأحيا ليله بالقيام والصلاة يلتمس ليلة القدر إنها ليلة واحدة فى شهر واحد ولكنها خير من ألف شهر إن فيها السعادة التى يرتقبها الصائم وإن الشاعر ليبحث عن ليلة القدر التى تريحه وتريح ذلك الإنسان التعس إنه وإن أحاط به الليل الجامد والدجى الوسنان لم يفقد الأمل فى الفجر ولا فى ليلة القدر :

ليـــل عـــلى قمـراء   يفقـــــد إحساســه
كـــأنـــنى لألاء   تستاف أنفـــــاســه
بالرونـــق المغـــرى

أرى نجـــوم الليـــل   كـــأنـــنى منهـــا
والضـــوء مثـــل السيـــل   ينـــداح بى عنهـــا
فى منظـــر سحـــرى

كـــأنـــنى صـــائم   فى شهـــره الموعـــود
وفى الدجـــى قـــائم   قـــد أدرك المقصـــود
فى ليـــلة القـــدر

مـــا أتعس الإنســـان   فى حيثمـــا كانـــا
إن اغتـــدى جـوعان   أو عـــاش شبعـــان
لـــو أنـــه يـــدرى

هذا شعر محلق كتحليق القمرى اختار له الشاعر لحنا موسيقيا يتمشى مع حركات القمرى وقفزاته وفيه إبداع فى الصياغة وتجديد فى بعض الصور مثل كأننى لألاء أرى نجوم الليل كأننى منها — الضوء مثل السيل . وسخط الشاعر من النوع الخفيف إن صح التعبير فهو ليس سخطاً مظلماً بقدر ماهو إعلان عن رغبته وأمنية يمكن أن تتحقق وهو ينتظرها كما ينتظر الصائم ليلة القدر لقد حرك الشاعر الطبيعة : الليل والفجر والكواكب والطير والروض والغصن والنجم والإنسان الذى أسهر ليله وجعل نفسه فرداً من هذه الطبيعة وإن شئت فقل إن هذه أمنية (ياليتنى قمرى) كل ذلك لينشد السعادة للإنسان التعس وهو لايدرى ولو تأمل فى الطبيعة من حوله لتعلم منها الكثير

تعلم منها الحرية وارتقاب الفجر وإن لفها الليل الذى فقد حسه وعلى كل فهذه صدحة سكرى لشاعر سراحان .

والشاعر السعودى الأستاذ حسين عرب يقف متأملا أمام جبل « عيلم »[1] فماذا رأى فى الطبيعة ؟ وبماذا أوحت إليه هذه الرؤية ؟

إنه يرى جبلا شامخا تغطى هامته الغيوم لعلوه وارتفاعه ، وإن الشمس حين تشرق لتطل من خلف هذا الجبل رويداً رويداً فهو يحجبها حينا وتبدو من خلفه حينا آخر . ومن ثم تصور الشاعر الجبل ذلك اللماح فى عليائه ساهم النظرة يحاول الناس استجلاءه من ثنايا الأفق فإذا أشرق من بين الغيوم هتف له الناس وانتظروا الضوء وصحت أرواحهم .

الغيوم والضياء بينهما الجبل هذه هى الحقيقة والخيال بل هذه هى الدنيا صحراء شعثاء الحدود :

أيها اللماح فى عليائه
ساهم النظرة مرموق الشحوب
يهرع الناس إلى استجلائه
من ثنايا الأفق النائى الرحيب
كلما استشرفت من بين الغيوم
هتف الشوق بنا يجلو ضياءك
وصحت أرواحنا بعد الوجوم
صحوة المدنف يستملى رواءك
ما الذى تخفيه من سر الوجود
بين أضوائك أو خلف الغمام
الدنا بيداء شعثاء الحدود
أحرق الضاحى بها حر الأوام

---

(١) المنهل عدد ذى القعدة وذى الحجة ١٣٦٧ هـ .

فالشاعر إذن لا يصوِّر الطبيعة ولا يبعث فيها الحياة وحسب وإنما يفلسف أحداثها ويسقط عليها آراء فى الكون والحياة .

لقد بدأ بالجبل ساهم النظرة تخفيه الغيوم حينا ثم تنجاب عنه وتشرق الشمس فما الذى يخفيه من سر الوجود حين يشرق وحين يلفه الغمام ؟ أعندك أيها الجبل شيئا من أسرار الوجود فى حالتيك أم أنك مثلنا لا تعرف كيف المآب ؟ فاذا تغشاك ضباب فنحن أيضا يتغشانا ضباب ومن ثم يضل العقل طريقه إلى الصواب وتستوى لديه الحقيقة والخيال (واستوى الماء لديها والسراب) لقد امتزجت المياه بالدماء وبدت صور الكون فى احمرار الشفق وجنّ الليل على الكون فحار العقل وعجز المنطق أمام ألغاز الكون فما الدجى ؟ وما النوى ؟ وما سرّ الحياة ؟ وما امتداد العمر ؟ وما الموت ؟ وما العقل ؟ وما الفكر ؟ وما المنى ؟ أمور شقيت بها النفس وضاقت :

لست تدرى مثلنا كيف المآب
أم من حياة يتغشاها الضباب
ضلّ فيها العقل منهاج الصواب
واستوى الماء لديها والسراب
الدم القانى جرى فى مائها
فالمرائى فى احمرار الشفق
والدجى ينثر فى أرجائها
حيرة العقل وعجز المنطق
ما الدجى ؟ ما النور ؟ ما سر الدنا ؟
ما امتداد العمر ؟ ما الموت السحيق ؟
ما النهى ما الفكر ما هذى المنى ؟
شقوة أمست بها النفس تضيق

ويعود الشاعر إلى وحيه ومصدر إلهامه يعود إلى الجبل مرة ثانية فإذ به لا ريحه رهو ولا جوه صحو ولا ماؤه زلال . فأين يستقر الإنسان ؟ أين

يستقر وهو كالملاح أعجزه أن يرسو إلى شاطىء أى شاطىء حتى لو كان شاطىء الهول الرهيب ولكن هكذا نمضى منية الإنسان فى أمنيته والدهر سجل للناس كتب بأحرف من نار ونور فالحلو معه المر والخير معه الشر والصراع قائم ومستمر فإلى أين نمضى ؟ وإلى أين المصير ؟

وإذا كان الدهر سجل يكتب بأحرف من نار ونور فماذا سطر للشاعر وبجيله أكتب تاريخ ذلك الرعيل بأحرف من نار أم بأحرف من نور إنه رعيل لم يهتد إلى طريق الحق فليله مسود السرى وصبحه مربد الشروق .

على أن الشاعر لم يشأ أن يعمق تشاؤمه وأن يسير به إلى طريق مسدود فعاد إلى أضواء الجبل تتهادى فى الروابى والسهول وتناسى الغمام والضباب وتمنى لو أشرقت الأضواء فى النفوس والعقول كما أضاءت فى الروابى والسهول ثم هو يتمنى من الجبل أن يبعث النور على الأرض لتزدهى الرياض وينجاب الظلام فالحروب قد أظمأت الأرض فمتى يرويها السلام :

عيلم لا ريحه رهو ولا
جوه صحو ولا الماء زلال

أعجز الملاح أن يرسو إلى
شاطىء كالهول مرهوب المنال

هكذا نمضى ويمضى غيرنا
بين أيام وأعوام تدور

والمنايا جثمت فيها المنى
مثلما تجسم فى الأيك الزهور

ياسجل الدهر والدهر سطور
كتبت للناس من نار ونور

أين نمضى وإلى أين المصير
قد غفا السارى وأعياه المسير

نحـــن مـــن نحـــن رعيـل مادرى
كيف يستهدى إلى الحـــق الطــريق

كم سهــرنا الليـــل مسود السرى
وشهـــدنا الصبــح مربــد الشروق

هـــذه الأضـــواء منـك انتثرت
تتهـــادى فى الروابى والسهـــول

ليتهـــا لمـــا بـدت وانتشرت
قـــد أضاءت فى نفـوس وعقـول

فابعث النـــور على هـــذا الثرى
يزدهى الروض وينجـاب الظلام

إن هـذى الأرض ظمأى كالـــورى
فمتى بالله يرويهـــا الســـلام

إن هذه الوقفة التأملية أمام الجبل واستلهام العبرة منه بل جعله منطلقا لنوع من الفلسفة يجمع بين التشاؤم والتفاؤل بين الضياء والغمام بين النار والنور هذه الوقفة وهذه النظرة بل هذه الرؤية الشعرية الفلسفية إن صح التعبير من عيون الشعر العربى السعودى لأن الشاعر لم يتركها لجفاف العقل والمنطق بل مزجها بالخيال وبالعاطفة مزجها بالحيرة أمام مظاهر الكون وأحداثه ما الدجى ما النور ما الفكر وفكر بالصورة فجعل الجبل ساهم النظرة والشوق يهتف والدنا بيداء استوى المـاء لديها والسراب والدهر سطور كتبت من نار ونور وهكذا . وتحرر من وحدة القافية لا من وحدة الوزن فجاءت قصيدته كل بيتين منها على قافية ولئن كان ابن هانىء الأندلسى قد سبق الشاعر إلى تشخيص الجبل فإن الإصالة والارتباط بالبيئة وبالشخصية السعودية العامة المسالمة تجعل قصيدة عيلم مستقلة غير تابعة ولا مقلدة .

فابن هانىء مثلا يقول :

وأرعن طماح الذؤابة باذخ
يطاول أعنان السماء بغارب

يلوث عليه الغيم سود عمائم
لها من وميض البرق حمر ذوائب

أصخت إليه وهو أخرس صامت
فحدثني ليل السرى بالعجائب

وقال ألا كم كنت ملجأ قاتل
وموطن أواه تبتل تائب

وكم مر بي من مدلج ومؤوب
وقال بظلي من مطي وراكب

ولاطم من هوج الرياح جوانبي
وزاحم من خضر البحار غواربي

فما كان إلا أن طوتهم يد الردى
وطاحت بهم ريح النوى والنوائب

فحتى متى أبقى ويظعن صاحب
أودع منه راحلا غير آيب

فالشاعر الأندلسى تصوّر الجبل العالى شيخا وقوراً يلبس عمامة سوداء ويحكى للشاعر قصته فهو مأوى القتلة والتائبين و استراح فى ظله مدلج ومؤوب وقال بظله المطى والراكب وتعرضت جوانحه لضربات الرياح وزاحمت غواربه السحب ، والكل قد مضى وهو باق فحتى متى يبقى ؟ لكن نظرة أديب السعودية كانت أعمق وأدق فمن خلال الرؤية الواقعية للجبل يلفه الغمام حينا وتشرق الشمس من ورائه حينا آخر انطلق الشاعر إلى الحياة والإنسان ولم ينه قصيدته بالاستبطاء والضجر كما أنهاها شاعر الأندلس وإنما أنهاها بالتفاؤل والأمل فى أن يبعث الجبل النور على الثرى ليزدهى الروض وينجاب الظلام فإن الأرض ظمأى وريها فى السلام فمتى يرويها

السلام فالشاعر السعودى حسين عرب ليس تابعاً ولا مقلداً إنما هو ابن ، بجدتّها وفارس حلبتّها عبر عن بيئته وعن شخصيته .

أنا والقمـــــر :

وهذه نغمة أخرى من أنغام الحب العفيف يرددها من « الرياض » الشاعر حسين قاضى فى قصيدة « أنا والقمر [١] » فالناس جميعاً ناموا إلا الشاعر والقمر فكلاهما سهران ولكن شتان بين سهر وسهر فالقمر سهران فى أفق حالم حوله النجم يناجيه وفى سراه الهادىء عبر كثيرة ، وفى سناه الوادع الساجى كثيراً ما التقى العاشقون فى ليلك الأغر وإنك تتخطى القمم لتحمى الأغصان والزهر ؛ وترى الجدول الخافق يطرب الضفة من غير وتر فتحييه وتمضى والزهر يرنو إليك والشجر هكذا يسهر القمر :

هجـــع النـــاس ولـــكن ياقمـــر
نحـــن صنـــوان تألفنـــا السهر
أنت سهـــران بأفـــق حـــالم
وأنا سهـــران فى كف الغـــير
حـــولك النجـــم تناجيـــه وفى
سيرك الهـــادى كم تبـــدو عـــبر
وسناك الـــوادع الساجى فـــكم
لف معشوقـــين فى ليـــل أغـــر
وتخطى كـــل عـــالى قمـــة
ليحيي كـــل غصن وزهـــر
ويرى الجـــدول يجرى خافقـــا
يطرب الضفـــة من غـــير وتـــر
فيحييـــه ويمضى راقصـــا
معـــه والزهـــر يرنـــو والشجر

---

(١) المنهل عدد شعبان ١٣٦٧ هـ .

هكذا يمضى ليله ساهراً مع النجم والعاشقين مع الأغصان والأزهار مع الجدول يوقع ألحانه ويرقص هو والقمر على مرأى ومسمع من الزهر والشجر .

أما ليل الشاعر فمعه الحيرة فى شط الخطر معه الأرق والسهر بعيداً عن إلفه وهواه يسكب العبرات كلما كفكف عبرة جاءه الوجد بعبرة وجدد له الشوق شتى الذكريات . هكذا تمضى به الأفكار وهو شارد وتسرى روحه حزينة والهة عل من تهوى ومن علبها تراه بعيون الروح إن عزت الرؤية البصرية .

هكذا ليل الشاعر وهكذا سهره .

هكـــذا يابدر تمضى ساهــــــراً
وأنا حـــيران فى شط الخطــــــر
لا أذوق النـــــوم مما نابنى
مغـــرداً بالسهـــد إن نـــام البشر
بعــــــدت دارى وإلفى والهـــوى
يا المضـــنى يتعنـــــــــاه القــــــدر
كلمـــا كفـــكف من عـــــبرته
جـــــاءه الوجـــــد بعـــبرات أخـــر
وإذا قــــال تـــولّت ذكـــــرة
جـــــدد الشوق لــــــه شتى الذكـــر
ومضت أفـــكاره شــــــــاردة
فى خضـــم مــــن أفانـــــين الصـــور
وسرت روحـــاً حزينــــا والهـــاً
تعـــبر الكـــون إلى مغنى سفـــر
عـــل مـــن تهـــوى ومـــن علبها
بـــين جـــمع القـــوم فى نادى السمر

تــتروى منــــه حينـــا عابـــــراً
بعيـــــون الروح إن شط النظـــــر
هــــــكذا ليــــــلى وهـــــذا سهرى
أيهـــــا البـــــدر فشتان السهــــر

أما الرقة العاطفية فواضحة عند ذلك المغنى السهران وقد بعدت داره وإلفه والهوى وسرت روحه عليها تنظر روح من يهوى إن عز النظر المادى ، وأما الصياغة الفنية فكفاء هذه المشاعر الصادقة حيث يعبر الشاعر باللون الوادع الساجى فى سنا القمر وبألوان الزهر وأنغام الجدول ورقصات القمر..

إن القصيدة نبضات قلب ورؤى شاعر فى أعماق نفسه وفى آفاق الكون من حوله وقد نام الناس وصحا هو والقمر .

أما إن ذهبت تبحث والحالة هذه عن أفكار عميقة ومعان دقيقة فلن تظفر بطائل لأنك أمام شاعر يفضى بمكنون قلبه لا بثمار عقله .

أذكرينى : للشاعر السيد محمد هاشم رشيد :

شاعر متيم أضناه الغرام فطال فى الليل سهاده ، وعزّ فى الأرض مراده وشجاه وداده وحوّم فى آفاق محبوبته فؤاده ومن ثم فهو يطلب منها أن تذكره دائما لا منذ الصباح الباكر فحسب بل من السحر وحتى ساعة متأخرة من من الليل إنه يريد منها أن تجعله أنشودتها المفضلة تترنم بها فى الأسحار والبكور والآصال وإذا جنّها الليل .

وهو يرسم لحبيبته لوحات فنية رائعة منذ أيقظها فى السحر عندما يفتر النور وها هى ذى متجهة إلى الحديقة حيث الندى نشوان من ضوء القمر مشرقاً حائراً بين الغصون والثمار والطيور تصدح بألحانها بين أمواج العطور ، تناغى بالهوى ثغر الزهور ، والضوء ينساب فى الروض النضير ، إن الشاعر فى قصيدته « اذكرينى [1] » يطلب من حبيبته فى هذا الزمان وذاك المكان أن تذكره فيقول :

---

(١) المنهل عدد شعبان ١٣٦٧ هـ .

عنـــدما يفـــترّ بالنـــور السحر
والنـــدى نشوان من ضـــوء القمر
مشرقا كالدمـــع فى جفـــن الزهـــر
حائـــراً مـــا بـــين غصن وثمـــــر
فاذكـــــرينى

عنـــدما تصغى لألحـــان الطيـــور
وهى تشدو بـــين أمـــواج العطـــور
وتناغى بالهـــوى ثغـــر الزهور
والسنا ينساب فى الروض النضـــير
فاذكـــــرينى

تلك لوحة فنية نسج الشاعر خيوطها من الضوء والطير والزهر والعطر والأغصان والثمار والندى .

ولست أدرى سراً لذكر الدمع فى جفن الزهر حائراً فى هذا الجو الشاعرى البهيج ما كان أغنانا عن الدمع والحيرة أمام هذه الطبيعة الخلابة وقد تصوّر الشاعر حبيبته بين أحضانها وهاهو الزهر يرقب عينى حبيبته ويقبل يديها ، والأغصان مالت للعناق والطيور حنت للتلاقى وكل إلف راح يبث شجونه واشتياقه فاذكرى أيتها الحبيبة إلفك ، اذكريه وأنت تنجهين شطر الساقية تحت أفياء الكروم ، حيث عنا قيدها تشبه العيون الرانية وأوراقها كأنها الأكف الحانية :

وإذا ما كنت والزهـــــر لديك
ظـــامىء يرقب شوقـــا مقلتيـــك
وترفقت فحيـــــا ساعـــديك
ومضى يمـــلأ تقبيـــلا يديـــك
فاذكـــــرينى

وإذا الأغصان مالت للعناق
وطيور الروض حنّت للتلاقى
كل إلف راح يبدى ما يلاقى
من شجون وشئون واشتياق
فاذكرينى

وإذا يممت شطر الساقيه
تحت أفياء الكروم الساجيه
والعناقيد عيون رانيه
والوريقات أكف حانيه
فاذكرينى

لقد رسم الشاعر لحبيبته حديقة غناء وأجلسها فى هذه الحديقة وجعل الزهور تحس بجمال عينيها ورقة ساعديها ويديها ، وها هى حبيبته تتجول عند الساقية وتحت أفياء الكرم تلك كانت صحوة الحبيبة فى حديقتها الفنية .

أما فى الأصيل ، فقد سارت والنسيم الرطب ساج فى الخميل وإنه ليهفو نحو تلك الحبيبة كالصب العليل أو كظمآن رنا للسلسبيل ، والشمس مالت للغروب واحتواها الليل الرهيب فكأنما سلب الدنيا عرشها فى هذا الوقت مع النسيم العليل والأصيل والشمس والغروب اذكرينى .

وإذا سرت تغنى فى الأصيل
والنسيم الرطب ساج فى الخميل
وهفا نحوك كالصب العليل
أو كظمآن رنا للسلسبيل
فاذكرينى

وإذا الشمس تولّت للمغيب
وهوت فى لجة الليل الرهيب

ورنــــا العــالم للأفـــق الخصيب

مثـــل ما يرنـــو إلى عرش سليب

فاذكـــــرينى

فلما جنّ عليه الليل وبدت النجوم فى السماء حولها الظلمة تهفو كفؤاد حائر بين اليائس والرجاء طلب من حبيبته أن تذكره .

وكما أيقظها فى السحر أيقظها عند منتصف الليل والكون قد أغفى ونام غير طير بات يذويه وأكبر الظن أن ذلك الطير هو الشاعر نفسه فقد طال فى الليل سهاده بعد أن عزّ فى الأرض مراده وطوى الأيام يشجيه الوداد وصبا فؤاده نحو حبيبته :

وإذا النجم تبـــدى فى السماء

حـــوله الظلمـة تهفـــو والضياء

كفـؤاد مـــن نـــواح وغنـــاء

حائـــر ما بـين يأس ورجـــاء

فاذكـــرينى

وإذا استيقظت وهنـــا والظـــلام

ساكن والكـــون قـــد أغـفى ونام

غـــير طـــير بات يذويه السـقام

ويناجى بـين جنبيــــه الضرام

فاذكـــرينى

فـأنا مـــن طال فى الليـل سهـاده

وأنا مـــن عـزّ فى الأرض مـــراده

وطـــوى الأيـــام يشجيـه وداده

وصبـــا نحـــوك كالطير فـؤاده

تلك حبيبة مدللة تعيش بين الزهور والرياحين وتسير نحو الساقية تحت أفياء الكروم وتغنى فى الأصيل ومع ذلك أيقظها الشاعر فى السحر وفى منتصف

الليل لأنه هو يقظان لا ينام وذاك شاعر لا يطلب من حبيبته أكثر من أن تذكره إنه الحب العفيف إذن وإنها أشواق هائمة لا أقول على رمال الوجد والحنين بل على هام الغصون والثمار وتحت أفياء الأشجار مع السحر والضحا والأصيل والليل ألفاظ الشاعر منتقاة وذات بريق وإشعاع والصياغة الفنية جميلة وشعوره صادق ومن العبث أن نطلب من أمثال هذا الشاعر أفكاراً عميقة وهو هيمان فى دنيا الغرام سكران بنشوة العشق .

ياليــــل :

تتلون الطبيعة عند الشاعر الأصيل بلون نفسه لأنه ينظر إليها من خلال وجدانه ويصاحبها أو يعاديها والشاعر الأستاذ عبد الوهاب آشى فى قصيدة « ياليل [1] » يبدى تعاطفاً مع الليل لأنه يرى فيه مباهجه ويراه خير أنيس برغم ظلامه وصمته فالشاعر لا يرهب الليل لظلامه ولا يوحش منه لصمته بل على العكس يرى فى صمت الليل فرصة للنجوى والسمر والحديث الهامس الموحى ، ويرى فى سكون الليل وهدوئه فرصة للإصغاء لصوت الضمير والخلوة إلى النفس بعيداً عن الأهواء :

ياليــــل ما بــالى وبالك نلتــقى
فأرى لــديك مبـاهجى ورضــائى

أرهبت غـيرى بالظــلام وكنت لى
خــير الأنيس وأصـــدق الخلصاء

ولــئن صمت فــلى بصمتــك نجــوة
حفلت بدنيــا السحر والإيحــاء

أخــلو إليــك فــلا أرى لسريرتى
حرجاً ولا أخشى لظى الأهــواء

فالشاعر عاشق لليل يهوى صمته وسكونه ويرى فيه مجالا للخلوة بالنفس ثم هو بعد ذلك فياض بالمباهج ملىء بصور الجمال فالذين زعموا أن الليل

---

(١) المنهل عدد ذو القعدة وذو الحجة ١٣٦٦ ﻫ .

صبغ الحياة بلونه الأسود قد ظلموه ولم يحسنوا التلقى عن الليل وجماله. فى النجوم اللوامع تسرى عن النفس الحزينة وتبثها شكوى المحب النائى وتشيع فى أطوائها حلم الهوى والمنى وطوارق الرجاء .

أما البدر ففى سناه مفاتن تغرى الخلى بوحيها اللألاء ، وترى نوره يغزو الفضاء فيفتن الناس على الأرض وفى السماء فتراهم نشاوى بخمر الجمال وسحره وانظروا إلى الزهور يفوح عبيرها بالليل فيبعث شتى الخيالات والرؤى حين تهبط عليها الأضواء وتجودها النسمات والأنداء .

صور شتى تبش لها النفوس صور النجوم والبدر والزهر والنسيم والندى. تلك بعض مباهج الليل :

ظلموك إذ هجـــوا بأنـــك راهب

صبـــغ الحياة بفاحم الأزيـــــاء

لا . لا فأنت لمصطفيك مسرة

يهب الكلـــيم أطـــــايب الآلاء

هـــذى النجـــوم لوامـــع تزهـــو بما

ضمنتـــــه مـــــن حسن ومـــن أضواء

تزجى إلى النفس الشجيــــة روحهـــا

فتبثهـــــا شكوى المحب النـــــائى

وتشيع فى أطـــوائها حـــلم الهـــوى

بـــين المنى وطـــوارق الـــرجـــــاء

والبـــدر يرسل من سناه مفاتنــــــا

تغـــــرى الخـــلى بوحيهـــا اللألاء

يغـــزو الفضا مترنحـــا فى غـــــرة

ترنـــــو إليـــــه فواتن الخضراء

نشوان مـــن خمـــــر الجمال وسحره

يجلـــو كئوس هـــــواه للنـــــدماء

والزهـر أفـواح العبير منمنم
شتى الرؤى كغـلائل الحسناء

وسنان يغمره الضيـاء مشعشعـاً
وتجـوده النسمات بالأنـداء

صـور تبش لهـا النفـوس صـواديا
فتعـود ريـا بهجـة وصـفاء

ثم يعمق الشاعر رؤيته الفنية لليل وعشقه إياه حين يجعل الليل ظرف الغرام ويجعل أسراب المغرمين يلهون بالليل فى صبوة ولقاء يضمهم الليل تحت جناحه فى حنان ورفق وإشفاق عليهم من الهوى الملتهب بين الضلوع والأحشاء. تتراقص أمامهم الآمال فعند الليل أسرار العاشقين فهلا يحدثنا عن الحب الضائع وما فعلت به أيدى العوادى ؟

وها هو الشاعر يصغى لليل ليحدثه ويروى له أخبار العاشقين فلقد أطال الليل الصمت والشاعر كله آذان مصغية فى شوق لأحاديث الليل وأسماره .

ياليـل ياظرف الغـرام وسربه
يلهـون فيـه بصبوة ولقـاء

تحنـو عليهم والهـوى متلـهب
بـين الضلوع يعيث فى الأحشاء

تتراقص الآمـال فى جنبـاتهم
كتراقـص الأنسـام فى الإمساء

هـلا تحدثنـا عن المهج التى
قـد ضيعت فى الحب كـل رجـاء

هـلا تحدثنـا بمـا فعلت بهـا
أيـدى العـوادى الغـبر فى الغـبراء

تزدنى جـوى عمـــا تنوء بـــه
رسل الهـــوى بـــين الدوا والـــداء
إنى أرى فى البـــوح بعض عـــلالة
للنفس نهى خيبـــــة وشقـــــاء
فلقـــد أطلت الصمت والآذان للأ
صـــداء فى شوق وفى إصغـــــاء

البناء الفنى فى القصيدة متماسك فقد بنيت القصيدة على فكرة أساسية هى « مباهج الليل » وقد تمثلت هذه المباهج أول ما تمثلت فى أنس الشاعر بالليل فالليل خير أنيس وأصدق الخلصاء وهذه الرؤية النفسية أضاءت جوانب الشاعر وجعلته ينظر إلى بدائع الليل فى النجوم والبدر ونجوى العاشقين ومن ثم رفض الفكرة المظلمة التى ترى فى الليل رداء فاحماً يغطى الكون وتغلغل فى روح الليل الساكن الصامت حيث تحلو الخلوة على ضوء النجوم والبدر وحيث الزهور فوّاحة العبير ينقل النسيم شذاها فى الأرجاء وفى هذا الجو الحالم ينصت الشاعر إلى الليل ليحدثه بأحاديث الجوى ويبوح له بأسرار العاشقين . الفكرة الرئيسية ترفدها أفكارجزئية توضحها وعاطفة الفرحبالليل ومباهجه تسرى فى أبيات القصيدة كلها وتشخيص الليل ومناجاة الشاعر له ورغبته فى أن يفضى إليه بأسراره وتأتى الصور وليدة هذه العاطفة المتفائلة فالنجوم لوامع تشيع حلم الهوى ، والبدر نشوان من خمر الجمال يجلو كؤوس الهوى والزهر فوّاح العبير يبدو فى رؤى شتى كغلائل الحسناء وهكذا .

كل شىء فى القصيدة جميل فكرتها وصورها وعاطفتها ونسقها الموسيقى فقد اختار الشاعر « بحر الكامل » ليوقع عليه ألحانه وهو من البحور الطويلة .

التـــالودية (١)

جو القصيدة :

فى وقت الأصيل حيث مالت الشمس للغروب وأرسلت خيوطها الذهبية على صفحة البحر الأحمر الزرقاء وقد نسجت عليها ريح الصبا بساطاً زاهياً جميلا .

فى ذلك الوقت أم الشاعر المجهول مقدم الباخرة (ثالودى) وعلى حافة ذلك المقدم جلس وحيداً يتأمل هذا الجمال الراقص وتستهويه مناظر الحيتان وهى تداعب المركب وتسابقه وتسايره ، وكان من نتائج تلك الجلسة التأملية هذه القصيدة .

البحر فى الأصيل :

أضفت الشمس مـــن سناهـــا ملاء
قزحيـــا عـــلى أديم المـــاء
وبـــدا البحـــر فى الأصيـــل بساطا
نسجتـــه ريـــح الصبـــا لذكاء
أنت يا بحـــر شبه صحـــراء زينت
بـــرواء يفـــوق كـــل رواء
يسرح الطـــرف فى جـــواك فتبـــدو
مثـــل روض فى قبـــة زرقـــاء

تعكس هذه الأبيات تصوّرات عدة للبحر وقت الأصيل إنه يرى الشمس ترسل أشعتها الذهبية على أديم الماء فيخيل إليه أن الشمس قد نسجت من سناها ملاء قزحيا غطت بها أديم الماء فهذه الملاء إذن هدية الشمس للبحر .

ويبدو البحر فى هدوئه وعدم اصطخاب أمواجه كأنه بساط جميل فمن الذى نسج هذا البساط الأزرق ؟ إنها ريح الصبا الحنون وإنها لتقدم هذا

---

(١) المنهل : عدد رمضان ١٣٦٥ ه .

البساط هدية للشمس فالبحر تارة يلبس ملاء قزحيا وتارة يكون كالبساط إلا أن الملاء من نسج الشمس والبساط من نسج ريح الصبا .

ثم يسبح خيال الشاعر فى البحر الممتد أمام ناظريه بلا نهاية فإذا به يشبهه بصحراء إلا أنها ليست صحراء عادية إنها صحراء صاغها خيال الشاعر فهى صحراء مزدانة ذات رواء وبها . هذه هى الصورة الثالثة التى رسمها الشاعر للبحر إنه صحراء مزينة ثم سرح الشاعر بطرفه فى أجواء البحر فوقع على خيال رابع إن البحر حديقة فوقها قبة زرقاء .

فاللوحة التى رسمها الشاعر للبحر عند الأصيل ذات عناصر أربعة :

الملاءة القزحية — البساط الجميل — الصحراء المزينة — الحديقة تحت قبة زرقاء . وكلها رؤى تسر الناظرين وتبعث البهجة فى النفس الراضية ، وحقا إن الشاعر جلس على صفحة الماء يروح عن نفسه ويستمتع بجمال الطبيعة ولكن اللوحات التى رسمها ليس فيها شىء من نبض شعوره ليس فيها خفقان قلبه وإنما فيها إبداع قلمه وإن شئت قلت ريشته التى لم تمزج بمداد من قلبه فهل ترك الشاعر لوحاته خلواً من نبض قلبه لتذهب فيها كل نفس مذهبها وتتلقى عنها وحيها . ربما ولكننا نلاحظ أنه رسم الطبيعة من خارج قلبه لا من داخله .

وعلى كل حال فإن الشاعر بعد أن رسم جو البحر عند الأصيل بدا له أن يوازن بين عالم البحر وعالم البر فقال :

أنت يا بحر ياشقيق الحيا
غامض النفس غامض الأحناء
إن يك البر مفعماً برياض
وأناس فى بهجة وعلاء
فرياض حويتها وغياض
وأناس ضممتهم فى خباء
ليفوقون ماحوى البر منهم
فى عديد وفى حياة هناء

ليس فيهم من كرس العمر كشفا
لاختراع يسوقهم للغناء
ليس فيهم من يستبد ويروى
شانئيه من كيده والجفاء
يستطيع الضعيف منهم هروباً
من قوى لمعشر كرماء
ويسامى الضئيل منهم عظيماً
فى نعيم بجوفك المتنائى

يوازن الشاعر بين وجه البحر وقلبه وبين حدائق البر والحدائق السمكية. وبين الأحياء من البشر والأحياء المائية فيرى وجه البحر شفيفا واضحاً لكن قلبه وباطنه لكن نفسه وحناياه كل ذلك يلفه الغموض بيد أنه الغموض. الذى يسبح فيه خيال الشاعر ، ويغوص فى أعماقه باحثا عن الحدائق السمكية وما فيها من أشكال وألوان فإذا كانت على الأرض حدائق ذات بهجة وأناس ينعمون فى ظلالها فثمة فى أعماق البحر الحدائق السمكية وأسماك الزينة بأعداد وفيرة وفى حياة أهنأ من حياةالبشر فى حدائقهم الغناء فليس بين الأحياء المائية مكتشف أو مخترع يصمم آلة من آلات الدمار كما يصنع البشر ؛ وليس بينهم مستبد أو كائد . وإذا كان السمك القوى يأكل الضعيف فإن فى البحر مهرباً للضعيف .

وإذا كان السمك العظيم يتسامى فى جوف البحار فإن الضئيل فيه ليس أقل تساميا من العظيم وفى البحر متسع للجميع .

ولا يزال الشاعر يتأمل صفحة البحر والماء الذى يأتيه من السماء وعلاقة الإنسان بالبحر قديماً وحديثا فيقول :

أنت يابحر كالحديقة تسقى
بمعين من الشعاع السمائى
وجهك الأزرق الشفيف قناع
لأمور جسيمة دكناء

كنت خلقاً يهابك الخلق قبلا
غضبة منك مرجل الإفناء

وإذا بالإنسان وهو أبي
يستبيح الحمى بأى ازدهاء

فهو اليوم يمخر اليم وهنا
ثابت الجأش مفعماً بالرجاء

لا يبالى بموجك المترامى
لا يبالى بظلمة وهواء

بسفين يجرين طولا وعرضاً
ببخار يجرين لا بالرخاء

إن مياه الأمطار تمد الحديقة وتمد البحر بعد أن تتم عملية التبخير المائى . على أن فكرة غموض البحر التى أثارها الشاعر فى المقطع الذى سبق ما تزال تلازم الشاعر (غامض النفس غامض الأحناء) هذا بالرغم من شفافية مياه ومن وجهه الأزرق الشفيف فالشاعر يرى هذه الشفافية قناعاً لأمور جسيمة دكناء فالبحر كان قديماً مصدر رعب الإنسان ولكن إباء الإنسان أن يخضع للطبيعة جعله يفكر فى غزو البحر واستباحة حماه وتم له ذلك فهو يمخر عباب البحر ليس فى وضح النهار ولكن فى ظلمة الليل وفى شجاعة وثبات لا يرهب الأمواج المتلاطمة ولا الظلمة الحالكة ولا الريح الزعزع إن السفن التى صنعها الإنسان اليوم تسير بالبخار لا بالريح الرخاء والشراع .

والشاعر يقدم أفكاره هذه فى لوحات جزئية فقد جعل البحر كالحديقة ، ووجهه الأزرق قناعاً ، وغضبة البحر مرجل على أن ثمة صوراً واقعية ذات حركة ولون فالأمواج المترامية والسفين تجرى والظلمة والهواء صور تشاهد وتحس ولا ينسى الشاعر الباخرة (تالودى) تلك التى أتاحت له هذه الجلسة الشاعرية التأملية فيخاطبها بأسلوب التعجب قائلا :

يالك الله من مليكة بحر
تتهادى فى ليله كالضباء

يرعب الحـــوت بالهـــدير المرجى

منك فى ضحـــوة وفى إمساء

ويجـــارى الدرفيـــل منك جـــواداً

سابقا للجيـــاد دون عنـــاء

لقد صوّر الباخرة فى صورة مليكة تشع أنوارها فى ليل البحر بيد أنه فى البيت التالى جعل صوت الباخرة يرعب الحوت وفى البيت الثالث جعلها جواداً يسابق الدرفيل . إن كل بيت من هذه الأبيات الثلاثة يعرض صورة مستقلة للباخرة لا تنسجم من حيث الأداء الفنى واتساق الخيال مع سابقتها فالمليكة لا يمكن أن يكون صوتها مرعباً ولا يمكن أن تكون جواداً فالشاعر هنا اعتمد على الخيال الجزئى وعلى استقلال الصورة فى كل بيت وكان حريصا على نقل الصورة الواقعية للباخرة حيث تتلألأ أنوارها وتنطلق أصواتها فى الصباح والمساء وتشق البحر فى سرعة فائقة .

إن البواخر فى البحار والسيارات فى البر والطائرات فى الجو كل ذلك من ثمار العقل والعقل نعمة من الله فليهد الله الإنسانية سبل الرشاد ولينتظم عقد الإخاء بين الناس ويتجهوا وجهة السلام لا الحرب ليظل البحر كالخميلة هادىء الريح هادىء الأرجاء لا تكدر صفوه المعارك البحرية .

رب أنت الـذى مننت علينـــا

بعقـــول حفيـــة بارتقـــاء

فسفـــين كأنهـــن قصـــور

ساريات فى اللـــج كالكهـــرباء

(وسوار) يقطعن فى الأرض بيـــداً

فى انسيـــاب الحـــوافز الرقطـــاء

(وجـــوار) فى الجـــو يرفلن فيـــه

كنسور حفيـــلة بالمضـــاء

فأفض منـــك رحـــمـــة ورشاداً

ينظم النـــاس فى عقـــود الإخـــاء

ثم وجـــه سفينهـــم لسلام
ينقــذ الأرض من كروب البـــلاء
واترك البحــــر كالحميــلة رهــواً
هــادىء الريـــح هــادىء الأرجــاء

وواضح فى هذا المقطع الختامى اعتماد الشاعر على التصوير الجزئى فالسفين قصور تسير كالكهرباء والسيارات كالحوافز الرقطاء ، والطائرات كنسور — وعقود الإخاء والبحر كالحميلة .

وهكذا رأينا الشاعر فى جلسته التأملية يرسم صورة للجو والبحر عند الأصيل ويوازن بين أحياء البر وأحياء البحر وبين موقف الإنسان من البحر قديما وحديثا ثم يلتفت إلى الباخرة التى أتاحت له هذه الجلسة ويرى فيها وفى غيرها ثمرة من ثمار العقل ويتمنى أن يسود السلام ليعيش الناس فى أمن بعيداً عن البلاء والكروب .

لكن حب الشاعر للبحر أو كرهه له وفلسفته للموقف كل ذلك لا تفصح عنه القصيدة اللهم إلا ذلك الشعاع الضئيل فى وجه البحر الشفيف ذلك القناع الذى يخفى وراءه أموراً جسيمة .

(وتالودية) عبد القدوس الأنصارى تجعلنا نذكر على الفور مقدمة (كبار الحوادث فى وادى النيل) لأمير الشعراء أحمد شوقى :

همت الفــــلك واحتـــواها المــاء
وحداهـــا بمـــن تقـــل الرجــاء
ضرب البحــــر ذو العبــاب حواليـ
ـها سمـــاء قــد أكبرتها السماء
ورأى المــارقــون من شرك الأر
ض شباكاً تمـــدها الدأمــــاء
وجبــــالا موائجــــا فى جبــــال
تتـــدجى كأنهــــا الظلمـــاء

ودوياً كما تأهبت الخيـ
ـل وهاجت حماتها الهيجاء
لجة عند لجة عند أخرى
كهضاب ماجت بها البيداء
وسفين طوراً تلوح وحيناً
يتولى أشباحهن الخفاء
نازلات فى سيرها صاعدات
كالهوادى يهزهن الحداء
رب إن شئت فالفضاء مضيق
وإذا شئت فالمضيق فضاء
فاجعل البحر عصمة وابعث الرحـ
ـمة فيها الرياح والأنواء
أنت أنس لنا إذا بعد الأنـ
ـس وأنت الحياة والأحياء
يتولى البحار مهما ادلهمت
منك فى كل جانب لألاء
وإذا ما علت فذاك قيام
وإذا ما رغت فذاك دعاء
فإذا راعها جلالك خرّت
هيبة فهى والبساط سواء
والعريض الطويل منها كتاب
لك فيه تحية وثناء
يا زمان البحار لولاك لم تفـ
ـجع بنعمى زمانها الوجناء
فقديماً عن وخدها ضاق وجه الـ
أرض وانقاد بالشراع الماء

وانتهت إمــــرة البحــــار إلى الشر
ق وقــــام الوجــــود فيما يشاء

لقد ألقى شوقى هذه القصيدة العصماء فى المؤتمر الشرقى الدولى المنعقد فى جنيف فى سبتمبر ١٨٩٤ م وكان مندوباً للحكومة المصرية فيه .

والقصيدتان متفقتان فى الوزن والقافية فكلتاهما همزية وكلتاهما من بحر الخفيف .

فاعــــلاتن مستفعــــلن فاعــــلاتن
فاعــــلاتن مستفعــــلن فاعــــلاتن

وشوقى تمخر سفنه عباب البحر الأبيض ذى الأمواج الكثيرة بينما ، الأنصارى يجلس على مقدمة الباخرة (تالودى) الراسية فى البحر الأحمر ذى الأمواج القليلة . فلك شوقى تسير ويحيط بها الماء من كل جانب والبحر شباك للمارقين وجبال تموج فى جبال ولججج متتابعة (لجة عند لجة عند أخرى) وللسفن دوى كصوت الخيل فى الهيجاء ، والسفن تظهر طوراً وتختفى آخر فتهز قلب الشاعر فلا يجد إلا الله يطلب منه أن يجعل البحر عصمة وأن يبعث الرحمة فيها الرياح فالله هو الأنس . إن عزّ الأنس والبحر آية من آيات الله (والعريض الطويل منها كتاب) وعصر البحار قضى على عصر الإبل صور شوقى متحرّكة وهو خائف من البحر ومن ثم جعله شباكا وفزع إلى الله يطلب رحمته ويتضرع إليه .

رب إن شئت فالفضــــاء مضيــق
وإذا شئت فالمضيــق فضــــاء

موضوع القصيدتين واحد إلا أن الأنصارى جلس على شاطىء البحر الأحمر يرسم لوحة شعرية كما يرسم الفنان اللوحات الزيتية بينما كان شوقى كالملاح اليقظ يرقب البحر وقد احتوى الفلك فيرصد حركة البحر وحركة الفلك ويجد نفسه بين البحر والسماء فتذوب نفسه خشية لله . وقصيدة شوقى رأت النور قبل قصيدة الأنصارى باثنين وخمسين عاماً فقد نشر الأنصارى

قصيدته فى أغسطس ١٩٤٦ بينما ظهرت قصيدة شوقى فى سبتمبر ١٨٩٤ م وأكبر الظن أن الأنصارى كان يرنو بإحدى عينيه إلى قصيدة شوقى وبالعين الأخرى إلى (تالودى) وإلى البحر الأحمر وربما هاجت شاعريته حين قرأ قصيدة شوقى لكن رؤيته للبحر تختلف عن رؤية شوقى فنفسه هادىء وهو فى حالة استجمام وبحره يلبس ملاء قزحيا وهو بساط نسجته ريح الصبا أما بحر شوقى فهائج ذو عباب وأمواج كالجبال لها دوى والسفن نازلات صاعدات ولا تكون البحار بساطاً إلا بفضل الله :

فإذا راعها جلالك خرّت
هيبة فهى البساط سواء

والأنصارى يذكر الأحياء المائية والحدائق السمكية وليس عند شوقى شىء من ذلك .

والأنصارى يذكر السيارة والطائرة وشوقى لا يخرج من البحر ولا يفارق الفلك وكلا الشاعرين يطلب الرحمة من الله يطلبها شوقى وهو فى عرض البحر فيقول :

فاجعل البحر عصمة وابعث الرحـ
ـمة فيها الرياح والأنواء

بينما يطلب الأنصارى الرحمة وهو جالس عند الشاطىء يرى فى إخاء العالم رحمة فيطلبها من الله .

فأفض منك رحمة ورشاداً
ينظم الناس فى عقود الإخاء

وعلى كل حال (فالتالودية) قصيدة جيدة تضاف إلى روائع الأنصارى.

أحلام الربيع للأستاذ طاهر الزمخشرى :

يمثل هذا الديوان صفحات من الغزل العنيف مشبوب الحماسة موصول النفس فى غير كبح . جياش العاطفة فى غير قدسية مترع بمواقف الهوى :

بمثل ذلك وصفته الصحافة السعودية (١) فهذا الديوان الغزل إنما يذكرنا بمذهب قديم من مذاهب العشاق كمذهب عمر بن أبي ربيعة شاعر الغزل الطليق عقاب الشوادن ، رصاد الظباء في بادية الحجاز مربع الحسان والغزلان ولكنه أيضا يقطع السبيل على الشعراء العذريين أمثال كثير وجميل وغيرهما من شعراء الفقه والتوحيد فنحن نرى الشاعر شفيف الشباب فضاح الإهاب. حيث يقول :

لا تعطنى القـــدح المصفى مـــترعاً
بل هــات ثغرك أيهـذا الأغيـــد
فطفقت أطـــوى حضره وفمى إلى
فمــه الجميــل يعــل منــه فيرفد

فالمادية فيه طبع غلاب وعنده الحب فم على فم يعل منه وينهل ، وهو إن ذهب أحيانا إلى الهوى العذرى يتستر خلف نقابه فضحه الهوى والهوى فضاح وظهرت المادية ترفرف عليه بأجنحة من نار لا نور فلنسمع إليه. يقول :

وفى حـــرم الهـــوى العـــذرى
تـــلاقى الصـــدر بالصـــدر
وطـــوقهـــا مـــن الخصر
وقبلهـــا عـــلى النحـــر

وهكذا يطوف الشاعر ما شاء له الهوى في مغانى الجمال ومرابع الصبوة والصبايا حتى يلقى عصاه فى خاتمة المطاف ويسلم سلاح الهوى المنهوك وينشد الفرار من جحيم الغرام .

جنـــة الحسن كـــل مافيك حـــلو
وجميـــل إلا التجنى فـــمر
أنا من هـــام فاستبـــاح التشكى
والهـــوى جاهم فأيـــن المفـــر.

(١) المنهل : عدد شوال ١٣٦٦ هـ من مقال للأستاذ عدنان أسعد المصرى..

ومتى كان الشعراء فراراً ؟

ولكن الفراشات كما يقولون — حياتها النار — فهى أبداً تعود وتعود ولا تسلو العود كالشاعر المفؤود :

فعــــديه عــــلى الوفـــاء لكيـــلا
يذشر الدمـــع شاكيـــا فى القصيـــد
واملئى جـــــــوه الكئيب حنـــانا
فلقد حـــن للهـــوى مـــن جديـــد

فهذه صورة غزلة مجملة من صور الديوان تعرض طيوفاً مختلفة وألوانا متباينة من الهوى المنغوم ومن الإبداعية الشعرية والخيال الطليق .

يا حب من أنت

يحار الشاعر محمد عبد القادر فقيه فى أمر الحب فيتساءل (ياحب من أنت [1]) ؟ ولكنها حيرة خفيفة لا تصطرع منها المشاعر ولا تطول صحبة الشاعر لها .

ففي البيت الأول من القصيدة تكمن الفكرة الرئيسية للقصيدة فالناس قد اختلفوا شيئاً فى أمر الحب وضلوا السبيل فيه . ثم فصل الشاعر بعد ذلك ولكنه أول ما فصل عرض صورة لذلك المحب المدنف فهو مشرد النوم مسلوب النهى جزع يهذى بأحلام وآمال وأخيلة ويجرى وراء السراب فى حياته حافلة بالرؤى والسحر وقد قنع بهذه الحياة وأعجبه سحرها فاعتزل الناس . ولا شك أن هذه صورة لحب عذرى يحلق فى عالم المثل :

ياحب ما أنت مـــا للنـــاس قـــد جهلوا
معناك واختلفـــوا مابينهم شيعـــاً
ضلـــوا السبيـــل فمـــا ينفعك مدنفهم
مشرد النـــوم مسلوب النهى جـــــزعا

(١) المنهل : عدد شعبان ١٣٧١ ه .

يهذى بحلم وآمال وأخيلة
ومترع من سراب عنده نبعا
حياته بالرؤى والسحر حافلة
بسحرها عن حياة الناس قد قنعا
كأنما الحب ألقى فى بصيرته
غشاوة ملأت أبصاره خدعا

ولا شك أن الذى أملى هذه الصورة على الشاعر وجعلها تطفو أولا على سطح عاطفته وفكرته هو عدم اقتناعه بها وسخريته ممن يتخذها له مذهباً حتى إنه جعل الحب يلقى فى البصيرة غشاوة تعمى الرؤية وتطمس معالم الحياة مع أن الصحيح أن الحب يلقى فى البصيرة شفافية تخترق الحجب وهذه التى افتتح بها الشاعر قصيدته أصبحت فى عالم اليوم صورة نادرة عزيزة المنال إنها صورة بدوية عفيفة أصدق نموذج لها قيس بن ذريح وكثير عزة وجميل بثينة والصورة التى غلبت على الأدب العربى هى صورة الغزل الحضرى الذى أوضح معالمه عمر بن أبى ربيعة ثم يتساءل الشاعر عدة تساؤلات متناقضة فهل الحب أسى أم فرحة وباقة من زهر أم مارج من نار تدين له الدنيا أم لا تدين وهل الحكيم من أحب أم من لم يحب .

قوم شقوا بالحب وآخرون سعدوا به . فالذى يغار على من يحب يشبه فى غيرته حمم البراكين يود تدمير الدنيا وإشعالها ناراً :

ياحب هل أنت فى قلب المحب أسى
أم فرحة وأمان بينها زتعا
أم باقة من رياض الخلد ناضرة
أم مارج من لظى النيران قد نزعا
وهل تدين لك الدنيا بنضرتها
أم لا تدين بغير الدمع منهمعا

وأحكم النـــاس من لم يستلذ هـــوى
أم أحكم الناس من فى الحب قد وقعـــا؟
وما لقـــوم لقـــوا فى الحب شقوتهم
وآخـــرين تنضى حبهـــم متعـــــا
وما لغـــيران قـــد ثارت حفيظتـــه
كأنهـــا حمم البركـــان مندلعـــا
يـــود لـــو دمـــر الدنيـــا وأشعلهـــا
ناراً وأرسل فيهـــا المـــوت والهلعـــا

وبعد هذه الحيرة الخفيفة التى هى أشبه بحيرة المراهقين منها بحيرة الفلاسفة والعاشقين يصل الشاعر سريعاً إلى بر الأمان فلن ينخدع بسراب الحب .

هيهـــات ياحب بعـــد اليوم يخدعنى
منـــك السراب وتمـــلى مهجتى طمعاً

أما وحدة القصيدة وتماسكها فأمر لا شك فيه فالشاعر حدد فكرته عن الحب فى البيت الأول من القصيدة ثم فصل هذه الفكرة فى بقية الأبيات ، وأما عاطفته نحو الحب فهو ساخر منه منذ البيت الأول وحتى الأخير فالذى يقول للحب ما أنت ؟ ثم يقول فى ختام القصيدة مخاطباً الحب :

هيهات يخدعنى منـــك السراب

الذى يقول هذا لا يمكن أن يكون قلبه مطمئنا بالحب .

وأسلوب الشاعر سهل واضح منوع بين الخبر والإنشاء مما بعث فيه حيوية وتدفقاً وإن كانت بعض عباراته غير مستساغة لابتذالها مثل : فى الحب قد وقع) ومثل منهمعا فى البيت الثامن .

واستعان الشاعر بالصور لابراز فكرته وعاطفته فالحب مشرد النوم مسلوب النهى والحب باقة من رياض أم مارج من لظى وهكذا .

وعلى كل حال فتجربة الشاعر ساذجة تدل على أنه مبتدىء فى الفن

والحب لم يتحمل وطأة الحب ففر سريعاً كالطائر المذعور وأجمل ما عنده الصدق فى التعبير عن شعوره وفكره وهذا يجعلنى أترقب منه تطوراً وتحولاً نحو الأفضل فى عالم الشعر .

فجر سعيد

إذا كان الشاعر محمد عبد القادر فقيه قد رأى الحب سرابا وقال :

ياحب هيهات بعد اليوم يخدعنى
منك السراب ويملى مهجتى طمعاً

فإن الشاعر حسن عبد الله القرشى يسير فى عكس الاتجاه فالحب كل شىء فى حياته فإذا فقده فقد كل شىء وإن ملك الدنيا بعد ذلك ففى (فجر سعيد [1]) يقدم لنا إحدى تجاربه العاطفية وفى البيت الأول من القصيدة تكمن الفكرة الرئيسية وتأتى الأبيات بعد ذلك مفصلة لها مبينة الأفكار الجزئية ممزوجة بمشاعر الفنان وأحاسيسه فالشاعر يرى أنه لو حاز كل شىء إلا محيا حبيبته فكأنه لم يحز شيئا فحبيبه كل شىء فى حياته هو فجره وصبوته ونشيده ونعيم عمره وهو قصده فى الخيال واليقظة والمنام لقد ترقرق الحبيب فى كيانه وأصبح جزءاً من وجوده لا غنى له عنه :

كل شىء إلا محياك عندى
لا شىء عندى
هو فجرى وصبوتى ونشيدى
وهو خلدى
هو لى صدحة البلابل تشدو
لحسن ودى
وهو عندى نعيم عمرى يهدى
عطر ورد

---

(١) المنهل : عدد صفر ١٣٧٢ هـ .

فى خيالى فى يقظتى فى منـــامى .

أنت قصـــــدى

أنت وجـــدى مرفرفا فى كيـانى

أى وجــــد

ويزيد تعلق الشاعر بهذا الحبيب الذى ملك عليه أقطار نفسه فيفديه بحياته حين يراه باسماً طروباً ويناغيه فى أحلامه ويستطيب لثم خده ويرى ريقه عسلا مصفى وفى بريق عينيه ومضاً يقدح زناد حبه أما نبض النهد فقد هزه وجعله فنانا عبقريا وأما القوام المزنر فقد أطال مهده .

الابتسامة . القبلة . الريق الحلو . بريق العينين . نبض النهد . القوام الرشيق . من خلال هذه الجوانب الحسية تبدو لنا علاقة الشاعر بمن يهوى وتبدو لنا سعادته بقربها وفداؤه لها بحياته . هذه لحظات القرب وأوقات اللقاء والصفو فكيف به إن أعرض عنه حبيبه وهجره . كيف به إن حيل بينه وبين هذه المتع الصارخة ؟ .

إن نفسه تفزع إن أشاح عنه حبيبه ويخفق فؤاده لبعاده فمن الذى سيروى حنين روحه إنه ليس أهلا للهجـــر والصد فهو صب يرفض الذل والتحدى ويطلب الوصل والود فهما ريه وفجر سعده .

تفزع النفس إن رأتــك مشيحــاً

رهـــن حقـــد

ويلـــج الفـــؤاد بالخفـــق إمـــا

رمـــت بعـــدى

ليس يجـدى إن أفتقـــدتك عــرى

ليس يجـــدى

من سيروى حنـين روحى ظمـا

مــــن سهـــادى

ياحبيبى مــاكنت أهـــلا لهجــر

أو لصـــــــــد

إننى الصب يرفـض الـذل قيـــداً

والتحـــــــــدى

فتعـــال اورنى بوصــــل يغنى

فجـــــر سعــــدى

ولودى الـذى عـرفت قديمـــــاً

هـــــــــو ودى

ولست أدرى ما يقصد الشاعر بالبيت الثالث من هذه الأبيات .

ليس يجـــدى إن افتقدتك عـــرى

ليس يجـــــــدى

فماذا يقصد بالعرى ؟ أهو العرى الذى يأتيه الرجل حين يغشى المرأة ؟ إن صح هذا كان فحشاً من القول وهجرا وكان قمة من قمم الإباحية أم أنه يقصد العرى من كل شىء إن افتقد حبيبه فيكون هذا البيت تكراراً للبيت الأول أم أن ثمة خطأ مطبعيا فى كلمة عرى وصوابه عمرى ويكون البيت هـكذا :

ليس يجدى إن افتقـــدتك عمـــرى

ليس يجـــــــدى

ومن ثم تساءل الشاعر بعد ذلك :

من سيروى حنـــين روحى لهيفـــا

احتمالات عدة وأكبر الظن أن المعنى الأخير هو المراد وأن فى البيت خطأ مطبعياً

ونلاحظ أن « المنهل » أورد هذه القصيدة على أنها من الشعر الحديث وقد تصرف الشاعر فى توزيع تفاعيله فالقصيدة من بحر الخفيف جاء الشطر الأول على تفاعيله الثلاثة .

فاعـــــلاتن مستفعـــلن فاعـــلاتن

ليس يجدى إن افتقـــدتك عـــــرى

أما الشطر الثانى فتفعيلة واحدة .

ليس يجـــدى

فاعـــلاتن

فالشاعر إذن قد تصرف فى الأوزان القديمة ولم يترك قصيدته بلا وزن فهى موحدة الوزن موحدة القافية وليس على الشاعر من حرج فيما ذهب إليه فمن حقه أن يجدد موسيقاه لأن الموسيقى نابعة من أعماقه ممتزجة بمشاعره وهو لم يتنكر لقديمه بل استفاد منه وطوّره .

الشعر المنثـــور :

موضع النقد لهذا اللون من الشعر كما يقول الأستاذ محمد على قطب [١] ونحن نؤيده هو فى تسميته « فلماذا اختاروا له اسم الشعر مثلا » وهو أقرب إلى النثر الفنى فى عباراته وتنسيقه منه إلى الشعر ؟

أما أنصار الشعر الجديد فينبرون للدفاع عن الشعر الجديد وتعليل إطلاق ذلك الاسم عليه بقولهم : « إنك لتجد فى الشعر الجديد صفات وممیزات لا تجدها فى النثر الفنى فكل عبارة فيه تطوى فى نفسها معانى واسعة وخيالا خصبا وهذا ماترمز إليه النقاط المتعددة بعد كل لفظ أو عبارة وإنك لترى لكل شطر جرساً خاصاً به لا تشهده فى النثر الفنى البسيط التركيب المحدود الفكرة ، وتوافر كل تلك الصفات فيه جعلته أشبه بالشعر منه بالنثر ، وليس من عجب أن يعتبر شعراً جديداً وهو يختلف عن الشعر القديم المعروف وإن اتفقا من حيث توافر مميزات الشعر وأهدافه ومعانيه ، وإننا لنجد كثيراً من المتعصبين للشعر الموزون المقفى من ينكر فى بعض القصائد المنظومة صلتها بالشعر لافتقارها إلى الخيال والرقة وحسن الوقع ، والشعر الجديد فى تحرره من الوزن والقافية لم يتحرر من المغزى واللباب الذى تتسم به حقيقة الشعر » .

---

(١) المنهل عدد ذى الحجة ١٣٨١ هـ .

والعجيب أن يزعم هؤلاء المدافعون أن النثر الفنى بسيط التركيب محدود الفكرة ولو قرأوا نثر ابن المقفع والجاحظ وأبى حيان التوحيدى فى القديم وفهموا ما قرأوه وتذوقوه لما زعموا هذا الزعم ، ولو أنهم قرأوا أيضا نثر طه حسين وأحمد أمين وتوفيق الحكيم فى الحديث وفهموا ما قرأوه وتذوقوه لما زعموا هذا الزعم . إن ما يرمون به النثر الفنى من سذاجة وفكر محدود لا صلة له بالحقيقة فالنثر الفنى صانع الأفكار القيمة وإن شئت الدقة فهو الميدان الأول لبسط الفكرة وتحريرها وفلسفتها يتسع فى كل ذلك لما يتسع له الشعر فالشعر يرمز إلى المعانى ويوحى بها ومن ثم فهى محدودة فى الشعر غزيرة عميقة كثيرة فى النثر الفنى ولعلهم أدركوا صلابة الشعر القديم واستقصاءه على الهدم وصموده لكل المحاولات الهدامة واستمساكه فى قوة واقتدار عبر العصور فحاولوا أن يكسبوا هذه الخاصية لشعرهم فزعموا أنه يلتقى مع الشعر القديم فى المغزى واللباب .

ويقول الأستاذ عبد القدوس الأنصارى عن الشعر المنثور [1] :

الشعر المنثور ضرب من الشعر ولكن هل هو ضرب من الشعر العربى ؟ هذا هو محك الخلاف فالبعض يرى أن الشعر المنثور ليس من الشعر العربى وليس فى الشعر العربى القديم نموذج للشعر المنثور وإنما الشعر لدى العرب هو ماالتزم القافية والوزن ، والنثر ماالتزم عدم الوزن وقد يكون ذا قافية وهو ما يسمى النثر المسجوع فى مقابل النثر المرسل والنثر المسجوع فى الأدب العربى قريب من الشعر ولذلك كانوا يستعملونه فى المواقف المهمة فى الخطب الحربية والاجتماعية وفى الحكمة وما إلى ذلك ولكنهم لا يسمونه شعراً إنه لنثر لديهم وحينما أراد العرب أن يعاندوا فى القرآن المجيد وقد اطمأنت نفوسهم من قرارتها إلى أنه فوق مستوى أبلغ كلامهم

---

(١) المنهل عدد جمادى الأولى ١٣٧٧ هـ من حديث للأستاذ عبد القدوس الأنصارى بعنوان (أدبنا فى معترك الآراء) .

بكثير ولم يريدوا أن يعلنوا ذلك للناس لأن فيه تصديقا للرسول عليه السلام بأن القرآن المجيد كلام الله ولذا جاء معجزا . حينذاك فتق لهم شيطان مكرهم وعنادهم تسميته تضليلا بالشعر وماهو بشعر حتى فى مصطلحهم .

إن الشعر المنثور مقتبس من اللغات الأجنبية الشرقية والغربية التى لا تتقيد بما يتقيد به الشعر العربى اصطلاحاً ومن هذه الزاوية زاوية الاقتباس من الآخرين لا نعارضه بل نراه لوناً أدبياً جديداً أوجده الاختلاط بالشعوب الأخرى .

يقول الدكتور طه حسين : « وما الذى يمنع شعراء هذا اللون من أن يتأثروا بالشعر الغربى وهو مريح لا يكلفهم تعبا ولا عناء وهو فى الوقت نفسه يخيل إلى الشباب أنهم يقلدون الشعراء الغربيين ويجددون فى الأوزان والقوافى » .

إن هذا الحديث يلقى ضوءاً على سر من أسرار تهافت الشباب على هذا اللون من الشعر لقد خيل إليهم أنهم يقلدون شكسبير ولامرتين وموليير وغيرهم وكأن ليس لنا نحن العرب شعراء أمثال هؤلاء ولكنها عقدة تقليد المغلوب للغالب .

إن الشعر يقدم الفكرة فى إيجاز وإيحاء بينما النثر يسهب ويطنب فى عرض أفكارها وبسطها إذ ليست له قيود من الوزن أو القافية تحد من انطلاقه وتعوق انسيابه والشعر عاطفة جياشة تغمر الكون والحياة والإنسان وتسبح بهم فى عالم من الرؤى والأطياف وتقدم لهم أنماطاً من الصور الفنية البديعة إن الشعر يخاطب فى الإنسان قلبه وشعوره أولا وقبل كل شىء بينما النثر يخاطب عقل الإنسان وينمى فكره ويثرى معلوماته . ومن ثم فالكلمة المفردة تؤدى فى الشعر من العواطف مالا تؤديه فى النثر إنها فى النثر تحمل فكرة وقد توحى بعاطفة ولكنها فى الشعر تحمل عاطفة وقد تحمل فكرة .

فى ضوء هذه الحقائق الفنية ننظر فى فنون الأدب عندنا فنجد فريقا من الأدباء يحملون نفوساً شاعرة وأقلاماً ساحرة فإذا كتبوا قطعة نثرية نحملوها

بالمزيد من العواطف والصور والإيحاءات حتى تكون شعراً فى معناها دون مبناها أو كما اصطلح على تسميتها فى عالم الأدب الشعر المنثور ، وقد عرف الأدب السعودى هذا الاتجاه الشعرى عرف الشعر المنثور شعر العاطفة السامية والفن الرفيع .

وداعا أيتها المناظر الخالدة

للشاعر المجهول : عبد القدوس الأنصارى :

جلس الشاعر فى أصيل يوم جميل فوق هضبة سلع التى تشرف على أجمل مناظر المدينة وأمتعها حيث الأراضى الذهبية الفيحاء . وحيث المناظر الجميلة الدكناء ، وحيث البساتين الزمردية الغناء ففاض فؤاده بهذه المقطوعة التى هى فيض من نبع روحه المتأثرة إن للشاعر فى المدينة ذكريات راسخة عاطرة فهو مرتبط بها كل الارتباط يرتبط بأماكنها التاريخية ثنية الوداع وجبل أحد ، ويرتبط بحرارها الرابضة فى أكناف المدينة يرتبط بالنخيل والمآذن والوديان . ويرتبط بالإنسان فى المدينة ارتباطاً أوثق ولذا كرر الحديث عن ذلك الإنسان فتحدث عن الرفاق المتنزهين ، وعن الأخلاء المدلفين وعن الأصدقاء المتجمعين .

إن هذا الحب العميق فاض به قلب الشاعر فأخذ يبدىء فيه ويعيد فهو يفصل الحديث أولا ثم يجمل حين يقول :

وداعاً أى ثنيــــة الوداع
وداعاً أيها الركب المحبون
تغدون إلى المدينة وتروحون إلى العيون
وداعــاً يا جبــل أحــد
ياذا المنظــر الجميــل
والهـــواء العليـــل
وداعــاً لشعابــك الناضــرة
ذات العــرف الطيــب
وداعاً لماء غراسك العذب الصيب .

وداعاً أيتها الحرار الرابضة
فى أكناف المدينة كما تربض الأسود
ترسل نظراتها فى المساء والصباح على
هذه المناظر الجذابة فتكسبها بريقاً
ولمعانا وجاذبية وإشراقاً
وداعاً أيها الرفاق المتنزهون
تسيرون فى الأصائل جماعات ووحدانا
حول هذه الضواحى القيحاء
وداعاً أيتها النخيل المصفوفة
اصطفاف الحسان فى انضر بستان
وداعاً أيتها المآذن المشرقة البيضاء
الذاهبة صعداً فى السماء
وداعاً أيتها الأودية الذهبية
التى إذا فاضت بالمياه فاضت
معها الخيرات ، وقامت على سوقها النباتات
وداعاً أى وادى بطحان
وداعاً لتدفقك الجميل
وانسيابك فى البكرة والأصيل
وداعاً أيها الأخلاء المدلفون
فى شوارع المدينة وأزقتها
وداعاً أيها الأصدقاء المتجمعون
فى دور المدينة وقصورها

وبعد هذه الصور التفصيلية الموقعة على أوتار قلب الشاعر نراه يختم المقطع بما يعد تلخيصا له وذلك إذ يقول :

وداعاً أيتها البلدة الطيبة المباركة الغراء

إن هذا المقطع يرقى عن أسلوب النثر الفنى إلى أسلوب الشعر بما فيه

من إيقاع وتصوير لأن العاطفة إذا غمرت قلب الشاعر فإنه يرى أن الأسلوب النثرى لا يقوى على حملها ومن ثم يغنى ويصوّر فالركب المحبون يغدون ويروحون إلى العيون فتكرار النون على هذه الشاكلة يعد موسيقى داخلية ظاهرة .

والمزاوجة بين المنظر الجميل والهواء العليل أيضا موسيقى داخلية ظاهرة . كما نلحظ الموسيقى بين الشعاب الناضرة ذات العرف الطيب وماء مهراسك العذب الصيب ومظهرها الازدواج الطيب والصيب وهكذا والشاعر يعتمد على أنواع من الصور صور متحركة تبدو فى الركب المحبون تغدون وتروحون وفى الرفاق المتنزهون تسيرون فى الأصائل .. وصور ذات ألوان كالمآذن المشرقة البيضاء والأودية الذهبية .

وصور خيالية مثل التشبيه فى الحرار الرابضة فى أكناف المدينة كما تربض الأسود .

والنخيل المصفوفة اصطفاف الحسان فى أنضر بستان .

فنى هذا المقطع العاطفة الجياشة والإيقاع الجميل والتصوير البديع ومن ثم رقى إلى عالم الشعر .

وفى المقطع الأخير يتحدث الشاعر عن بواعث وداعه الحار للمدينة الطيبة إنها الذكريات اللامعة الراسخة العاطرة المغروسة ، ومن ثم صاغ الوداع سبيكة ذهبية أنيقة من حبة فؤاده . على أنه حين يقول وداعاً أيتها المناظر الخالدة فهو لا يعنى الوداع بالمعنى المفهوم وإنما وداد خالد مستديم :

إن الذكريات اللامعة الراسخة فى أعماق الفؤاد .

وإن الذكريات العاطرة المغروسة فى جوانح القلب المكلوم . لن تذهب سدى ولن تضمحل أبداً .

وهذا الوداع هو سبيكة ذهبية أنيقة صيغت من حبة الفؤاد لتطوّق جيد الحياة .

فليس هذا فى الحقيقة وداع بالمعنى المفهوم وإنما هو وداد خالد مستديم .

ونلاحظ أن الشاعر يخالف القواعد النحوية فى قوله : ليس هذا فى الحقيقة وداع والصواب وداعاً .

وعلى كل حال فالقصيدة متماسكة فهى ذات موضوع واحد هو مناظر المدينة الخالدة ، وذات جو نفسى واحد هو تعاطفه مع هذه المناظر وحبه الدائم لها ، وهى بعد مجموعة من اللوحات الفنية يكمل بعضها بعضا وتعبر عن إعجاب الشاعر بها وتعلقه الكبير المستديم .

الشعر الفلسفى والتأملى — (دمعة)

فلسفة الآلام :

الشاعر إنسان موهوب مرهف الحس رقيق الشعور ومن ثم يكون إحساسه بالألم أعمق فإذا تدافعت نحوه الخطوب أهاجت شاعريته ونفسه والشعراء والحالة هذه أصناف فمنهم من يهرب من هذا الواقع المرير فيرتمى فى أحضان المرأة أو الطبيعة أو الخمر ومعظم الشعراء الرومانسيين من هذا الصنف على تفاوت بينهم فى الإحساس بالألم وما ينتج عنه من تشاؤم قليل أو كثير ومن الشعراء من يعتزل الحياة وآلامها كما صنع أبو العلا فماذا صنع الشاعر السعودى أمام سيل الآلام الجارف ذلك ما تفصح عنه قصيدة « دمعة [١] » للشاعر إبراهيم هاشم فلالى إن الأستاذ إبراهيم قصاص أولا وشاعر ثانيا ومن ثم جاءت قصيدته أشبه بقصة موضوعها الآلام والمصاعب التى يتعرض لها الشاعر واعتمد فيها على الحوار الأفلاطونى حيث أجرى الحديث بينه وبين حبيبة خيالية أسماها ليلى وهى فتاة مسلمة يبدو فى تفكيرها أثر الإسلام واضحاً وكان لحديثها أثر فى تفكير الشاعر ونظرته إلى الحياة وآلامها .

فالشاعر مفزع يحف به الخطر وتأتمر به الأرزاء كلما خطا نحو العلا ردده القدر فحياته دمعة الأيام المنهمرة . إنه يحاول الصمود دون جدوى فكلما تغلب على كرب تجددت له كروب فهو فى كفاح مستمر وهو صابر

(١) المنهل عدد ربيع الأول والثانى ١٣٦٩ ﻫ .

وقد أصبحت الكروب لعبته كأنها الأكر فكورة وثانية وثالثة وهكذا إلى مالا نهاية وكفاحه لم يثمر فقد خانه الحظ ولكنه ما عاش حديد ينصهر مرة بعد أخرى .

أعيش بحفى الخطـــــر	بى الأرزاء تأتمـــــــر
أمـــد إلى العـــلا خطـــوى	فـــيرجع خطـــوى القـــدر
كأنى دمعــــــــة الأيـــنـــا	م تذرفهـــــــا فتنحـــدر
صمـــــدت لـــكربتى فأبت	صروف الدهـــــر تنحسر
إذا ذللت إحـــــداهـــــــا	أتتنى بعــــــدها زمـــــر
أكافحهـــــــا فيـــــدهمنى	كمـــين خلفهـــا خطـــر
سلو الأرزاء لـــــو نطقت	لقـــالت إننى صـــبر
ألقـــاهـــــــا فألفيهـــــا	كأن جمـــوعهـــــا أكـــر
ولــكن خـــانى حظـــنى	ولم يســـعدنى الظفـــــر
عجبت لمـــــا جـــد هزأت	بحسن بـــلائـــه الغــــير
فـــــرد تعجـــبى أنى	حـــديـــد عشت ينصهـــر

وفى لحظة من لحظات الضعف الإنسانى حاول الشاعر أن يهرب من هذا الواقع المرير ويغرق آلامه فى الكأس تقدمها له ليلاه . ولا تعجب إذا ذكرت الكأس والمرأة من أديب سعودى فهو أولا بشر يخطىء ويصيب وثانيا ينبغى أن نطيل النظر إلى كأسه جيداً فليس بلازم أن تكون كأس خمر بل هناك شىء مهم جداً هو ليلاه التى عليها يغنى إنها لا تقدم له الهوى الرخيص وإنما تقدم له الحب العفيف إن ريح الكأس عطر وإن مدامها شهد وإن فتاته ذات دل وخفر وصوت ناعم حلو وطرف زانه الحوار ولكنها حكيمة متزنة ترطب لسانها بذكر الله وإنها لتسأل صاحبها فى تعجب ودهشة : أتيأس ؟ فأين الله والقدر ؟ أين إيمانك والحياة كلها عبر وإنها لتضرب له الأمثال بالغيوث الكثيرة تبلعها البحار فلا يبدو لها أثر ، وبعد ذلك تخرج الدرر من أعماق البحار . إنها ليست فتاة لعوباً ولكنها فتاة مسلمة رزان

حصان توقظ فى قلب صاحبها حب الله والإيمان بالقدر لتدفع عنه اليأس الذى يانى منه .

فهـات الكأس ياليـلى
ففيهـا الأنس والحـذر
فمـدت كفهـا نحـوى
بكأس ريحهـا عطـر
كـأن مذاهـا شهـد
سرى بـارد خضـر
وقـد قـالت لتسليتى
وخفـف سورتى الحـذر
وصـوت ناعـم حـلو
وطـرف زانـه الحـور
هى الأيـام والعـبر
وأمـر الله منتظـر
أتيأس أن تـرى فرجـاً
فأيـن الله والقـدر ؟
ودنيـا النـاس لو فتشـ
ـت دنيـا كلهـا عـبر
فـكم غيث مـن الإعصـا
ر بـين اللـج ينهـمر
ومـوج البحـر يبلعـه
فـلا يبـدو لـه أثـر
وبعـد المكث فى الأعمـا
ق كـم تبـدو لنـا درر

ولكن الشاعر المعذب ما تزال جراحه تنزف وآلامه تفزعه فيرفض ضرب الأمثال من ليلاه ويذكر لها أنه خبير بالبشر فكم عظيم عظمته إشاعات

كاذبة ، وكم من سديد الرأى يسفه رأيه أناس كالبقر ، وكثيراً ما يتآمر الخبثاء الماكرون على الطيبين الطاهرين كتآمر الذؤبان بالقفر على الجمال ، وكثيرون هم أولئك الأراذل الذين ينعمون بالحياة مثلهم مثل الأنعام والحمير تتمرغ على الخز ، وكثيرون هم أولئك العظماء الذين يغفل الأحياء شأنهم ولا يعلمون من أمرهم شيئا ولا يقدرونهم حق قدرهم وإن مثلهم مثل الكنز فى جوف الصخر فالصخر لا يعرف قيمة الكنز وكأن الشاعر يأسى من تنعم الحمقى والجهلاء وشقوة العلماء والمفكرين .

فقلت معارضا ليلى
كمن بالرجع يبتدر
دع الأمثال ياليلى
فإنى بالورى خبر
فكم نجم يغيبه
ضباب البحر والبكر
وكم حرٌّ سديد الرأ
ى لم يخطىء له نظر
إذا ما قال فصل القو
ل سفه رأيه البقر
وكم جمل بمقفرة
به الذؤبان تأتمر
وكم خزٍّ تمرّغ فو
قه الأنعام والحمر
وكم كنز بجوف الصخ
ر لم يحفل به الحجر

وكأن الشاعر يندب حظه التعس وعدم تقدير المجتمع له وإن شئت فقل عدم تقدير المجتمع لأهل الحجى والرأى والفكر والأدب اللباب بينما الحمقى والسفهاء ينعمون بطيبات الحياة إنها لثورة مكبوتة تحاول أن تنفجر ولكن

فتاته تهوّن عليه الأمر وتكبر فيه النبوغ والعبقرية بيد أنها تذكر له أن ثمن المجد غال وأن ما يعانيه من آلام وأشجان إنما هو نوع من الاختبار وأنه لا يفوز بالمجد والعلا في آخر الشوط إلا الصابرون وكان لقولها أثر لدى الشاعر :

فقـــالت بعـــــدما سكتت
وكـــان لقـــــولها أثـــر
ألـــــم تعـــــلم بأن الصـــــ
ـــبر للعليـــــــاء مدخـــر
فـــــلا تعجب إذا حـــــبر
مـــــن الأحـــــداث ينعصـــر
فـــإن التـــبر بعـــــد الصهـــ
ـــر في التيجـــــان يزدهـــر

أجمل ما في القصيدة هذا النموذج المثالي الفريد للمرأة المسلمة الجميلة ذات الدل والخفر والإيمان والفكر المتزن ترد يائسا إلى الصواب وتكبح جماح ثورته بالكلم الطيب دون أن تغض من قدر من تهوى وجميل أيضا أن يستجيب الرجل لنصيحة المرأة حين يتبين له وجه الإخلاص والصدق والحق ، وجميل في هذه القصيدة أنها تذهب بمشاعر الرجل وانفعالاته إلى الذروة حين يحفه الخطر من كل جانب وتأبى صروف الدهر أن تنحسر ولكن أجمل منه أن يكون ذلك الرجل حديداً صهرته الأحداث ثم تكون لديه مسكة من عقل يستعيد بها رشده وصوابه فيدرك فلسفة الآلام وأنها ثمن المجد وأن العظيم يخرج من محنته نقيا صافيا لم تغير المحنة مبادئه ومثله كالذهب يصهر بالنار فلا يتغير لونه .

وهكذا نرى أن ثورة الشاعر السعودي لا تنفجر فهو كبشر يأسى ويتألم لما يجري حوله من خلل في التقويم والتقدير ولكن اتزانه وإيمانه يعصمانه من التهور والاندفاع المدمر على أنه يجد من أحبابه من يبذل النصيحة في صدق وإخلاص ومن يرده إلى الجادة جادة الحق والرجاء والإيمان .

محاورة نفس — لمحمد حسن فقي [1]

جو القصيدة :

يؤرخ الشاعر لميلاد قصيدته ويذكر تاريخها فيقول :

هذه قصيدة قديمة جديدة ، قديمة لأنى نظمتها منذ أمد بعيد ، وجديدة لأنى عاودت نظمها أو استذكارها على الأصح بعد أن فقدت الأصل فأحببت استنساخ صورة عنه فهى لذلك حرب بين الذاكرة والنسيان ؛ وقد حرصت على ما فيها من اضطراب سببه بعد الشقة بين النظم والاستذكار ليبقى للقصيدة طابعها الأصيل وهو صدق الإحساس وحسبي بهذا الطابع من زخرف وتنسيق لا يغنيان فى شيء والفكرة الموجهة فى القصيدة هى الصراع بين العاطفة والعقل وقد عبر الشاعر عن هذا الصراع بأسلوب الحوار الداخلى الذى أجراه بينه وبين نفسه الأمر الذى أعطى القصيدة موسيقى داخلية خفية وإن شئت فقل أحالها إلى لون من الموسيقى الداخلية وبعث فيها الحركة .

وأمنية الشاعر أن يعرف الطريق إلى نفسه فعندها الأمانى والأحلام وهو لا يزدرى نفسه لأنها تحب « فالزارى على الحب متعب » بيد أن الحب قد يسبب لها المهانة وهو يريد لها الإباء والنفس يتنازعها الجوى ولكنها لا تستطيع السلوان ومن ثم فالشاعر يحذرها من بطش الغرام فإنه يسبب لها العطب . ويدعوها إلى واحد من اثنين : إما أن تحب وترضى بحكم الحب ، وإما اليأس من الحب ، وهى إن اختارت الأمر الثـــانى فإنها باختيارها لا تبعد عن الحب « فاليأس فى الحب مذهب » الكرامة والحب محور هذا المقطع من القصيدة فإما أن تصون النفس كرامتها وتبعد عن الحب وإما أن تقبل بأمر الحب . وقد استهل الشاعر قصيدته بهذا المقطع .

---

(١) المنهل : عدد صفر ١٣٦٦ هـ .

الكرامة أو الحب :

بأى أمـــانيـــك الحبيبـــــة تخـــلب
وأى سبيـــــل مـــن هـــواك تقـــرب

لـــو أن الأمـــانى تستجيب لطـــالب
لـــكنت أمـــــانى التى أتطلب

وما أنـــا بالزارى عليـــك بما جنى
ولا لك فالزارى على الحب متعـــب

ولـــكن نفساً ما تطيـــق مهـــانة
ينازعهـــا فيـــك الإبـــاء فتعتب

أقـــول لها يانفس قد هدك الجـــوى
وليس إلى السلـــوان ماعشت مـــذهب

حـــذاريك من بطش الغـــرام وهوله
فـــإن لـــه بطشاً إذا هـــم يعطب

حذاريك قـــد أعذرت يانفس مـــرة
وأخرى وهـــل إلاك مـــن يتعذب

أفيئى فإمـــا الحب ترضـــين حكمـــه
وإمـــا النـــوى واليأس فى الحب مذهب

أفيئى فمـــا تجـــدى المعـــاذير ربهـــا
غداة الهـــوى رب يطاع ويـــرهب

وإذا كانت النفس قد هدها الجوى، ومع ذلك فليس إلى السلوان مذهب فكأن الحب وحكمه قد تغلب على كرامة النفس وإبائها . ومن ثمّ رفضت النفس نصيحة الشاعر وليس ذلك فقط بل هى أخذت منه موقف المتمتع الراغب وقد صور الشاعر موقفه بالصياد يحمل حباله وطعمه وترى النفس منه ذلك فتأخذ حذرها ترنو إلى الطعم ولا تقترب حذراً من الصياد ومن ثم فالمحاورة ما تزال قائمة بينه وبين نفسه :

فتأبى علــى النفس نصحى حماقــة
كأنى طلبت النفس ما ليس يطلب

كأنى وإياهــا حبالة صائــد
وصيــد حذور ساغب يتــذبذب

يمــد لــه الصياد أشراك قانص
صبــور فمــا يدنــو وما يتنكب

يرى الطعم ريانا فيرنو بطرفــه
إليــه ويثنيــه الحــذار فيهرب

فلا هــو بالوانى ولا الصيــد غافــل
ولا الطعم مأكول ولا الصبر ينضب

ورب نصيــح أوردتــه برغمــه
نصائحــه نــاراً بهــا يتقــلب

لقد ضم الشاعر إلى هذا المقطع ذلك التشبيه التمثيلى الرائع الذى زاد من حركة الحوار والذى أبرز موقف الصياد بين الشاعر ونفسه ينصحها فتأبى ولكنها ترنو إليه وهى مستمرة فى مذهبها الغرامى تهوى وتسلو صبابة وملال حب وشكوى من الحب كل يوم صبوة جديدة ، ومن ثم فهى أهواء مختلفة الأشكال والألوان والشاعر غير راض عن هذا المسلك الغرامى فما يستوى محب وفى ومحب متقلب ، وإذا لم يكن الوفاء فى الحب فضيلة فكيف يكون الهجر ذنبا وترى النفس أن المرء إبان حبه يتناسى كرامته :

أتهــوى فتردينى وتسلو متى انقضت
لبــاناتها أو لاح فى الجــو كوكب

صبــابتها مــا تنقضى ومــلالهــا
عجيب وشكواهــا مــن الحب أعجب

لهــا كل يــوم صبوة مستجــدة
يشايعهــا طبــع عليهــا مــدرب

شكولا مـن الأهواء عانيت كلمنـا . مضى مطلب منهـبا تجـدد مطلب
إذا لـم ترى أن الوفـاء فضيـلة فكيف ترين لهاجريك تـذنبـوا
فمـا يستوى فى الحب قلب معـذب وفى وقلب كالحـرابى قـُلَّب
وقـد يتناسى المـرء إبـان حبـه كرامتـه فالذل فى الحب يعـذب

والشطر الثانى من البيت الخامس صياغته قلقة « فالهاجريك » غير فصيح إن لم نقل غير صحيح لاجتماع مُعَرَّفين على معرّف واحد أما المعرفين « فأل والإضافة » وأما المعرف فهاجر » كذلك استعمال الفعل تذنبوا بمعنى أذنبوا غير فصيح من حيث الاستعمال ولم يرد فى اللغة تذنب بمعنى أذنب وربما كان الصواب حليفه لو قال :

(فهجرك لا عتب عليه ولا ذنب)

أما أن المرء يتناسى كرامته إبان حبه فهذا ينطبق على الحب الحسى وإن شئت فقل على حب الشهوة وعلى النقيض من ذلك يقول أحمد رامى :

أصـون كرامتى مـن قبـل حبى فإن النفس عنـدى فـوق قـلبى
رضيت هـوانهـا فيما تقـاسى وما إذلالهـا فى الحب دأبى
ولـكنى أردت هـوى عفيفـا ورمت لك الجنـا مـن كل قلب

على أن الشاعر محمد حسن فقى لم يوفق حين أجرى هذا البيت على لسانه :

« وقد يتناسى المرء إبان حبه كرامته » فانه يناقض قوله من قبل :

ولـكن نفساً ما تطيـق مهانـة
ينازعهـا فيـك الإبـاء فتعتب

وكنت أفضل أن يجرى البيت « وقد يتناسى المرء ... على لسان النفس ويكون مكانه قبل البيت الأخير .

وحين ينقل هذا البيت إلى مكانه المقترح نرى حديث الأبيات بعده يلتحم مع حديث الأبيات قبله فالبيت الذى قبله هو :

فمـا يستوى فى الحب قلب معـذب
وفى وقلـب كالحـرابى قلب

والأبيات بعد بيت التناسى للكرامة تقول :

وللحب رهط يكتـوون بنـاره
فيطـربهـم مثـل المجوس التلهب

شجيون مـا عاشوا مدينـون للهـوى
وما مطلـوه الدين إن جـاء يطلب

ضمائرهم رهـن لديـه فإن جنى
عليهـا فقـد يجنى المـدل المحبب

سواء عليهـم شقـوة وسعـادة
ويأس وتأميـل وطـل وصيب

فإن ترضخى فالحب فردوس حـالم
وإن تشمسى فالحب كـرب مطنب

وربتما تجـرى العـواطف والنهـى
إلى غايـة يرضى بهـا المتعصب

فهـذه الأبيات تحليل وتفصيل للقلب المعذب فى الحب فرهط المحبين يكتوون بنار الحب ومع ذلك يطربون لأنهم مدينون للهوى وضمائرهم رهن لديه وسواء عليهم الشقوة والسعادة واليأس والأمل وقليل الحب وكثيره

يرضيهم . والنفس بعد مخيرة إما أن ترضخ للحب فتعيش في فردوسه وإما أن تأبى فتعيش في كرب .

وأما قول الشاعر :

فربتما تجرى العواطف والنهى ...

فكلمة ربتما ثقيلة في النطق أخف منها « ولربما تجرى العواطف والنهى » وإجراء البيت على لسان الشاعر غير دقيق لأنه لا يتفق مع اتزانه ونصائحه أما النفس المتساهلة فترى العواطف والنهى يجريان إلى غاية واحدة ومن ثم فمكان البيت في المقطع الأخير من القصيدة على لسان النفس تخاطب الشاعر وتختم به القصيدة .

ثم نصل إلى لب القصيدة في الأبيات التالية :

وقلت لنفسى للرجولة سحرها
وللحسن سحر لا يقاوم مغرب

مشى في ركاب الحسن قلب مضلل
فناصبه العدوان عقل مجرّب

غرائز تطويها الميول عنيفة
وأحلام موتورين لما يغلبوا

صراع ضحاياه تسيل جراحها
وليس لها من حومة الحرب مهرب

وما كبرياء العقل إلا هزيمة
ملفعة مادام للنفس مأرب

ذرى الطبع حرًّا تسريحى ومحمدى
عواقبه فالقيد للطبع مغضب

وقلت لها يانفس ماالحب عاراً
ينوء به المنخوب وجداً وينكب

ولا الهجر مرهوباً ولا الخسف مخزياً
ولا الصوم يفتال الهناء ويسلب

بأعنف من قلب خلى تهافتت
عواطفه وانجاب عنها التوثب

فما بهجة الدنيا وما روعة المنى
إذا الناس لم يشقوا ولم يتعذبوا

محور الارتكاز فى هذه الأبيات هو الصراع بين القلب والعقل فلمن كانت الغلبة ؟

الواقع أن تكوين الإنسان على هذه الشاكلة معجز فالنفس لها مآرب كثيرة لا تكاد تنقضى والقلب يسحره الحسن وللإنسان غرائزه وطباعه فهل يترك القلب يهيم فى وادى الحسن وتنطلق الغرائز بلا حدود ؟ فما قيمة العقل إذن ؟ وما قيمة العقل المجرّب وإذا كان الحسن يسحر القلب فالرجولة والمروءة والفضيلة أمور كلها تسحر العقل ، ومن ثم يكون الصراع :

مشى فى ركاب الحسن قلب مضلل
فناصبه العدوان عقل مجرّب

صراع أزلى أبدى مادام للعقل تجاربه وللنفس مآربها ، ولولا هذا الصراع لما كان العلم والحكمة فهما من ثمار العقل المجرّب ، ولولا مأرب النفس وسير القلب فى ركاب الحسن يتتبع الجمال لما كان أدب ولا فن فلنترك الطبع الإنسانى والفطرة الإنسانية تسير دون أن تنضع فى طريقها الحواجز والحدود تجرب العقول وتهوى النفوس وتخفق القلوب بالحب والجمال ويحتك العقل بالقلب فبهجة الدنيا وروعة المنى فى ذلك الصراع وما ينتج عنه :

ولست أدرى كيف تجتمع البهجة والروعة مع الشقوة والعذاب فى قول الشاعر :

فما بهجة الدنيا وما روعة المنى
إذا الناس لم يشقوا ولم يتعذبوا

وأكبر الظن أن الشاعر يقصد أن الصراع بين العقل والقلب لذيذ وأنه

يجعل الحياة محببة إلى الناس لأنه يدفعهم إلى الحركة واتخاذ مواقف معينة فى الحياة .

وأكبر الظن أيضا أن الشاعر يميل مع الطبع والغريزة وإعطائهما الحرية المطلقة (فالقيد للطبع مغصب) وأن كبرياء العقل هزيمة مادامت للنفس مآرب فلتأخذ النفس حظها من الحب ولتتحمل نيران الهجر وقسوة العشق فذلك أهون من أن تترك القلوب خواء من العاطفة والحب هذه هى نظرة الشاعر إلى النفس نظرة ملؤها النصيحة والشفقة على النفس والضن بها على الهوان وتصوير النفس فى هواها وسلوانها وتحمل المحبين لنيران الحب ، ومحاولة البعض وقف تيار الحب العارم بسلطان العقل المجرّب وزعم الشاعر بأن كبرياء العقل هزيمة مقنعة والخير فى ظلال الحب بالرغم من متاعبه فمتاعبه سر الحياة . قال الشاعر كل ذلك لنفسه وهو يحاورها فماذا قالت له النفس :

فقالت لى النفس اللجـــوج ألا ارعوى
فمـــا أنت إلا شاعـــر تتكـــذب

فـــؤادك مشبوب الخيـــال مجنــح
وفـــكرك مبهـــور الحقيقـــة متعب

تخـيّرت ورد الحب هيمـــان صاديا
وما ورده إلا السراب المخـــيب

ولو كنت مشدود العـــزيمة حـــاذقـــا
تهش وإن كنت العديـــد وتلعب

إذا لجت الأشجـــان لجت حتوفهـــا
وإن عبث الهجـــران جـــدّ التجنب

لخالفـــك التـــوفيق فى الحب واستوى
لديك نفـــار كاذب وتجنـب

فــكن خادعــاً كالحب واجــن قطوفه
طروباً فمــا يجدى الأسى والتقطب
وكــــن مرحاً كالطير إن صدّ إلفــه
تبــدله والحب خزيان ينــــــدب
وكـــن نحلة تغشى الرياض وتجتنى
أزاهــيرها منهــومة ثم تـــذهب
كذلك يشقى المـــرء بالنفس راغمـــا
وتشقى بـــه والغيُّ كالرشد يخلب

إن النفس تخال صاحبها وترسم معالم شعوره وتفكيره فهو شاعر وأعذب الشعر أكذبه وإذن فهو يتكذب هو صاحب فؤاد مشبوب العواطف وخيال مجنح وفكر مبهور وهو يريد حباً عفيفاً يرى الوفاء للمحب فضيلة ولكن النفس تدعوه إلى حب واقعي وإلى معاملة المحبوب بالمثل إذا عبث الهجران تجنب الحبيب وإذا كان الحب خادعا فليلبس ثياب الخداع وتضرب النفس الأمثال للشاعر فى صور تشبيهية جميلة : فكن خادعاً كالحب — وكن مرحاً كالطير — وكن نحلة تجنى الأزهار ثم تذهب .

والبيت الأخير يلخص الموقف كله فللغى سحره وللحسن سحره وللرشد سحره — وللرجولة سحرها — وللعقل سحره وتجاربه ويتجاوز الغى والرشد والعقل والقلب فى ذلك الهيكل البشرى الذى يكون ميدان الصراع ، ومن ثمّ يشقى المرء بالنفس وتشقى النفس به .

كذلك يشقى المــــــرء بالنفس راغمـــــا
وتشقى بـــــــــه

إن حديث الإنسان عن نفسه صعب وإفضاؤه بما فى دخيلة تلك النفس ليس بالأمر اليسير ومن ثم كانت المحاورة التى أجراها الشاعر بينه وبين نفسه من أنجع الوسائل فى تحليل الشاعر النفس والتعبير عن خلجاتها وإبراز كوامنها .

فهل نقد هذه القصيدة تحليلا لنفسية الشاعر محمد حسن فقى ؟ لا سيما وأنه حرص على استذكار القصيدة واستقبالها من عالم النسيان فى صدق وإخلاص. علم ذلك عند الله أولا ثم لدى الشاعر وفى بطنه ولكن القصيدة على أقل تقدير تصوّر مرحلة من مراحل المعاناة عند الشاعر ولكن هذه المعاناة لم تتأزم شأن كل أنواع المعاناة والصراعات فى الأدب السعودى فلم يلبث الشاعر أن أنصف نفسه من نفسه « كذلك يشقى المرء بالنفس راغماً وتشقى به » .

وهو شاعر فنان ومن ثم انتصر للنفس والقلب ولم ينتصر للعقل :

وما كبرياء العقـــل إلا هــزيمـــة
ملفعـــة ما دام للنفس مـــــــأرب

إن هذه القصيدة تمثل اتجاه الشاعر السعودى إلى داخله يستنطقه ويقرأ صفحاته ويعرى حناياه والتجربة الشعرية التى صاغها الشاعر تقدم صورة نفسية كاملة ذات موضوع واحد هو الصراع بين القلب والعقل ومن ثم فهى نموذج إنسانى لكل من كان له قلب يعشق وعقل يجرّب ، وهذه سمة من سمات الخلود فى الشعر .

فراق — للأستاذ محمد حسن فقى (١)

يبدو أن الحوار الداخلى فى القصيدة سمة فنية محببة إلى هذا الشاعر العظيم فضلا عن النفس الشعرى الطويل وهو فى هذه القصيدة يطالعنا بحوار جديد عن الفراق وفلسفته بعد أن أمتعنا « بمحاورة نفس » .

فالشاعر يذكر ألم الفراق ويتمنى ألا تطول أيامه وفى هذا الجو الحالم تتدافع الذكريات فيذكر أحلاها إنها ذكريات الطفولة البريئة ولكن ذلك لن يمحو الفراق ولن يؤجله وكان موقف مشحون بالعواطف والانفعالات إنه موقف الوداع وكان للشاعر مع صاحبه حديث حول فلسفة الفراق والحب والحياة رأى صاحبه أن البين يذكى الفراق أما هو فإنه لا يرضى إلا بالواقع ولا يتعلق بالسراب فليس صوفى الهوى فيقول له صاحب إن الحياة

---

(١) المنهل : عدد شعبان ١٣٦٦ هـ .

حرب وسلام وسعادة وشقاء وربما كانت لذتها فى ذلك وهذه النظرة لاحظناها عند الشاعر فى قصيدة « محاورة نفس » .

وعلى أى حال فإن تحليل القصيدة يوضح لنا أبعادها ومراميها .

فالفراق مرٌّ على القرب فكيف به على البعد ولكنه واقع لا محالة ومن ثمّ فعلى الإنسان أن يوطد نفسه على ذلك ولكن هذا فات شاعرنا ومن ثم تمنى أن لو كان قد تداركه كما تمنى أموراً أخرى تمنى أن يكون قد عرف النوى قبل أن تعرفه وأن تكون أيام الفراق قصيرة فقال :

فراقــك يشجينـــا وإن كنت دانيــا
فكيف وقـــد أمسيت تطوى الفيافيا

وكيف وقد أمسيت دونك (عيــلم)
يرد حديد الطرف غرثان صـــاديا

ألا أيهـــذا الراحـــل اليوم ليتنى
توثقت مـــن أمسى فـلم أخش آتيا

ويا أيهـــذا الراحـــل اليـــوم ليتنى
عرفت النــــوى من قبل عرفانها ليا

وياليت أيـــام الفـــراق قصيـرة
كأيـــام لقيانا قصـــاراً حواليــــا

الإحساس بالحسرة والألم طابع هذا المقطع وقد بدا ذلك واضحاً فى صور الشاعر وتنظيم عباراته فهو يرنو ببصره فى عالم الرؤى والأخيلة إلى صاحبه وقد طوى الفيافى كما تطوى البسط وإنه ليتابعه ببصره ولكن الجبل « عيلم » حال دون الرؤية إنه يرد حديد الطرف غرثان صاديا إن الطرف كان يريد أن يشبع من رؤية ذلك المفارق وكان يود لو ارتوى ولكنه عاد جائعا ظمآن .

ويبدو ندم الشاعر وحسرته من الفراق فى تمنيه لو أنه توثق من أمسه وعرف النوى قبل أن تعرفه وتمنيه أن يكون الفراق قصيراً كما كان اللقاء

قصيراً . وتنويع الأسلوب بين الخبر والإنشاء يناسب تنويع الحياة بين اللقاء والفراق وقد بدا الندم والحسرة فى قوله : فراقك يشجينا » فى هذه العبارة الخبرية التى توحى بألم الفراق ومرارته والتى اتخذها الشاعر نقطة انطلاق حيث جمعت خلاصة رأيه فى الفراق إنها العنصر الفكرى الرئيسى الذى سيشرحه الشاعر ويفصله فيما بعد . كما تمثل الندم والحسرة فى الاستفهام « كيف » وفى التمنى « ليت » وفى أداة الاستفتاح « ألا » وفى نداء الراحل . ثم يخفف الشاعر من هذا الألم بذكر أيام الطفولة وإن كانت حلاوتها تزيد فى الأسى إنه يذكرها وهو بين الفرحة والترحة الفرحة بما كان فيها من براءة وصفاء والترحة لانقضائها إنه يقول :

أتذكر إذ كنـــا صغيرين نلـــتقى
غبيين لا نـــدرى الحيـــاة كما هيـــا

خليين إلا مـــن هوى متبـــادل
عزوفين عـــن دنيـــا تجن الدواهيـــا

بريئين لـــم يخطـــر بخاطرينهمـــا
هوان الهـــوى أو يركبـــا الحب غاويا

درجنـــا عـــلى فجر الهوى وضحائه
ولمـــا يجـــد منا قـــلى وتجافيـــا

وسوف نـــرى بعـــد الغداة أصيـــله
وليس يـــرى إلا رضـــا وتصافيـــا

وأحمـــد حب أن تكـــون محببـــا
وأن لا تـــرى فيمـــن تحب مضاهيـــا

هكذا كان حب الطفولة ساذجاً بريئا لا يعرف ما تخبئه الحياة إنما هو حب طاهر عزوف عن مطامع الدنيا وهذا أحمد حب . والشاعر حين يذكر حب الطفولة البريئة يأسى على انقضائها وقد غلب أسلوب الخبر على حكاية هذه الذكريات الحلوة التى بدأت على فجر الهوى وضحاه وغداته وأصيله.

خالية من الهوان والقلى والتجافى وليس فيها إلا الرضى والتصافى .

وبعد هذه الاستراحه العاطفية التى أضاءت جوانب النفس بحب الذكرى. تنبه الحبيبان على واقع الوداع فتعانقا وانهمرت منهما الدموع وتعطلت لغة الكلام لحظات وتكلمت لغة العيون « فرجعت فيه الطرف ترجيع مشفق ورجع فىّ الطرف وسنان حالما » . ثم عادت لغة الكلام وتمنى الشاعر لو يقبل الفراق فدية إذن لفدى حبيبه بروحه ولكن هذا الحبيب يذكر له أن الفراق يذكى الغرام فما ينبغى لك أن تلقاه بنفس حزينة فستحمد منه الشجو والوجد والبأس والحبيب يخشى الفراق عند التلاقى لكنه عند الفراق يأمل اللقاء :

ولما تعانقنا وحان افتراقنا

بكى وحبست الدمع فانهل آبيا

فكفكفت من دمعى وكفكفت دمعه

وقال ارعوى إنى سأرجع ثانيا

فرجعت فيه الطرف ترجيع مشفق

(ورجع فى الطرف هيملن ظاميا)

ورجع فى الطرف وسنان حالما

تطوف به الذكرى فيرتد صاحيا

فقلت لو أن البين يرضى بفدية

ويقصر عنا كنت بالروح فاديا

فقال أليس البين يذكى غرامنا

ويشعل حباً كان بالقرب خابيا

فمالك تلقاه بنفس حزينة

وعين سكوب وهو يلقاك حانيا

ستحمد منه الشجو يشرف بالمنى

على جنة مادمت فى الشجو فانيا

ستجهد منـه الوجد يلقـاك عاصفـا
فتلقاه طـوداً لا يزعـزع راسيـا
ستجهد منـه البأس يلقـاك كاشراً
فتلقـاه بساماً بحـالك راضيـا
إذا خفت مـن بعـد اللقـاء قطيعـة
فإنك إن فارقت ترجـو التلاقيـا
وإن خفت فى القربى من الحب سلـوة
فإنـك لا تلـقى مـن البعـد ساليا

هذه كلمات فنان مصوِّر يصوِّر بالحركة حركة العناق وبالنظرة المشفقة والحانية ونلاحظ أن القصيدة فى البيت الثالث من هذا المقطع ذكرت الشطر الأول ولم تذكر الشطر الثانى فأكملناه نحن هكذا .

ورجـع فى الطرف هيمان ظاميـا

ولا ندرى لماذا حذف هذا الشطر ودار حوار بين الحبيبين عن الفراق أعذاب هو أم غرام يراه الشاعر عذاباً « فقلت لو ان البين يرضى بفدية ويراه الحبيب إذكاء للغرام » وهى رؤية شاعر فنان لأن الحرمان يولد الفنون والإشباع يميت الفنون . وفضلا عن التصوير بالحركة والنظرة كما ذكرنا فثمة تصوير جزئى فالبين يذكى الغرام ويشعل الحب كأنما هو نار الحب المقدسة وهو يلقاك حانيا وأنت تلقاه حزينا وهكذا .

بيد أن الشاعر لا يؤمن إلا بواقعية الحب لا بصوفيته لا يريد واقعا مريراً وإن أعقبه الفرج يخاف من الآلام ويحب اللذة الحاضرة فالهوى عنده ليس هجراً ووصلا ولكن قرب ووصل دائمين ، لا يؤمن إلا بواقعية الحب ولذة اليوم لا الغد وقد كان ينعم بقرب حبيبه ولذا فهو لا يقوى على بعاده إنه يرفض الحب الأفلاطونى الذى يرمى بصاحبه فى عالم المثل ويدعه يتشوق إلى غاية لا تنال ولا قيمة للحب الذى لا يغذى مشاعره بل يحطمها ويريه عذاب الهون وإنما هى واحدة من اثنتين إما أن يقضى العمر كالطير شاديا أو يقضيه كالبوم ناعيا وقد اختار لنفسه الأولى فقال :

فقلت له إنى امرؤ أمقت الدجى
وإن كان صبحى خلفه متواريا

أخاف من الآلام ما كان ماثلا
وأهوى من اللذات ما كان ثاويا

أريد الهوى وصلاً وقرباً فإن يعد
قلى وبعاداً لم أكن منه صاليا

إذا لم أنل من واقع الحب بغيتى
فما ضرنى ألا أنال الأمانيا

وأنى لا أدرى أأحيا إلى غد
وأدرك مما قد أجن مراديا

أأترك يومى حافلا بمسرتى
وأرقب يوماً قد تحجب نائيا

لقد كنت ريانا فأصبحت ظامئا
وقد كنت شبعانا فأصبحت طاويا

ولست بصوفى الهوى متشوق
إلى غاية ترمى بنفسى المراميا

ولا دنف مستغرق فى عماية
ومعتنق حبا يشيب النواصيا

صريع متى يزجر عن الحب خائبا
يقل فى الغد المأمول ألقى جزائيا

وما نفع حب لا يغذى مشاعرى
ولكنه يسطو عليهن ضاريا

يرينى عذاب الهون إن جئت ضارعاً
فإن رحت غضبانا تبرج داعيا

إذا لم أقض العمــر كالطـــير شاديا
فسوف أقضى العمــر كالبــوم ناعياً

وطال بالحبيبين الحديث ثم أفاقا بعد أن صرفا فى ذلك وقتا طويلا تمنيا لو صرفاه فى تساقى كؤوس الحب ، وقد أزمع الركب المسير ومع ذلك فكلام العاشقين لا يمل ولا سيما فى لحظات الوداع وتلك حبيبة الشاعر تذكر له أن تلك سنة الحياة وصال وهجر وحرب وسلام وأن الحياة لو لم تكن كذلك لكانت بغيضة ومن يطلب السعادة لم يكن خليقا به أن يتعالى عليها ، وأننا نعرف طعم الحلاوة إذا ذقنا المرارة ، وأن الحياة الرتيبة تسبب الضجر للإنسان ، وكذلك حالات الفراق وحالات اللقاء تمنح حياة المحبين الدفء والحرارة فالنقيضان فى الحياة يتعاقبان رضي وسخط وحلو ومر ووصل وهجر .

ولكل من النقيضين سحره وجماله وإن كان سحر السخط أقسى وسحر النوى أقوى من سحر الظلام ولكن إذا أظلمت دنياك فارتقب السفا وافترق الحبيبان فانهارت لحظات السعادة تلك ولم يعد من رجاء لا فى نظرة معسولة ولا فى كلمة حلوة ، وتلقى العاشق درسياً فى الحب هو أن الهوى ليس هيناً على القلب حتى يلهو به الإنسان .

فقال صرفنا الوقت فى العتب ليتنــــا
صرفناه تزويـــداً لنـــا وتساقيـــا

هــــلم فإن الركب أزمـــــع سيره
(وهــــذا نذير البين فى الأفـــق باديا)

ولا تتفلسف فالحيـــــاة بغيضــــة
إذا لــــم تــكن حرباً وسلماً تواليـــا

ومــــــن رام نشدان السعادة لم يــكن
خليقـــا بــــه نشدانها متعاليـــــا

إذا لـــم تذقك الحادثات مـــرارة
فإنك لن تستطعم الحـــلو هانيـــا

ستضجـــر من نعمى الحيـــاة رتيبـــة
وتشتاقهـــا لونـــا من البؤس كابيـــا

وتألف حـــالات الفـــراق فتنتهى
من الحسن أن يـــزور عنك مـــلاحيا

فللسخط سحر مثلمـــا يسحـــر الرضـــا
وإن كان سحر السخط أقسى معـــانيا

إذا أظلمت دنيـــاك فارتقب السنـــا
فإن السنا مازال يتـــلو الدياجيـــا

وغـــادرنى فانهـــار ما كنت راكنـــا
إليـــه وجافانى الذى كنت راجيـــا

وعلمنى حبيـــه أن ليس هينـــا
على القلب أن يهـــوى كمـــا شاء لاهيا

وقد ترك الشاعر الشطر الثانى من البيت الثانى فأتممناه كما بدا لنا والقصيدة من الوجهة الفنية متماسكة البناء فأفكارها واحدة وموضوعها واحد والجو النفسى الذى يسودها واحد وتكشف القصيدة عن فلسفة الشاعر فى الحب والحياة فهو يؤمن بواقعية الحب وأن الحياة مزيج من الخير والشر ولكل سحره وإن كان سحر الشر أفتك بالإنسان وهى نفس الفلسفة التى شاهدناها عنده فى « محاورة نفس » .

وكأن الشاعر يريد إشراك القارىء معه فى عملية الإبداع الفنى ومن ثم ترك له شطرين ليتمهما هذا عند حسن الظن وما لم تكن يد الرقيب الصحفى آن ذلك قد امتدت إلى الشطرين .

وعلى كل فالقصيدة من عيون الشعر السعودى إن لم نقل العربى كله وتشعرنا

(المنهل)

بأنها نتيجة تجربة إذ هى تقدم صورة نفسية كاملة عن الفراق والذكريات والوداع وفلسفة الحياة والحب كما تبدو لعاشقين فى ساعة الوداع .

من الأعمــــاق

قصيدة للأستاذ محمود عارف [١] :

فى لحظة استغراق شاهد الشاعر لونين من الصور :

الأولى هذه الصور التى التقطها من الواقع .

والثانية صور المنى .

وبين هذين اللونين من الصور بون شاسع يزيد على مدى الآفاق أما صور المنى فقد رآها :

فى الشاطىء المرموق من نفس بـــدت
صـــور المنى فى لحظـــة استغـــراق

ألقيت معظمهــــا يفيض نصـــاعة
وقليلهـــا متضـــائل الإشراق

فالخـــير فى جنبـــاته متأصــــل
يهب التـــأمل والشعور الـــــراقى

والنبـــل فى أرجـــائه مستحـــكم
طـــىّ الفؤاد الملهب الخفـــاق

والطهـــر فى أنحـــائه متغلغـــل
ضمن الدم المنساب فى الأعـــراق

إن صورة المنى بدت فى الشاطىء المرموق من نفس الشاعر وتمثلت هذه الصور فى الخير والنبل والطهر فهو يعتقد أن الخير له وجود جوهرى قائم بذاته مستقل عن اللذات الحسية والإنفعالات العاطفية المعهودة وهذه بقية من بقايا التفكير النظرى المجرد الذى كان يعنى ببحث الماهيات الثلاث :

(١) المنهل : عدد شوال وذى القعدة ١٣٧ هـ ص ٦٧ — ٦٨ .

الخير والجمال والصدق لقد اعتقد الشاعر فى وجود جواهر مستقلة بذاتها أو كما سماها صور المنى هى الخير والنبل والطهر وليست الأشياء الخيرة أو النبيلة أو الطاهرة إلا مجالى جزئية أو كما يقول المناطقة (ماصدقات) له ولكن له كينونته القائمة بذاته وبالرغم من وضوح المعنى ودلالة الألفاظ عليها دلالة ممتازة إلا أننى لم أستسغ كلمة « ضمن » فى قوله : « ضمن الدم المنساق فى الأعراق » فهى كلمة مبتذلة ومثلها كلمة معظمها فى البيت الثانى .

ولقد حاول الشاعر تحقيق هذا الاعتقاد والبحث عنه فى واقع الحياة فبحث عن الرجل الخير وعن الرجل النبيل وعن الرجل الطاهر فماذا رأى ؟ وجد أن طريق هؤلاء مفروش بالشوك والعقبات :

وبقية الصور المطيفة حوله
تمتد حيرى فى مجال سباق
تعتاق مجراها مصائب جمة
طافت بجو النفس فى إطراق
فإذا مشت تبقى الحياة رقيقة
تمشى إليها مشية المعتاق
والويل للرجل النبيل إذا مشى
بين الأنام بواجب الأخلاق
تنتابه العقبات وهى شديدة
أيان يذهب أدنه[1] بلحاق
وحبائل العقبات تحبك فخها
كف ابن آدم من خيوط شقاق
ما الصيد من أغراضه حين انبرى
للصيد بل شبق إلى الإرهاق

---
(١) أدنه أى تقدمه .

وإذا الذى يلقـــاك يومـــاً باسمـــا
متطلعـــا كتطلـــع المشتـــاق
فى نفسه يخـــفى الأذى متربصـــا
يومـــاً ليؤذى دون ما إشـــفاق
فـــإذا صـــبرت على أذاه نبـــلة
متناسيا ألـــم الأذى المنســـاق
حسب النبـــالة مـــن وسائل عاجز
والصـــبر حيـــلة خيفـــة ونفـــاق
وإذا لسانك بالعفـــاف حبستـــه
عـــن ذم مـــن أرخاه بالإطـــلاق
ظـــن العفاف جبـــانة وتقيـــة
والصـــمت ضعفـــا جـــاء باستحقاق
هـــذى هى الصـــور التى شاهدتهـــا
فى معشر نشأوا عـــلى الإخفـــاق
ما بين عالمهم وعـــالم خاطـــرى
بعـــد يزيد عـــلى مـــدى الآفـــاق

هذه هى الصور التى التقطها من الواقع فوجدها خالية من الجوهر ووجد البون بعيداً بين الواقع والمثال بين عالم الناس وما فيه من صور وبين عالم خواطره وصور مناه فالصور المحسوسة المعبرة عن الجوهر حائرة فى الحياة تلاقى فى مجراها مصائب جمة إنها تريد أن تكون واقعاً ملموساً فى حياة الناس تريد أن تتمثل فى الرجل الخير والرجل الطاهر والرجل النبيل حتى لا تكون فكرة تجريدية تعيش فى ذهن صاحبها فقط ولكنها تجد طريقها مليئا بالعقبات .

والويـــل للرجـــل النبيـــل إذا مشى
بـــين الأنـــام بواجب الأخـــلاق

والحياة نفاق فالرجل يلقاك باسما وهو يخفى فى نفسه الأذى .

والناس لا يعرفون معنى الصبر والنبل والعفاف ويعدون ذلك جبنا وخوفاً .

هذه هي الصور التي شاهدها الشاعر في دنيا الناس وفي عالمهم وشتان بين عالمهم وعالم خواطر الشاعر ولذا عاد الشاعر إلى الشاطىء المرموق من نفسه عاد إلى صور المنى عاد إلى لحظة الاستغراق والتأمل عاد يغني لقلبه ولنفسه فماذا قال :

القلب كالأوتـــار ينطقـــه الهـــوى
إمـــا أحس بلذعـــة الإحـــراق

فـــيردد الألحـــان في روض المنى
كالطـــير يسجـــع في ذرى الأوراق

في لحنـــه (آه) الحـــزين وشجـــوه
شكوى العـــذاب وحرقـــة الأشواق

والنفس كالأدواح تـــذبـــل تـــارة
في حـــين تـــورق أيمـــا إيراق

وتـــكون كالأزهـــار تنفح بالشذى
وتفيض فيض الجـــدول الرقـــراق

وتـــكون كالأجـــواء في سعـــة المـــدى
تهـــتز بالإرعـــاد والإبـــراق

فالبشر يلهمهـــا السعادة . والأسى
يضفـــي عليهـــا ظـــله كرواق

والنفس إن تغـــنم قشور سعـــادة
فهي التي تعـــطي مـــن الأعمـــاق

نلاحظ أن الشاعر ينشد السعادة وقد بحث عنها في دنيا الناس فلم يجدها فليبحث عنها في روض المنى وعالم الأحلام والمثل وقلبه كالأوتار يردد الألحان كأنه الطير يسجع ، وتسمع في لحنه آه الحزين ، ونفسه كالأدواح

مرة تذبل ومرة تورق أو كالأزهار تنفح بالشذى أو كالأجواء سعة وراحابة إنها تنشد السعادة ولكن الأسى يضفى عليها ظله كرواق .

والنفس إن تطعم قشـــور سعـــادة

فهى التى تعطى مـــن الأعمـــاق

أرأيت قناعة الشاعر ورضاه من السعادة بالقشور لأن النفس إن تغنم هذه القشور وما أجملها من غنيمة النفس إن تغنم هذه القشور تعطى بصدق وإخلاص من الأعماق .

القصيدة ذات وحدة فنية تمثلت فى موضوع واحد هو نشدان السعادة والرضا منها بالقشور لأن السعادة هى التى تفجرينابيع العطاء فى الإنسان أما الشقاء فيعفى على هذه الينابيع .

وتمثلت الوحدة الفنية أيضا فى أفكار القصيدة التى ارتكزت على عنصرين :

١ — صور المنى :

٢ — والصور التى شاهدها فى معشر نشأوا على الإخفاق .

والعلاقة بين الصورتين التضاد وصور المنى هى المقصد الأسنى والمطلب المرجى أما الصور التى شاهدها فجاءت عرضاً ومن أجل الموازنة وإثبات الفارق بين الصورتين فلما تبين له قبح الصور التى شاهدها عاد إلى صور المنى وروضها واستقى صوره من الروض وما يتصل به الأوتار — الألحان — الطير يسجع الأدواح تذبل وتورق — الأزهار تنفح بالشذى — الأجواء الواسعة وكل هذا يضفى على النفس سعادة يرضى منها بالقليل وبالقشور لأن النفس التى تغنم قشور السعادة هى التى تعطى من الأعماق .

إن الجو النفسى فى القصيدة واحد من أول بيت إلى آخر بيت وهذا يدل على أن الرؤية الشعرية كانت واضحة لدى الشاعر وأنه تمثل فلسفته التجريدية كل التمثيل وإن كنا فى النهاية لا نقول إن الشاعر صور الحياة والتقط مناظر منها وإنما نقول إن قصيدته تصوّر انعكاس الحياة على نفسه .

شاعر يهبط إلى وادى الحياة :

لعبد القدوس الأنصارى :

حدثنا الأنصارى [١] بأنه تأثر بالشاعر على محمود طه ونرى أن واجب النقد التحليلي هو البحث عن ألوان هذا التأثر ومظاهره ومن ثم اخترنا قصيدتين متشابهتين للشاعرين الأنصارى وعلى محمود طه محاولين الموازنة بينهما والتعرف على الشخصية الفنية لكلا الشاعرين ومتسائلين : أكان الشاعر السعودى صدى الشاعر المصرى أم أن لكل منهما طابعه الفنى وملامحه التى تميزه ؟ وأن التأثر لا يعنى التقليد والمحاكاة وإنما يعنى الإعجاب وتقدير الآثار الفنية وضمها إلى الرصيد الفنى للمعجب ؟

سنعرض لقصيدة الأنصارى (شاعر يهبط إلى وادى الحياة (وقد نشرت فى (المنهل [٢]) وسنعرض لقصيدتين من قصائد على محمود طه نشرتا فى ديوانه الأول (الملاح التائه) عام ١٩٣٤ م أما القصيدة الأولى فبعنوان (ميلاد شاعر) ولن نقف عندها طويلا لأنها وإن كانت من مطولات على طه إلا أن ما يقابلها من قصيدة الأنصارى لا يعــــدو المقدمة وفكرة الهبوط وأما القصيدة الثانية لعلى طه فهى (الله والشاعر) وسنبدأ بالأنصارى الذى تتصف قصيدته بالتطلع إلى الأعالى والدوى والولع بالجانب الروحى من حياة الإنسان فقد رسم لقصيدته منذ العنوان جوا من الجلال والروحانية بما تشتمل عليه من طوح وارتفاع وعمق وحين نتجاوز العنوان إلى القصيدة نجد أنها ضمت شعراً جمع بين الانفعال المتوهج الأصيل وبين الفكر الفلسفى العميق .

وتقع قصيدة (شاعر يهبط إلى وادى الحياة) فى ثمانية وثلاثين بيتا وهى من حيث الموضوع والبناء العام تنقسم إلى أربعة أقسام وخاتمة وسندرس هذه الأقسام فيما يلى بتلخيص مضمونها والتعليق عليها ويشمل القسم الأول من هذه القصيدة الأبيات من ١ — ١٣ : فالشاعر فى برجه العاجى وفى أوج سماه ينظر إلى وادى الحياة ويثنى أجنحة الفكر لكى يهبط الوادى ويعيش فيه

---

(١) المنهل عدد ربيع الأول والثانى ١٣٦٩ هـ .

(٢) المنهل عدد ذى الحجة ١٣٥٦ هـ — فبراير ١٩٣٨ م .

ويصيد الأنس وينعم بالحب فى سمو وعفاف ويجيل الطرف إلى وادى الحياة لعله يرى ما يسر العين من حياة غضة هادئة . لقد ظن الشاعر أن الحياة سلما يرقى به إلى السعادة وجنة ليس فيها شكاة ولكن بدا له أن هذه أوهام شاعر وأن الحياة ملأى بالأذاة :

نظـر الشاعـر مـن أوج سمـاه
نظـرة الهـانى إلى وادى الحيـاة
وثنى أجنحـة الفـكر لـكى
يهبط الـوادى ويحيـا فى ربـاه
ويصيـد الأنس مـن مـكانه
حضراً كانـوا هـمُ أو هـم بـداه
ويغـذى السمـع فى تحنـانه
بهـدير البلبـل المحى صـداه
ويهـزُّ النفس فى نبـوتهـا
بصبـا نسماتـه الذاكـى شذاه
ثمـلا بالعـذب مـن أنهـره
جانيـا مـن كرمه أشهى جنـاه
طائعـاً للحب فى أحـكامـه
فى سمـو وعفـاف وتقـاه
ويجيـل العـين فى أنحـائـه
فـيرى ما يبهـج العـين رؤاه
مـن حيـاة غضـة هـادئة
وشيت أكنـافهـا كـل رباه
وصفـاء وإخـاء شامـل
واحتشام ليس يعـروه سفـاه
هـكذا الشاعـر قـد خال الحيـاة
سُلماً يـرقى بـه صرح هنـاه

هكذا الشاعر قد خال الحياة
جنة تسمو على كل شكاه
وهم الشاعر فيما ظنه
إن دنيا الناس ملأى بالأذاه

هبوط الشاعر من أوج سماه إلى وادى الحياة حدث كبير كان ينبغى على الشاعر أن يبين أثره فى الكون ولكنه لم يفعل لأنه ظن الحياة سلم الهناء وجنة المأوى وقد خاب ظنه فكشف فى مقدمته عن ختام قصيدته (فدنيا الناس ملأى بالأذاه) مساوية من حيث الفكرة لآخر بيت فى القصيدة وهو قوله :

إنما تحيون فى دنياكم
فوق بركان قد استشرى لظاه

لقد أوجز الأنصارى فى هذا القسم وكان حقه أن يطنب وغلب فكره عاطفته وإن حاول أن يثنى أجنحة الفكر . أما الشاعر على محمود طه فقد تناول فكرة هذا القسم فى قصيدة طويلة تربو على المائة بيت وعنوانها (ميلاد شاعر) واختلفت رؤيته الشعرية عن رؤية الأنصارى فهو معتز بفنه فخور به كالأنصارى .

فهو ليس إنسانا عاديا وإنما له رسالة وقد حملها من أوج سماه وهبط بها إلى الأرض .

هبط الأرض كالشعاع السنى
بعصا ساحر وقلب نبى
لمحة من أشعة الروح حلت
فى تجاليد هيكل بشرى
ألهمت أصغريه من عالم
الحكمة والنور كل معنى سرى
وحبته البيان ريا من السحر
به للقلوب أعذب رى

والطبيعة من فجر وصباح ونهار ومساء وليل وقمر ورياض قد احتفلت بميلاد الشاعر :

حينما شارفت بـــه أفـــق الأرض
زهـــا الكـــون بالوليـــد الصبي

وسبا الـكائنـــات نـــور محيـــا
ضاحك البشر عـــن فؤاد رضي

فـــزها الفجر ما بـــدا وتجـــلى
وازدهى بالوجـــــود أي ازدهـــاء

وحين تتساءل الكائنات من ترى ذلك الوليد ؟ .

مـــن تراه ؟ رن صـــوت هتوف
مـــن وراء الحيـــاة شاجي الـــدوى

إن مـــا تشهـــدون ميـــلاد شاعر

لقد أطنب على طه حيث يجب الإطناب وغلبت عاطفته فكرته ومن ثم كثرت لديه الصور . الهبوط عند الأنصاري كان فكرة تجريدية يشك صاحبها في صحتها ومن ثم لم تترك آثاراً كباراً في الكون ولكن الهبوط عند على طه كان حركة ساحرة تركت سحرها وأثرها في الوجود .

والقسم الثاني من قصيدة الأنصاري يتحدث عن أحلام الشاعر ورؤاه ودوره في الحياة التي هبط إليها ويبدو أن الأنصاري لم يكن مقتنعا بفكرته كل الاقتناع فقد نظر إلى وادي الحياة من شرفته وتساءل : أترى الشاعر في فكرة الهبوط قد فقد الرشد أم أن وراءها حكمة ؟ وهداه الخيال البدوي إلى أن الناس غنم والشاعر هو الذي يحدو هذه الغنم : والشاعر يرى صفحات الكون من خلال كوته وإذا صوب إشعاعاته نحو أمر مبهم جلاه ومهما يكن من شيء فإن أبيات القسم الثاني من قصيدة الأنصاري تدور حول هذه الأمور :

١ — التردد فى أمر الهبوط — مهمة الشاعر فى الحياة — رؤى الشاعر قبس من نور الله يكشف له غوامض الأمور يقول الأنصارى :

ورنـــا الشاعـــر مـــن شرفتـــه
لربـــما الوادى الذى خـــال نقاه
أتـــرى الشاعـــر فى فـــكرته
فقـــد الرشد وأغـــواه هـــواه
أم تـــجرى الشاعـــر فى مهبطـــه
مستسرا حـــكمـــة فيهـــا هداه
إنمـــا الشاعر فى أحـــلامـــه
بشر ينشد غنمـــا بجـــداه
وإذا أخـــطـــأه توفيقـــه
بعض حـــين فبتقديـــر الإلـــه
وإذا حالفـــه توفيقـــه
بعض حـــين فمـــن الشعر سناه
جـــل حـــكم الله مـــن حكمتـــه
أودع الشعر بصيصا مـــن ضيـــاه
يهتـــدى الشاعر فى ديجـــوره
بأشعتـــه إن هـــو تـــاه
فـــإذا صـــوب إشعاعـــاته
نحـــو أمـــر مبهم كانت جـــلاه

ولست أدرى لماذا يكون الخطأ بتقدير الإله والتوفيق من الشعر سناه ؟ فالتوفيق وعدم التوفيق من الله وإن احتاط الأنصارى فجعل من حكمة الله أنه أودع الشعر بصيصا من ضياه . وعلى كل حال فهذا كان تصور الأنصارى للشاعر وأحلامه ورؤاه فكيف تصور على طه ذلك ؟ إنه يتحدث عن ذلك فى قصيدة (الله والشاعر) فى الأبيات من (١٩ — ٩٥) فهو يرفع

إلى الله شكاية الخلق وتؤلف هذه الشكاية جوهر القضية الفكرية التى تطرحها القصيدة وهى ضرب من الآلام العامة التى يشترك فيها البشر جميعاً دون أن يختص بها الشاعر وتبدأ هذه الفقرة بالمقطع التالى يخاطب به الشاعر خالقه فيقول :

لا تعـــدنى يـــارب فى محنـــتى
مـــا أنـــا إلا آدمـــــى شـــقى
طـــــرتنى بالأمس مـــن جنتى
فاغفـــر لهـــذا الغاضب المحنـــق
حنـــانك اللهـــم لا تغضـــب
أنت الجميـــــل الصفح جم الحنـــان
ما كنت فى شكـــواى بالمـــذنب
ومنـــك يارب أخـــذت الأمـــان

ونلاحظ أن ضمير المتكلم فى هذه الأبيات لا يعنى الشاعر وحسب وإنما يتسع حتى يشمل البشرية كلها فكأن الشاعر يمثل الإنسانية ثم يعرض الشاعر قضية البشر على الخالق وهو يلخصها بأنهم يعانون تمزقاً نفسيا سببه الصراع القائم بين أرواحهم وأجسامهم الخاضعة لتحكم الغرائز الدنيا على أن جوهر المشكلة مع ذلك ليس هذا الصراع وإنما هو الإحساس بأن الله يعاقب على الاستسلام إلى الغريزة الدنيا :

ما كنت إلا مثلمـــا ركبـــت
غرائـــزى مـــا شئت لا مـــا أشاء
فلتجـــزها اليـــوم بمـــا قدمت
وإن تـــكن ممـــا جنتـــه بـــراء
وفيم تجـــزى وهى لـــم تأثم
ألست أنت الصـــانع الطـــابعـــا
ألـــم تسمهـــا قبـــل بالميسم
ألـــم تصـــغ قالبهـــا الرائعا

الخــــــير والشر بهـــــا توأمــــــان
والحب والشهـــــوة فى طبعهـــــــا

حـــــــوّاء والشيطـــان لا يـــــبرحان
يساقطــــــان السحــــــر فى سمعهــــــا

وهنا لابد لنا من وقفة نوازن فيها بين نفسية الأنصارى ونفسية على طه فالأنصارى حذر هادىء يحدو غنمه ويرضى بتقدير الإله ويرى الشعر بصيصا من ضياء الله يهدى الشاعر به فى دياجير الحياة فالهدوء والاتزان والسير فى نور الإيمان كل تلك الخصال تطبع نفسية المنتج السعودى وتعطيه شخصية متميزة أصيلة لا مقلدة ولا محاكية وإنما متأثرة وهى فى تأثرها تأخذ وتدع تأخذ ما يحلو لها وما يتفق مع بيئتها وتقاليدها ودينها وتدع ماعداذلك أما نفسية على طه فمعها اندفاعات الذهن واندفاعات العواطف الشخصية معها ثورة مهذبة من عبد ضعيف يجأر إلى مولاه وإن أساء معه الأدب ولكنه مع ذلك يكتب بروح من يؤمن إيمانا عميقا بالله فلا يختم مطولته إلا بمشهد خاشع مؤثر من الابتهال إلى الخالق يرفعه هو والبشرية كلها من بين سحب البخور وأمواج الدموع الحارة التى تغسل النفوس من ذنوبها ومثل هذه الروح بعيدة عن عصيان الخالق .

وإن كنت أشم فى دفاع على طه عن الإنسان وفى صلاته هو والبشرية أشم فى كل ذلك رائحة مسيحية فهو يذكرنا بالرهبان والقساوسة التى يطلبون المغفرة للناس نيابة عنهم ويصلون ويحرقون البخور نفسية على طه مخالفة لنفسية الأنصارى فى أسلوب الضراعة وفى التأدب مع الله وعدم التأدب وهو اختلاف جوهرى فى عالم الأدب ولكن الشاعرين اتفقا فى الإيمان بالله والخضوع له . والذى أهاج على طه أنه تصور الإنسان ضحية للطبيعة التى كون منها ولا يد له فيها وبهذا يدافع الشاعر عن البشر بين يدى الخالق ثم هو يرى للمعصية عذراً فالإنسان إنما يقع فى الإثم لأنه يريد أن يفر من آلامه الروحية بأن يغرقها فى بحر اللذة وكأن متع الجنس مهرب له من عذاب

الروح وأكبر ألم عند على طه هو ألم الشعور بالموت المتربص وراء الليالى يرتقب الفرصة ليثب فيها ويقضى على الإنسان إلى أبد الزمان :

أيصبـــح الإنسان هـــذا الرمـيم
والجيفـــة الملقـــاة عـــبر التراب

أيستحيـــل الـكون هـــذا الهشيم
والظلمـــة الجـاثم فيهـــا الخـراب

نحن إذن بإزاء مشكلة الموت يحسها الشاعر بعمق ويتألم لها فلا يجد مهرباً من العذاب إلا إلى ملذات الجنس وهو يجزع أمام عمق السر الذى يحف بالموت وبالحياة نفسها فهل يلام إذا ما التزم التشاغل والغلو فيه ؟ هذا رأى الشاعر لا رأينا نحن فإننا نرى أنه أسرف على نفسه وعلى الإنسانية حين نظر إلى جانب العذاب ولم ينظر إلى جانب الرحمة (نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الأليم) وحين ينتهى الشاعر من إلقاء خطابه بين يدى الله يختم خطابه قائلا :

هـأنـــذا أرفـــع آلامــــه
إلى سمـــاء المنقـــذ الأعظـــم

أنـــا الذى ترســـل أنغـــامه
قيثـــارة القـــلب وناى الفـــم

ولكن أين وجد الشاعران : الأنصارى وعلى طه راحة الفكر ؟ لقد مرت بالأنصارى لحظة شك خفيفة فى أهمية هبوطه وجدواها أهو عبث أم أنه حكمة ؟ ولكن هذا الشك لم يطل به فما لبث أن عرف أحلام الشاعر ورأى فى سنا الشعر بصيصا من ضياء الله يهديه فى الحياة ويوجهه وكذلك على طه رأى راحة الفكر فى عالم الشعر وخيالاته العذبة الرقيقة فينطلق فى تلك الأفياء الهادئة تصحبه كآبة خفيفة أحيانا كما فى هذه الأبيات :

يارب مـــا أشقيتنى فى الوجـــود
إلا بقلـــبى ليتـــه لـــم يـــكن

فى المثـــل الأعـــلى وحب الخلود

حملتــــه العبء الـــذى لــــم يهن

خلقتــــه قلبــــا رقيق الشغاف

يهيم بالنــــور ويهــوى الجمــال

حلت لـــه النجــوى ولذ الطواف

بعــالم الحسن ودنيــا الخيــال

وعلى طه يعزى العالم عن حزنه بأغانيه فهو يقضى حياته يطوف بالجنان بين مطارف النور والندى يستقبل الضحى بالترنيم وتتعاقب عليه الفصول وهو يردد أنغامه .

أما الأنصارى فى القسم الثالث من قصيدته ويشمل الأبيات من (٢٤ — ٣٣) فقد احتكم إلى قاضى الشعر فى أمر وادى الحياة وسكانه ذلك الوادى الذى تخيله روضة تشتهيها نفسه وسكان تلك الروضة يعيشون فى حب طاهر عفيف فى صفاء وإخاء شامل واحتشام فماذا حكم قاضى الشعر ؟ لقد حكم بأن الروضة المشتهاة بركان وأن سكانها يعيشون فى نكد :

حــكم الشاعــر فى منطقـــه

قاضى الشعــر فأهـــداه قضــاه

وجـــلا الأمـــر لـــه منظـاره

عنــــدما صــوّبه نحـــو صواه

فـــإذا الـــوادى الـــذى قـــد خـــاله

روضــــة غنـــاء فيهــــا مشتهاه

هـــو بركان لقـــد ثارت بـــه

سورة الطيش فـأودت بـــــرؤاه

وإذا قطــــانه فى جـــوفـــه

طـــالمـــا غشاهـــم سيـــل بـــلاه

فهـم مـن عيشهم فى نـكـد
مستديم داؤه أعيـا شفـاه
وهـم فى الخـير إن فتشتهـم
نمـر صـالحهم مـلء ربـاه
وإذا البـلبـل فى تغـريده
منـذر بالشؤم فى أشجى غنـاه
وصبـا الوادى سمـوم قاتـل
مستطير مـن براكـين ثـراه
كـل شيء فيـك ياوادى الحياه
مؤذن بالويـل فى أقصى مـداه

التقى الشاعران حول الإحساس بشقاء البشر وآلامهم وأن الحياة جحيم لا يطاق وكل شيء فيها مؤذن بالويل إلى أقصى مداه ولكن موقف الشاعرين من شقاء الحياة وآلام البشر قد اختلف أما على طه فقد دافع عن الناس ورفع صوته بالشكاية إلى الله وانساح فى الأرض يغرى العالم عن حزنه بألحانه وأما الأنصارى فقرر العودة إلى برجه العاجى بعدما استيأس من سعد رجاه وهذا موضوع القسم الرابع من قصيدة (شاعر يهبط إلى وادى الحياة) وقد أنهاه الشاعر بحكمة استخلصها من هذه الرحلة الخيالية من عالم المثل إلى عالم الواقع وقد شمل هذا القسم والخاتمة الأبيات من (٣٤ — ٣٨) .

لقد قفل الشاعر من رحلته بعد أن أصيب باليأس مما رجاه من الهبوط إلى وادى الحياة فعاد إلى برجه العاجى ثم ألقى نظرة ساهمة على عالم الواقع ورمى من قلبه فى حسرة حكمة سجل فيها رأيه فى وادى الحياة والأحياء وهى أن الحياة بركان قد استشرى لظاه وضحايا البركان بطبيعة الحال هم الأحياء :

قفـل الشاعـر مـن رحلتـه
بعـدما استيأس مـن سعد رجـاه
واعتـلى فى جـوه ذا وجـل
من لهيب النـار أن يغـزو حمـاه

ثم ألـــقى نظـــرة ساهـــة
جمعت فى طيهـــا كـــل أساه
ورمى مــن فمـــه فى حسرة
حكمـــة سجـــل فيها ما ارتـــآه
إنمـــا تحيـــون فى دنيـــاكم
فـــوق بركان قـــد استشرى لظاه

رضى الأنصارى من الغنيمة بالإياب وخشى أن يمتد إليه أذى البشر فيتبعه لهيب النار ويغزو حماه . على أن الأنصارى يلتقى مع على طه فى مرحلة الفكر البرىء التى عاشها على طه فى صباه يوم كان يتنقل فى ليالى الشرق المقمرة ظاناً الوجود جمالا خالصاً لا يشوبه نقص ولا ألم .

الكـــون يبـــدو هادئا وادعـــا
كأنه الفـــردوس فى أمنـــه

فعلى طه ظن الوجود فردوساً وخاله الأنصارى روضة غناء مشتهاه ولكن كلا الشاعرين يدرك أن هذا المظهر الفردوسى للكون ليس حقيقيا إنما توحى به النظرة العاجلة السطحية فإذا حدق الشاعر تحديق الوعى صدمته الحقيقة المرة .

مـــا كـــان إلا ريثمـــا حدقـــا
حتى جلت دنيـــاه عـــن سرهـــا

أما الأنصارى فبعد أن ينجو بنفسه يلقى نظرة ساهمة ويقول فى حسرة :

إنمـــا تحيـــون فى دنيـــاكم
فـــوق بركان قـــد استشرى لظاه

هكذا قفل الأنصارى من رحلته واعتلى فى جوه فإلى أين ذهب على طه ؟ وفيم كان يفكر ؟ لقد كان يفكر فى سر الدنيا الذى تفضحه النظرة المحدقة المتأملة والشاعر يلخصه بقوله (الذئب والشاة وحرب البقاء) وقصة قتل دام بالباطل والبهتان ودم طاهر برىء يخضب أديم الثرى ومقتول يصرخ وقاتل

يقسو ثم يقبل الليل ويخفى معالم الجريمة ويضيع السر وراء صمت الليالى وتمضى الحياة كأنه لم يكن ظلم ولا دم . وهذا ما عبر عنه الأنصارى بالبركان ويصحو على طه من هذه التجربة الأولى مروعاً فيهيم فى الأرض على وجهه يبحث عن الأمن والسلام والرضا وما يلبث حتى يصل إلى روضة ذات ظلال ومياه فيتخذ فيها مجلساً على ربوة شعرية يمر فيها النسيم وتستغرقه فرحة هذا الجمال الهادىء الموحى ولكنه سرعان ما يستفيق على صدمة تهز أعماقه حين تقع عيناه على صل يهاجم عشا فيمزق ما فيه من صغار الطير بأنيابه وعند ذلك تدور الدنيا بالشاعر ويسد عليه الألم باب كل جمال ويتقزز من الطبيعة التى تصبح عنده رمزاً للدم المسفوك ثم يصرخ هارباً من هذا الجمال الذى تمده الطبيعة شركاً للأبرياء .

يا ضلة الشاعر أين النجاة
وأين أين المنزل الآمن
أكل واد طرقته خطاه
طالعه منه الردى الكامن
حتى إذا ضاقت عليه السبل
وعز فى الأرض عليه المقام
أوى إلى كهف بسفح الجبل
عساه يقضى ليله فى سلام

وهكذا يبدأ الشاعر مرحلة جديدة من البحث عن السلام والأمن ولعل الكهف رمز إلى فرار الشاعر من الحياة وهروبه إلى مأوى منعزل كما هرب الأنصارى إلى برجه العاجى فراراً من الأذى غير أن الإشكال ما يلبث حتى يلحق بعلى طه وهو فى الكهف فإذا زلزال مدمر يثير البحر وترتجف له الأرض وتعصف الرياح حتى كأن يوم الحشر قد أزف وحين يستقر العالم الثائر ويطلع النهار يخرج الشاعر من مكمنه فإذا عليها صمت القبور وينطلق الشاعر فيطوف بالأرض يرثى العالم والبشرية . ويبتهل إلى الله أن يحيط العالم برحمته ويرسم مشهد صلاة جامعة تقيمها البشرية كلها .

وهكذا نرى أن كلتا القصيدتين قد قدمت بحثا فلسفيا فى إطار من الشعر والصور والعواطف وقصيدة (شاعر يهبط إلى وادى الحياة) تعرض أزمة روحية يمر بها الشاعر إذ يتشكك أن يكون لعالم المثل والمبادىء وجود على الأرض فى وادى الحياة ومن ثم يهبط إلى هذا الوادى باحثاً عن الفردوس المفقود ولكن يتضح له أن ماخاله فردوساً هو بركان وأن أهل الأرض يعيشون فى نكد فيعود أدراجه وأما أزمة على طه فتدور حول ضعف الإنسان وضلاله وضياعه وأن لا سبيل إلى الخلاص إلا بالابتهال إلى الله وغسل النفوس بالدمع والندم والتوبة ومن ثم كان موضوع القصيدة الصلة بين الله والبشر .

وكلا الشاعرين يرى أن الشاعر يمثل أعلى النماذج البشرية وقد مال الأنصارى إلى الإيجاز والتركيز ومال على طه إلى التحليل والإطناب وإذا جاز لنا أن نحكم على الشاعرين فى هذا الموقف فإننا نرى أن الأنصارى حكيم وإنما الشاعر على محمود طه والأول وإن تأثر بالثانى إلا أن لكل منهما طابعه الفنى من حيث الأداء ومن حيث الإيجاز أو الإطناب والتجربة الشعرية محدودة عند الأنصارى فسيحة متسعة عند الملاح التائه وللملاح فضل الريادة والسبق والإبداع وللأنصارى حساسية فنية تلتقط الأوابد والشوارد فتقرأ بتذوق وتفهم وتعجب ثم تضيف ما قرأت إلى رصيدها الثقافى والفنى ليكون نوراً وهداية على الدرب ليس غير .

الفصل الثامن
فن السيرة أو ترجمة الحياة

١ – التعريف بهذا الفن وبالأسس التي يقوم عليها . فن السيرة في الأدب السعودي :

أولا : عبد القدوس الأنصاري رائد فن السيرة .

– قصة حياته بقلمه : مولده ونشأته وتعليمه والوظائف التي تولاها – شيوخه – الجانب الأدبي – في عالم التأليف – أنشطة أدبية أخرى – المفكرون والأدباء الذين تأثر بهم .

تراجم بقلم الأنصاري :

١ – حياة الفتح بن النحاس وشعره : خطة الدراسة – عقبات – أهمية الدراسة .

٢ – السيد محمد المرزوقي .

٣ – محمد بن مانع : نسبه وبيئته – ولادته ونشأته وتعليمه – رحلاته في طلب العلم – أساتيذه ودراساته ورحلته في نشر العلم – ملامحه وصفاته

٤ – الشيخ محمد العمري : الأبعاد السياسية والاجتماعية والشكلية – بيئته – نسبه ووصفه – مجمل حياته .

تراجم لمؤلفين أخرين :

١ – صقر الجزيرة لأحمد عبد الغفور عطار : الملامح العامة للكتاب كما يراها الدكتور محمد حسين هيكل .

٢ – (تقي الدين الفاسي) مؤرخ مكة في القرن التاسع الهجري للأستاذ حمد الجاسر : الاعتماد على المترجم له مع زيادة بعض إيضاحات – مولد المترجم له ونشأته ورحلاته – مشايخ تقي الدين الحسني وتلاميذه – الأعمال التي تولاها (نقد الترجمة) .

٣ — (محمد جميل حسن) لمحمد على مغربى : شخصية المترجم له — رسالة المعلم .

٤ — (محمد سرور الصبان (لعبد الله عريف :

حياة الحجاز فى العهد السعودى — تاريخ الصحوة — مركز الاستجابة — قاعدة الحب والبغض .

فـــــن السيرة :

هو الكتابة عن أحد الأشخاص البارزين والكشف عن عناصر العظمة عنده . والسيرة فى الواقع عملية تحليلية لكل مركب من عناصر كثيرة مختلفة هو الشخصية ومن خلال هذا التحليل تبرز القيم الإنسانية التى تنطوى عليها الشخصية والتى يهم الآخرين الإطلاع عليها[1] .

والشخصية مجموعة من المجالات فأنا مع أصدقائى غيرى مع أقاربى وأنا مع تلاميذى غيرى مع أساتذتى وأنا مع جارى غيرى مع الشخص الغريب وهكذا ففى كل حالة من هذه يظهر جانب خاص من شخصيتى يكون هو الغالب على الموقف وهو يظهر نتيجة لوجودى مع شخص معين فوجودى مع ذلك الشخص حدد لى مجالا معيناً للتفاعل والتفاهم والسلوك بعامة ففى دراسة العلاقات التى تجمع الشخص بآخرين وكذلك التى تتمثل فى تصرفات الشخص الخاصة فى المواقف المختلفة أستطيع أن أحدد مجموع المجالات التى تتكون منها الشخصية ولسنا نستطيع أن نتصور الشخصية بغير مجالات . فترجمة الحياة عملية فنية تجمع بين عمل المؤرخ من جهة ارتباطها بسيرة إنسان عاش فى بيئة بعينها وزمن بعينه وبين عمل المصور الفنان الذى يتخصص فى رسم الصور للأشخاص .

ولا يكفى كاتب ترجمة الحياة أن يحشد الحقائق التاريخية حشداً وإنما يحتاج إلى نوع من الحس الفنى فى اختياره وصياغته وتنسيقه لتلك الحقائق

(١) الأدب وفنونه لعز الدين إسماعيل ص ٢٧٥ .

وكذلك يحرص الرسام على أن يقدم صورة صادقة للشخص الجالس أمامه وذلك فى الوقت نفسه عمل فنى .

ومن ثم يتحدد عمل كاتب ترجمة الحياة مبدئياً فى جمع المصادر والحقائق وكل الوثائق المتصلة بالشخصية التى يترجم لها ثم تركيب صورة لحياة هذا الشخص بطريقة تجعل منها إلى جانب ذلك عملا أدبياً بكل ما للعمل الأدبى من مقوّمات .

وحين يترجم كاتب لحياة ما فإنه لا يهتم بوقائع التاريخ إلا من زاوية واحدة هى مدى ما كان لتلك الوقائع التاريخية من تأثير فى حياة المترجم له وتشكيل شخصيته وبلورتها .

وواجب كاتب الترجمة أن يزن الأمور ويتحقق من صدق المادة التى يجمعها ويفسرها . وكثيراً ما يواجه كاتب الترجمة تناقضاً فى المادة التى جمعها وقد يكون التناقض راجعاً إلى عيب فى المصادر نفسها وقد يكون راجعاً إلى نفس الشخص الذى يترجم له . ومن الخطأ نفى التناقض الثابت عن الشخصية التى يترجم لها ، وإنما يقتضينا الأمر إثبات هذا التناقض ومحاولة تفسيره بل إن تفسير هذا التناقض يصبح عملا أساسياً بالنسبة لكاتب الترجمة .

مهمة كاتب الترجمة : هى أن يصور لنا البطل وهو يستكشف الحياة شيئاً فشيئاً كما يحدث فى الواقع بالنسبة لكل فرد منا ، ولا شك أن نظرتنا إلى الأمور تتطور وتتبلور خلال مراحل حياتنا المختلفة فنحن إذن فى كشف مستمر لأنفسنا وللحياة من حولنا . ومن ثم فإننا نتعرف على ملامح هذه الشخصية خلال هذا الكشف المستمر .

فن السيرة فى الأدب السعودى :

أولا : عبد القدوس الأنصارى رائد فن السيرة :

هذا الفن نوعان سيرة ذاتية يكتبه الفنان عن ذاته هو وسيرة غيره يتناول فيها الحديث عن غيره من العظماء وقد برز الأنصارى فى النوعين الذاتى والغيرى .

للأستاذ عبد القدوس الأنصارى تراجم قصيرة تناول فيها حياة المشاهير فى العلم والأدب والإصلاح وقد التزم فيها طريقاً واضح المعالم فهذه التراجم أولا مبعثها الإعجاب والتقدير وثانياً فإن الأستاذ الأنصارى يبرز فيها صفات المترجم له سواء أكانت صفات شكلية أم موضوعية فهو يصف المترجم له وصفاً دقيقاً كأنما يرسم له لوحة فنية ويذكر النواحى التى تفوق فيها والموهبة التى اختصه الله بها والعمل الذى دخل به رحاب التاريخ .

والجدير بالذكر أن تراجمه جديدة فهو يخط فى حقول أبكار بمعنى أنه يتحدث عن شخصيات لم يسبق بالحديث عنها فى الغالب وهنا تبدو صعوبة البحث الرائد ويذكر له فى نفس الوقت شرف البدء والريادة فى هذا المجال وفن التراجم قديم جديد قديم اقترن بتدوين سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وبتدوين الحديث الشريف ومن ثم اتجهت عناية الباحثين حول شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم وحول أحاديثه الشريفة إلى العناية بالتحقيق والتدقيق لخطورة الموضوع إذ أنه يتعلق بالتشريع للأمة . ومن ثم كان منهج الجرح والتعديل .

بيد أن تراجم الحياة فى العصر الحديث اهتمت بالجانب الأدبى والفنى وتحليل الشخصيات ومن ثم فتح لها الأدب بابه وفن التراجم بهذا المفهوم جديد فى الأدب العربى الحديث وقد تأثر بمدارس نقدية عالمية ما بين شرقية

وغربية وبرز فيه أدباء عرب عمالقة مثل طه حسين والعقاد وهيكل بيد أن ما يكتبه الأستاذ الأنصارى لمجلة المنهل « » من تراجم يأخذ شكل المقالة. ومن ثمّ فهو يتناول أبرز القضايا فى حياة المترجم له .

وقد تعلو الترجمة وقد تهبط ولكننا يجب أن ننظر إليها فى هذا الإطار تراجم صحفية قصيرة تكتب للمرة الأولى ومن هذه التراجم حديث الأستاذ عبد القدوس الأنصارى عن سيرته الذاتية .

قصـــة حيـــاتى

فقد كتب ملخصاً لقصة حياته أو لنزهته فيها كما أسماها وكان ذلك فى ١٣٧٧/٢/٨هـ بمدينة جدة وقد اطلعت عليها فى كتيب صغير ملحق بعدد ذى القعدة وذى الحجة ١٤٠٣هـ — ١٩٨٣م من مجلة المنهل الغراء .

وقد استهل الأستاذ الأنصارى حديثه بتقديم نبذة من تاريخ ميلاده ونشأته وحياته العلمية وحياته فى الوظائف الحكومية فقال :

أنا عبد القدوس بن القاسم بن محمد بن محمد الأنصارى الخزرجى أماً وأباً ولدت عام ١٣٢٤هـ بالمدينة المنورة . وقد ماتت والدتى واسمها آمنة بنت محمد بن زين وعمرى نحو أربع سنوات ومات أبى وعمرى نحو ست سنوات وكفلنى المرحوم خال أبى الشيخ محمد الطيب الأنصارى عالم المدينة المنورة ومجدد شباب العلم الأدبى والدينى فيها .

درست على يديه أول ما درست القرآن المجيد فكتاباً منظوماً صغيراً فى سيرة النبى صلى الله عليه وسلم اسمه (قرة الأبصار فى سيرة المشفع المختار) ثم (الأجرومية) فى علم النحو وظللت أدرس لديه كتب النحو والصرف واللغة والمعانى والبيان والفقه والحديث والتفسير ... الخ حتى كانت سنة ١٣٤١هـ ففتحت مدرسة العلوم الشرعية بالمدينة المنورة أنشأها فضيلة المرحوم السيد أحمد الفيض بادى لتيسير التعليم الدينى والعربى بالمدينة المنورة ولتجديد شباب العلم فى بلد الرسول صلى الله عليه وسلم فعين فضيلة الخال رئيساً لمدرسيها ودخلتها طالب علم بها وفى المدرسة درست الدراسة الثانوية فالعالمية وأخذت الشهادة العالمية العالية منها بتفوق كان ذلك فى سنة ١٣٤٦هـ وكان قد حضر رئيس ديوان إمارة المدينة المنورة الشيخ إسماعيل حفظى رحمه الله الاختبار العمومى الذى أجرى لطلاب المدرسة إذ ذاك وكنت بينهم فلما ظهر له تفوقى أشار على وكيل أمير المدينة المنورة المرحوم عبد العزيز بن إبراهيم بأن ألتحق بالديوان إذ ذاك فوافق أمير المدينة على الفكرة فأبلغنى رئيس الديوان فوراً رغبته ورغبة الأمير

فى تعيينى بالديوان فوافقت بعد استشارة فضيلة الخال وثانى يوم بعد نجاحى فى الاختبار الشاق العنيف كنت جالساً على مكتبى فى ديوان إمارة المدينة موظفاً صغيراً بها أصغر من جميع الموظفين بالديوان كان ذلك فى غرة شهر رمضان ١٣٤٦هـ .

مكثت فى الديوان أتقلب فى وظائفه حتى سنة ١٣٥٩ هـ حيث صدرت إرادة ملكية — برقية — من جلالة المغفور له الملك عبد العزيز بن سعود إلى إمارة المدينة المنورة فى عهد المرحوم الأمير عبد الله السديرى وكيل إمارة المدينة المنورة بنقلى إلى مكة فى وظيفة رئاسة تحرير الجريدة الرسمية (أم القرى) فانتقلت إذ ذاك إلى مكة بأسرتى الصغيرة ومكثت فى رئاسة التحرير مضافاً إليها إدارة الشئون المالية للجريدة حتى سنة ١٣٦١ هـ حيث صدر أمر سمو الأمير فيصل نائب جلالة الملك بالحجاز إذ ذاك أن أنتقل إلى ديوان سموه. ومن يومئذ أى من سنة ١٣٦١ إلى ١٣٨٦ هـ مكثت فى ديوان سموه الذى كان باسم ديوان نائب جلالة الملك ثم صار منذ سنة ١٣٧٣ هـ ديوان سمو ولى العهد ورئيس مجلس الوزراء .

لقد تقلبت فى هذا الديوان بعدة وظائف : سكرتير مجلس الوكلاء فمساعد مدير الشئون المالية فمدير شئون المشاريع والأنظمة فمدير الشئون المالية فمستشار للشئون المالية فمدير عام الشئون المالية أخيراً .

شيوخـــــه :

١ — الشيخ الطيب بن إسحاق بن الزبير الأنصارى (ابن العم وابن الخال) .

٢ — السيد أحمد الفيض آبادى فى الحساب .

٣ — الشيخ عبد الغنى مشرف فى الجغرافيا والفرائض .

٤ — الخوجة شكرى الخطاط فى الخط العربى الأدبى .

٥ — مولوى محمد فى مبادىء اللغة الانجليزية .

الجانب الأدبي :

في أثناء الدراسة لاحظت أن ما كان سائداً من ألوان الإنشاء هو لون الإنشاء القديم المسجع الركيك فضايقني ذلك في نفسي وصرت أبحث عن منفذ جديد واتفق أن وردت إلينا كتب المنفلوطي : العبرات والنظرات وغيرها كما وردت إلينا في ذلك الوقت بعض الصحف المصرية الأدبية البلاغ الأسبوعي — الهلال — المقتطف فأثرت هذه على اتجاهاتي وصرت ألتهمها التهاماً وأعنى بمسايرة أسلوبها انفكاكاً من أسلوب الإنشاء المسجع الركيك الذي كنا نتلقاه من معلم الخط . وهكذا بدأت أرسم خطى الحديث جاعلا من مطالعاتي أستاذي الخاص ثم بدأت أزاول الإنشاء الجديث واتفق أن ورد ديوان حافظ كما ورد كتاب الأيام والشوقيات . وكان لي صديق زميل في الدراسة على شيخنا الشيخ محمد الطيب الأنصاري هو السيد عبيد مدني فعكفنا نحن الاثنين على هذا الاتجاه وسعينا لنشر الأسلوب الحديث الذي تزاوله في الناشئة في المدينة المنورة وقد بدئت الخطوة الأولى للحركة الأدبية الحديثة في المدينة المنورة بتوجيه الاستفتاءات الأدبية المحركة للنشاط الفكري وكانت أول يقظة أدبية حديثة سنة ١٣٤١ هـ وكانت المدينة منعزلة تماماً عن العالم تقريباً في أواخر عهد حكومة الملك حسين بن علي وما إن دخلت حكومة الملك عبد العزيز وانتشر الأمن واتصلت المدينتان المقدستان المدينة ومكة ببعض وعرف بعضهما عن بعض مالم يكن يعرف الأمر الذي أدى إلى مضاعفة محاولات الوثبة بالأدب عند الناشئة . . .

وفي سنة ١٣٤٥ هـ بدأت المحاولة تعطي ثمارها فبدأت الأماني الحالمة البعيدة المدى والتحقيق تطرق أدمغتنا بإنشاء صحف ومجلات تنشر أدبنا وأفكارنا وبدأنا ننشد عالماً أدبيا أفضل .

وفي عام ١٣٤٦ هـ نشرت أول مقالة لي في مجلة الشرق الأدنى التي كان يصدرها الأستاذ أمين سعيد بمصر وموضوع المقال كان جريئا بالنسبة لظروف ذلك العهد كان الموضوع (بماذا ينهض العرب) وقد أبديت رأيي في أن نهضة العرب مرتبطة بوحدتهم ووجدتهم مرتبطة بوجود زعيم عربي

يوقظ النائمين ويتقدم سير القافلة إلى قمم الوحدة المنشودة وأحدث المقال دويا . وقد أعجبت بالمقال كما يعجب المرء بأول وليد ثم نشرت بعدها فى صحيفة المرشد العربى التى كان يصدرها المرحوم عبد الله فضل باشا من أعيان (ظفار) بحضرموت نشرت بها عدة مقالات مطولة متعددة وتابعت النشر بعد ذلك فى الصحف العربية إذ لم تولد لدينا صحافة وطنية بعد فنشرت فى مجلة السياسة الأسبوعية وفى مجلة المقتطف بمصر وفى مجلة العالم الإسلامى بسومطرة وفى غيرها .

وفى عام ١٣٤٨ هـ اتضحت لدى سبل إصدار مجلة أدبية علمية تدفع عن العروبة والإسلام التيارات الجارفة إذ ذاك من الاندفاع نحو التغرب فى كل شىء وتجدد شباب الأدب العربى فى هذه البلاد فقدمت طلبا بذلك إلى إدارة المدينة المنورة وكان الاسم الذى وقع عليه اختيارى هو « المنهل » ورفع الطلب إلى سمو نائب جلالة الملك بالحجاز الذى رفعه بدوره إلى جلالة الملك عبد العزيز آل سعود .

ودارت المعاملة عدة دورات وعادت بعد نحو أربع سنوات إلى إمارة المدينة بالاستعلام عن مدى كفاءتى الأدبية والعلمية فقدمت ما كنت نشرته من مقالات فى الصحف الخارجية ورفع ذلك إلى الديوان الملكى العالى وفى ذى القعدة ١٣٥٥ هـ صدر الأمر الملكى بالموافقة على إصدار (مجلة المنهل) وبعد استكمال الإجراءات النظامية فى المحكمة المستعجلة صدر منها صك شرعى بالإذن لى بإصدار (مجلة المنهل) فبادرت بالشروع فى عملية إصدار المنهل وكان الأخوان السيد على وعثمان حافظ لديهما مطبعة قديمة صغيرة هى الوحيدة فى المدينة إذ ذاك فاتفقت معهما على طبع المنهل بها وقبل صدور العدد أصدرت منشوراً عن موضوعات المجلة المرتقبة وأهدافها .

وقد صدر أول عدد من المنهل فى ذى الحجة سنة ١٣٥٥ هـ ضعيفا مهلهلا فى طباعته وإخراجه ومواده وكل شىء فيه ولكنه خرج على كل حال . وكان صدوره إذ ذاك يعد شيئا مهماً ولم يكن معى سوى أربعين ريالا سعوديا

وقت إصداره دفعتها كلها للمطبعة وبقى على قيمة إصدار العدد الأول عشرون ريالا ولكنني لم أيأس فدفعت بمواد العدد الثانى عدد المحرم ١٣٥٦ هـ إلى المطبعة فصدر أيضا ثم رأيت نقل طبع المجلة إلى مكة فطبع بها العدد الثالث وهكذا توالى صدورها منذ ذلك الوقت حتى الآن .

فى عـــالم التأليف :

أما من ناحية التأليف ففى عام ١٣٤٨ هـ نشرت أول قصة طبعت فى المملكة العربية السعودية على ما أعرف وهى (التوأمان) وقد كانت محاولة ناشىء متطلع ثم دأب المنهل على نشر القصص وتشجيعها .

وفى عام ١٣٤٨ هـ عن لى أن أكتب تاريخ آثار المدينة بأسلوب حديث مركز على الاستقراء والمشاهدة والمقارنة والبحث العلمى الدقيق فمكثت ثمانية أعوام أجوب أنحاء المدينة المنورة وضواحيها القريبة فتجمعت لدى مواد الكتاب فى سنة ١٣٥٣ هـ كتبت فصوله فلما أنجزت مسودته ومبيضته عرضته على أستاذنا المبرور السيد أحمد الفضل آبادى رحمه الله فعرضه بدوره على شقيقه فضيلة السيد محمود أحمد رحمه الله فوافق على أن تقوم المكتبة العلمية التى تشترك فيها المدرسة والأستاذ سامى حفظى بنفقات طبعه فطبع الكتاب فى مطبعة الشرق بدمشق الشام وقد ترجم ملخصا إلى لغتين هما الأندونسية والفرنسية .

وفى سنة ١٣٥٣ هـ أيضا جمعت ما كنت أنشره فى صحيفة (صوت الحجاز) ونشرته فى كتيب تحت عنوان (إصلاحات فى لغة الكتابة والأدب) فى سنة ١٣٦٤ هـ ألفت كتاب (بناة العلم فى الحجاز الحديث) وطبعته فى مصر ثم ألفت كتبا متتابعة منها : تحقيق أمكنة فى الحجاز وتهامة — ديوان الأنصاريات — تاريخ مدينة جدة — تاريخ العين العزيزية بجدة — لمحات عن مصادر المياه بالمملكة العربية السعودية — بين التاريخ والآثار — بنو سليم — نشاط وزارة المواصلات — الشيخ عبد الرحمن الناصر السعدى — رحلة الرياض — رحلة الباحة — رحلة الحجاز — رحلة بنى تميم .

وقد طبعت كل هذه الكتب .

أنشطة أدبية أخرى :

عملت على نشر اللغة العربية الفصحى فى المدارس . كنت مدرس الأدب فى مدرسة العلوم الشرعية فألزمت الطلاب الارتجال فى ظهر كل يوم خميس فى منتدى عام بهو المدرسة وكان فضيلة مدير المدرسة ومؤسسها السيد أحمد الفضل آبادى مسروراً بكل هـذا النشاط محققا له كل التشجيع بالقلب واللسان واليد فكان يهب المتفوقين فى الارتجال مكافآت سخية .

وأثناء ذلك أسست وزملائى (الحفل الأدبى للشباب العربى السعودى) بالمدينة المنورة واستأجرنا له محلا خاصاً فى أجمل بقعة بالمدينة . وكان هذا النادى الأدبى أول ناد أنشىء علنا بالمملكة العربية السعودية ، وأول ذكر للشباب العربى السعودى .

وقد نشر تعريف للحفل ورسوم أعضائه ومؤسسه فى جريدة السياسة الأسبوعية بمصر وبعد هذا النادى أنشىء نادى المحاضرات بالمدينة .

وحين انتقلت إلى مكة رئيسا لتحرير جريدة أم القرى الرسمية كان قد أنشىء هناك نادى الإسعاف للمحاضرات فألقيت به بعض المحاضرات وقد نشرت فى كتاب (محاضرات الإسعاف) الذى طبع وصدر بمكة المكرمة إذ ذاك سنة ١٣٦١ هـ .

وحين أنشئت محطة الإذاعة السعودية ألقيت فيها أحاديث شتى منوعة وأخيراً فى السنوات الأخيرة التزمت إذاعة أحاديث منوعة تحت عنوان (أوعية وغلال) وقد طبعت عدداً خاصاً من مجلة المنهل حوى هذه الأحاديث المذاعة .

وحينما أنشئت بالمملكة العربية السعودية لجنة المصطلحات الطبية المنبثقة عن المجمع اللغوى بمصر عينت من أعضائها ونائب رئيسها وقد نشرت فى الصحف المحلية كثيراً من المقالات المتنوعة فى الأدب واللغة والاجتماع وما أشبه .

هذا هو المربى الجليل عبد القدوس الأنصارى صاحب مجلة المنهل

الغراء ولقد نشأ على يديه جيل من الشباب المثقف الذين يعرفون فضله على العلم والأدب يوم كان يدرس الأدب العربى فى مدرسة العلوم الشرعية فى المدينة المنورة ، ولا يزال أبناء الجيل الحديث يرتشفون ذلك الرحيق السائغ من منهله العذب الذى سد فراغاً كبيراً ما كان لملأه إلا أدب عبد القدوس الأنصارى وعلمه .

المفكرون والأدباء الذين تأثر بهم :

يذكر الأستاذ عبد القدوس الأنصارى أنه تأثر ببعض الكتاب القدامى وبعض كتاب مصر المحدثين — فى النثر — كالجاحظ وابن خلدون والمنفلوطى وفريد وجدى . هذا فى المبدأ ثم تأثرت فى النثر أيضا بطه حسين وما زلت مأخوذاً بروعة أسلوبه وبساطته وقوته وعمقه . وفى الشعر تأثرت بالنابغة الذبيانى وأبى تمام والمتنبى وشوقى وحافظ وإيليا أبى ماضى والزهاوى وعلى محمود طه المهندس والكاشف . وقد حاولت التحرر من ذلك التأثر ولكن العجز يحول دون ذلك حتى الآن [1] .

وإذا كان الأستاذ الأنصارى لم يذكر الأستاذ عبد العزيز البشرى بين من ذكرهم من الأدباء الذين تأثر بهم فأكبر الظن أن الأنصارى قد تأثر بذلك الأديب المصرى الفكه الساخر تأثر به فى فن الترجمة القصيرة فقد تناول البشرى شخصيات أدبية وسياسية واجتماعية فرسم شخصياتهم بريشته الفنية (فى المرآة) ذلك الكتاب الذى تحدث فيه عن شوقى وحافظ والدكتور محجوب وغيرهم فالمنهج الذى سلكه الأنصارى هو منهج البشرى من حيث العناية برسم الشخصيات وإن اختلف الأديبان بعد ذلك فغلب الجانب العلمى على تراجم الأنصارى وغلب الجانب الفنى والأدبى على تراجم البشرى ويبقى للبشرى فضل السبق والأستاذية .

---

(١) المنهل : عدد ربيع الأول والثانى ١٣٦٩ ه .

حياة الفتح بن النحاس وشعره [1]

تمهيـــد :

هذه دراسة يعدها الأستاذ الأنصارى عن شاعر حجازى عاش فى عصر سلاطين المماليك فما الخطة التى وضعها لدراسته؟ وما العقبات التى صادفته؟ وما أهمية هذه الدراسة ؟

خطـة الدراسة :

١ — أحوال القرنين : العاشر والحادى عشر الهجريين وذلك ليتوصل للبيئة التى عاش فيها الشاعر .

٢ — العوامل الخاصة التى كونت منه شاعراً خالداً .

٣ — معرفة معين شاعريته واكتشاف وجوه تفوقه وتحليقه ، وتبين ألوان ضعفه ومحاكاته لسواه وتقليده .

٤ — الهدف من هذه الدراسة التعرف على الفتح بن النحاس وشعره فى بحث طويل عريض عميق أخرجه للناس فى سفر خاص ليكون أول دراسة مستفيضة لشاعر حجازى مبدع أكل عليه الدهر وشرب ، وليكون أول كتاب من نوعه فى المكتبة الحجازية الحديثة .

عقبـــات :

وأنا عالم أن سيقول قوم فى هذه الدراسة ماشاء لهم تفكيرهم وآراؤهم الخاصة ، وهذا الشعور أجد فيه حافزاً كبيراً ومشجعا عظيما يدفعنى إلى الإقدام بدل أن يدفعنى إلى الانهزام .

وسيقول قوم : أليس هو أحد شعراء القرنِ الحادى عشر . أليس هو من أبناء هاتيك القروق الوسطى التى ضرب الجمود عليها أطنابه وخيم عليها التقليد .

ولكن أرجو أنهم سينصرفون عن فكرهم هذا متى درسوا هذه الفصول

---

(١) المنهل : عدد ربيع الثانى ١٣٥٨ ه .

دراسة معتدل منصف همه إقرار الحق ومبدؤه تقر الحقيقة دون الإصغاء إلى الخيالات المستمدة من التفكير القاصر المحدود على أن من الجمود نفسه أن يخال الإنسان أن أواخر القرون الوسطى لم تنتج أعلاماً فى الفكر والعلم والأدب فما التفكير السامى إلا شعلة منيرة وقبس وضاء يودعه الله من يشاء من عباده كيفما شاء وأنى شاء .

أهميـــة الدراسة :

وشاعرنا الفتح بن النحاس هو من هذه الطبقة المستنيرة التى جلست إلى مائدة التفكير السامى مبتعدة فى كثير من نتائج تفكيرها عن حضيض التقليد الأعمى فهو يسمو فى تغنيه بالطبيعة وإشادته بشعر الحب السامى وفى وصفه لألوان الجمال السامى إلى أوج الشاعرين : عمر الخيام وحافظ الشيرازى ، وهو يتسامى فى جزالة اللفظ وحسن السبك إلى أوج شعراء اليتيمة كأبى الفتح البستى وأبى فراس والمتنبى وأضرابهم . فمن كان هذا شأنه وهو من أهل القرن الحادى عشر قرن بلبلة الأفكار وزلزلة الآثار فأحرى به أن تحرر فى الإشادة بسموه ونبوغه المجلدات والأسفار .

إن شاعرنا الفتح بن النحاس له مزايا عدة فى شعره وأدبه .... فهو شاعر عصرى حديث سبق أوانه وتخطى عصره وزمانه ورفرف بشاعريته الخصبة على عصر البارودى وشوقى وحافظ وإن له فى عالم الحكم وعالم الوصف وعالم الشعر النفسى لأشعاراً من حقها أن توضع فى مفرق الأدب المعاصر ومن حقها أن يتحلى بها كل أدب طريف .

وأنا سأكتب هذه الفصول عن مفخرة شعراء الحجاز فى القرن الحادى عشر الذى دانوا له بالسبق والتفوق ، وأجمعوا على براعته وسموه عنهم فلقبوه « محلك الأدب » سأكتب هذه الفصول عن هذا الشاعر الذى لم يندثر شعره من أفواه الأجيال المتعاقبة فى هذه البلاد برغم اندثار أكثر أشعار من عاصروه ومن تأخروا عنه .

لقد كان الأستاذ الأنصارى دقيقا فى تفكيره ومنظما فى دراسته يقدر

الكلمة وأعباءها ولكنه في نفس الوقت يقدر شرفها ويستهين بالصواب في سبيل المبدأ الذي يؤمن به وهذه الخطة التي وضعها تدل على أن الأدب السعودي أو أن الدراسات الأدبية في السعودية تقترب من النضج .

على أن العقبات التي تحدث عنها الأنصاري ما تزال مع الأسف تتردد على أفواه بعض المفكرين مما ينذر بشر مستطير لهذا الأدب فمعظم الدارسين والباحثين في الأدب السعودي يلقون صدوداً وإعراضاً من إناس كان يرجى منهم التشجيع والتأييد لأنهم هم من أعمدة هذا الأدب وسيأتي الدور الذي يكونون فيه موضع الدراسة والبحث حينما تنطلق المسيرة في مجال الدراسات الجادة والجامعية للأدب السعودي ..

السيد محمد المرزوق

ترجم الأستاذ عبد القدوس الأنصارى «أبو نبيه» السيد محمد المرزوق أبو حسين بطريقة أراد أن يعطيها ثوباً قديماً فوضعها تحت عنوان «وفيات الأعيان (١)» وابتدأ بالحديث عن وفاة المترجم له فقال: اختطفت يد المنون فى يوم ٢٥ من شهر صفر الماضى عالماً جليلا من علماء هذه البلاد وأحد أعلام الفقه والقضاء فيها».

والذى يدل على أن الأستاذ الأنصارى قصد إلى إضفاء جو القديم على الترجمة أنه فى هامش الصفحة الأولى التى ذكرت الافتتاحية قال: ولد فى اليوم الحادى عشر من شهر ربيع الأول عام ١٢٨٤ هـ وتوفى فى ٢٥ صفر ١٣٦٥ هـ فله من العمر واحد وثمانون عاماً

ثم تحدث الأستاذ الأنصارى عن نسب محمد المرزوق معتمداً على قاعدة استقاها كما يقول من علماء الأحياء مطبقا إياها على المترجم له فقال: يقول علماء الأحياء. إن للبيئة التى يولد فى محيطها المرء كثيراً من الأثر فى توجيهه وتكييفه، وكانت البيئة التى ولد فيها المترجم له بيئة علمية فأبوه وجده لأمه عالمان فأما أبوه فهو عبد الرحمن الذى قدم من مصر إلى مكة عام ١٢٦٠ وجاور بها وطلب العلم لدى السيد محمد حسين الكتبى وتزوج بها على ابنته المرزوقة له من بنت مفتى المالكية بمكة السيد أحمد المرزوق وقد أنجبت له المترجم فسماه والده بمحمد المرزوق تفاؤلا بأن يكون فى العلم كجده لأمه.

وانتقل الأستاذ الأنصارى بعد ذلك إلى الحديث عن مولد السيد محمد المرزوق وفرح والده به ومشاركة الشعراء للوالد فرحته بقصائد أرخوا فيه ميلاد الابن على النمط الذى كان سائداً فى ذلك الجيل.

ثم تحدث عن نشأته وتعليمه مشيراً إلى نظام التعليم فى عصر المترجم له فقال:

---

(١) المنهل: عدد ربيع الأول ١٣٦٥ هـ.

رباه والده تربية قويمة وهذّبه وعنى بتثقيفه التثقيف العلمى العالى بمقتضى أوضاع عصره وتراتيبه التعليمية فاستظهر القرآن المجيد ثم انهمك فى تلقى العلوم الدينية والعربية حتّى ثقفها وخاصة علمى التفسير والحديث وعلم الفقه .

وكان المسجد الحرام حينئذ غاصا بالعلماء يدرسون فيه صنوف العلم فى مختلف الأوقات فمكنه ذلك الجو العلمى العبق من التقدم فى طلب العلم والارتواء من مناهل أولئك العلماء المنقطعين للعلم وقد لازمهم واستفاد منهم ....

وكانت الإجازات العلمية فى ذلك الوقت شأن ما تقدمه من زمن تقوم مقام ما نسميه الآن « الشهادة العالمية » فكان الطالب إذا كمل تحصيله وأنس أساتيذه براعته فى العلوم وتأهبه لتدريسها نفحوه بإجازة مرسومة لها تراتيب وشروط وخطط مقررة معلومة وعلى هذه الوتيرة أعطاه علماء عصره إجازات أصبح بموجبها عالماً معترفاً له بالعلم والتأهل لبثه بين الطلاب وقد جلس للتدريس بالمسجد الحرام .

ثم ذكر الأستاذ الأنصارى الوظائف التى تولاها الأستاذ محمد المرزوقى وأخيراً ختم الترجمة بالحديث عن ملامحه وأخلاقه فقال :

كان قمحى اللون طويل القامة نحيف الجسم أبيض الشعر كث اللحية عريض الجبهة واسع الأنف مع شمم فيه واسع العينين أزج الحواجب سبط الأصابع وفيه بعض احديداب لازمه أيام الدراسة لجده وانكبابه على المطالعة .

هذه صفاته الجسدية أما صفاته النفسية فقد عهدناه دمث الأخلاق ، طلق المحيا هينا رقيقا معتدلا رزينا كيساً لطيف المحضر متواضعاً لبقا حسن التصريف والتقدير لما يناط به من أمور ولما يحوط به من أجواء . وتلك عبقرية نادرة تستحق التسجيل وقد اشتهر بتبحره فى الفقه الحنفى وبخبرته فى شئون القضاء وكان حريصا فى المحافظة على اللغة العربية الفصحى فى أحاديثه وبحوثه ودفن بالمعلاة فى مقبرة السادة العلوية .

ولا شك أن السيد محمد المرزوقى من الشخصيات البارزة ذات القدر وأن الأستاذ الأنصارى كشف عن عناصر العظمة فيها من خلال المجالات التى عاش فيها منذ ولادته وقد غلب الجانب التاريخى فيها على جانب التصوير حيث حشد الحقائق التاريخية حشداً ثم ختم الترجمة بذكر ملامح المترجم له بناء على خبرته الشخصية .

إنه سرد حياة المرزوقى مبتدءاً بالحديث عن وفاته ثم وصف شخصيته وهذا المنهج لا يمكن أن يخلق التعاطف بين القارىء والشخص المترجم له ذلك التعاطف الذى لابد منه كى تؤدى الترجمة مهمتها وتثبت فنيتها .

محمد بن مــــانع

ترجم الأستاذ عبد القدوس الأنصارى للشيخ محمد بن مانع ترجمة لا يمكن أن ترقى إلى مستوى التراجمات الأدبية الممتازة ذلك أنها ركزت وفى عناوين جانبية على الجوانب التاريخية لحياة المترجم له فيتحدث عن : بيئته ونسبه — ولادته ونشأته وتعليمه — رحلاته فى طلب العلم — أساتيذه ودراساته — رحلاته فى نشر العلم .

وقد بدأ حديثه معتمداً على أثر البيئة فذكر أن من شأن البيئة الطيبة أن توجه الناشىء إلى الحياة الطيبة المجدية [1] .... الخ .

وإذا كان الأستاذ الأنصارى قد بدأ حديثه معتمداً على البيئة وأثرها فى النشء فإنه انتقل بعد ذلك إلى مبدأ نفسى هو النبوغ والتطلع والطموح ذلك أن النفوس الطامحة كما يقول الأستاذ الأنصارى تأبى على أصحابها القناعة بالمحصول السهل القريب ، وهى لذلك تدفعهم دفعاً إلى مقاومته من سبيل تدفعهم إلى المغامرة ، ومن مظاهر هذه المغامرة فى طلب العلم قديماً وحديثا تحمل الطلاب مشاق الغربة والوحدة فى سبيل تحصيله من رجال العلم فى مختلف الأقطار .

ثم ذكر رحلة الشيخ لذلك الغرض إلى البصرة ثم إلى بغداد . ثم إلى البحر الزاخر فى مصر الشيخ محمد عبده فحضر دروس الشيخ وتردد على صاحب المنار ودخل الجامع الأزهر وقرأ فيه على مشايخه الكبار .

وختم الأستاذ الأنصارى حديثه عن الشيخ محمد بن مانع تحت هذا العنوان الجانبى :

ملامحه وصفاته وأشياء أخرى :

ولم أستسغ كلمة « أشياء أخرى » وهى تدل على أن الأستاذ الأنصارى لم تكن لديه خطة محددة لهذه الترجمة وأنه وجه كل اهتمامه إلى التاريخ لحياة الشيخ محمد بن مانع وقد ذكر كعادته فى الترجمة وصفاً شكليا للشيخ

(١) المنهل : عدد جمادى الأولى ١٣٦٦ هـ و عدد جمادى الثانية ١٣٦٦ هـ .

ممزوجاً بصفاته المعنوية فقال : إنه الآن فى أواسط العقد السابع من حياته وهو ربعة فى القوم قمحى اللون عربى الملامح عليه سمة العلماء وسمت الوقار وسيماء العزيمة والإخلاص تقرأ ذلك فى نبرات حديثه وتقرؤه على ملامحه حينما يتحدث إليك وحينا يتأمل فى موضوع أو يستغرق فى تفكير وهو واسع العينين أزج الحواجب خفيف العارضين عريض الجبهة وفى عرنينه شمم وهو بشوش ، ومن مزاياه تقديره للعلم وحفاوته بالعلماء وبأهل الفضل وهو يسخى بكل ما أوتى من جهد لإنعاش المعارف .. ويعتبر من كتاب العلماء الذين تجول أقلامهم فى مختلف حقول الإصلاح الدينى والثقافى والاجتماعى وذلك ما يدلنا على رفعة مستوى تعليمه ووعيه الحميد لواجبات العالم الذى ينصب نفسه ليكون مرشداً ومصلحاً .. ولسعادته فى الصحافة جولات تنم عما فى طواياه من حكمة فى التوجيه والإرشاد .

الشيخ محمد العمرى (١)
١٣٨٢ هـ — ١٣٦٥ هـ

هذه ترجمة أدبية تحدث فيها الأنصارى عن الأبعاد السياسية والنفسية والاجتماعية والشكلية الجسدية للشيخ محمد العمرى ولم ينس أن يحدثنا عن بيئته ثم عرض نموذجا من نثر المترجم له جاء مقدمة لإحدى قصائده ثم ذكر نماذج من شعر المترجم له مصحوبة بانتقادات نحوية ولغوية وفنية .

ولقد كان الأنصارى فى هذه الترجمة أديبا أكثر منه مؤرخاً فلم يشأ أن يفتتح ترجمته للشيخ محمد العمرى بالحديث عن نشأته وتاريخ حياته وإنما بدأه بالأحداث الجسام التى كان لها تأثير فى شاعرية الرجل ومجرى حياته

لقد عاصر العمرى ثلاث حكومات متوالية هى حكومة آل عثمان التركية وحكومة الهاشميين والحكومة السعودية ففى زمن الأتراك كان يرى الأشياء من منظار عثمانى محض وقد اجتذبه إلى ذلك عاملان :

عامل الحياة الاجتماعية التى يحياها والتى تشمل بيئته جمعاء . وعامل آخر ألا وهو حب وحدة العالم الإسلامى تحت راية الدولة القائمة إذ ذاك بصرف النظر عن عدم عروبتها إذ يكفى أنها دولة تدين بالإسلام .

وعلى هذا الأساس كان يوجه قوارع اللوم والتأنيب لمن حاولوا أو يحاولون الخروج على الدولة العثمانية فلما استتب الأمر لأولئك الخارجين بعد لأى انزوى الشيخ الشاعر فى بيته خائفاً حذراً من مجريات الأمور . حتى إذا أدرك أنه آمن فى سربه خرج ليدرس بالمسجد النبوى وليشارك بقدر محدود فى الأحداث الجارية وفى الأحاديث الجارية فى المجالس الخاصة التى يهمس بها الناس فى المدينة ما بين سنتى ١٣٣٨ — ١٣٤٢ هـ ولكنه لم يغمس قلمه فى دواة ليسجل هذا الذى يهمس به الناس فى قصيدة ذلك أن شعره قوى عام ونقده حساس صارم والناس سيروون ما يقوله فى مجالسهم الخاصة

---

(١) المنهل : عدد ربيع الأول ١٣٧٧ أكتوبر ١٩٥٧ م ، وربيع الثانى ١٣٧٧ هـ نوفمبر ١٩٥٧ م .

والعامة وهو لا يأمن أن يطير رشاش من هذا الشعر إذا نظم إلى آذان الحاكمين فيناله الأذى ولذلك التزم جانب الصمت وهدأ أعصابه مرغما فكان كالنار تحت الرماد إلى أن قرب زوال تلك الحكومة فكان لشاعريته المشهورة أثر فى توجيه وجهة أخرى . كان شعره معروف المنفوان فقصائده فى سنى الحرب العالمية الأولى كان لها دوى لدى الأصدقاء والخصوم على السواء ومن ثم اجتذبه إليه قائد المدينة واسمه (عبدالحميد) فى ظلال الحكم القائم إذ ذاك فأنشأ له بعض القصائد التى سمعت بعض أبياتها إذ ذاك تحت دوى القنابل وأزيز البنادق وهكذا مال الشيخ العمرى إلى من كان يميل عنهم بسبب الصداقة الشخصية السياسية التى بسطها له عبدالحميد قائد حامية المدينة المحنك . فلما انقضى ذلك العهد أيضا عاد الشيخ العمرى إلى بيته فانزوى فيه أمدا حتى وافته منيته .

وعلى ما لازم الشيخ من ظاهرة غريبة فى حياته الاجتماعية والشعرية تتمثل فى التباعد عن الولاة والدولة القائمة حتى إذا بدأت شمسها بالأفول كان فى جانبها فى ساعات المحنة إلى أن تتوارى عن الأنظار كانت معه ظاهرة أخرى عجيبة تتمثل فى أن شاعريته كانت ملهمة إنه ينذر بالأحداث قبل وقوعها بأزمان ثم ترى تلك الأحداث تقع بعد لأى لما تخيل فلعل هذا من نوع الفراسة التى تنتج عن الدراسة العميقة للحاضر أبى المستقبل كما يقولون .

والعجيب أن علم الشيخ العمرى وأغلبه كان الفقه لم يؤثر على شاعريته مطلقا فلا تكاد ترى فى شعره مصطلحات الفقهاء ولا ما يشتم منه رائحة الفقه إنه شعر مجنح فى أغلب الأحيان فشاعريته طغت على عالميته . وكانت شاعريته لا تنطلق فى كل مناسبة إنها لا تنطلق إلا إذا وجدت روافد من استجابة نفسية حساسة .

نسبه ووصفــــه :

يروى الأستاذ الأنصارى عن الشيخ العمرى أنه ينتسب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ومن هذه التسمية قيل له العمرى . وكان ذا صوت غير جهورى وكان قمحى اللون ملفوف البدن ربعة مفتول العضلات عصبى

المزاج إلى حد بعيد يستثيره الشيء فيخرج عن هدوئه ثم يهدأ فإذا هو المنهل العذب الصافي ولم يكن واسع العينين وكان أزج الحواجب كبير الأنف متوسط عرض الفم ذا لحية كثة وكان ذا حافظة قوية وذا ذاكرة قوية يحفظ الكثير من قصص العرب وأشعارهم ويحسن رواية ما يحفظه وكان عنيفا في حبه وعنيفا في بغضه .

وكان لما يحس به من البؤس وعدم التقدير أثر عكسي على صفحات نفسه بالنسبة للمجتمع الذي كان يعيش فيه إنه يرى أكثر من في هذا المجتمع من وراء منظار أسود في أغلب أحيانه وقلما تصفو له الرؤية كان يحب أفراداً فأثروا عليه فأبغضهم إلى آخر الدهر وكان حرباً صارخة عليهم حتى الممات . وكان يحب آخرين فوالاهم حتى الممات ولا غرو فقد كان هؤلاء يعطفون عليه ساعات المحنة ويواسونه مواساة كريمة ويحدبون عليه حدبا عظيما ويعطفون ويغضون عن هفواته فقابل خيرهم بخير وحبهم بحب وعطفهم بالثناء ولا غرو أن ينشيء فيهم غُرر القصائد فالشاعر مرآة ما ينطبع في نفسه يظهر على صفحات شعره من حب وبغض ولذا اعتقد أنه كما كان يمدح من يحب يهجو من يسيء إليه ويذكر الأستاذ الأنصاري أنه لم يقف له على هجو فرد وإنما وقفت له على نقد دول وحكومات وثورات وثائرين .

في الشيخ العمري لا محالة شيء من شذوذ العباقرة إنه كان عبقريا فريداً في شاعريته في المدينة المنورة وهو يشعر بعبقريته هذه المطمورة المهملة فيضفي عليه هذا الشعور المكبوت طوفان من الآلام والشذوذ وعصبية المزاج .

وقد خلف الشيخ ولداً وحيداً هو شاعر أيضا ويقيم بالمنطقة الشرقية ، واسمه عبد السلام العمري .

مُجمـــــل حياته :

ولد حوالي عام ١٢٨٢ هـ وأصله من العرب الذين هاجروا إلى إفريقيا وكانت ولادته في إحدى المدن بالجزائر (بسكرة) وهاجر إلى المدينة المنورة في حدود سنة ١٣٠٣ هـ وكان أشهر أساتيذه بها الشيخ عبد الجليل برادة

ويعتقد الأستاذ الأنصاري أنه كان للعمري صلة بالشيخ حبيب الرحمن وأضرابه من علماء ذلك الجيل في المدينة ..

وحدث العمري أنه عمري النسب أي أن جده الأعلى هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولا بد أنه تلقى مبادىء الدراسة في بلده فقد هاجر بعد ولادته بتسعة عشر عاماً ولكن جل تعليمه كان بالمدينة . ويدل على ذلك خطه الرقعة الأنيق فإن المغاربة ما كانوا يستعملون هذا الخط ولا بد أنه تعلمه من أستاذ بالمدينة نفسها .

وقد مكث بالمدينة طيلة حياته المديدة وقد مرت عليه بها شدائد من المعيشة القاسية والحياة المضطربة والخوف ولكنه مع ذلك لم يرم عنها حولا .

أما وفاته فيظن السيد عبيد مدني أنها كانت في عام ١٣٦٥ هـ أو ١٣٦٦ هـ

ثم عرض لنا الأستاذ الأنصاري نماذج من أدب الشيخ العمري نثراً وشعراً وله تعليق على ذلك النثر وجولة مع هذا الشعر أي أن الأمر لم يقف عند حد ذكر النموذج بل تجاوزه إلى التعليق والنقد مما حملنا إلى نقل الحديث عنه إلى فصل (المقالة النقدية) .

ثانيا : تراجم لمؤلفين آخرين

ترجم الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار سيرة (صقر الجزيرة) جلالة الملك عبد العزيز آل سعود وإذا أردنا أن نتعرف على الملامح العامة لهذه الترجمة من خلال الصحافة فإننا نجد الدكتور محمد حسين هيكل يبرز لنا أهم ملامح الكتاب في المقدمة التي كتبها له والتي نشرت في مجلة « المنهل[1] » فالكتاب يعرض طرفا من أعمال الملك عبد العزيز في صورة أدبية جذابة وهو في نفس الوقت يعرض تاريخ الجزيرة العربية في حقبة تاريخية من أدق الحقب في حياة الشعب العربي إذ تمثل يقظة هذا الشعب السعودي وتطوره تطوراً صاغه الملك عبد العزيز بحكمة وحزم وحسن سياسة ، وكان لسياسة الملك عبد العزيز أثرها في إقرار السلام في شبه الجزيرة العربية ، وفي توجيه النهضة في تلك الأرجاء توجيها يبشر بخير النتائج فأنت ترى في هذا الكتاب

(١) المنهل : عدد رمضان ١٣٦٥ هـ .

كيف تغلب (صقر الجزيرة) على ما كان بين اليمن والمملكة العربية السعودية من خصومات أدت غير مرة إلى القتال ثم انتهت إلى إقرار حالة الرخاء والأمن بين الملكين وبين الدولتين ، وأنت ترى فيه كيف استطاع الملك عبد العزيز أن يقر علاقاته مع الدول الكبرى وفى مقدمتها بريطانيا وأمريكا على أساس من المودة وحسن التفاهم من غير أن يضيع على بلاده حقا أو يحقق لطامع مطمعاً ، وأنت ترى فيه ما قام به عاهل الجزيرة من إصلاح أحوالها وتوجيهها إلى الاشتراك فى الحياة العالمية العامة ، أنت ترى هذا وغيره مفصلا تفصـــيلا دقيقا يهديك السبيل إلى تعرف الطريق الذى رسمه العاهل العظيم لهذه البلاد التى كانت مجهولة حتى أمس فى كل ما لا صلة له بمدنها الإسلامية المقدسة والتى أصبحت اليوم محط الأنظار تقديراً للجهد السياسى والاقتصادى والاجتماعى الذى يبذل فيها .

هذا من حيث مضمون الكتاب أما أسلوبه فيجمع إلى السهولة الصفاء ويتأثر بالحوادث حتى ليروى ما بعد عهده منها وكأنه حدث أمس وكأنك تطالعه فى الكتب السيارة مع فارق التمحيص الذى يتاح للمؤرخ بقدر لا يتاح للصحفى .

وهذا الأسلوب الممتلىء بالحياة يدفعك لتمضى فى مطالعة الكتاب فلا تقف منه حتى تبلغ آخره . إن أسلوب الكتاب علمى متأدب يعرض تاريخ الجزيرة وصقرها فى عهد اليقظة العربية فهو كتاب تاريخ بالدرجة الأولى قبل أن يكون ترجمة حياة .

تقي الدين الفاسي (١)
مؤرخ مكة في القرن التاسع الهجري
٧٧٥ — ٨٣٢ هـ
للأستاذ حمد الجاسر

أراد الأستاذ حمد الجاسر أن يوفي هذا المؤرخ حقه من بيان حاله والإشادة بفضله فعول على المؤرخ نفسه فيما كتبه عن نفسه في كتابه « العقد الثمين » مع زيادة بعض إيضاحات تتعلق بمؤلفاته .

وقد بدأ الأستاذ الجاسر حديثه بذكر مولد المترجم له ونشأته ورحلاته فقال : ولد المؤرخ الحافظ أبو الطيب تقي الدين محمد بن الإمام العلامة القاضي شهاب الدين أبي العباس أحمد بن علي الحسني المكي المالكي الشهير « بالفاسي » في ليلة الجمعة ٢٠ من ربيع الأول سنة ٧٧٥ بمكة من أسرة علوية النسب كريمة الحسب اشتهر كثير من أفرادها بالعلم والفضل وتولى كثير منهم المناصب العلمية من قضاء وإفتاء وإمامة في مكة والمدينة .

...... ثم بعد أربع سنوات من ولادته نقل مع والدته وأخيه عبد اللطيف إلى المدينة لأن خالهما قاضي الحرمين كان مقيما بها قاضيا ، ولما بلغ من العمر ثلاث عشرة سنة عاد مع أهله إلى مكة وبعد إحدى عشرة سنة من عودته إليها سافر إلى الديار المصرية لطلب العلم وعمره إذ ذاك أربع وعشرون سنة ثم رحل من مصر إلى دمشق ومنها عاد إلى مكة وبقي فيها أقل من سنة ثم رحل الرحلة الثانية إلى مصر في سنة ٧٩٩ هـ ومنها زار المسجد الأقصى ثم عاد إلى القاهرة واستمر يتردد بين القاهرة ودمشق والإسكندرية وفلسطين وغيرها من البلدان العربية لطلب العلم واجتمع بمشاهير علماء تلك البلدان في ذلك العصر وكان في أسفاره دءوباً على الاستفادة والإفادة مشتغلا بالتأليف .

ثم انتقل الأستاذ الجاسر للحديث عن مشايخ تقي الدين الحسني وتلاميذه فقال معتمداً على المترجم له أيضا :

---

(١) المنهل : عدد ذو القعدة وذو الحجة ١٣٦٦ هـ .

أما مشايخه الذين أخذ عنهم فقد وصفهم بأنهم كثيرون جداً قال (ولعلهم يبلغون خمسمائة) وهم من أفاضل العلماء وقد يجد الباحث فى ثبت العلماء الذين روى عنهم كثيراً من فضليات النساء ممن اشتهرن بالعلم والفضل والصلاح فى ذلك العصر الذى يصفه البعض بالجهل وبالظلمة مثل السيدة أم الحسن فاطمة بنت مفتى مكة الجرادى ومريم بنت أحمد الأخرجى وعائشة بنت عبد الهادى وأم عيسى بنت أحمد الحنفى وفاطمة بنت عبد الهادى وغيرهن ممن ترجمهن فى كتابه « العقد الثمين » ومن شيوخه الذين تلقى العلم عنهم فيلسوف المؤرخين العلامة ابن خلدون ومن أقرانه الذين استفاد منهم الحافظ المحدث ابن حجر العسقلانى صاحب فتح البارى وغيره من المؤلفات الجليلة .

ثم انتقل الأستاذ الجاسر إلى الحديث عن الأعمال التى تولاها فقال :

١ - فى سنة ٨٠٧ هـ ولاّه الملك الناصر فرج بن الملك الظاهر برقوق قضاء المالكية بمكة منفرداً وهو أول من وليه بالانفراد .

٢ - وفى سنة ٨١٤ ولّى تدريس المالكية فى المدرسة السلطانية الغياثية » ثم استطرد الأستاذ الجاسر بذكر نبذة عن هذه المدرسة من كتاب « العقد الثمين » للمترجم له فذكر الأستاذ الجاسر أن المترجم له قال فى ترجمة السلطان أعظم شاه بن اسكندر شاه غياث الدين والمظفر صاحب بنجالة من بلاد الهند وصاحب المدرسة التى بمكة على باب أم هانىء من المسجد الحرام كان ملكاً جليلا له حظ من العلم والخير وبعث إلى مكة والحرمين بصدقات طائلة غير مرة ففرقت بهما وعمّ بذلك النفع وبعث مع ذلك بمال لعمارة مدرستين مدرسة بمكة ومدرسة بالمدينة وشراء عقار يوقف عليهما

وأكملت عمارة مدرسة مكة فى النصف الأول من سنة ٨١٤ هـ وفى جمادى الآخرة ابتدأ فيها التدريس فى المذاهب الأربعة ودرست فيها لطائفة « المالكية » ... وقسم الوقف خمسة أقسام : قسم للمدرسين الأربعة بالسوية بينهم وثلاثة أقسام للطلبة وهم سبعون نفراً وعشرون من الشافعية وعشرون من المالكية وعشرون من الحنفية وعشرة من الحنابلة بالسوية بينهم .

نقــــد للترجمــة :

لقد صرح لنا الأستاذ الجاسر بأنه اعتمد على ماذكره تقى الدين الحسنى عن نفسه فى كتابه « العقد الثمين » وارتبط ارتباطاً حرفيا بذلك وكنا نودلو أنه استقى مادته العلمية من هذا الكتاب ومن غيره ثم عرضه بأسلوب حديث وما أكثر أساليب الترجمة فى العصر الحديث إلا أن الأستاذ الجاسر حرص على أن يقدم صورة من ذلك القديم كما هو وكأنه يريد أن يقول إن ذلك القديم على قدمه عظيم لكننا نتفق مع الأستاذ الجاسر فى استقاء المادة العلمية من مصادرها الأولى على أن تكون طريقة العرض متمشية مع طبيعة العصر الذى نعيش فيه . فلو أنه عقد فصلا عن الحياة التعليمية فى ذلك العصر وتحدث فيه عن مشايخه وتلاميذه وعن تعليم المرأة وعن المدرسة السلطانية الغياثية لكان فى نظرنا أكثر دقة ونظاماً .

على أن ثمة مايلفت النظر فقد ترجم تقى الدين الحسنى لنفسه كما ترجم أستاذه ابن خلدون لنفسه وهذه ظاهرة فنية كان ينبغى أن يقف عندها الأستاذ الجاسر أو يشير إليها لأنها تبشر بميلاد الترجمة الذاتية فى الأدب العربى على أن الملاحظ على ترجمة الأستاذ الجاسر أنها تاريخ كلها وليس للأدب فيها نصيب ، وكأن الأستاذ عبد القدوس الأنصارى غير راض عن قول تقى الدين الحسنى أثناء توزيع الوقف على الأساتذة والطلاب فذكرو ثلاثة أقسام للطلبة وهم سبعون نفراً » كأن الأستاذ الأنصارى غير راض عن كلمة « نفراً » ومن ثم قال فى هامش الصفحة « النفر لغة الجماعة وكان الصحيح أن يقول شخصا أو طالباً أو نحو ذلك » بيد أننا نرى أن المؤلف ربما قصد إلى كلمة نفراً متأثراً بقول الله سبحانه فى آخر سورة التوبة « وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » فالاستعمال إذن ليس صحيحاً فقط بل فصيح وأفصح مما ذهب إليه الأستاذ الأنصارى .

محمد جميل حسن

. . حين يكتب الأستاذ محمد على مغربى عن أستاذه فى المدرسة « محمد جميل حسن [١] » يركز حول شخصية الأستاذ ورسالة المعلم ونجاح الأستاذ فى دروسه برغم جفاف بعضها وضربه القدوة الحسنة لتلاميذه وفهمه لأصول التربية ونظم التعليم فأستاذه كان شخصية محبوبة مهابه . كان أستاذاً بمدرسة الفلاح بجدة لبضعة أشهر فقط ولكن أثره ما يزال قويا فى نفس تلميذه لأنه كان ذا شخصية قوية تفرض نفسها على الناس وكان تأثيره فيمن حوله مزيجاً من المحبة والمهابة أو من الحب الذى يوجب الاحترام . وكثير من الناس ذوى الشخصيات القوية يحبون أو يهابون ولكن اجتماع الصفتين للشخصية هو دليل قوتها واكتمالها والأستاذ محمد جميل حسن من هذا الطراز الفريد من الناس . عبقرى سبق عصره وزمانه فقد كان يعد البلاد العربية كلها مواطناً لكل عربى فى وقت كان كل قطرى عربى فيه يدعو إلى إحياء قوميته ويتمسك بإقليميته ، وكانت الوحدة العربية ما تزال حلماً فى ضمير الزمان .

وكان مؤمنا برسالة العلم فوهب نفسه لها مدرساً فى المدرسة الفلاحية عفيف اليد واللسان . كان يحترم نفسه ويحترم العلم ، وكان كل همه أن يبث هذه الرسالة فى تلامذته وطلابه . وقد عاش وحيداً كالمفرد العلم لم يربط نفسه إلى زوجة ولم تهف نفسه إلى ولد فجعل من أبناء الأمة أبناء له ومن الوطن العربى الأكبر بيئته التى يأوى إليها أينما حل ورحل .

كان أصلح ما يكون أستاذاً أو قائداً عظيما أو زعيما مجاهداً .

كانت الدروس التى يلقيها هى : الجغرافيا والهندسة والحساب .

استطاع أن يخلق من درس الجغرافيا مادة لدراسة التاريخ بل لدراسة الوطنية وهو مثل من الأمثال الرفيعة التى تدعو إلى الاعتقاد بأن العلم أستاذ لا كتاب ولا مادة .

وقد لقن تلاميذه درساً آخر هو أن شخصا يهب نفسه لفكرة لابد أن يحققها بتوفيق الله إذا كان مخلصاً لها ومؤمنا بفائدتها .

---

(١) المنهل عدد ذو القعدة وذو الحجة ١٣٦٧ هـ .

كان مثلا عاليا من أمثلة الخلق الرفيع فلم تلحق اسمه شائبة ولم يذكر اسمه إلا مقرونا بالاحترام والمهابة فقد صان نفسه عن كل ما يضع النفوس أو يزرى بها كان قدوة حسنة لتلامذته ومريديه وكان يحب النظام ويحرص عليه ويدعو له .

كان يرى أن الفسحة التى تمنح للتلاميذ وضعت لتكون فرصة للترفية عن التلاميذ من عناء الدرس والمراجعة فلا يسوغ أن تستعمل إلا فى هذا الغرض .

وكانت له فراسة خاصة فى تلامذته فإذا ما رأى من أحدهم ذكاء أخذ بيده فشجعه وأولاه عنايته .

أجمل ما فى هذه الترجمة أنها ركزت على جوانب من شخصية المترجم له ذات مساس بالحياة الاجتماعية وذات تأثير فى سلوك الأفراد ركزت على ما يهم الناس من شأن المترجم له وهذا اتجاه حسن فى الترجمة يدخل بها إلى عالم الأدب ولكن حين يقف الكاتب عند حياة المترجم وبيئته وتعليمه ووظائفه فإنه يدخل بالترجمة عالم التاريخ وحبذا الجمع بين الاتجاهين .

رجـــل وعمـــل (١)

للأستاذ عبد الله عريف

يترجم الأستاذ عبد الله عريف لأبى النهضة الأدبية فى البلاد العربية السعودية ويعرف بوطنيـــة (محمد سرور الصبان وألمعيته) فيقول : عندما يجىء اليوم الذى نؤرخ فيه حياة الحجاز فى العهد السعودى فإن صفحة خطيرة من صفحاته ستفرد ولاشك لحياة محمد سرور الصبان ذلك أن تاريخ حياته الفكرية جاء من تاريخ الصحوة الذهنية التى جاءت فى حياة الحجاز عقب الثورة العربية الكبرى وما وليها من انقلاب سياسى تبعتها حيوات اقتصادية وأدبية وإدارية ، وكان لمحمد سرور الصبان من التأثير فى تلك الحيوات الثلاث وهى أظهر مظاهر نهضتنا ما جعل منه قوة بارزة الأثر فى كل حركة يراد منها تدعيم وإنشاء مظهر يبين عن حيوية الأمة ويدل على مشاركتها الأمم فى الميراث الإنسانى العام . ولقد عاش ولا يزال فى مركز الاستجابة لكل ما حوله ولا يزال الناس يغمرهم الإحساس بوجوده والتطلع إلى فعاليته كلما حزبهم أمر أو دفع بهم إلى مشروع جماعى أو فكرة فردية فما أكثر مايقولون محمد سرور .

وهذا لا يعنى الإقرار المطلق بمكانته كرجل وبشخصيته كبطل ذلك أن قاعدة الحب والبغض والنيل والحرمان التى نجعل منها الفكر العادى مقياساً لحياة العظماء والزعماء لا تند عن طريقها فى تشخيص مكانة محمد سرور الصبان فالناس من أمره على أشد ما يكون الخلاف بين رأيين » .

هكذا يقول الأستاذ عبد الله عريف فى كتابه (رجل وعمل) شارحاً شخصية هذا الرائد العربى ومقوماتها العظيمة فيكسب الأدب كتابا جديداً فى فن الترجمة الصادق ويلقى نوراً أمام العالم العربى على شخصية رائدة نزيهة حرة جديرة بأن تدرس وبأن يقتدى بها فى أقطار العروبة فهو زعيم الحركة الأدبية منذ نشأتها ومن الرعيل الأول الذين أسهموا فى بناء صرح الأدب .

---

(١) المنهل : عدد جمادى الأولى ١٣٧٤ هـ — يناير ١٩٥٥ م .

على أن خير ما فى حديث الأستاذ عبد الله عريف هو عدم الخرافه عن مناهج التحليل والتعليل وإصدار أحكامه عن تفكير صحيح وتقدير دقيق وموازنة معتدلة بين الأشياء وإذا استقامت للكاتب هذه الخصال التى تعصمه من الجموح فلا غرابة فى أن يكون نتاجه ممتعا وترجمته أدبية ناجحة .

نتائج وحقائق

قادتنا هذه الدراسة إلى ضرورة المنهجية فى البحث العلمى لأن العلم بمنهجه لا بموضوعه ومن ثم كانت هذه الدراسة رائدة فى الأدب السعودى الحديث لأنها قامت على خطة توجهها قوانين علمية واعتمدت على أهم مصادر ذلك الأدب وهو مجلة (المنهل) أقدم مجلة أدبية فى السعودية وقد كتب لها الاستمرار فى أداء رسالتها حتى اليوم فهى من قوى النهضة الفكرية والأدبية والاجتماعية فى السعودية وهى فى نفس الوقت مرآة صافية وصادقة لهذه النهضة فى مجالاتها المختلفة فالحكومة السعودية شاهدت صراع الحضارات ولكنها انتصرت للحضارة العربية الإسلامية واتخذت التوحيد لها شعاراً والوحدة أسلوباً والسلفية عقيدة وشريعة مع الأخذ بالوسائل المادية الحديثة فى الحياة المدنية والجيش وكانت شخصية الملك محور السياسة أول الأمر إلى أن تشكل مجلس الوزراء والعلاقة بين الحاكومة والشعب تقوم على التعاون والتناصح ونفس الأسلوب يسود حياة الناس فلا صراع وإنما تعاون على البر والتقوى .

وقد اهتمت المنهل بحياة الإنسان فى السعودية وبتصوير طبيعة ذلك الإنسان وهى مزاج من البداوة والحضارة ومن العقل الشرقى والغربى ومن القديم والجديد وهو فى تصوراته يرتبط بالمنطق العملى لاالتجريدى ، وقد سعد ذلك الإنسان حين تفجر البترول فى أرضه وصار ذلك السائل الأسود عصب الحياة .

وقد حرصت (المنهل (على إحياء تاريخ هذه البلاد كوسيلة من وسائل

التعبئة المعنوية للأفراد لينهضوا من جديد ومن ثم عرضت تاريخ التعليم والأدب والصناعة والتجارة والزراعة وما إلى ذلك .

وإذا كانت قضية الأدب فى السعودية تهمنا بالدرجة الأولى فإننا نرى أن ذلك الأدب عبر عن اهتمامات الناس وصور بيئته أصدق تصوير ومن ثم كانت النظرية الإقليمية من أهم الوسائل المساعدة والموجهة لدراسة ذلك الأدب .

وكانت المنهل منبراً عاماً أدلى منه المفكرون والأدباء بآرائهم ومقترحاتهم فى النهضة وهذه الآراء والمقترحات صارت فيما بعد واقعاً محسوساً بحيث نستطيع أن نقول إن أدباء السعودية ومفكريها هم زعماء الإصلاح فى السعودية الحديثة وأن دعواتهم لم تذهب أدراج الرياح . لقد كانوا قلب السعودية النابض وعقلها المفكر فشعروا بنواحى النقص فى البلاد ، والشعور بالنقص أول مراتب الكمال ، وكانت المنهل هى الميدان وكان الهدف هو الانطلاق نحو الإصلاح الاجتماعى الشامل فى ظل هذا المبدأ (لا طفرة ولا جمود) .

وقد أسهمت (المنهل) فى تنمية الوعى وتحريك الرأى العام فى شتى المجالات : الأدبية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية فعقدت الندوات وأجرت الاستفتاءات المتنوعة والتساؤلات تلو التساؤلات مثل : هل الأدب أثر من آثار الصحوة أم عامل من عواملها وهل التقدم الأدبى يسبق التقدم العلمى أو العكس هو الصحيح ؟ وهل التقدم السياسى يسبق التقدم الأدبى أم العكس هو الصحيح ؟ وكان للأدباء فى كل ذلك آراؤهم تتفق أحيانا وتختلف أحيانا إلا أنها جميعاً عملت على النهوض بالحركة الأدبية السعودية لأن النقاش كان موضوعيا والنقد كان بناء واتفق الجميع على أن الأدب وحده لا يدر الثروة على البلاد .

وثمة ألوان أخرى من الاستفتاءات تطل على المجتمع وقضاياه فالمنهل تعرض هذا الاستفتاء : كيف نرسم برنامجاً عمليا قابلا للتطبيق فى رفع مستوانا الاقتصادى؟ واستفتاء آخر : أيهما ألزم لنا الآن الزراعة أم الصناعة ؟

وسؤال ثالث : هل الأخلاق شيء مكتسب أم هي فطرية ؟ واستفتاء رابع : هل الحرب تطوى الحضارات أم تنشرها ؟ وسؤال خامس أ: هل العقول سواء ؟ وحول هذه الاستفتاءات وتلك التساؤلات دارت المناقشات هادئة هادفة تريد الإصلاح ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ومن كل ذلك ندرك حرص (المنهل) وكتابها على ربط التفكير بالتطبيق والدعوة إلى ضرورة الأخذ بالأسلوب العلمى فى معالجة الأمور والحرص على النقد البناء والرغبة فى التقدم ومعالجة اهتمامات الناس جميعا وأبناء الأمة كلهم : المثقف والعامل والفلاح والغنى والفقير والعمل على حل مشاكلهم والنهوض بهم فى مجتمع يبدأ من الصفر .

ومصر فى مرآة (المنهل) كانت الموجهة للحركة العلمية والأدبية فى السعودية وهى فى نفس الوقت تقوم بالتشجيع والوزن لهذه الحركة .

أما أثر (المنهل) فى النهضة التعليمية والثقافية فقد تمثل علاوة على ما مضى فى العمل على العناية بالتعليم تاريخا ونشراً ومتابعة لتطوراته وتوجيهات كبار المربين وسياسة التعليم ومشاكل الطلبة والامتحانات ورصد حركة النهضة بين التأثير والتأثر والثقافة وأثرها ووسائلها من قراءة ومكتبة ومدرسة والجانب الإلهى فى الفكر السعودى من خلال الربط بين الإيمان والمعرفة كما عرضت للوحدة الثقافية العربية وللمؤتمر الثقافى الأول المنبثق عن اللجنة الثقافية التابعة لجامعة الدول العربية الذى عقد فى جدة ودلالة انعقاد المؤتمر فى السعودية على المستوى الثقافى الذى وصلت إليه البلاد .

إن الذى يطالع (المنهل) يجد فيها صورة شاملة لألوان النهضة السعودية ويدرك الدور الكبير الذى قامت به فى الحياة الاجتماعية وتنمية الوعى وتحريك الرأى العام وقضايا الثقافة والتعليم التى شغلت أذهان الناس واستحوذت على تفكيرهم على أن الذى يهمنا أكثر من غيره هو قضية الأدب فى السعودية ذلك أن الفكرة الأدبية كانت رائدة إلى النجاح فى شتى الموضوعات الحيوية ومع ذلك ثار حولها جدل طويل ونقاش ساخن لكنه كان كغيره من الجدل

والنقاش الذى ثار على ضفاف (المنهل) كان جدلا مثمراً كما كان نقاشاً هادفاً فقد قصد من وراء هذا وذلك بلورة الفكرة الأدبية فى السعودية وتسليط الأضواء على قضية الأدب لترى النور فى قوة ووضوح .

وكان التركيز حول رسالة الأدب وأهدافه العامة والخاصة فالأدب يدعو إلى الخير وينفر من الشر ويلتمس طريق الحق ويعمل على إزهاق الباطل وهو فى كل ذلك يحرص على مقاييس الجمال الفنى ويتلمس أسراره ومن ثم فكلمة أديب شرف لا يجوز أن يدعيه كل إنسان ولولا الأديب السعودى لما كانت (المنهل) ولا غيرها من صحف السعودية فالذين أنشأوا الصحافة السعودية أو أشرفوا على مسيرتها وبذلوا ما بذلوا من تضحيات جسدية ومالية وعقلية هؤلاء كانوا أدباء أولا وأخيراً ومن ثم كانت الصحافة حاملة لواء الأدب ورسوله ومقدمة جيشه المكافح لبناء المجتمع وتوجيه التيارات الفكرية والثقافية ورسم الخطوط العريضة للمستقبل فى رزانة واتزان سالكة الطريق الوسط بين الإفراط والتفريط وذلك طريق الفضيلة والحق والخير والأدب فالأدب هو الحياة بمباهجها ومسراتها وبآلامها ومتاعبها وبمطالبها ورغباتها وبجواذبها وسوالبها وبجميع ما تحتويه الحياة من ماديات وروحيات وبذلك يبدو أن موضوع الأدب عام وشامل عام للفن وشامل للحياة فالفن جزء من الحياة والأدب ذو جناحين : الفن والحياة وخيال العرب لا يتجاوز بحال من الأحوال مناطق الحقيقة التى يصفونها إذا وقعت أو يتخيلون وقوعها وفى إمكانهم تحقيق ما يتخيلون هذا بينما يتخيل غيرهم من الشعوب مالا يستطيعون تحقيقه ولهذا يشط بهم الخيال إلى تصور ما يستحيل تحقيقه فالمدينة الفاضلة التى تخيلها أفلاطون للعالم الغربى لم تتحقق مطلقا بينما أقام العرب المدينة الفاضلة فعلا فى (يثرب) وفى كل مدينة تولوا أمرها من مدن الدنيا . ولقد أدرك الأديب السعودى هذه الحقيقة فالتزم بها وإن عاش بعض الأدباء السعوديين فى البرج العاجى قليلا ولكنهم لم يلبثوا أن هبطوا إلى أرض الواقع ومن ثم دعا الأديب السعودى إلى واقعية إسلامية فى الأدب تستمد أنوارها من (يثرب) لا من (أثينا) وهو أدب إنسانى رحيب شعاره الأخوة والتسامح والاتحاد

وأسلوبه أخضر في شكله وغاياته والخضرة في لغة الفن تعني البهجة والابتسام والتفاؤل وملاقاة الصعاب بقلب إيجابي كبير ، وهو يدعو إلى الانطلاق والتحرر من قيود الوثنية الفكرية مع الأخذ بأسباب التقدم والقوة والاعتماد على النفس بعد الله وبشر بحياة عربية حرة يعيشها هذا الشعب كما عاشها أجداده في عصور مجدهم التليد . فالأدب الحديث هو خلاصة آداب العصور القديمة العربية وخلاصة آداب الغرب وثقافته وعلمه وهو يستخلص دراساته من هذا المزيج الذي أنتجته عبقريات كثيرة ومدنيات سالفة هي تراث الفكر الإنساني في شتى العصور والأزمان والنهضة الأدبية الحديثة في السعودية نهضة عصامية لم تعتمد إلا على دراسات فردية خاصة يعاونها اطلاع نهم وإخلاص نادر وذكاء وقاد ورغبة خالصة في الثقافة والعلم ولعل هذا هو ما يفسر لنا السبب في ازدهار الأدب في عهد صحافة الأفراد وعلى رأسها مجلة (المنهل) .

وقد مرّ الأدب السعودي في تطوّره بمراحل ثلاث :

١ — البداية من ١٣٣٥ هـ — ١٣٤٣ .

٢ — التكوين من ١٣٤٣ — إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية .

٣ — الازدهار وهو أدب ما بعد الحرب حتى الآن . وقد لحظ الأدباء والمفكرون في السعودية عدم انتشار الأدب السعودي خارج السعودية مع أنهم يلاحظون انتشار آداب الشعوب العربية الأخرى في البلاد السعودية فتشككوا في أدبهم ووقفوا وقفة محاسبة ووزن لذلك الأدب وكان استفتاء للمنهل بعنوان (أدبنا وهل يصلح للتصدير) وقد أدلى أدباء السعودية بآرائهم وبإفاضة في هذه القضية فزعم بعضهم أن عدم انتشار الكتاب السعودي والأدب السعودي خارج السعودية راجع إلى أن ثقافة الأدب السعودي سطحية وإلى عدم وجود وسائل للنشر خارج البلاد

والحق أن الكتاب السعودي كان حديث عهد بالحياة وأن الأدب السعودي الجديث كان في بداية ازدهاره فلم يكن الوقت قد حان لتصدير

الأدب السعودى إلى الخارج ومرت الأيام ونضج الأدب السعودى فاشتركت السعودية فى معرض الكتاب الدولى بالقاهرة عام ١٤٠٣ هـ — ١٩٨٣ م وكرمت الدولة أدباءها عام ١٤٠٤ هـ ولكن الأديب السعودى حين طرح استفتاء التصدير كان فى مرحلة قلق وكان يفكر فى المستقبل الأدبى تفكيراً جدياً ومن ثم طرح استفتاء آخر فى (المنهل) حول أفول نجم الأدب وتعاسة الأديب فمن قائل إن الأديب بطبيعته تعس بائس وإنه لا مستقبل للأدب لأن العصر عصر العلم ومن قائل إن نجم الأدب لم يأفل وما زال متألقاً وثمة اتجاه ثالث يجعل الأدب والعلم رفيقين يعملان على تحقيق السعادة للإنسان بدلا من أن يتصارعا فيدمرا نفسيهما بل يدمران الإنسان أيضا وذلك ما يحكيه الأستاذ محمد عالم الأفغانى فى أقصوصته (طائران إلى القمر) على أن دولة الشعر على وجه الخصوص قد تأثرت أكثر من دولة النثر بضجيج الآلة والسرعة الحديثة الحثيثة . والأدب الحديث فى محنة سببها مزاحمة المتأدبين للأدباء ، وضعف الثقافة العميقة فى الشعوب ومدت المنهل جسورها خارج المملكة تتبادل الأفكار والآراء مع أدباء البلاد العربية الشقيقة فى قضية مستقبل الأدب وفى غيرها من القضايا وهذا هو الأستاذ عمر بن البسكرى مدير مدرسة الفتح بسطيف فى الجزائر يقول :

الأدب لا ينقطع لأنه من جملة الحوادث التاريخية والتاريخ يعيد نفسه وهذا هو نتاج أدباء السعودية فى المقالة والقصة والشعر وترجمة الحياة يشهد بازدهار الأدب وأن ما ثار حول مستقبل الأدب وفائدته إنما كان ظاهرة صحية ودليل انتعاش وقد ترك آثاراً طيبة فى عالم الأدب والنقد فالمقالة متعددة الأنواع بحسب الفن والعلم والأسلوب والموضوع وقد كانت الصحافة السعودية قبل الحرب العالمية الثانية وأثناءها صحافة مقال تعتمد فى تحريرها اعتماداً كبيراً على المقالات المختلفة الأمر الذى دفع بالأنصارى إلى أن يقول إن الناس ملوا أدب المقال ومن ثم فهو يريد أن ينتقل بهم إلى أدب الحوار ثم تحولت الصحافة السعودية إلى صحافة مقالة وأقصوصة وكان للخبر فى هذه الصحافة دور ثانوى وقد نشأت المقالة السعودية نشأة طبيعية فى

هذه الأرض ولم تستجلب من خارجها حيث كانت المرحلة الأولى لنشأة المقالة محاولة إحياء فن الرسالة ثم تكون فن المقالة ونضج فثمة طائفة من الأدباء استطاعت أن تحلق فى هذا الجو وتصوغ نماذج صالحة تلونت عند البعض باللون الحوارى وبذلك كانت المقالة معبراً إلى القصة . على أن هذه المقالات صورت فيما صورت من أفانين القول ومعسول البيان طبائع بعض النفوس والعلاقات الاجتماعية بين الأفراد وسيطرت المادة على تلك العلاقات كما فى مقال (وفاء الأصدقاء) للأستاذ الأنصارى . ولم يقف الأمر بأدب الحوار على ما كان يدور فى ندوة (المنهل) من أحاديث حول التعليم والزراعة والصناعة والاقتصاد والأدب بل صار الأديب الواحد يجرد من نفسه شخصاً آخر ثم يجرى الحديث فيما بينه وبينه على نحو ما نشاهد ذلك فى (محاورة دينية) لعبد الرحمن بن ناصر السعدى وطبيعى جداً أن تحظى المقالة الدينية بنصيب موفور فى المنهل .

فنى السعودية ظهر الإسلام وفيها الأماكن المقدسة وقلوب المسلمين تهفو إلى مكة والمدينة . على أن المقالة الدينية فى السعودية لم تقف عند هذا الحد بل كانت (المنهل) تتابع التطورات الاجتماعية والاقتصادية على المستوى العالمى وتقومها من وجهة نظر الإسلام وتذود عن دين الله وشرعه مثل مقال الأنصارى (من مفارقات الاشتراكية) .

أما المقال الأدبى فإن الأديب السعودى قد عبر فيه عن عواطفه وأفكاره من خلال الصورة الأدبية بألوانها وظلالها وحركاتها وأصواتها ولاسيما حين يكون المقال ذا صلة بالطبيعة على نحو ما نشاهد ذلك فى مقال الأستاذ الأنصارى (ذكرى اليوم المطير والسيل الخطير) فهو مجموعة لوحات فنية كما يبدو التصوير الحسى الناطق أيضا فى مقال (خيال الراعى) للأستاذ عبد الله أحمد سراج و (يوم الربيع) للأستاذ أحمد رضا حوحو . إن المقالة الأدبية السعودية أشبه ما تكون بالقصيدة الغنائية فهى وليدة عاطفة جياشة تحملها صور حية وهى ليست خالية من الأفكار ولكن الأفكار فيها تنساب مع مع العاطفة ويظهران معاً من خلال الصورة ومن الكتاب من يعمد إلى الإجمال

ثم التفصيل مستغلا عنصر التشويق فى تحريك نفس القارىء ثم مفاجأته بالفكرة التى يريدها فى أدب خفيف لذيذ مفيد كما فى (أهل الجوع) للأستاذ حسين سرحان .

أما المقالة الفلسفية فتدل على أن صاحبها صافى الذهن لا تكدر فكره الشوائب وأنه ينصت لصوت العقل يستنير به فى مسيرة الحياة ففى (فلسفة الحب) يرفض الأستاذ أحمد السباعى أن يترك العقل الباطن يؤثر فى سلوك الإنسان وثقافته وأن على العقل الواعى أن يقف وقفة أمام العقل الباطن لينقى السلوك والثقافة الإنسانية وكان مجال التطبيق فى عالم الحب ودار الحوار أفلاطونيا بين الأديب الفنان وبين إحدى الفتيات تستخدم هى أسلحة أنوثتها ويستخدم هو نور عقله وهدى بصيرته ، والمقالة تعالج مشكلة الحب أهو فكرة أم عاطفة ؟ وقد مزج الأستاذ السباعى بين الرأيين حين جعل الحب عاطفة تصونها مسكة من العقل لأن فلسفته الخاصة تأبى إلا أن ترد كل علة فى الحب إلى أصلها فى الحياة .

وإذا كان الأستاذ أحمد السباعى مثاليا فيما ذهب إليه فإن (فلسفة الخلاف) للأستاذ إبراهيم هاشم فلالى لا تعتمد على التفكير التجريدى ، وإنما يرتبط الكاتب بالكون والحياة والإنسان ومن ثم يقيم أدلته من الواقع الملموس .

وفى المقالة الرمزية (من وحى الحرب) بين مدافع المقاومة وطائرات الانقضاض المهاجمة) توحى إلى القارىء بأن هذا لون من ألوان أدب الحرب ولكن القارىء حين يبدأ فى قراءة المقال ويتأمل أفكاره وطريقة عرضه يتضح له أن المقال رمزى ولو عرض بأسلوب الحقيقة والوضوح لما عدا أن يكون إعلانا من إعلانات وزارة الصحة عن أضرار الناموس وضرورة مقاومته وقد أهداه الكاتب إلى نفسه مبالغة فى الرمزية وهى رمزية واضحة وإن حاول الكاتب تغليفها بذلك الإهداء واستغلال الحرب الدائرة آنذاك .

والأديب السعودى يحكم بناء مقاله إذ يقدم بين يديه قاعدة فلسفية ثم يأخذ فى توضيح تلك القاعدة والبرهنة على صحتها بأحداث من التاريخ على

نحو مانشاهد في المقال السياسي (الشرق والغرب هل اقترب تلاقيهما في مجال النهوض أم لا يزال البون شاسعاً) للأستاذ محمد حسن فقي . والقاعدة التي قدمها هي (أن التنافس هو المهماز الذي يدفع بالأمم إلى الاختراع الذي تتغلب به على منافسيها [و]تستكمل به [لوازم السيادة والتوسع . وقد انتهى في مقاله إلى أن الاختراع والابتكار وقف على الأمم الكبيرة) .

وفي المقالة النقدية يبدو بوضوح وصراحة تأثر الناقد السعودي بمقاييس النقد المصرية فالأستاذ عبد الفتاح أبو مدين ينقل وجهة نظر الدكتور محمد النويهي في الأدب والنقد فثقافة الناقد الأدبي ينبغي ألا[ا] تكون ثقافة أدبية فحسب بل لابد من دراسة الأدب دراسة علمية والتفكير النظري المحض غير كاف فالأدب كلمات يصطبرها الأديب حين يلاقي تجارب خاصة لينفس عن شعور خاص يجده في نفسه ، والشخص العادي يتلذذ بالأدب لكن تلذذه قائم على الإستجابة الآلية ووظيفة الناقد لا تنحصر في أن يستجيب للأدب استجابة آلية محضة بل هو محتاج ليسأل نفسه كيف استجاب ؟ وما أسباب التأثير ؟ وعلى أن يتخيل حال الأديب حين أنشأ هذه الكلمات وهل مرّت به حالة مثلها ؟ ويرى الناقد السعودي متأثراً بالناقد المصري أنه لابد من دراسة الأدب الغربي دراسة عميقة ليستطيع المقارنة بين الأدبين . والناقد السعودي يضع لنفسه خطة عملية قابلة للتطبيق في مجال النتاج الفني وتقوم هذه الخطة على الأسس التالية :

١ — النظر إلى المعنى العام .

٢ — اللغـــة .

٣ — الوحدة الفنية — الاحتكام إلى مقاييس نقدية لا يخرج عنها .

والنقد مقياس الأدب وطريق خلوده والناقد قاض وطبيب وقد فحص الناقد السعودي بعض الظواهر الأدبية كظاهرة الهروب مثلاً وهو نوعان هروب سلبي ناتج عن خيبة الأمل والفشل في الحياة وهو يؤدي إلى التقاعس الفكري أو الاستهتار والخوض في المجون . أما الهروب الإيجابي فهو هروب

الشاعر إلى الطبيعة أو إلى الفلسفة فراراً من مواجهة مطالب الطموح على نحو ما نرى عند المتنبي والهروب سمة الشعراء البارزين .

ومن الظواهر الأدبية التى فحصها الناقد السعودى ظاهرة استثمار الخيال. ذلك أن التصورات الخيالية تعترض دون تحقيقها أسلاك شائكة إذ لابد من. نقلها إلى القراءبألوانها الزاهية وصورها الناطقة ومناظرها الفاتنة وألحانها الراقصة فما الآلة التى تعكس هذه المناظر بكل دقة ؟ إنها دراسة البيان وملكة. التصوير إنها ثروة أدبية واسعة تبدد غيوم الجهل وتصوّر باللفظ ما يغنى عن. الرسامين ومن الظواهر الأدبية التى ناقشها الناقد السعودى ظاهره القديم. والجديد فالأستاذ فؤاد شاكر يرى أن النظريات الأدبية لا جديد فيها والزمن يجعل الجديد قديماً والحقيقة ثابتة وإنما يتغير الأشخاص والفكرة مستمدة من. طه حسين بتصرف هذا بينما نجد السيد أمين مدنى يرد على طه حسين الذى يرفض المقياس السياسى لتاريخ الأدب بينما يؤيد مدنى ذلك المقياس فى مقاله. (آفاق جديدة فى الأدب العربى وأثره فى تخليد الدول) وذلك حين يقول : من الذين درسوا تاريخ الأمة العربية ... مَنْ خرج بنتيجة عكسية بين الأدب العربى والدولة العربية تبيّن الفارق الشاسع بين حالى الأدب. والسياسة وأنه فى الوقت الذى تضعضعت فيه سياسة الدولة العباسية كان الأدب العربى فى أوج نهضته وأنضر روعته ويرى الأستاذ مدنى. أن النهضة الفكرية والتقدم العلمى يتأخران عادة عن النهوض السياسى ريثما تنضج ثمارها وريثما تهضم الأفكار ما يجد على مألوفها ومن ثم. فالاضطرابات السياسية تؤثر على النهضة العلمية وهكذا قدر للنهضة الأدبية عند. العرب قديما أن تصطدم بالانقلابات السياسية فتساير أهدافها وقدر لرجال النهضة أن تعبث بهم تيارات السياسة وكما أثرت هذه الانقلابات على سياسة الأمم الإسلامية فقد أثرت على الأدب العربى واتجاهاته ووجد فيها الأديب. العربى ما أدهشه وراعه ففاض يكشف لنا النواحى النفسية مصوراً ما تزخر به. حياته من متناقضات كانت النتائج المتوقعة لتفاعل ورد فعلها وكانت الطابع. الذى طالعنا به أدب القرن الرابع والخامس والسادس فالأدب فى جميع

أدواره صوراً لها فى الحياة والأديب فنان يصوّر لك ضروب الحياة .

ولم تنحصر نظرة الأديب السعودى فى المحيط العربى بل تطلع إلى الآداب العالمية الكبرى وأخذ يقارن بينها وبين الأدب العربى وشهدت (المنهل) هذا اللون الجديد وعملت على نشره ومن الأمثلة على ذلك مقال للأستاذ محمد سيد أحمد بعنوان (بين الأدب العربى والأدب الإنجليزى) .

وفى مجال النقد التحليلى تطالعنا نماذج من النقد الموضوعى المتزن الذى يعمد إلى الحقيقة ليجليها ليس غير على نحو ما نشاهد فى مقال (هؤلاء المصلحون الأربعة لم يكونوا مختلفين) لمحمد سعيد العامودى وهو رد على مقال للأستاذ محمد حسين زيدان بعنوان (اتجاه الوعى القومى) تكلم فيه عن محمد بن عبد الوهاب وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبى ذهب فيه إلى أن هؤلاء الأربعة مختلفون وإن كان كل منهم قد شب نار اليقظة فى بيئته بيد أن أتباعهم توحدوا لإنقاذ فلسطين ، وقد اتفق العامودى وزيدان حول شخصية الإمامين ابن عبد الوهاب وجمال الدين واختلفا حول الكواكبى ومحمد عبده فزعم زيدان أن الكواكبى لم يهتم إلا بالفكرة العربية ولم يحسب للدين حساباً ورد عليه العامودى بأن هذا الكلام غير مستقيم عن مؤلف كتابى (أم القرى) و (طبائع الاستبداد) وقد ألف الكواكبى كتابه الأول للدفاع عن الإسلام والدعوة إلى الرجوع إلى تعاليمه الصحيحة ومحاولة إيقاظ المسلمين من سباتهم العميق ثم أورد العامودى فقرة من (أم القرى) تؤيد دعواه وحين يقول زيدان عن الكواكبى (إنه لا يهتم بآداب الاجتماع بل يرضى الدولة أولا يرد العامودى بقوله : (إنى لم أفهم مقصوده من هذا فإن كتاب (طبائع الاستبداد) يتناول علاقة الحاكم بالمحكومين ويركز على الحاكم المستبد وأثره السيء على شعبه أليس هذا فى صميم علم الاجتماع ؟ . وزعم زيدان أن محمد عبده نشأ فى مصر ورأى أنه لا رجاء فى الخلافة ولا جامع للعرب ثم هو ذو نزعة قومية فدعا لقومية ضيقة (مصر للمصريين) فرد عليه العامودى بأن محمد عبده كان أبعد الزعماء

المصريين عن هذه النزعة القومية الضيقة وأن فكرة مصر للمصريين إنما كانت شعار غيره من الزعماء . إنه مؤلف (رسالة التوحيد) و (الإسلام والنصرانية) و (الإسلام والرد على منتقديه) . وشريك السيد جمال الدين فى تحرير مجلة (العروة الوثقى) وفى جهاده .... فإن صح عنه أنه قال مع القائلين (مصر للمصريين) فإنما كانت هذه دعوة إلى تحرير مصر من الحماية الطارئة عليها لا أكثر ولا أقل كيف لا يتفق هؤلاء الثلاثة مع الإمام المصلح الكبير الشيخ محمد بن عبد الوهاب وهو السابق إلى الدعوة الإصلاحية الكبرى . ألا ترى أن دعوتهم جميعا واحدة شعارها التوحيد وغايتها تحرير الدين من أوضار الخلافات والعمل على جمع كلمة المسلمين .

ويعيش الناقد السعودى مع الخالدين من علمائنا السابقين كما عاش الأنصارى (مع ابن خلدون فى مقدمته) فقدم لقراء (المنهل) بحثا متسلسلا عن المقدمة تقريظا وتحليلا ونقداً حيث يعرض آراء ابن خلدون فى المقدمة ثم يعلق عليها وينقدها يوافقه تارة ويخالفه أخرى فيقول : إذا استعرضنا نقد ابن خلدون لتلك المغالط نجد الأساس صحيحا متينا ولكن التطبيق العلمى عراه بعض الخلل ... نوافق على أن أسباب نكبة البرامكة لاتؤول إلى قصة العباسة وعلاقتها بجعفر بن يحيى البرمكى بقدر ما تعود إلى استبداد هؤلاء بشئون الدولة ونخالف ابن خلدون حين يجارى المؤرخين الذين قالوا بفتح التبابعة لكل تلك الأقطار بدون استثناء أو اشتراط .

أما (شذرات الذهب) لأحمد إبراهيم الغزاوى فتطوف فى رياض الأدب واللغة والتاريخ يقطف الغزاوى من كل بستان زهرة ثم يبرز محاسنها ومفاتنها بتعليقاته القيمة وآرائه السديدة وكانت (المنهل) هى المعرض لهذه الكنوز الثمينة من تراثنا نشراً وشرحاً وتعليقا ودعوة صريحة إلى ضرورة الالتفات إلى هذا التراث الخالد ليكون غذاء للروح وتعبئة معنوية للجيل الصاعد بجوار الأسس المادية التى تقوم عليها الحضارة المعاصرة .

ففى الوقت الذى كانت (المنهل) تطل على الماضى بعين فاحصة كانت تنظر إلى العصر الحديث بالعين الأخرى .

وفى (شعراء من الجنوب) للأستاذ محمد سعيد العامودى خطة نقدية تقوم على تعريف موجز بالشاعر وبيان اتجاهه الشعرى ونزعته الفنية وخصائص أسلوبه ومدى ملاءمة العنوان للقصيدة مع عدم التغاضى عن الخطأ النحوى مادامت لم تدع إليه ضرورة ، وينبغى أن نلاحظ أن تذوق الشعر هو الأساس الذى قامت عليه هذه الخطة .

أما الأستاذ الأنصارى فنقده فنى تأثرى تاريخى وذلك واضح فى حديثه عن الشيخ العمرى وشعره فقد لاحظ على المقدمة النثرية التى كتبها الشيخ لإحدى قصائده أن أسلوبه مرسل مخالف لأسلوب العصر الذى كتبت فيه وهذا يدل على شفوف ذهن الأديب وسمو إدراكه وتفتح وعيه للجديد كما لاحظ الأنصارى أن العمرى لم يفتتح قصيدته فى الخط الحديدى بالمدينة المنورة بالغزل وإنما دخل إلى الموضوع رأسا مخالفاً بذلك تقاليد بيئته الفنية وإن جاءت قصيدته مضاهية للشعراء المجددين فى العصر الحديث كشوقى وحافظ فلعله كان يرقب آثارهم واتجاهاتهم ثم التفت الأنصارى إلى نسق التعبير عند الشاعر ودلالته على بعد نظره واتساع خياله وما الشعر إلا خيال مجنح يلد غرائب الحقائق كما التفت الأنصارى إلى جمال الصورة الأدبية عند الشاعر واكتمالها وارتباطها بالبيئة ثم التفت إلى موضوع الشعر عند العمرى فرأى أن شعره كان يمتاز بالانغماس فى الأحداث العالمية الكبرى وأنه كان الصدى الوحيد لها فى الحجاز وأنه كان من أنصار الدولة العثمانية وكان شعره دعاية قوية لها كما تحدث عن معارضة العمرى للرصافى .

ولم يخرج نقد الأنصارى للشاعر المجدد حسن عبد الله القرشى عن الدائرة الفنية التأثرية التاريخية فهو يقول عن قصيدته (سارية الأحلام) قصيدة ذات جرس خاص وغزل رفيع مطعمة بالفلسفة المحببة والوجدان الدافق الحساس ، ماذا كان وزن هذه القصيدة ؟ وماذا كانت قافيتها ؟ وشاعرنا ذو طبيعة حساسة يشدو بجمال الكون وهو ذو فلسفة صوفية دقيقة الإحساس ينظر دائماً إلى خواتيم الأمور كما ينظر إلى المجهول والأنصارى حريص على التأريخ لقصائد شاعره وأسرار الجمال الفنى عند الشاعر المجدد هى :

١ — تصوير ذو حيوية باهرة وخيال مجنح .

٢ — امتلاك الشاعر لأزمة البيان .

٣ — الألم المكبوت الذى يتمثل فى ثورة جامحة جناحاها اليأس والقنوط ولكنها ما تلبث أن تستحيل إلى هدوء ربما عبر عنه اختيار الواقع .

ولم يخل المجال النقدى على ضفاف (المنهل) من غبار معركة نقدية محدودة بين محمد حسن عواد ومحمد السنوسى حول ديوان السنوسى (القلائد) فالعوّاد يرى أن الطابع العام للديوان مجرد بيان وأن اتجاهه سلفى يرجع بنزعته إلى أذواق طبقة خاصة من القدامى كان لها عذرها من ثقافة عصرها وروحه الأدبى وتتركز هذه الأذواق بصورة واضحة فى تسميتهم إنتاجهم ... وقد تابع السنوسى هذا الذوق فسمى قصائده القلائد .. وذوق الأدب الحديث يصدف عن هذا وكان فى قدرة الشاعر أن ينطبع بالواقع وأن يعيش فى القرن الرابع عشر لا مع أدباء القرن الرابع ..

ورد عليه السنوسى بأن الشعر الخالد لا يخضع للزمان ولا للمكان ولا يقاس بمثل هذه المقاييس المختلفة وأن فى تعابير العوّاد وأسلوبه ما يرجع إلى عصر المهلهل وابن حلزة وهذا لا يضيره فى نظرى فالمعول فى ذلك على الأصالة والجودة . أما أن تسمية الديوان ذات ذوق بيانى سلفى فهذا ما أعتز به :

ويقول العوّاد إنه نصح الشاعر بأن يحذف من الديوان قصائد المدح الاتباعى والمجاملات الجوفاء والاستخذاء والتصنع .

ويرد السنوسى بأن هذا دليل على أن العوّاد لم يقرأ الديوان إذ ليس فى الديوان من هذا اللون إلا ما يواكب الأحداث فى مسيرها الصاعد نحو المجد

أما شعر المجاملات والتصنع فنماذجه كثيرة فى ديوان العوّاد (نحو كيان جديد) والمهم فى الشعر هو الصورة الشعرية النابضة والمثل الأعلى الذى يرسمه الشاعر . وشعرى استحق النشر فى صحف أدباء المهجر بأمريكا وترجم إلى اللغات الأجنبية وشهد له العوّاد بالسبق والتفوّق حين فضلنى على كثير من

الشعراء الذين اشتركوا في مسابقة مجلة الرياض وحكم بالجائزة الأولى لقصيدتي (حطّم المارد القيود) .

هجوم ودفاع هذه هي طبيعة الأسلوب الذي دار بين العواد والسنوسي ولكننا من خلال هذا الهجوم وذلك الدفاع نستطيع أن نستخلص عناصر الخلود في الشعر وهي :

١ — الذوق الأدبي الرفيع .

٢ — تخطي حدود الزمان والمكان ومخاطبة الإنسان من حيث هو إنسان ليس غير .

٣ — التصوير الحيّ .

٤ — المثل الأعلى .

وبقي أن تعلم أن هذه الأصول التي أثارها الناقدان السعوديان مستقاة من كتاب (حافظ وشوقي) لطه حسين وقد لمح إلى ذلك الشاعر السنوسي .

وفي مقابل الدفاع والهجوم تجد أمانة الكلمة وإحساس الفنان بمسئوليته وإخلاصه لفنه على نحو ما نجد عند الأستاذ محمد عالم الأفغاني الذي انتقد بنفسه قصيدتيه (ما يعجز الشيطان عن منحه) و (الأرقاء) لأنه يرى أن الفنان أبصر بمواطن أخطائه من غيره إلا أنه يعجز العجز كله لو أنه أراد أن يستجلي الفكرة المرتسمة في أذهان قرائه عند قراءة عمله ومن هنا بدأت أهمية العثور بالنسبة للكاتب على ناقد يبصره بموقعه من الجادة المستقيمة .

أما نقده لقصة (ماعجز الشيطان عن منحه) فيتمثل في أنه لم يمهّد لهذه القصة بتفسير يحدد هدفها ويبين موضوعها من الفن القصصي فهي قصة رمزية وإن اختلف مفهومها على القرّاء فظنها البعض قصة واقعية وظنها الآخرون أسطورة فالأستاذ على مثلاً يرمز إلى الشرق القنوع بأحلامه بينما الشيطان في هذه القصة يرمز إلى أساليب الغرب الماهرة في سلخ هذا الشرق من شرقيته ليصبح لا شرقيا ولا غربيا .

(المنهل)

وكان ينبغى أن أعمد إلى الأسلوب المجنح لأتمكن من إشاعة الجو الرمزى فيها .

أما (الأرقاء) فكان ينبغى أن استطرد فى بعض المواضع فلم أفعل كما أننى لم أعتن بالأسلوب .

وتناولت المقالة النقدية أيضا عرض آراء القدماء بطريقة حديثة كما فعل الأستاذ محمد حسن عواد فى مقاله (مظاهر التحديد فى شعر أبى تمام) فقد رأى أن ما قاله الأقدمون عن أبى تمام هو ما نسميه اليوم المدرسة العقلية فى الشعر وهى فى أن يكون الشعر أفكاراً وتجارب نفسية تظهر حقيقة العقل الإنسانى .

وهناك تجديد آخر عند أبى تمام هو نقل المعانى إلى صور الماديات وتأكيد هذا النقل بإيجاد خصائص مادية وإفراغها على المعانى ويرتقى هذا المذهب إلى درجة أخرى تسمى (التشخيص) وهو نقل المعانى والماديات إلى صور الأشخاص الآدمية وإلباسها صفاتها وأحوالها ولكن العوّاد يسمى التشخيص باسم آخر هو (التشكيل الحىّ) لأنه إبراز للمعانى فى أشكال تسرى فيها حياة آدمية .

لقد كان الأديب السعودى معتزاً برأيه حريصا على إبدائه يجول فى ميادين شتى من دينية وأدبية ونقدية ونفسية وهذا هو الأستاذ محمد عالم الأفغانى فى ظاهرة (الاستخفاف فى هجاء ابن الرومى) يجول بنا جولة مع علماء النفس والأدب إذ يرى أن السخر والاستهزاء يصدران عن كبت العواطف ليشبعا شهوة التشفى والتأثر فى عالم الخيال وهو لون من ألوان الترويح عن عقلنا الباطن الذى تحال إليه كل القضايا البطيئة التنفيذ بخلاف ذلك المستخف الذى يشعر فى قرارة نفسه بنقص ما فينتقص كل أحد ليتساوى معه فى نقصه ولذلك يشعر المستخف بفرح وجذل عندما يشاهد إنسانا ما يهوى من ذروة الفضيلة إلى درك الرذيلة طبعا ومن غير قصد وعلة ذلك النقص النفسى أو التركيبى الذى جبلت عليه تلك الشخصية . وهنا يكمن سر الاستخفاف عند

ابن الرومى فتطيره نوع من الاستخفاف بالناس لأنهم يسهبون له الضر والبلاء وهو يستخف بالناس من حيث لا يشعرون . ابن الرومى يهجو الرجل من حيث هو إنسان فهو يترفع من أن يشترك مع الناس فى نسبتهم إلى أبيهم آدم فاضطر الناس إلى كرهه والنيل منه فأخملوا ذكره فابتعد هو بدوره عن الناس ساخطا وفضل العزلة ومن هنا كان منشأ تطيره لكن كان هذا الابتعاد والتطير سر نبوغه وعبقريته ويضيف الأستاذ محمد إبراهيم جدع حلقة جديدة إلى الرحلات الخيالية فى الأدب العربى وذلك بحديثه عن رحلة ابن شهيد الأندلسى فى (التوابع والزوابع) وابن شهيد فى هذه الرحلة يعلق على أقوال الشعراء الذاهبين ويطارحهم النشيد حتى إذا ما أنسوا منه قوة أجازوه وحديثه يتم عن طريق بطل خيالى هو زهير ثم يعلق الأستاذ جدع على كل رحلة من هذه الرحلات وقد ضمن ابن شهيد فى أقوال بطله فكرته عما يجب أن يكون عليه الشاعر من جودة التفكير وحسن التنقيح حين يريد أن يعبر عن فكرته شعراً ويكون هذا للكاتب أيضا ويدعو الأستاذ جدع إلى الاقتداء بهذا المسلك الفنى وقد اعتمد الأستاذ جدع فى هذه الدراسة على المنهجين التأثرى والتقريرى .

وفى (تيه ونور) للشاعر ميشيل موسى سنواجه دراسة ونقد للأستاذ خليل إبراهيم النعمة تعتمد على المنهج التأثرى مع الاستعانة بآراء كبار الشعراء وقد ركز نقده على دراسة شخصية الشاعر ونزعاته الوطنية والإنسانية وحلل أفكاره ومشاعره وذكر تأرجح الشاعر بين عاطفته الوطنية وتعرضه للصعاب وبين تشاؤمه المميت ومر سريعا على عبارات الشاعر .

وقد سلك الأستاذ عبد العزيز الرفاعى المنهج التأثرى أيضا فى نقده لملحمة (أرض الشهداء وهى ملحمة شعرية عن مأساة فلسطين للشاعر البحرانى (إبراهيم العريض) إذ أنه بحث عن أثر الملحمة فى نفسه من حيث إنها تعالج موضوعا معينا فلم يجد لها أثراً ولكنه مع ذلك يقدر الشاعر ويذكر بعض حسناته بل ويحاول الدفاع عنه والتماس العذر له بأن هذا الفن جديد فى الأدب العربى ولعلنا نلاحظ أن الناقد السعودى قد انطلق خارج نطاق السعودية إلى

الشام وإلى العراق وإلى مصر والسودان وغيرها من البلاد العربية والإسلامية باحثاً منقباً ودارساً ناقداً للآثار الأدبية. وهذا هو الأستاذ عبد الفتاح أبو مدين يعرض ويحلل وينقد كتاب (الشاعران المتشابهان : الشابي والتيجاني) ، للأستاذ أبو القاسم محمد بدوى ولقد أخذ الناقد السعودي على المؤلف عدم الدقة في استعمال الكلمات وعدم الالتفات إلى الأخطاء النحوية والعروضية بل إنه لم يدرس القصائد ولم يعلق عليها بما تستحق ، ولم يرض عما فعله المؤلف من عرض صورتين مشوهتين لكل من الشابي والتيجاني وتحت كل صورة قصيدة من شعر صاحبها دون دراسة وهو حين درس قدم دراسة ناقصة وكان ينبغي أن يدرس شعرهما ويقارن بينهما من جميع أوجه الشبه والمزايا التي اتفقا فيها والصبور التي اختلفا فيها وأهدافهما في الحياة وأن يتقصى الأمور التي كانت تحيط بهذين الشاعرين والعوامل التي تأثر بها كل منهما وأن يدرس البيئة التي عاشا فيها دراسة استقصاء والفترة التي كان يعيش فيها الشاعران لأن دراسة الشعر ونفوس الشعراء وما يحيط بها تحتاج إلى كثير من التعمق . فالأستاذ أبو مدين يصدر في دراسته عن أصول فقهية وبيئية ونفسية حين يحاكم الأستاذ أبو القاسم محمد بدوى ونلاحظ أن النقد الأدبي في السعودية يقتفي أثر النقد الأدبي في مصر ويتتلمذ على يد نقاده الكبار إلا أن الناقد السعودي كان على جانب كبير من الذكاء وحسن التصرف يأخذ ما يراه حقا ويترك ما عداه ويطبق المقاييس النقدية التي ارتضاها النقاد المصريون على النتاج الأدبي لهؤلاء النقاد كما فعل السيد أمين مدني في نقده للدكتور طه حسين وكتابه (حافظ وشوقي) وكما فعل محمد بن علي السنوسي حين تعرض أيضا لكتاب (حافظ وشوقي) فقد رضي الأديبان السعوديان عن بعض مناحي الكتاب وسخطا على بعضها الآخر ومن ثم احتفظ كل منهما بشخصيته الفنية مستقلة .

وحين ينقل الناقد السعودي أساس الخصومة بين طه حسين والرافعي حول (ماهية التجديد) يذكر رأي الناقدين الكبيرين ولا ينسى التعليق على

رأى كل منهما بما يراه صواباً وهو يتصيد قضية اتفق فيها رأى الناقدين الكبيرين ألا وهي الاعتراف بنبوغ الشاعر على محمود طه .

وإذا كان الناقد السعودى قد حاول تقويم ناقدين كبيرين من نقاد مصر فإن الناقد السعودى محمد العامر الرميح حاول تقويم شاعر من شعراء مصر الكبار أعجب به الناقد السعودى إعجاباً جاوز الحد إلا أنه ناقد ذو خطة ومنهج فقد ابتدأ بعرض فكرة عامة عن أبى شادى ثم تحدث عن الجانب الأدبى عند أبى شادى بعامة وعرض للجو الأدبى فى مصر قبل (أبللو) ثم تحدث عن هجرة أبى شادى لأمريكا وكيف استقبلته أمريكا حكومة وشعبا بالتكريم ثم كانت له جولة استعراضية فى ديوان (من السماء) بدأها بالحديث عن مقدمة أبى شادى لديوانه عن (التجربة الشعرية) ثم تحدث عن شعر أبى شادى .

فالأديب السعودى لم يتخذ مادة نقده كما رأينا من الأدب السعودى الحديث وحده ولكن من القديم والحديث ومن السعودية وغير السعودية واهتم بالأدب المصرى الاهتمام كله فأعجب به ودرسه ونقده ليس أدب الرجال وحده بل وأدب المرأة المصرية أيضا فالأستاذ حسن عبد الله القرشى يعرض بالنقد لقصة (هندية) للأديبة المصرية جميلة العلايلى فيعرفنا بالكاتبة ودورها فى الأدب المصرى الحديث ثم عرض لعنوان القصة فذكر سبب تسميتها (هندية) والسبب أنها تحكى قصة فتاة عاشت لمثلها وأحلامها وقد غمرتها موجة روحية طاغية كان مثلها الأعلى فيها غاندى زعيم الهند الروحى ثم عرض خلاصة القصة وانتقد بعض مواقفها ورأى أن هدفها تقديم صورة من صور الشذوذ الإنسانى عند الأنثى أشتى بطلة القصة ومن يتصلون بها وهو يرفض مثل هذا الهدف ورأى أن أسلوب القصة يغلب عليه السرد كما يغلب على فكرتها عنصر المجادلة المجردة ومع كل هذا فالأستاذ القرشى يرى لقصة (هندية) وزنا فى رصيد الأدب الأنثوى الحديث .

هذه هى مجالات فن المقالة فى الأدب السعودى وتلك أبعادها واتجاهاتها ويتفرع من المقالة فن أدبى آخر هو الخاطرة وإن اختلفت عنها من عدة

وجوه إذ هى فكرة عارضة طارئة لا تحتاج إلى أسانيد وحجج وهى أقصر من المقالة ومن أمثلتها فى الأدب السعودى (كلمة المحرر) فى المنهل للأستاذ عبد القدوس الأنصارى .

ولقد كانت المقالة الأدبية ذات الطابع الحوارى خطوة نحو القصة السعودية الحديثة . وإذا كان الأستاذ عبد القدوس الأنصارى قد زعم أن الناس ملّوا أدب المقالة ومن ثم فهو يريد أن يأخذ بيدهم إلى أدب الحوار فإن الأستاذ أحمد رضا حوحو يزعم أن أدب المقالة قليل النفع ومن ثم فهو يدعو لأدب القصة ويزدرى مخطئا أدب المقالة .

وأدب القصة قديم قدم التاريخ واهتمت به الكتب السماوية وقد تطوّر بتطور الزمن وتقدم الإنسان فى ميادين الحضارة فانتقل من وسيلة لشغل أوقات الفراغ إلى وسيلة لنشر الإسلام وأخذ فى السمو تارة والهبوط أخرى حتى أتيح له الازدهار فى العصر الحديث .

وقد أخذت القصة السعودية فى الازدهار منذ ١٣٥٦ هـ وكان من حسنات (المنهل) دعوتها إلى أدب القصة واعتناؤها بتقدمه فاستطاعت فى سنوات قليلة أن تلفت الأنظار إليها وأن تكون محل المناقشة والحديث . وبعض كتاب القصة السعودية اكتفوا بنشر قصصهم فى الصحف مثل محمد عالم الأفغانى وأمين يحيي وثمة نفر آخر لم يكتفوا بذلك ونشروا قصصهم مستقلة مثل أحمد السباعى ومحمد على مغربى والقصة هى الباب الواسع الذى يدخل منه هواة المطالعة من مختلف الطبقات بما يجدونه من قول مثير لذيذ وموضوعات شيقة وعرض منسجم .

وأدب القصة بحاجة إلى ثقافة عالية واتساع أفق وتغلغل فى ألوان الحياة وممارسة لعقده وحلوله وتكوين أبطاله واستنطاقهم وحبك فكرة شاملة عن موضوع حى وتقديمها فى ثوب قشيب مقبول وأدب القصة أنواع تقوم على أسس فنية فمنها الرواية والقصة والأقصوصة وقد نشأت الأقصوصة ونمت فى ظل الصحافة ومن هنا اشتدت عنايتنا بها . وقد التزمت أقاصيص (المنهل)

باللغة العربية الفصحى أسلوبا فنيا لا تحيد عنه لتحرره وانطلاقه نحو الوحدة العربية .

ونرى أن رائد فن الأقصوصة فى الأدب السعودى الحديث هو الأستاذ محمد عالم الأفغانى الذى مارس هذا الفن عن موهبة وثقافة فنية ومصادر مذهبه الفنى ترجع إلى الناقد الفرنسى « تين » ونظريته فى الجنس والبيئة والزمن كما ترجع إلى « إميل زولا » فى « أسرار مرسيليا » وما فيها من نفحات رومانسية حالمة ، وإلى مدرسة فرويد فى التحليل النفسى والأحلام والعقل الباطن .

وهو يرى أن القصة التى تكتب على صورة اعترافات تخضع للرومانسية كلما كان الاهتمام منصرفا إلى بطل واحد . وتقترب من الواقعية كلما اتجهت النية إلى توزيع الحياة فى أشخاص القصة على حد سواء ومن ثم فنحن نجد عنده أنماطاً من القصة منها الواقعية كما فى قصة (الثأر) والقصة بين الواقعية والرومانسية كما فى (عودة سعيد) والقصة الرومانسية الرمزية كما فى (أحلام) وكما فى (شهر زاد) التى تظن أنه تأثر فيها بطه حسين وتوفيق الحكيم وهو فى قصصه يميل إلى التحليل النفسى ويتخذ شخصيات مريضة لتساعده على تحقيق هدفه وهو يتخذ الشك طريقا إلى اليقين ويقلب وجوه الرأى بحثا عن الحرية والمعرفة إنها نغمة قصصية جديدة فى الأدب السعودى .

ويبدو أن (فرويد) كان له تأثير قوى على اتجاه القصة السعودية وأن الأمر لم يكن مقصوراً على (الأفغانى) وحده فالأستاذ عبد السلام هاشم حافظ لجأ أيضاً إلى عالم الرؤى والأحلام ليكون ذلك العالم وسيلة فنية لإشباع الرغبات المكبوتة عند أبطال أقاصيصه كما فى أقصوصة (فاطمة) كما لجأ إلى التحليل النفسى لغرام المراهقين فى (لها ماض) وفى عالم الحب ودنيا المرأة أيضا يتنازل إنسان لآخر عن فتاة أحلامه وهو تنازل عجيب يقابله الفائز بإهداء ابنته إلى من تنازل له عن خطيبته فى (وفاء) على أنه ليس هنالك حد فاصل بين الاتجاه النفسى والاجتماعى فمادة التحليل النفسى إنسان يعيش فى مجتمع له قضاياه ومشاكله وهيهات هيهات الفصل بين الإنسان ومجتمعه والمسألة تكمن

فى اللون الذى يغلب على الأقصوصة أكثر من غيره فإن غلبت نوازع النفس فالأقصوصة نفسية وإن غلبت قضايا المجتمع فالأقصوصة اجتماعية ومن المشاكل الاجتماعية الصعبة فى السعودية مشكلة الزواج وهى من موضوعات الاتجاه الاجتماعى فى الأقصوصة وقد عالجها محمد على مغربى فى (المترهبة) تلك الفتاة التى كانت ضحية الحب الأعمى من جانب الأب والسلبية المطلقة من الأبناء والأم.

على أن المرأة تتعرض لمحنة أخرى، حين يتحقق حلمها بالزواج السعيد وتنتقل إلى بيت زوجها إذ ينشأ صراع بينها وبين حماتها حول الزوج المسكين ذلك موضوع أقصوصة (فاطمة) لمحمد أمين يحيى .

وحين ينتشل إنسان نبيل طفلا من بين أحضان أمه الميتة ويربيه ويعلمه ويزوجه ثم تنزل كارثة بذلك الإنسان النبيل ويتنكر له الطفل الذى صار رجلا يكون الوفاء فى أزمة تحكيها أقصوصة (الإحسان الضائع) لمحمد مليبارى. وإذا كان شباب المدارس قد يتعرضون لأزمات عاطفية فى مرحلة المراهقة فيتنافس صديقان فى حب فتاة تميل إلى أحدهما وتحترم الآخر فإن ذلك هو موضوع أقصوصة (نبل ووفاء) للأستاذ محمد حسن سعيد وقد قامت الفتاة المسلمة بدورها فى الصلح بين الصديقين وانتهت الأزمة نهاية سعيدة .

وقد عانت الأسرة السعودية من مشكلة الفقر ولا سيما حين تفقد عائلها ولم يكن للزوجة عمـــل ولا ثروة تقوم بمطالب الحياة كما يتضح ذلك فى (مأساة أم) للأستاذ محمد سعيد العابودى .

وثمة فن آخر من فنون الأدب السعودى له أصالته ووزنه ذلكم هو فن الشعر وهل هو موهبة وثقافة أم موهبة فقط ؟ وأيما كان الأمر فإن شجرة الشعر العربى نبتت فى نجـــد ثم امتدت فروعها إلى الآفاق ثم انتقلت بذور دوحة الشعر إلى الأقطار الأخرى، فصوّح منها موطنها الأصلى وكان ذلك فى القرن الرابع الهجرى وخلت البلاد من كل نشاط وصار فى المؤخرة من كان فى الطليعة ثم بدأ عصر البعث العربى فى أعقاب حرب الدولة العثمانية

مع إيطاليا فبدأت البلاد تسترجع أمجادها ، وانتقل إليها عدوى الشعور بالذاتية وبحمل راية الشعر السياسي إبراهيم الأسكوبي من المدينة المنورة وخلفه على هذه الأمانة محمد العمري المدني وكانت له جولات موفقة في عالم الشعر السياسي والاجتماعي كان ذلك قبيل الحرب العالمية الأولى ثم نشأت ناشئة ما بعد تلك الحرب تلك الناشئة التي فتحت أعينها على الثورة العربية ضد الدولة التركية وقدم إلى البلاد وفود من شتى الأقطار العربية وكان في مقدمتهم الشيخ فؤاد الخطيب الذي أضرم جذوة الحماسة الشعرية في ناشئة البلاد وكان في طليعتهم محمد عمر عرب وأحمد إبراهيم الغزاوي .

وساعد على تنمية طاقة الشاعرية الحديثة هذا الفيض الجارف الوارد من طاقات الشعر العربي الحي الحديث الذي يحمل مشاعل الثورة من مصر والعراق والشام ولا ريب أن كل هذا كان بمثابة روافد لتكوين مبادىء شخصية الشاعر السعودي وكانت البداية محاكاة للمجددين من أعلام الشعر العربي الحديث ومحاولة الخروج من الأغلال القديمة ومسايرة التطوّر الحديث ومعالجة الموضوعات الوطنية والسياسية والاجتماعية وتم ذلك عن طريق أفراد فجيل الغزاوي خطا خطوة ثم تلاه جيل محمد سرور الصبان ومحمد عمر عرب ثم جيل محمد السنوسي وحسن القرشي وبالجملة فإن هذه الأجيال الثلاثة تمثل عصر البعث وكان كل جيل منها يدفع حركة التطوّر بما يستطيع من قوة ونشاط .

والشعر السعودي مصدر من مصادر الإلهام والبحث للفرد والمجتمع وله طابعه المميز فهو مرتبط بهذه البيئة وبنفسية الإنسان السعودي وهو متعدد الاتجاهات وخيال السعودي لا يتجاوز مناطق الحقيقة التي يصفونها إذا وقعت أو يتخيلون وقوعها وفي إمكانهم تحقيق ما يتخيلون وشعرهم تصوير للواقع ولهذا ما كادت الجزيرة تنتفض انتفاضة الإفاقة والتنبه حول دعوة التوحيد ووراءها الأئمة من آل سعود حتى نطق أبناء الجزيرة مسجلين هذه اليقظة في شعرهم الذي بدأ معها يقوى ويفصح .

وإذا كان شعراء البعث والتفتح مصدراً من مصادر الإلهام فإن شعراء عهد النضج قد نسجوا خيوط شعرهم من أحاسيسهم وتجاربهم وقد أقبلوا على صنع الملاحم الشعرية وشعر الملاحم السعودى أول المراحل الفنية فى الدفاع عن الحرية الفكرية . شعراء التفتح نظروا إلى الدنيا نظرة الشاعر الذى يحس فيعتبر وشعراء النضج نظروا إلى الكون نظرة الفيلسوف الذى يفكر ويتدبر والشعر الجيد فى نظرنا هو الذى يصدر عن شاعرية ملهمة وعاطفة جياشة وفن أصيل وموسيقى تهز النفس ولا فرق بعد هذا أن يكون من شعر الملاحم أم شعر المناسبات أم من شعر الوصف .. الخ والشعر الجيد هو الذى يحمل إلينا معانى الحق والخير والجمال ومن الأدلة على ذلك قصيدة (من سماء الشعر) ألقاها الشاعر السـيد صالح الحامد العلوى فى الحفلة التى أقامها النادى الأدبى العربى بسنغافورة تكريماً للشاعر وتقديراً لشعره البليغ فالقصيدة من وحى سنغافورة وطبيعتها ونادبها وقد التقى الشاعر بالطبيعة والنادى وجها لوجه فكانت تجربة عملية نقلها إلينا فى تجربة شعرية جيدة ارتفع الشاعر إلى سماء الشعر وكانت رؤيته واضحة مزج فيها مذهبه الشعرى بالطبيعة بالوداع ونقل هذه التجربة عبر صور جميلة وألفاظ شفافة .

أما قصيدة (أو خيال مجسم فى ابن خمس) لأحمد إبراهيم الغزاوى فقد نفخ بها (المنهل) بمناسبة عيدها الخامس ولقد نوع بين أسلوب الخبر والإنشاء وعرض صوراً متتابعة جسمها له خياله أو جسم فيها كما يقول ابن خمس ولكنه حين أدخل فكرة السؤال عن حقيقة الأمر وفك الرمز أدخل لوناً من الحوار الداخلى أضفى على القصيدة جوا قصصيا وكأن فى الأمر عقـدة تتطلب حلا وإذا بالشاعر فى الأبيات الأخيرة يكشف النقاب عن وجه الحقيقة ويصرح بأنه يعنى (المنهل) الذى يضم الشعر والنثر ويمزج قديم الفن بجديده وقصيدة (الشاعر الطموح المتنبى) للسيد محمد هاشم رشيد يعبر فيها الشاعر عن إعجابه بالمتنبى ويصور آمال المتنبى وطموحه وأنه كان ذا بيان نارى وحياة متقلبة كما أنه كان حاقداً على الناس لأنهم لا يقدرون عبقريته ، والقصيدة ذات موسيقى راقصة اعتمدت على بعض الصور البيانية غير أن

عنصر الفكرة غلب على الشاعر فهو يأتى بالفكرة ويعلل لها ، والصور التى ذكرها صور توضيحية لا تحمل إشعاعات نفس ولا ومضات قلب ومن ثم فهى صور جميلة من حيث الشكل والقصيدة من شعر الفكرة .

وأغانى الشاعر السعودى الدينية تجىء من الدعاة إلى الله وتتحدث عن قيم ظهرت على هذه الأرض المقدسة وذكريات كانت السعودية مسرحها على نحو ما نجد فى (قبس من الهجرة) لحسن عبد الله القرشى فالشاعر إنما يستلهم قلبه المؤمن أولا وبيئته المقدسة ثانيا ففى مقدمة هذه القصيدة تطالعنا الخطوط الكبرى للقصيدة فهى تقدم ملامحها الفكرية العامة ممزوجة بعواطف الشاعر ثم يفصل الشاعر أفكاره مصورة ويقف بها عند غار ثور وجاءت خاتمة القصيدة تلخيصا لها . والشاعر يغنى ويقص فى آن واحد فلم يتغلب التاريخ على الفن .

أما قصيدة (الذكرى المشرقة) لأحمد إبراهيم الغزاوى فتبدو أفكارها غير مرتبة ووحدتها الفنية مختلفة والصوت الخطابى الدينى هو المسيطر على القصيدة لقد أثارت الذكرى المشرقة فى نفس الشاعر معانى وأفكاراً فسردها ولم يصغها صياغة شعرية وإن كانت القصيدة موزونة ومقفاة لكن ما تثيره فى نفوسنا لا يرجع إلى الصياغة الشعرية وإنما يرجع إلى أنها قصيدة فى مولد الرسول ﷺ لقد غلب الدين على الفن فى قصيدة الغزاوى ولو أن الدين والفن سارا معاً لسمعنا شعراً لا نظماً .

والاتجاه الاجتماعى فى الشعر السعودى ليس ببعيد عن الاتجاه الدينى فهو ثمرة من ثمار الوعى واليقظة وإدراك الشاعر لدوره فى البنية الاجتماعية فالشاعر إبراهيم فطانى فى قصيدته (إلى الشباب) يفخر بكونه معلماً تخرج على يديه كثير من الأدباء والمربين وتلك نعمة يحسن التحدث بها وينظر إلى الشباب على أنه معقد الأمل يرجى لبناء مجد البلاد وليس فى قلب الشباب موضع ليأس لصلابة عوده واستهانته بالمصاعب وألوان نشاطه متعددة منها الاجتماعى والأدبى وهو ينصح الشباب بالتضحية والجد لأن العصر الذى يعيشون فيه عصر سرعة ومضاء وينبغى أن لا يعيشوا فى العصر الحديث بعقلية القرون

الأولى ويدعوهم إلى عدم الاكتفاء باللحاق بركب الحضارة بل عليهم أن يسبقوا الركب لاسترداد مكان القيادة للعالم فقد كنا سادة قادة فصرنا تابعين مستعمرين حتى طمع فينا اليهود فاحتلوا فلسطين ومن ثم يجب تصحيح الوضع وإعادة الأمور إلى مجاريها .

إن الشاعر السعودى يجول ويصول فى شتى الميادين على ما مر بنا وقد دخل الميدان السياسى أيضا وما هو الشاعر إبراهيم الأسكوبى فى قصيدته المشهورة بالأسكوبية يوجه صيحة إرشاد وتنبيه إلى الدولة العثمانية وقد نظمها الشاعر أثناء هجوم إيطاليا على طرابلس الغرب قبل الحرب العالمية الأولى وقد مات الأسكوبى منفيا عن بلاده بسبب هذه القصيدة مع أنه لم يضمنها سوى النصح والتوجيه من شاعر مسلم مخلص للدولة العثمانية فلم يكن الأسكوبى من أصحاب فكرة الانفصال عن الترك ولكنه لاحظ ولوع آل عثمان الأقدمين بالحرب يشبونها باستمرار على من يجاورهم من الدول الأوربية وكان ذلك من أهم أسباب تكتل هذه الدول فيا بعد وقيامها بمحاولة القضاء على هذا التحدى والقصيدة فريدة فى الشعر السعودى منذ بدأ ينهض فالعصر الذى عاش فيه الأسكوبى كان عصراً متخلفاً فى ناحيتى الفكر والبيان .

ومن ألوان الشعر السعودى السياسى تلك القصائد الكثيرة التى نظمت حول (فلسطين) فالشاعر محمد أحمد باشميل ينظم قصيدة بعنوان (فلسطين الشهيدة) يستهلها بمقدمة غزلية فى أسلوب حوارى ساذج أجزاه الشاعر بينه وبين من أسماها (سليمى) فصورها فتاة لعوباً تحاول إغراءه بأساليب شتى بيد أنها لم تفلح فقد اعتصم الشاعر بدينه والنموذج الجمالى الذى رسمه الشاعر لفتاته لم يخرج عن النموذج القديم عند الشاعر الجاهلى .

إن طرف الشاعر ساهر وفكره شارد وليس ذلك عن عشق وإنما لزيادة الخطوب التى ألمت بالعرب والمسلمين فهذى فلسطين الشهيدة قد هوت بلطمة وغدر وهذا شعبها العزيز قد تخاذلت حماته وجرعه كأس المنايا أقاربه فأصبح شعباً مشرداً لاجئا تفتك به المسغبة . وقد انتقل الشاعر من المقدمة إلى موضوع القصيدة انتقالا نفسيا فهو ساهر الطرف مهموم فما سر هذا السهر ؟ أحب

عارم أم كارثة مروعة ؟ أما الحب فقد انصرف عنه . بقيت الثانية وهى الكارثة وشخصية الشاعر المعذبة هى جسر العبور من المقدمة إلى الغرض الأساسى وهو فلسطين الشهيدة . ومن هذا المنطلق وهو أن الكارثة عار وهوان انفجرت عاطفة الشاعر تصب جام غضبها على العرب آنا وعلى إسرائيل آنا وعلى الذين عاونوها أولا وأخيراً .

وأكبر الظن أن الشاعر حين نظم هذه القصيدة وضع نصب عينيه بشار بن برد والمتنبى وشوقى وحافظ. فآثار هؤلاء واضحة عند باشميل .

والشاعر ذو عاطفة وحشية بدوية وقد لجأ إلى أسلوب السرد والتقرير ولا سيما فى ختام القصيدة .

وإذا كانت قصيدة باشميل غضبة ثائرة فإن (فلسطين) للأستاذ محمد على مغربى ترنيمة حرب فالتضحية بالنفس والمال هما وسيلة تحرير فلسطين وقد نذر العرب أنفسهم للتحرير ودفع شذاذ الآفاق من الصهاينة عن فلسطين وحين ينطلق المناضل العربى لتحرير فلسطين إنما يحقق هدفين : تطهير الأرض وتحقيق وعد الله فى اليهود واستيلاء اليهود على فلسطين كان خطة مدبرة بين ساسة العالم الكبار وبين اليهود . وإن هؤلاء الساسة وحوش فى صور آدمية . وقد عرض الشاعر هذه المعانى خلال قصيدته ثم عاد الى تلخيصها فى ختام القصيدة . وكلمات القصيدة وموسيقاها من الرقة بحيث تصلح للتلحين والغناء وكأن الشاعر وضعها نشيداً للحرب وصور الشاعر وعباراته جميلة توحى بالموقف .

واذا كان الشاعر السعودى قد غنى لحرب فلسطين فلأنها حرب مقدسة لحماية الدين والوطن أما الحرب للسيطرة والاستعلاء فى الأرض فإن الشاعر السعودى يرفضها ففى (رواية الحرب) للشاعر المجهول عبد القدوس الأنصارى يبدأ الشاعر بالحديث عن غريزة العدوان فى النفس البشرية وأنها أقوى دوافع الحرب وما دامت فى الإنسان هذه الغريزة فالحرب دائمة ومتجددة ، وهى فى الشرق ريح عاصف وفى الغرب مرجل يغلى ، ومادامت المعارك

مستمرة بين البشر فإن آثارها وخيمة والعجب كل العجب أن الغرب يدرك ذلك ومع هذا فهو يسرف فى التسليح إنها الكبرياء إذن وحب السيطرة ومن ثم فإن حضارة الغرب برغم ازدهارها لم تكتمل لأن يداً تبنى وأخرى تهدم فما حال الشرق ؟ إن أمنية الشاعر أن لا يشترك الشرق فى الحرب القادمة فقد نظم الشاعر قصيدته وطبول الحرب الثانية تدق فهل من فتى رشيد يطفىء الجمر ؟

إن المنايا ترقص فى كل واد والبشر فى حالة ذهول ينتظرون حتفهم وبذلك يسقط السلام ويضيع الأمن إذا ما قيل يوم الصراع غير بعيد . إن هذه القصيدة نبعت من عاطفة تحب السلام وتكره الحرب ومن ثم نظر إلى غريزة العدوان الدافعة إلى الحرب على أنها داء يجب علاجه ، وصور الشاعر وبيدة عاطفته وهذا مايكسبها حيوية وقوة ، والقصيدة ذات وحدة فنية متكاملة فموضوعها واحد وأفكارها واحدة والجو النفسى الذى يغلف الرواية واحد من بدايتها إلى نهايتها والشاعر استقى تجربته من الحياة ومن واقع النفس البشرية . إن السلام والأمن والرخاء والتشييد والبناء أنشودة الشاعر السعودى ومن ثم صور الحرب فى صور منفرة مؤلمة فاتجاه الشاعر نحو السلام لا نحو الحرب .

وهذه (دنيا الغد) لمحمود عارف ترنيمة للسلام وأغرودة فرح بانتهاء الحرب وأهوالها وإن خلفت الحاضر مثقلا بالمجازر ولكنها مضت بأثقالها وأوزارها وفى أثرها بدا نعيم المصير فى غد جد ناضر وإذا كان الشاعر قد رسم بريشته صورة الدمار فى حقبة البلوى فقد رسم فى حقبة النعيم صورة لفرح الطبيعة . وبعث الحياة والحركة فى صوره ، وهذه الطبيعة الجذلانة أسعدت الكون فخفق قلب العالم بالسرور لتحقيق المنى فقد انتصر السلام على الحرب ومن ثم فالغد مشرق وكل ذلك أسكر الشاعر وبعث فيه النشوة فطرب وترنح وطلب المزيد من كؤوس الصفو والمنى ورجا أن يعود الناس الى ينابيع الثقافة والحرية والحضارة والحب والعدل فهذه ذخائر السعادة .

وبين أحضان الطبيعة كانت للشاعر السعودى جلسات شعرية مغردة

فالأنصاري فى قصيدته (وحي العقيق فى يوم انهماره) قد استلهم العقيق ذات مساء بهيج فأوحى إلى الشاعر. هذه القصيدة العصماء التى دخل فى نسيجها الشاعر والعقيق والمطر والطبيعة والتاريخ وجاءت مكتملة الوحدة الموضوعية والفكرية والشعورية فالشاعر يصف انهمار المطر وأثره فى العقيق ثم يذكر أن العقيق هكذا منذ الزمن البعيد يأتيه الزوار يوم انهماره للنزهة والراحة ومثل هذا المكان تنبغي العناية به وقد مارس الشاعر تجربته عمليا حيث عايش المكان وما حوى وما أوحي اليه ولكن الشاعر على رغم سروره بالطبيعة ، وبعثه الحياة فيها لم يندمج فيها ولم يشعر أنه فرد من أفرادها فهو قد انتحى عن رفاقه جانبا وجلس وحيداً على ضفاف الوادى الذهبي الجميل وكان بوسعه وقد شخص الوادى والطبيعة أن يتحرك بحركتها وأن يكون منها واليها فيصل أحاسيسه بأحاسيسها ولكنه اكتفى بأن يكون مصوراً من الخارج .

أما قصيدة (جازان) للشاعر محمد أحمد عيسى فقد تحدث فيها عن نفسه أكثر من حديثه عن حبيبته (جازان) أنه يفخر بنفسه وبفنه بين يدى موضوعه وختم قصيدته ببكاء حظه العاثر وعدم تقديره فى بلده (جازان) فلماذا هام بحبها وجعلها معشوقته ؟ يبدو أن الشاعر كان يعانى من أزمة نفسية ومن ثم ضحك وبكى . لقد ذكر شواطىء جازان ومساءها على البحر حيث ترقص الأمواج تحت أضواء الشفق على الصخور وحيث رمال الشاطىء الندية برشاش الموج والنسيم يهفو على التلال وجذوع الأشجار موائل فى صف واحد . كل هذه الرؤى ارتسمت فى خيال الشاعر وعبر عنها من الخارج كما فعل الأنصارى .

أما الشاعر حسين سرحان فهو الذى حرك الطبيعة وجعل نفسه فرداً من أفرادها وإن شئت فقل إن هذه أمنية (ياليتنى قمرى) .

إن الشاعر يرى السعادة كل السعادة فى العلم والحرية وصفاء الروح وإشراقها ولا يدرك ذلك إلا فنان مثل حسين سرحان ذلك الشاعر الرومانسى الذى ضاق بالحياة وقيودها وظلامها فتمنى أن لو كان قمريا يزقزق بين الرياض حين ينبثق نور الفجر إنها أمنية دعت إليها قسوة الحياة من حوله

ودعا إليها تعاسة الإنسان بل تعاسته هو. أليس إنسانا يطلب السعادة ؟ إنه يتخذ من الطبيعة وسيلة للتعبير عن رؤية خاصة فهو حين يجعل الدجى إنساناً نائماً يصور مدى التعاسة التى يعانى منها ذلك الإنسان المظلم الذى يحلم بنور الفجر . ولقد اختار الشاعر لحنا موسيقيا يتمشى مع حركات القمرى وقفزاته وسخط الشاعر من النوع الخفيف إنه ليس سخطا مظلماً بقدر ما هو إعلان عن رغبة وأمنية يمكن أن تتحقق وهو ينتظرها كما ينتظر الصائم ليلة القدر .

والشاعر السعودى حسين عرب يقف متأملا أمام جبل (عيلم) فماذا رأى فى الطبيعة ؟ وبماذا أوحت إليه هذه الرؤية ؟ إن الشاعر لا يصور الطبيعة ولا يبعث فيها الحياة وحسب وإنما يفلسف أحداثها ويسقط عليها آراء فى الكون والحياة لقد بدا الجبل ساهم النظرة تخفيه الغيوم حينا ثم تنجاب عنه وتشرق الشمس فما الذى تخفيه من سر الوجود حين يشرق وحين يلفه الغمام ؟ أعندك أيها الجبل شيئا من أسرار الوجود فى حالتيك أم أنك مثلنا لا تعرف كيف المآب ؟ فإذا تغشاك ضباب فنحن أيضا يتغشانا ضباب ومن ثم يضل العقل طريقه إلى الصواب وتستوى لديه الحقيقة والخيال . إن هذه الوقفة التأملية أمام الجبل من عيون الشعر السعودى لأن الشاعر لم يتركها لجفاف العقل والمنطق بل مزجها بالخيال والعاطفة مزجها بالحيرة أمام مظاهر الكون وأحداثه وفكر بالصورة وتحرر من وحدة القافية لا من وحدة الوزن .

أما (أنا والقمر) للشاعر حسين قاضى فتنم عن رقة عاطفية عند ذلك المعنى السهران وقد بعدت داره وإلفه والهوى وسرت روحه عليها تنظر روح من يهوى إن عز النظر المادى والصياغة الفنية كفاء هذه المشاعر الصادقة حيث يعبر الشاعر باللون الوادع الساحر فى سنا القمر وبألوان الزهر وأنغام الجدول ورقصات القمر . إن القصيدة نبضات قلب ورؤى شاعر فى أعماق نفسه وفى آفاق الكون من حوله وقد نام الناس وصحا هو والقمر . فإن ذهبت تبحث والحالة هذى عن أفكار عميقة ومعان دقيقة كتلك التى

كانت عند حسين عرب فلن تظفر بطائل لأنك أمام شاعر يفضى بمكنون قلبه لا بثمار عقله ومع الشاعر السيد محمد هاشم رشيد فى (اذكرينى) تحس أنك مع شاعر متيم أضناه الغرام فهو يطلب من حبيبته أن تذكره دائماً وأن تجعله أنشودتها المفضلة وهو يرسم لحبيبته لوحات فنية رائعة منذ أيقظها فى السحر واتجه بها نحو الحديقة ثم قال لها (اذكرينى) ولقد نسج الشاعر لوحته من خيوط الضوء والطير والزهر والعطر والأغصان والثمار والندى ، وهو يطلب إليها أن تذكره فى الأصيل مع النسيم العليل والشمس عند الغروب . فلما جن عليه الليل طلب إليها أن تذكره أيضا ولو كان ذلك عند منتصف الليل والكون فقد أغفى ونام . إن هذه القصيدة أشواق هائمة لا أقول على رمال الوجد والحنين بل على هام الغصون والثمار وتحت أفياء الأشجار فى السحر والضحى والأصيل والليل ..

إن الطبيعة تتلون عند الشاعر الأصيل بلون نفسه لأنه ينظر إليها من خلال وجدانه فيصاحبها أو يعاديها والشاعر عبد الوهاب آش فى قصيدة (ياليل) يبدى تعاطفا مع الليل لأنه يرى فيه البهجة والسرور ويراه خير أنيس برغم ظلامه وصمته فالذين زعموا أن الليل صبغ الحياة بلونه الأسود قد ظلموه ولم يحسنوا التلقى عنه وعن جماله فى النجوم اللوامع والبدر الفاتن والزهور يفوح عبيرها بالليل ، والليل ظرف الغرام فتحت أستاره يلهو المحبون فى صبوة ولقاء وحنان ورفق . هذه مباهج الليل .

وللبحر والفلك نصيب فى الشعر السعودى فقصيدة (التالودية) ، لعبد القدوس الأنصارى كانت ثمرة جلسة تأملية على مقدمة الباخرة (تالودى) رسم فيها الشاعر صورة للجو والبحر عند الأصيل ووازن بين أحياء البر وأحياء البحر وبين موقف الإنسان من البحـــر قديما وحديثا ثم التفت الشاعر إلى الباخرة التى أتاحت له هذه الجلسة فرأى فيها وفى غيرها ثمرة من ثمار العقل وتمنى أن يسود السلام لكن حب الشاعر للبحر أو كرهه له وفلسفته للموقف كل ذلك لا تفصح عنه القصيدة ونحسب أن الأنصارى قد

تأثر بشوقى فى وصف الفلك والبحر فى مقدمة قصيدته (كبار الحوادث فى وادى النيل) .

وإذا كنا فيما مضى قد عرضنا شعر الطبيعة ممزوجاً بشعر المرأة فنحن مع ديوان (أحلام الربيع) لطاهر الزمخشرى نعيش مع شعر يدور حول المرأة والتغزل بها والزمخشرى ينهج منهج عمر بن أبى ربيعة فالغزل عنده مادى والحب فم على فم يعل منه وينهل وقد ظل يطوف فى مغانى الجمال ومرابع الصبوة والصبايا .

وإذا كان من شعراء السعودية من رأى الحب سرابا فإن منهم من رأى الحب كل شيء فى الحياة فإذا فقده فقد فقد كل شيء وإن ملك الدنيا بحذافيرها على نحو مانشاهد ذلك فى قصيدة (فجر سعيد) لحسن عبد الله القرشى الذى يرى أنه لو حاز كل شيء إلا محيا حبيبته فكأنه لم يحز شيئا وجيه مابدى أيضا يتحدث عن لثم الخد وعسل الريق ونبض النهد والقوام المزنر إلى غير ذلك

ويحار الشاعر محمد عبد القادر فقيه فى أمر الحب فيتساءل (ياحب من أنت) فالناس قد اختلفوا شيعا وأحزابا فى أمر الحب وضلوا السبيل إليه فهذا محب مدنف مشرد النوم مسلوب النهى يجرى وراء السراب وقد قنع بهذه الحياة وأعجبه سحرها فاعتزل الناس وحلق فى عالم المثل والفقيه غير مقتنع فيما يبدو بهذا المذهب فى الحب وتساءل : هل الحكيم من أحب أم من لم يحب ؟ وقصائد الغزل بصفة عامة ذات وحدة فنية وإن سار بعض الشعراء على منهج القصيدة القديم وسار البعض على المنهج الجديد فى الشعر المنثور .

والشعر المنثور محاولة لتطعيم الشعر العربى بأشعار أجنبية كالانجليزية أو الفرنسية مثلا وقد دعا إلى ذلك منطق الحياة المتطورة . وموضع النقد لهذا الشعر الجديد هو تسميته فلماذا اختاروا له اسم الشعر وهو أقرب إلى النثر الفنى ؟ أما أنصار الشعر المنثور فيقولون : إنك لتجد فيه صفات ومميزات لا تجدها فى النثر الفنى فكل عبارة فيه تطوى فى نفسها معانى واسعة وخيالا خصيبا ولكل شطر جرس خاص وهو لم يتحرر من المغزى واللباب الذى

تتسم به حقيقة الشعر .. ولعلهم أدركوا صلابة الشعر القديم عبر العصور فحاولوا أن يكسبوا هذه الخاصية لشعرهم فزعموا أنه يلتقى مع الشعر القديم فى المغزى واللباب إن الشعر المنثور ضرب من الشعر ولكن هل هو ضرب من الشعر العربى ؟ هذا هو محك الخلاف فالشعر لدى العرب هو ما التزم القافية والوزن ، وحينما أراد العرب أن يطعنوا فى القرآن المجيد فتق لهم شيطان فكرهم وعنادهم تسميته تضليلا بالشعر وما هو بشعر حتى فى مصطلحهم .

إن هذا اللون من الشعر تأثر بالشعر الغربى وهو مريح لا يكلف الشعراء تعبا ولا عناء ويخيل إلى الشباب أنهم يقلدون الشعراء الغربيين ويجددون فى الأوزان والقوافى .

إن الشعر يقدم الفكرة فى إيجاز وإيحاء ممزوجة بعاطفة جياشة مصورة تصويراً بديعا .. وهذه الخصائص توجد فى الشعر المنثور وقد عرف الأدب السعودى هذا الاتجاه الشعرى ومن الأمثلة عليه (وداعا أيتها المناظر الخالدة) لعبد القدوس الأنصارى وهى قصيدة متماسكة ذات موضوع واحد هو مناظر المدينة المنورة : ثنية الوداع ــ جبل أحد ــ الحرار الرابضة ــ النخيل والمآذن والوديان والبساتين . ولم ينس الشاعر رفاقه فى المدينة بل لم ينس كل الذين يعيشون فى هذا البلد الطيب ، والقصيدة ذات جو نفسى واحد هو تعاطف الشاعر مع هذه المناظر وحنينه إلى أهل المدينة .

والشاعر إنسان موهوب مرهف الحس رقيق الشعور ومن ثم يكون إحساسه بالألم أعمق والشعراء والحالة هذه أصناف فمنهم من يهرب من هذا الواقع المرير فيرتمى فى أحضان المرأة أو الطبيعة أو الخمر ومعظم الشعراء الرومانسيين من هذا الصنف ، ومنهم من يعتزل الحياة وآلامها . فماذا صنع الشاعر السعودى أمام سيل الآلام الجارف ذلك ما تفصح عنه قصيدة (دمعة) للشاعر إبراهيم هاشم فلالى وهى أشبه بقصة موضوعها الألم واعتمد فيها الشاعر على الحوار الأفلاطونى فآلامه متتابعة وهو فى صراع معها وهو

صابر بيد أن كفاحه لم يثمر فحاول أن يهرب من هذا الواقع المرير وتغرق آلامه في كأس تقدمها له ليلاه وهي فتاة مسلمة حكيمة جميلة تقدم له كأساً حلالاً وترى حبيبها كذلك فتقول له : أتيأس ؟ فأين الله والقدر ؟ أين إيمانك ؟ ثم تضرب الفتاة له الأمثال ولكن الشاعر يرفض ضرب الأمثال ويذكر أنه خبير بالبشر فهو متألم من تنعم الحمقى وشقوة العلماء إنه لثورة مكبوتة تحاول أن تنفجر ولكن فتاته تهون عليه الأمر وتكبر فيه النبوغ والعبقرية وتذكر له أن ما يعانيه من آلام إنما هو اختبار فليصبر فاستجاب لها وهكذا نرى أن ثورة الشاعر السعودى لا تنفجر لإيمانه واتزانه .

وفى (محاورة نفس) لمحمد حسن فقى صراع بين العاطفة والعقل وقد عبر الشاعر عن هذا الصراع بأسلوب الحوار الداخلى الذى أجراه بينه وبين نفسه ، وأمنية الشاعر أن يعرف الطريق إلى نفسه وهو يدعوها إلى واحد من اثنين إما أن تحب وترضى بحكم الحب وإما اليأس من الحب ، والشاعر يرى الوفاء للمحب فضيلة ولكن نفسه تدعوه إلى حب واقعى وإلى مغازلة المحبوب بالمثل . إن هذه القصيدة تمثل مرحلة من مراحل المعاناة عند الشاعر وهو شاعر فنان ومن ثم انتصر للنفس والقلب ولم ينتصر للعقل ويبدو أن الحوار الداخلى فى القصيدة سمة فنية لهذا الشاعر العظيم فضلا عن النفس الشعرى الطويل فهو فى قصيدة (فراق) يطالعنا بحوار جديد عن الفراق وفلسفته بعد أن أمتعنا بمحاورة نفس فالشاعر يذكر ألم الفراق ويتمنى ألا تطول أيامه .

وفى هذا الجو الحالم تتدافع الذكريات فيذكر أحلاها إنها ذكريات الطفولة البريئة ولكن ذلك لن يمحو الفراق ولن يؤجله . كان موقف مشحون بالعواطف والانفعالات إنه موقف الوداع . وكان للشاعر مع صاحبه حديث حول فلسفة الفراق والحب والحياة رأى صاحبه أن البين يذكى الفراق أما هو فإنه لا يرضى إلا بالواقع ولا يتعلق بالسراب فليس صوفى الهوى فيقول له صاحبه : إن الحياة حرب وسلام وسعادة وشقاء وربما كانت للدنيا فى ذلك . وهذه النظرة لاحظناها عند الشاعر فى قصيدة (محاورة نفس) وذلك يدل على أنه اتخذها مذهبا بل ربما كان الأمر أعم من ذلك وأشمل

فالأدب السعودى تنازعه اتجاهان فلسفيان ارتبط أحدهما بالواقع وبالأرض وارتبط ثانيهما بعالم المثل أما المذهب الواقعى فقد شاهدنا نماذج كثيرة له من قبل وأما عالم المثل فيبلنو لدى شاعرين محمود عارف فى قصيدة (من الأعماق) وعبد القدوس الأنصارى فى بداية حياته الفنية فى (شاعر يهبط إلى وادى الحياة) أما محمود عارف فى لحظة استغراق شاهد لونين من الصور الأولى هذه الصور التى التقطها من الواقع والثانية صور المنى أو عالم المثل . قد وجد الشاعر البون شاسعا بين الواقع والمثال . إن الشاعر ينشد السعادة وقد بحث عنها فى دنيا الناس فلم يجدها فليبحث عنها فى روض المنى وعالم الأحلام والمثل إنه يرضى من السعادة بالقليل لأن السعادة هى التى تفجر ينابيع العطاء فى الإنسان أما الشقاء فيغفى على هذه الينابيع .

أما الأنصارى فقد كان فى برجه العاجى وفى أوج سماه ينظر إلى وادى الحياة ويثنى أجنحة الفكر لكي يهبط الوادى ويعيش فيه ويصيد الأنس وينعم بالحب فى سمو وعفاف ويجيل الطرف فى وادى الحياة لعله يرى ما يسر العين من حياة غضة هانئة لقد ظن الشاعر أن الحياة سلماً يرقى به إلى السعادة وجنة ليس فيها شكاة ولكن بداله أن هذه أوهام شاعر وأن الحياة ملأى بالأذاة فقرر العودة إلى برجه العاجى بعدما استيأس من سعد رجاه ورضى من الغنيمة بالإياب وخشى أن يمتد إليه أذى البشر فيتبعه لهيب النار ويغزو حماه .

والجدير بالذكر أن الشاعر المصرى على محمود طه كان ماثلا نصب عينى الأنصارى وغيره من شعراء السعودية .

وفى نهاية بحثنا هذا نلتقى بفن السيرة فى الأدب السعودى ومعلوم أن هذا الفن عملية تحليلية لشخصية عظيم من العظماء بحثا عن القيم الإنسانية عنده وهو يتحرك مع الحياة والناس . وفن السيرة يجمع بين عمل المؤرخ وعمل المصور الفنان حتى يستطيع أن يقدم عملا أدبيا .

ورائد هذا الفن فى الأدب السعودى هو الأستاذ عبد القدوس الأنصارى فقد كتب تراجم صحفية قصيرة كما كتب سيرته الذاتية وأحسبه قد تأثر بابن خلدون فى كتابة سيرته الذاتية . وفى حديث الأستاذ الأنصارى عن

(حياة الفتح بن النحاس وشعره) خطة دراسية تناولت عصر الشاعر وبيئته والعوامل الخاصة التي جعلت من الفتح شاعراً خالداً وهي أول دراسة في المكتبة الحجازية الحديثة لباحث معتدل منصف همه إقرار الحق دون الإصغاء إلى الخيالات المستمدة من التفكير القاصر .

أما ترجمة الأستاذ الأنصاري للسيد محمد المرزوقي فقد أراد الكاتب أن يعطيها ثوباً قديما فوضعها تحت عنوان (وفيات الأعيان) وابتدأ بالحديث عن وفاة المترجم له وذكر نسبه وبيئته وأنه نشأ في أسرة علمية وتحدث عن مولده وفرح والده به ومشاركة الشعراء للوالد فرحته بقصائد أرخوا فيها ميلاد الابن على النمط الذي كان سائداً في جيله وتحدث عن نشأته وتعليمه مشيراً إلى نظام التعليم في عصر المترجم له والوظائف التي تولاها وختم الترجمة بالحديث عن ملامحه وأخلاقه لقد سرد حياة المرزوقي وهذا المنهج لا يمكن أن يخلق التعاطف بين القارىء والشخص المترجم له ذلك التعاطف الذي لا بد منه كي تؤدي الترجمة مهمتها وتثبت قيمتها . وقد نسج الأنصاري على نفس المنوال في ترجمته للشيخ محمد بن مانع وإن كانت ترجمة ابن مانع لا ترقى لمستوى الترجمات الأدبية فقد ركزت وفي عناوين جانبية على النواحي التاريخية لحياة المترجم له وذكرت نبوغه وتطلعه وطموحه وأكبر الظن أن الأنصاري لم تكن لديه خطة محددة لهذه الترجمة . وعلى كل حال فإن ترجمات الأنصاري تقوم على عنصرين :

١ — رسم صورة للمترجم له .

٢ — حياته وبيئته .

وقد ترجم الأنصاري للشيخ محمد العمري ترجمة أدبية تحدث فيها عن الأبعاد السياسية والنفسية والاجتماعية والشكلية الجسدية للمترجم له ولم ينس بيئته وأدبه وبدأ الترجمة بالأحداث الجسام التي كان لها تأثير في شاعرية الرجل ومجرى حياته ولعل هذه الترجمة أفضل تراجم الأنصاري الغيرية .

فإذا تركنا الأستاذ الأنصاري والتقينا بغيره من مفكري السعودية وأدبائها

فإننا نلتقى فيمن نلتقى بهم بالأستاذ أحمد عبد الغفور عطار فى سيرة (صقر الجزيرة) الملك عبد العزيز وأسلوب الكتاب علمى متأدب يعرض تاريخ الجزيرة وصقرها فى عهد اليقظة العربية فهو كتاب تاريخ بالدرجة الأولى قبل أن يكون ترجمة حياة .

أما ترجمة (تقى الدين الفاسى) للأستاذ حمد الجاسر فقد عول الجاسر فيها على ما ذكره تقى الدين عن نفسه فى كتابه (العقد الثمين) مع زيادة بعض إيضاحات وبدأ بذكر مولد المترجم له ونشأته ورحلاته ، ومشايخه وتلاميذه والأعمال التى تولاها .

لقد ارتبط الأستاذ الجاسر ارتباطاً حرفيا بما قاله المترجم له عن نفسه وكنا نود لو أن الجاسر استقى مادته العلمية من كتاب (العقد الثمين) وغيره ثم عرضه بأسلوب حديث . ولقد ترجم تقى الدين الفاسى لنفسه كما ترجم أستاذه ابن خلدون لنفسه وهذه ظاهرة فنية كان ينبغى أن يشير إليها الأستاذ الجاسر لأنها تبشر بميلاد الترجمة الذاتية فى الأدب العربى ..

وحين يكتب الأستاذ محمد على مغربى عن أستاذه فى المدرسة (محمد جميل حسن) يركز حول شخصية الأستاذ ورسالة المعلم ونجاح الأستاذ فى دروسه برغم جفاف بعضها وضربه القدوة الحسنة لتلاميذه وفهمه لأصول التربية ونظم التعليم .

وفى ترجمة الأستاذ عبد الله عريف تقرأ تحليلا لشخصية (محمد سرور الصبان) وأثره فى الحركة الأدبية بل تقرأ تاريخ الصحوة الذهنية فى الحجاز وقد التزم فيها منهج التحليل والتعليل فأصدر أحكامه عن تفكير صحيح .

الفهـــــرس

رقم الإيداع ٨٦/٣٥٥٤
مطبعة نهضة مصر
مفجالة — القاهرة